



جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

ولاية مكة المكرمة في العصر الأموي

(الدور المرواني ٦٤ - ١٣٢ هـ / ٦٨٤ - ٧٤٩ م)

أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في الآداب

قسم التاريخ

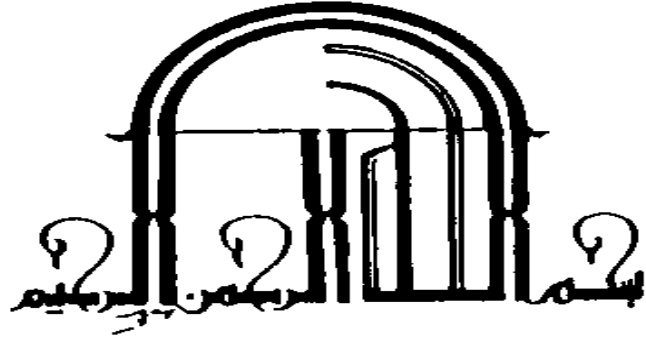
إشراف الأستاذة الدكتورة:

شكران خربوطلي

إعداد الطالب:

بلال حسين الحاج علي

دمشق ١٤٣٥ هـ / ٢٠١٤ م



إهداء

إلى خير أبناء مكة المكرمة

﴿محمد رسول الله ﷺ﴾

حبا وكرامة

إلى أحب بلاد الله إلى الله

﴿مكة المكرمة﴾

شوقا وإيمانا

بالله

﴿بطاقة شكر﴾

إنه لي شرفني أن أقدم بوافر الشكر وعظيم الامتنان إلى كل من ساعدني على إنجازه هذا البحث، وعلى رأسهم أستاذتي المشرفة الدكتور شكريان خربوطلي حفظها الله، والتي وجدت منها كل عون ومساعدة، وكان لتوجيهاتها الكريمة الأثر الكبير في إنجازه هذا البحث، وإخراجه بهذه الصورة.

كما لا يفوتني أن أقدم بالشكر الجزيل لأعضاء لجنة الحكم الأساتذة الدكتور على قبولهم مناقشة أطروحتي، فنلت الشرف بذلك، فلهم مني خالص المودة والتقدير، وأسأل الله أن يتفعا بعلمهم.

وأختتم بطاقة شكري بتقديري الكبير لجميع الزملاء والزميلات في الدراسة والعمل، على ما بذلوه من جهد، وقدموه لي من خدمة علمية أو معنوية، فجزاهم الله عني أحسن الجزاء. والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

بإذن

﴿ المحتويات ﴾

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٢
بطاقة شكر	٣
المحتويات	٤
المدخل	١١
دراسة لأهم المصادر والمراجع	١٨

الفصل الأول

ولاية مكة المكرمة قبل الدور المرواني

(٣٠-٨٢)

مقدمة	٣١
جغرافية مكة المكرمة	٣٢
أولاً: أوضاع مكة المكرمة في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم	٤٠
● الوضع الإداري	٤٠
١- في عهد رسول الله ﷺ	٤٠
٢- في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم	٤٢
٣- مهام الولاية	٤٧
● الوضع الديني	٤٨
● الوضع العمراني	٥٠
١- في عهد رسول الله ﷺ	٥٠
٢- في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم	٥٠
● الوضع الاجتماعي	٥٤
● الوضع الاقتصادي	٥٧
● الوضع الثقافي	٦٢

٦٧	 ثانياً: مكة المكرمة في الدور السفلياني
٦٧	 • الوضع الإداري
٧١	 • الوضع العمراني
٧٦	 • الوضع الديني
٨٠	 • الوضع الاجتماعي
٨١	 • الوضع الاقتصادي
٨٢	 • الوضع الثقافي

الفصل الثاني

الوضع السياسي في ولاية مكة المكرمة في الدور المرواني

(٨٣-١٣٦)

٨٤	 أولاً: انتقال الخلافة من الدور السفلياني إلى الدور المرواني
٩٣	 ثانياً: جدول التعريف بخلفاء الدور المرواني
٩٤	 ثالثاً: دولة عبد الله بن الزبير في مكة المكرمة (٦٤ - ٧٣ هـ / ٦٨٣ - ٦٩٢ م) ...
٩٤	 ١- اسمه ونسبه
٩٥	 ٢- موقف عبد الله بن الزبير من بيعته يزيد
١٠٣	 ٣- الحصار الأموي الأول وحرقت الكعبة
١٠٦	 ٤- وفاة يزيد وإعلان ابن الزبير نفسه خليفة
١١١	 ٥- موقف ابن الزبير من الخوارج
١١٣	 ٦- موقف ابن الزبير من المختار بن أبي عبيد الثقفي
١١٧	 ٧- موقف ابن الزبير من محمد بن الحنفية
١٢١	 ٨- الحصار الأموي الثاني ونهاية دولة ابن الزبير
١٣٠	 ٩- نظرة في أسباب انهيار حكم ابن الزبير في مكة

الفصل الثالث

الوضع الإداري في ولاية مكة المكرمة في الدور المرواني

(١٣٧-١٥٥)

١٣٨	مقدمة
١٣٩	أولاً: جداول ولاية مكة المكرمة
١٣٩	١- في عهد عبد الله بن الزبير
١٤٠	٢- في عهد عبد الملك بن مروان
١٤٢	٣- في عهد الوليد بن عبد الملك
١٤٣	٤- في عهد سليمان بن عبد الملك
١٤٤	٥- في عهد عمر بن عبد العزيز
١٤٥	٦- في عهد يزيد بن عبد الملك
١٤٦	٧- في عهد هشام بن عبد الملك
١٤٧	٨- في عهد الوليد بن يزيد
١٤٧	٩- في عهد يزيد بن الوليد
١٤٧	١٠- في عهد إبراهيم بن الوليد
١٤٨	١١- في عهد مروان بن محمد
١٤٩	ثانياً: أسس اختيار الولاة
١٥٠	ثالثاً: أعمال الولاة

الفصل الرابع

الوضع الاجتماعي في ولاية مكة المكرمة في الدور المرواني

(١٩٣-١٥٦)

١٥٧	مقدمة
١٥٩	أولاً: عناصر المجتمع في ولاية مكة المكرمة
١٥٩	(١) القبائل العربية
١٥٩	أ- سكان المدن والحوضر (مكة والطائف)
١٦٢	ب- سكان البوادي (البدو الرحل)
١٦٤	(٢) الموالي والرقيق والجواري
١٧٠	(٣) أهل الذمة (غير المسلمين)
١٧١	(٤) أصحاب اللهو والغناء

١٧٤	١. ابن مسجح (ت ٨٥هـ / ٧٠٤م).....
١٧٥	٢. الغريص (ت ٩٥هـ / ٧١٤م).....
١٧٨	٣. ابن سريج (ت ٩٨هـ / ٧١٦م).....
١٨١	٤. الأبيجر.....
١٨٢	٥. الهذلي (ت ١١٠هـ / ٨٢٧م).....
١٨٣	٦. ابن محرز (ت ١٤٠هـ / ٨٥٧م).....
١٨٤	٧. ابن مشعب وعمر الوادي.....
١٨٤	٨. المغنيات في مكة.....
١٨٥	ثانياً: العادات والتقاليد.....
١٩٢	ثالثاً: الهجرة من وإلى مكة المكرمة.....

الفصل الخامس

الوضع الاقتصادي في ولاية مكة المكرمة في الدور المرواني

(١٩٤-٢٢٥)

١٩٥	أولاً: الزراعة في ولاية مكة المكرمة.....
١٩٥	١- الزراعة في الطائف.....
١٩٩	ثانياً: الصناعة في ولاية مكة المكرمة.....
٢٠٢	ثالثاً: التجارة في ولاية مكة المكرمة.....
٢٠٥	أ- الأسواق في ولاية مكة المكرمة.....
٢٠٥	١- سوق عُكاظ.....
٢٠٨	٢- سوق المجنة.....
٢٠٨	٣- سوق ذي المجاز.....
٢٠٩	٤- سوق حُباشة.....
٢١١	ب- السكة العربية الإسلامية (النقد العربي).....
٢١٩	رابعاً: موارد مالية أخرى.....
٢١٩	أ- تأجير وبيع البيوت في مكة المكرمة.....
٢٢١	ب- الزكاة والغنائم.....

- ج- العطاء..... ٢٢٢
خامساً: أثر الحصار الاقتصادي في سقوط خلافة ابن الزبير..... ٢٢٤

الفصل السادس

الوضع الديني في ولاية مكة المكرمة في الدور المرواني

(٢٢٦-٢٤٦)

- أولاً: التنظيم الديني لدى الأمويين..... ٢٢٧
ثانياً: موسم الحج..... ٢٢٧
ثالثاً: الشروط الواجب توافرها في أمير الحج..... ٢٢٨
رابعاً: أمراء مواسم الحج..... ٢٢٩

الفصل السابع

الوضع العمراني في ولاية مكة المكرمة في الدور المرواني

(٢٤٧-٢٦٨)

- مقدمة..... ٢٤٨
أولاً: هدم وبناء الكعبة المشرفة..... ٢٤٨
ثانياً: التوسعة والإصلاحات في المسجد الحرام..... ٢٥٨
ثالثاً: الجهود والإصلاحات تجاه السيول في مكة المكرمة..... ٢٦١
رابعاً: الإصلاحات في الطرقات والسكك..... ٢٦٣
خامساً: الجهود العمرانية في جر المياه وإقامة السدود..... ٢٦٥

الفصل الثامن

الوضع العلمي والثقافي في ولاية مكة المكرمة

(٢٦٩-٣٣٦)

أولاً: الوضع العلمي والتعليمي الفقهي في ولاية مكة المكرمة

(٢٧١-٣٠٥)

- مقدمة..... ٢٧١
أ- مدرسة مكة المكرمة..... ٢٧١

٢٧٥	ب- فقهاء مكة المكرمة.....
٢٧٥	(١) عبد الله بن عباس رضي الله عنه (ت ٦٨ هـ/٦٨٧ م).....
٢٧٨	(٢) سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ/٧١٤ م).....
٢٨٠	(٣) مجاهد بن جبر (ت ١٠٤ هـ/٧٢٢ م).....
٢٨١	(٤) عكرمة مولى ابن عباس (ت ١٠٧ هـ/٧٢٥ م).....
٢٨٣	(٥) عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤ هـ/٧٣٢ م, وقيل عام ١١٥ هـ/٧٣٣ م).....
٢٨٦	(٦) عبد الله بن أبي مليكة (ت ١١٧ هـ/٧٣٥ م).....
٢٨٧	(٧) عمرو بن دينار (ت ١٢٦ هـ/٧٤٣ م).....
٢٩٠	(٨) محمد بن مسلم تدرّس (ت ١٢٦ هـ/٧٤٣ م وقيل عام ١٢٨ هـ/٧٤٥ م)....
٢٩١	(٩) ابن أبي نجيح (ت ١٣١ هـ/٧٤٩ م وقيل عام ١٣٢ هـ/٧٥٠ م).....
٢٩٢	(١٠) ابن جريج (ت ١٥٠ هـ/٧٦٨ م).....
٢٩٤	(١١) سفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ/٨١٤ م).....
٢٩٦	ج- أثر الحج في تطور الوضع العلمي والتعليمي في مكة المكرمة
٢٩٦	(١) أثر الفقهاء أثناء تأدية فريضة الحج.....
٣٠١	(٢) أثر مجالس الذكر والوعظ.....
٣٠٣	(٣) أثر مجالس القصاص

ثانياً: الوضع الثقافي والأدبي في ولاية مكة المكرمة

(٣٠٦-٣٣٦)

٣٠٨	● مقدمة.....
٣٠٩	● الشعر السياسي.....
٣١٠	أ - شعراء حزب الأمويين السياسي.....
٣١٠	١. عبد الله بن الزبير الأسدي (ت ٧٥ هـ/٦٩٥ م).....
٣١٢	٢. الحارث بن خالد المخزومي (ت ٨٠ هـ/٧٠٠ م).....
٣١٢	٣. أبو صخر الهذلي (ت ٨٠ هـ/٧٠٠ م).....
٣١٣	٤. الراعي النميري (ت ٩٠ هـ/٧٠٩ م).....
٣١٤	٥. الأخطل (ت ٩٠ هـ/٧٠٨ م).....

٦ . عدي بن الرقاع (ت ٩٥هـ / ٧١٤م)	٣١٥
٧ . أعشى بني ربيعة (ت ١٠٠هـ / ٧١٨م)	٣١٦
٨ . كثير بن عبد الرحمن (ت ١٠٥هـ / ٧٢٣م)	٣١٧
٩ . جرير (ت ١١٠هـ / ٧٢٨م)	٣١٩
١٠ . الفرزدق (ت ١١٠هـ / ٧٢٨م)	٣٢٠
١١ . يزيد بن ضبة (ت ١٣٠هـ / ٧٤٧م)	٣٢٣
١٢ . السائب بن فروخ (ت ١٤٠هـ / ٧٥٧م)	٣٢٣
١٣ . شعراء آخرون	٣٢٤
ب - شعراء حزب الزبيريين السياسي	٣٢٦
١ . أبو دهبيل الجمحي (ت ٦٣هـ / ٦٨٢م)	٣٢٦
٢ . عبيد الله بن قيس الرقيات (ت ٨٥هـ / ٧٠٤م)	٣٢٨
• الشعر الغزلي	٣٣٢
١ . النميري (ت ٩٠هـ / ٨٠٧م)	٣٣٢
٢ . عمر بن أبي ربيعة (ت ٩٣هـ / ٧١٢م)	٣٣٢
٣ . العرجي (ت ١٢٠هـ / ٧٣٨م)	٣٣٤
• خاتمة البحث	٣٣٧
• قائمة المصادر والمراجع العربية والمعرّبة والمراجع الأجنبية	٣٤٢
١ . المصادر العربية	٣٤٢
٢ . المراجع العربية والمعرّبة	٣٥٣
٣ . المراجع الأجنبية	٣٦٠
• ملاحق البحث	٣٦١
• ملخص البحث باللغة الإنكليزية	٣٧٧

• المدخل:

لما كان التاريخ يرضي رغبة عميقة داخل الإنسان لمعرفة جذوره, فقد وجه العرب اهتماماً فائقاً لهذا العلم وكثفوا جهودهم للكتابة فيه, فلطالما أولعوا بالحديث عن الأجداد وتفاخروا بالأنساب. ومع قدوم الإسلام احتاج العرب المسلمون إلى معرفة تفاصيل ما تضمنه القرآن الكريم, من إشارات تاريخية إلى الأمم الغابرة, وإلى الأحداث في عهود الحقب الإسلامية المتتالية.

هذه الدراسة عاجلت جملة من الموضوعات المهمة ذات الصلة بالتراث العربي الإسلامي, بأسلوب موجز دون إسهاب, مع محاولة إتباع نهجٍ يجمع بين السرد والتحليل والتركيب على نحو علمي هادف. وتناولت الدراسة ولاية مكة المكرمة, بأوضاعها جميعاً؛ السياسية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والعمرانية والثقافية, في الحقبة الممتدة من بداية الدور المرواني من العصر الأموي وحتى سقوط الخلافة الأموية, وكانت الغاية من هذه الدراسة الشاملة, نابعة من الاعتقاد بأنه لم يعد التاريخ هو الماضي السياسي فحسب, بل إنه الماضي الاقتصادي, والاجتماعي, والديني, والحضاري أيضاً, إنه بكل إيجاز ماضي كل شيء.

من هذا المنطلق وقع الاختيار على هذا البحث, ففي الوقت الذي انصرف فيه اهتمام معظم مؤرخي وباحثي الحضارة الإسلامية لدراسة تاريخ مصر والشام والعراق وفارس والمغرب والأندلس, غاب عن الأذهان -بقصد أو بدون قصد- التطرق لدراسة أوضاع مكة المكرمة في العصر الأموي, بعد أن غادرتها الأضواء إثر انتقال الثقل السياسي والعاصمة منها إلى الأمصار الإسلامية الأخرى ولا سيما دمشق, فلم يعد من ذكر لمكة إلا من خلال الحديث عن مواسم الحج بشكل رئيسي, أما النواحي الأخرى فلم تُعطَ حقها من الدراسة. والحق يقال إن دراسات عدة حظيت بها ولاية مكة المكرمة, إلا أنها لا تفني بالعرض والدور الذي قامت به, وشغلته في التاريخ الأموي خاصة والإسلامي عامة, ذلك الدور الذي خدمت به الإسلام والمسلمين خدمات جليلة.

وتجدر الإشارة إلى مواجهة صعوبات كثيرة أثناء إعداد البحث توزعت على جوانب عدة, وبفضل الله تعالى أولاً, ثم بتوجيه من الأستاذة المشرفة ثانياً, تم التغلب عليها وتذليلها. ومن هذه الصعوبات ندرة المصادر والمراجع التي تتحدث عن بعض النقاط في هذه الحقبة بالذات, وإن

تحدثت؛ فالمادة موزعة هنا وهناك بين دفتي المصدر أو المرجع، ولعل الأمر الأشد وطأة على أي باحث معرفته بوجود عنوان لكتاب مهم عربي أو معرب أو أجنبي، أو حتى ديوان شعر يفيد البحث في كل فصوله أو بعضها، وعدم استطاعته العثور عليه أو الوصول إليه، لسبب أو لآخر، أضف إلى ذلك تناقض الروايات وتعددتها حول حادثة من الحوادث الواردة في البحث، ولا سيما في الفصل الإداري أو الديني، فمن المعروف لدارسي التاريخ أن المؤرخين ولا سيما المسلمين منهم، كانوا يرون أنهم برئوا من المسؤولية حين ألقوا تبعية هذه الروايات على رواتها، فكانوا يكتفون بإيرادها مسندة ظناً منهم -والله أعلم- أنهم بصنيعهم هذا قد نفضوا أيديهم مما علق بهذه الروايات من خرافة أو ما شأها من وضع وانتحال، ولعل هذا الأمر هو الذي دفع البحث إلى المزيد من التدقيق والتمحيص والمقارنة لترجيح رواية على أخرى، ومن ثم تبنيها في البحث، وفي بعض الأحيان التي كان يتعذر فيها الترجيح، يتم إيراد أكثر من رواية؛ لأنها كلها قابلة للتحقق وذات منطقية وواقعية. ولا يفوت البحث أن يذكر ورود بعض الآراء الشخصية، كطريقة في محاولة إيجاد الجواب، والتغلب على المشكلة، حيث يتم فيها التعليق على بعض نقاط البحث، وكانت هذه الآراء مبنية على معطيات ما قبل الحادثة ونتائج ما بعدها.

وخلال الحديث عن بعض النقاط لمس البحث صعوبة، لعل سببها تفرق المادة العلمية وتناثرها بين ثنايا الكتب، ولعل الأشد وطأة من ذلك؛ الشح والندرة في المعلومات وعدم توفر أي شيء محدد من الأخبار، فأصبح البعيد مع الأبعد قريب، إلا أنه -والحال هكذا- لم يسوغ تعليق الحكم، أو الإسراف في التفسير، مع الخشية في أثناء كتابة البحث الخروج عن الموضوع والإسهاب في التعليق، لذلك فقد تمت محاولة تجنب الاستطراد أو كل ما ليس له علاقة بالبحث، أو ما قد يخرج عن نطاقه العام، مثلاً وردت في البحث أسماء العديد من الشخصيات، والتي لم تُوجد حاجة ملحة للوقوف عندها، كون ترجمتها غير مجدية، ولا تؤثر على سلامة البحث بشكل عام، وإن كان من الضروري ذكر بعض المعلومات التوضيحية مثل المخططات والمصورات وما إلى ذلك -وخشية من الملل- فقد أوردتها البحث في القسم المخصص للملاحق في نهايته.

وبعد... فإنه لا يمكن نكران القلق الذي كان يسيطر على الباحث في لحظات عديدة من كتابة البحث؛ نتيجة صعوبة من الصعوبات السالفة، إلا أن التصميم على بلوغ المرام كان أقوى من

كل الصعوبات مجتمعة، وأنه لا مفر من الصعوبات لكل من سلك طريق العلم قديماً أو حديثاً، ومثل الحديث الشريف: "من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة"، العزاء والحافز للباحث على الاستمرار.

لقد توزع البحث بين ثمانية فصول، تحدث الفصل الأول منه عن ولاية مكة المكرمة قبل الدور المرواني، فبدأ بذكر جغرافية ولاية مكة وما دار بمحورها، كمدخل مهم للبحث، فلفهم تاريخ أمة من الأمم في حقبة من الحقب، لا بدّ من فهم بيئتها الطبيعية؛ حيث إن البيئة من الأسس المهمة في تكوينها، فهي تؤثر في طباع السكان ونشاطهم وتكوين أجسامهم وتوجيه فعاليتهم. ثم تطرق إلى أوضاع ولاية مكة بشكل عام في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ثم العصر الأموي بدوره السفيفاني، ولعل الغاية من الأمر كونها تشكل وتمثل -بحسب رأي البحث- اللبنة الأولى والأساس للبحث في الدور المرواني.

أما الفصل الثاني فقد دخل في صلب البحث عندما تحدث عن الوضع السياسي لولاية مكة المكرمة في الدور المرواني، وتم تقسيمه فعلياً إلى قسمين أساسيين، تحدث الأول منهما عن كيفية انتقال الحكم من الدور السفيفاني إلى الدور المرواني، وأفرد جدولاً توضيحياً للتعريف بخلفاء الدور المرواني، والتي لم يجد البحث من مناص في ذكره، ولو بلمحة خاطفة لإفادة البحث. أما القسم الثاني فشمل الحديث فيه أهم نقاط البحث على الإطلاق، ألا وهو الحديث عن دولة عبد الله بن الزبير في مكة، والتي سلبت الأمويين حكم مكة قرابة عقد من الزمن، فبدأ الحديث بالتعريف بابن الزبير، ثم تطرق البحث للحديث عن موقف ابن الزبير من مبايعة يزيد بن معاوية، وما تلاها من الحصار الأموي الأول ووفاة يزيد، وإعلان ابن الزبير نفسه خليفة، بعد أن نجح في التخلص من منافسه الحسين بن علي في مكة، إثر توجهه إلى العراق ومقتله هناك، وأثناء ذلك الحصار كان ثمة مواقف ولحظات مؤثرة ومصيرية في حياة ابن الزبير، فأشار البحث إلى موقفه مع كل من الخوارج، والمختار بن أبي عبيد الثقفي، ومحمد بن الحنفية، وأنهى هذا القسم نفسه بالحديث عن الحصار الأموي الثاني، والذي كان فيه قاصمة الظهر لابن الزبير ودولته الوليدة.

وتركز الحديث أيضاً -في الفصل الثالث- على الوضع الإداري في ولاية مكة المكرمة، فتناول ولاية مكة في كل عهد من عهود الخلفاء على حده، ابتداءً من ولاية مكة في عهد ابن الزبير، والذي

عدّه البحث, من ضمن تاريخ الدور المرواني على مكة, كون دولته تزامنت مع قيام الدور المرواني, واستمرت معه حتى سقوطها, واتضح للبحث خلال ذلك أن ولاية مكة كانت تتمدد وتتقلص تبعاً للخليفة أو الحقبة الزمنية, فتارة تتبع لمكة الطائف وجدة مستقلة عن المدينة, وتارة تتبع مكة والطائف لسلطان والي المدينة, والذي يكتفي بتعيين نائباً له في مكة أو الطائف, وتنتهي الحديث عند الولاة في عهد مروان ابن محمد آخر الخلفاء, وبعد ذلك تطرق البحث لمسألة غاية في الأهمية, ألا وهي الأسس التي اعتمد عليها الأمويون في اختيار الولاة, ونبذة من أعمالهم, والتي سيعزز البحث الحديث عنها في الوضع العمراني.

كما تناول البحث أيضاً- في الفصل الرابع- الوضع الاجتماعي في ولاية مكة المكرمة, فبدأ بالحديث عن مجمل العوامل المؤثرة في الوضع الاجتماعي عموماً, ومكة على وجه الخصوص, ثم تناول عناصر المجتمع في ولاية مكة المكرمة, فقسمها إلى القبائل العربية أولاً, والموالي والرفيق والجواري ثانياً, وأهل الذمة ثالثاً, وأصحاب اللهو والغناء رابعاً. وفصل البحث في الحديث عن القبائل العربية مقسماً إياها إلى قبائل قطنت المدن والحوضر ولا سيما مكة والطائف, وقبائل قطنت البوادي وتنقلت بين أرجائها, وهم ما عرفوا بالبدو الرّحل, وسادت بين الطرفين علاقة تكاملية, وعلى الأصعدة كافة وخاصة الاقتصادية, أما فيما يتعلق بقبائل مكة والطائف, فقد برزت قريش في الأولى, وثقيف في الثانية, وأجمل البحث في الحديث عن أصولهما ونسبهما, مكتفياً بإيراد معلومات موجزة أفادته في هذا الوضع, لقد مثلت القبائل العربية عموماً طبقة الأحرار, التي لا تخضع إلا لإدارة رئيسها وشيخ القبيلة, أما الموالي والرفيق والجواري وما لف لفهم, فقد مثلوا طبقة غير الأحرار, التابعة والأسيرة لرغبات الأحرار, مع العلم أنه من الممكن أن يتحرر الموالي ويصبح أمرهم بيدهم, إلا أن الصبغة الاجتماعية العامة, والنظرة السائدة تجاههم, ركزت على أنهم غير أحرار, فهم رهائن غيرهم, ومملوكين للأشراف والأغنياء, يبيعونهم ويشترونهم مثل أي سلعة أخرى. إلا أن ثمة دوراً قامت به هذه الطبقة, حيث أيدت ابن الزبير في دعوته ضد الأمويين, وكانوا مسرورين بقدم من يأتي ويخلصهم من الأمويين لأسباب عدة, ويبدو أن ابن الزبير لم يقدر هذا الأمر حق تقديره, فعاداهم بعد أن تصدوا معه للحصار الأموي الأول, وبخل عليهم بالعطاء بعد أن اعتقد أنه لم يعد بحاجة إليهم, ولعل ذلك كان له دور في سقوط دولته ومقتله في الحصار الأموي الثاني. وإلى جانب

ما سلف من الطبقات, فقد أورد البحث طبقة أهل الذمة, والتي تركزت بشكل رئيسي في مدينة الطائف, كما أورد أصحاب اللهو والغناء من قاطني مكة والطائف, والعوامل التي أسهمت في انتشاره في مكة على وجه الخصوص, وانتهى الفصل بالحديث عن العادات والتقاليد السائدة في مكة, وأسباب الهجرة منها وإليها.

وخصص البحث مكاناً - في الفصل الخامس - للحديث عن الوضع الاقتصادي في ولاية مكة, فتناول في البداية الحديث عن الزراعة في ولاية مكة, والذي يبدو مستغرباً في ذلك المكان تحديداً, إلا أن الطائف كانت المعنية بهذا الحديث بشكل رئيسي, وتابعت الطائف تفوقها في ميدان الصناعة بمختلف أنواعها أيضاً, كما حاولت ضمان ذلك التفوق في التجارة, إلا أنها أخفقت في ذلك, أمام قوة مكة التجارية التي لا تُضاهى, فما كان من الطائف إلا الانتقال من مرحلة المنافسة بل والاصطدام مع مكة تجارياً, إلى مرحلة التبعية الكاملة والمطلقة لها. ولعل مما ساعد التفوق التجاري المكي بالإضافة إلى الموقع المتميز لمكة ومواسم الحج, وجود ميناء جدة؛ ميناء الواجهة البحرية لولاية مكة المكرمة بشكل عام, والذي تدخل منه البضاعة من البحر إلى مكة, أضف إلى ذلك وجود الأسواق المتعددة وأشهرها سوق عُكاظ؛ والذي يعتقد البعض - خطأً - أن نشاطه كان مقتصرًا على مرحلة ما قبل الإسلام من جهة, والبيع والشراء من جهة أخرى, كما تم الحديث عن سوق المجنة وذو المجاز, وسوق حُباشة؛ والذي يعد آخر سوق اندثر في العصر الأموي.

كما تم التطرق إلى نشأة السكة العربية الإسلامية, بشكل موجز وفق تسلسل تاريخي, من عصر رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم, حتى نهاية العصر الأموي, وناقش البحث مسألة مهمة وهي: هل ضربت في ولاية مكة سكة إسلامية تتبع لابن الزبير أو للأمويين؟ وتعرض البحث لذكر الموارد المالية التي اعتمدت عليها ولاية مكة إلى جانب الزراعة والصناعة والتجارة, فكانت هناك الزكاة والغنائم والعطاء, إلى جانب مردود تأجير أو بيع البيوت في مكة, والذي أثارته مسألته العديد من الآراء والاجتهادات بين الفقهاء, والتي ذكرها البحث باقتضاب شديد.

وتعرض البحث - في الفصل السادس - إلى الوضع الديني في ولاية مكة, فبدأ بالحديث عن التنظيم الديني لدى الأمويين, وجهودهم في تأمين الأكفاء من الرجال لإمامة الصلاة, وجمع الزكاة, وإقامة مواسم الحج بالناس, وتم الحديث عن أمراء مواسم الحج في مكة, منذ بداية الدور المرواني أي

خلال وجود حكم ابن الزبير في مكة، وحتى نهاية الحقبة الأموية، كما تم ذكر الشروط والأسس التي استند عليها الأمويون في تعيين هذا الشخص أو ذاك أميراً على موسم الحج لعام من الأعوام، والتي تطابقت إلى حدٍ كبير مع شروط تعيين الولاة على مكة.

وتحدث البحث - في الفصل السابع- عن الوضع العمراني لولاية مكة، وجهود ابن الزبير والخلفاء الأمويين في التوسعة للمسجد الحرام، ومسألة هدم الكعبة وإعادة بنائها في عهد عبد الله ابن الزبير إثر إخفاق الحصار الأموي الأول، وما رافق ذلك من أقوال وآراء في هدمها أو ترميمها، مروراً بعبد الملك بن مروان، وختاماً بالوليد بن عبد الملك، وأفرد قسم للحديث عن إصلاحات وإجراءات الأمويين تجاه السيول الجارفة في مكة، وكذلك إصلاحاتهم في الطرقات والسكك، وجهودهم العمرانية في جر المياه سواء للشرب أو للري وإقامة السدود، ولا سيما في مدينة الطائف على يد الحجاج بن يوسف الثقفي.

كما تطرق البحث- في الفصل الثامن -للوضع العلمي والتعليمي الفقهي في قسم خاص، وللوضع الثقافي والأدبي في قسم خاص آخر، ففي ميدان الوضع العلمي والتعليمي ذكر البحث مدرسة مكة، وهي التي خرّجت العديد من الفقهاء، كما أورد البحث دراسة عن عدد من فقهاء مكة ممن أثروا في الوضع العلمي وأثروه، ولا سيما ابن عباس وعطاء بن أبي رباح وغيرهم الكثير. أضف إلى ذلك الحديث عن أثر موسم الحج في تطور هذا الوضع من خلال التعرض لأثر الفقهاء الوافدين إلى الحج من خارج مكة، وكذلك تم التعرض للحديث عن أثر مجالس الذكر والوعظ من جهة، وأثر مجالس القصاص من جهة أخرى، في دفع عملية تطوير الوضع العلمي والتعليمي الفقهي في مكة خلال تلك الحقبة.

وتم الحديث في القسم الثقافي والأدبي عن الشعر السياسي ورواده من كلا الحزبين السياسيين المتصارعين، شعراء حزب الأمويين السياسي، وشعراء الحزب الزبيري السياسي؛ الذي سرعان ما تلاشى إثر مقتل ابن الزبير، وسقوط دولته، فلم يجد رواده من مناص سوى الاعتذار، والعودة إلى الحضيض الأموي الجواد السخي. كما كان هناك وقفة مع الشعر الغزلي ورائديه في مكة، خلال تلك الحقبة. وفي النهاية وُضعت خاتمة مناسبة، حوت بين طياتها أهم النتائج التي توصل إليها البحث عامة.

لقد بُذلت لكتابة هذا البحث جهود، فإن تحققت الغاية فهو المراد، وإلا حسبي أنني حاولت جاهداً، ولا أستغني عن رأي أصحاب الرأي فيما يروونه من ملاحظات وتوجيهات؛ لا شك أنني سأستفيد منها، والله وحده الكامل، ورحم الله تعالى من قال: "لقد ألفت هذه الكتب ولم ألقها، ولا بد أن يوجد فيها الخطأ، فالله عَزَّوَجَلَّ أבי أن يكون كتاب صحيح غير كتابه"، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^١، وفي الختام أفضل الصلاة وأتم التسليم على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين.

• دراسة لأهم المصادر والمراجع:

اعتمد البحث على جملة من المصادر والمراجع، وجرى تقسيمها حسب موضوعاتها، وتناولت الدراسة التعريف الموجز بالكتاب ومؤلفه، ثم التطرق إلى ذكر جملة من المعلومات التي قدّمها المصدر أو المرجع للبحث:

أولاً: المصادر الدينية:

^١ سورة النساء: الآية ٨٢.

● **القرآن الكريم:** أرفع طبقات المصادر, وهو تنزيل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه, وفيه انعكست بعض مظاهر حياة العرب السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية وصلاتهم بالعالم الخارجي. وفيما يخص البحث, فقد ذكر آيات عدة عن مكة المكرمة, وموضوعات أخرى.

● **البخاري:** (الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي ت ٢٥٦هـ = ٨٧٠م) الإمام ولد في بخارى ونشأ يتيماً, قام برحلة طويلة في طلب العلم. وكان آية في الحفظ وسعة العلم والذكاء, صاحب كتاب **صحيح البخاري**, والذي يعد من أشهر كتب الحديث التي لا بد من الرجوع إليها لكل باحث في التاريخ الإسلامي, كونها تحوي معلومات مهمة عن جوانب عديدة من تاريخ العرب قبل الإسلام, وخصوصاً الحقبة المتصلة بقدوم الإسلام. أفاد البحث في الوضع الاجتماعي في عهد رسول الله ﷺ وثنائه على قريش وغيرها ممن يشكلون النسيج الاجتماعي القبلي في مكة, وفي السياق نفسه أورد للبحث موقف رسول الله ﷺ عند فتح مكة ممن كان يكتب الشعر وممن كن يتغنين بهجاءه في المجالس وعلى الملأ. وعند الحديث عن الوضع الاقتصادي لمكة في عصر رسول الله ﷺ فقد أورد البخاري حديثاً مهماً أكد فيه على استياء قريش من وقف اليمامة إرسال الحنطة إلى مكة. كما أورد بعض المهن التي كان يعمل بها أهل مكة في تلك الحقبة. وفي الفصل العمراني أورد حديث رسول الله ﷺ مع أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) حول رغبته صلى الله عليه وسلم في هدم الكعبة وتوسعتها, وكان هذا الحديث الأساس الذي اعتمد عليها ابن الزبير في هدم وتوسعة الكعبة.

● **مسلم:** (الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت ٢٦١هـ = ٨٧٥م) الإمام الحافظ الحجة, المصنف الشهير في الحديث وعلومه, ولد وتوفي بنيسابور وله كتاب **صحيح مسلم** والذي يعد أحد الصحيحين المعول عليهما في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم, وقد شرحه الكثيرون, والذي أفاد البحث في فصله الأول بذكره لحديث النساء الراغبات بالتعلم مع رسول الله ﷺ, كما أورد معلومات عن سوق عكاظ, وأبرز في الوضع العمراني الأحاديث التي اعتمد عليها ابن الزبير في هدم الكعبة بالكامل وتوسعتها.

ثانياً: المصادر التاريخية:

أ_ كتب في النسب:

دراسة الأنساب تعد من الاهتمامات الأساسية للعرب، ولقد حظي هذا الموضوع باهتمام كبير على مدار التاريخ، وأهم ما اعتمد عليه البحث من كتب النسب:

• **ابن الكلبي:** (أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي ت ٢٠٤هـ = ٨١٩م) وله كتاب **جمهرة النسب**، خدّم البحث عند حديثه عن ولاية مكة في عهد الخلفاء الراشدين عليهم السلام، وقدم معلومات مهمة عن نسب عبد الله بن الزبير. وفي الوضع الإداري أورد بعض المعلومات عن شخصيات حكمت مكة في عهد بعض الخلفاء المروانيين، أما الإفادة القصوى للبحث فقد كانت في الوضع الاجتماعي، حيث تحدث عن نسب قريش الظواهر تحديداً، وتفرد ببعض المعلومات المهمة عن نسب ثقيف، كما أورد معلومات عن شخصيات اجتماعية أثّرت في مكة في مجال الغناء أو الشعر.

• **الزيري:** (أبو عبد الله مصعب بن عبد الله ت ٢٣٦هـ = ٨٥١م) صاحب كتاب **نسب قريش** والذي أفاد البحث في عدة نقاط، حيث أشار إلى العلاقات الاجتماعية القائمة بين بطون قريش؛ ولا سيما بين بني هاشم وبني أمية، وتفرد ببعض المعلومات في هذا الشأن. كما أسهم بالتعريف عن خلفاء الدور المرواني مقدماً معلومات وفيرة عن هذه النقطة، كما قدم معلومات عن رغبة ابن الزبير برحيل الحسين عن مكة، والحملة الأموية الأولى للقضاء على ابن الزبير ومرورها بالمدينة، وتفرد بمعلومات مهمة في هذا الشأن. وبالانتقال إلى الفصل الوضع الإداري فقد أسهم بالحديث عن ولاية مكة في عهد ابن الزبير، ومعلومات عن مهام الولاية. وفي الوضع الاجتماعي أسهم في الحديث عن قبيلة قريش وسبب تقسيمها بين ظواهر وبطاح. وفي الوضع الديني أورد ذكراً لأسماء بعض أمراء مواسم الحج. وأورد في مواضع مختلفة تراجم لبعض الشخصيات التي أوردتها البحث.

• **البلاذري:** (أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ = ٨٩٢م) وله **أنساب الأشراف** أضخم موسوعة وصلت في أنساب قبائل مضر وأخبارها. وأراد بالأشراف من شرف بنفسه، ولو لم يكن آباؤه شرفاء. أسهم في تقديم معلومات مفصلة للبحث عن الآراء والأجواء التي سادت مؤتمر الجابية، وتفرد بذكر بعض الروايات في هذا الشأن، كما أورد أبياتاً من الشعر في موقعة مرج راهط، ونسب ابن الزبير وحصار الحجاج له. وفي الوضع الإداري تحدث عن ولاية مكة في عهد ابن الزبير والخلفاء الأمويين، وبعض أعمالهم، أما الوضع الاجتماعي فقد أمده بمعلومات مهمة عن قريش البطاح

وقريش الظواهر، وعن أصل قبيلة ثقيف، كما وأورد شعراً رائعاً انفرد به وضّح فيه عتب الموالي على ابن الزبير إثر تقصيره معهم. وفي الوضع الاقتصادي أفاد البحث بحديثه عن النقد المتداول في مكة قبل وبعد الإسلام وفي العهد الأموي بدوريه السفياي والمرواني. وفي الوضع العمراني تحدث عن هدم الكعبة وبنائها، وندم عبد الملك على نقض عمل ابن الزبير، كما أشار إلى بعض السيول وإجراءات الولاية تجاهها. وبالإضافة لما سلف استفاد البحث من كتابه **البلدان وفتوحها وأحكامها** في معظم فصوله الجغرافية والإدارية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية.

• **ابن حزم:** (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ت ٤٥٦هـ = ١٠٦٣م) كتابه **جمهرة أنساب العرب**، وهو من أوسع كتب النسب وأغناها وأدقها، أفاد البحث بترجمته لبعض الشخصيات التي اعتمد عليها رسول الله ﷺ في الإدارة ومن بعده الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ومن بعدهم يزيد بن معاوية. كما أورد بعض التفاصيل عن شخصيات حضرت مؤتمر الجابية ومعركة الربرة في بداية الدور المرواني، والحصار الاقتصادي لابن الزبير، وفي الوضع الإداري تحدث عن ولاية مروان بن محمد على مكة. أما الوضع الاجتماعي فقد أورد تفصيلاً عن نسب قريش وبطونها من ظواهر وبطاح، وكذلك الأمر عن نسب ثقيف وبني أمية.

ب_ (معارف تاريخية):

• **ابن خياط:** (خليفة بن خياط العصفري ت ٢٤٠هـ = ٨٥٤م) صاحب **تاريخ خليفة بن خياط** (رواية بقي بن مخلد) والذي انتهج فيه منهج الحوليات وساق أخبار كل سنة على حدة، وتبع ذلك ذكر من ولوا كل إقليم من أقاليم الدولة على عهده، وكذلك القضاء، والخطوة هذه من خلفية أصيلة لدراسة تاريخ الإدارة والقضاء في الدولة الإسلامية. وينفرد كتابه بالرواية عن أوثق الأئمة، وأحسنهم سمعة مبتعداً عن الضعفاء المتهمين. أفاد كتابه البحث بمعلوماته القيمة عن الوضع الإداري لمكة، وبعض المعلومات عن خلفاء الدور المرواني، والحديث عن دولة ابن الزبير ودعوته الناس لمبايعته، ولا سيما ابن الحنفية، كما أورد أحداث الحصار الأموي الثاني لابن الزبير، وكيف استبسل هذا الأخير وأصحابه في القتال، لينتهي الأمر بمقتله لاحقاً. كما أورد معلومات مسهبة عن ولاية مكة في الدور المرواني. وخدم البحث في الوضع الاجتماعي بذكره معلومات عن الأماكن التي تقطن بها بعض القبائل في ولاية مكة، واهتم بذكر أسماء أمراء مواسم الحج، وكان حريصاً على تتبع أسمائهم في كل

موسم، وتنفرد أحياناً بتسمية أمير الموسم لعام معين. وفي الوضع العمراني تحدث عن جهد ابن الزبير في بناء الكعبة.

أما كتابه **الطبقات** فقد اقتصرته إفادته على ذكر بعض المعلومات عن شخصيات فكرية، وانتهى المطاف بإفادته البحث في الحديث عن بعض الشخصيات الفقهية في ولاية مكة.

• **الأزرقى:** (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد ت ٢٥٠هـ = ٨٦٥م) أول من صنف في تاريخ مكة. ويعد كتابه **أخبار مكة وما جاء بها من الآثار** من الكتب التي جمعت بين السيرة من جهة، والتاريخ من جهة ثانية والخطط من جهة ثالثة. قدّم للبحث خدمة جلييلة جغرافياً وإدارياً واقتصادياً وعمرانياً وثقافياً في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، والعصر الأموي.

• **ابن بكار:** (أبو عبد الله الزبير بن بكار ت ٢٥٦هـ = ٨٧٠م) صاحب كتاب **الموفقيات**، الذي وبالرغم من أن البحث لم يتسنى له الرجوع إليه في مواضع كثيرة من البحث، إلا أن ثمة خدمات قدمها للبحث لعل أشهرها إسهابه في ذكر وصية أسماء ذات النطاقين لابنها عبد الله عندما اشتد عليه الحصار الأموي الثاني، كما أفاد البحث بالحديث عن بعض الولاة، وعن أمراء الحج، ومن شغل ذلك المنصب، وتنفرد بذكر معلومات مهمة عن بعض المغنين.

• **الفاكهي:** (أبو عبد الله محمد بن إسحاق ت ٢٧٢هـ = ٨٨٥م) وله **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**، تحدث عن جغرافية ولاية مكة، ومظاهرها الجغرافية المتعددة، وتنفرد بمعلومات مهمة في هذا الشأن، كما تحدث عن الوضع الإداري لمكة في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وتطرق كذلك إلى الوضع العمراني والوضع الاقتصادي، وأدلى بمعلومات غاية في الأهمية عن الوضع الاجتماعي لمكة في الحقبة نفسها، وبالانتقال إلى الدور السفلياني، فقد أفاد البحث بالحديث عن الوضعين الإداري والاجتماعي، وفي الوضع العمراني تناول جهود معاوية المميّزة في هذا المجال. وأورد معلومات عن بعض خلفاء الدور المرواني، وتطرق إلى ابن الزبير ودولته ومواقفه ممن حوله، وتنفرد ببعض المعلومات في هذا المجال لا سيما موقفه من الأعراب، وأورد شعراً في بعض الأحيان، كما ذكر مجريات الحصار الأموي الأول وما يتعلق به، والحصار الثاني ونتائجه. وفي الوضع الإداري تفرد بذكر شخصيات تولت هذا المنصب، كما ذكر أعمالاً لبعض الولاة، وانتقدتهم في صورة أبيات من الشعر. وفي الوضع الاجتماعي قدّم معلومات عن عادات اتصف بها المجتمع المكي، وفي الوضع

الاقتصادي تحدث عن الزراعة بشقيها النباتي والحيواني, وبعض موارد مكة المالية, وأورد معلومات منفردة ومهمة عن وضع مكة الاقتصادي في عهد ابن الزبير أثناء الحصار. وفي الوضع العمراني قدّم معلومات مهمة عن عمليات التوسعة للمسجد الحرام, كما أشار إلى السيول التي اجتاحت مكة في ذلك الدور وإجراءات الخلفاء حيالها, وعرّج على ذكر جهود الخلفاء في عمل السقايات بمكة. وقدّم بعض المعلومات عن فقهاء مكة, كما تحدث عن مجالس القصاص, وأشار لبعض شعراء الحزب السياسي للأمويين بحديث مختصر.

• **الطبري:** (أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ=٩٢٣م) عمدة المؤرخين العرب, ألّف تاريخاً عاماً, إلا أن اهتمامه بالأجزاء الشرقية من الدولة الإسلامية كان أبرز من اهتمامه بالأجزاء الغربية, فتفاوت الاهتمام لصالح الشرق بدءاً من خراسان والعراق, واعتدل في الشام والجزيرة, وقل الاهتمام تجاه الغرب حتى وصل إلى معلومات عادية عن مصر. أهم كتبه **تاريخ الرسل والملوك** الذي يعدّ أشمل وأوثق المصادر العربية القديمة, جمع فيه جميع الروايات التي وصلت إليه, دون أن يرجح إحداها على الأخرى إلا نادراً, فجعل بذلك الباب مفتوحاً لإبداء الآراء حول رواياته, وحرية ترجيح بعض المؤلفين لها في مؤلفاتهم. أفاد البحث بالحديث عن المجتمع المكي في عهد رسول الله ﷺ, مورداً رواية قدوم وفد الطائف عليه لمبايعته. كما تحدث عن الوضع الإداري لمكة والطائف, وأورد بعض المعلومات عن خلفاء الدور المرواني, وأورد الروايات التي تحدثت عن لقاء معاوية بابن الزبير لأخذ البيعة منه لابنه يزيد وما تبع ذلك. كما أورد بدء دعوة ابن الزبير لنفسه إثر مقتل الحسين, وكيف جيّش الأمويون الجيوش للقضاء عليه فكان الحصار الأموي الأول, وأبرز موقف الخوارج المؤيد لابن الزبير أثناء ذلك الحصار, ومغادرتهم مكة بعد اختلافهم الفكري معه, كذلك أخبره مع المختار بن عبيد الثقفي, وأشار أيضاً إلى تفاصيل مهمة عن الحصار الأموي الثاني, وقبله أورد معلومات عن معركة الرّيزة. وذكر معلومات مهمة عن الوضع الإداري, وأكثر ما أفاد البحث في الحديث عن الوضع الديني وأمراء الحج في المواسم. أما الوضع العمراني فقد أفاده بالحديث عن السيول التي اجتاحت مكة ومعالجة الأمويين لها.

• **ابن عساكر:** (علي بن الحسن بن هبة الله عبد الله الشافعي ت ٥٧١هـ=١١٧٦م) صاحب **تاريخ مدينة دمشق**, وأهمية هذا التاريخ لا تكمن في أنه تاريخ لمدينة دمشق أحد أكبر معاقل

الحضارة الإنسانية والعلوم الإسلامية عبر مختلف العصور فحسب، بل إنه موسوعة حديثة، وهو من أوسع المصادر في سير الرجال، فمنه يمكن استخلاص كتب وأسفار عدة في موضوعات وعلوم وفنون شتى، فالكتاب مرجع لعلماء لاحتوائه على الآلاف من الأحاديث النبوية والآثار، أما بالنسبة لإفادته للبحث فقد أغناه في الحديث عن ولاية مكة في عهد بعض الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وكذلك جهودهم العمرانية، كما أشار إلى بعض ظواهر المجتمع المكي في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وانتقل بعد ذلك للحديث عن ولاية مكة في الدور السفلياني، وتطرق في الدور نفسه بإشارات إلى الوضع العمراني والديني والثقافي. وأسهم بالتعريف ببعض الشخصيات الأموية، وقدم معلومات عن مؤتمر الجابية ومعركة مرج راهط، وتحدث عن بعض الشخصيات التي حكمت ولاية مكة في الدور المرواني. وخدم الوضع الاجتماعي ببعض الإشارات إلى مغنين في مكة في هذه الحقبة. وتحدث في الوضع الاقتصادي عن بعض أسواق مكة، وأثر الحصار الاقتصادي على ابن الزبير.

• **ابن الجوزي:** (أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي ت ٥٩٧هـ = ١٢٠١م) كتابه **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، ذكر معلومات مهمة عن سائر الأوضاع لمكة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم والدور السفلياني من الدولة الأموية، وأورد معلومات عن مؤتمر الجابية ونتائجه، كما قدّم معلومات عن بعض خلفاء الدور المرواني ونسب ابن الزبير والحديث عن دولته منذ بدايتها وحتى أحداث الحصار الأموي الثاني الذي شهد نهايتها. وذكر عدداً من ولاية مكة وأعمالهم فيها، وتحدث عن بطون قريش، وأورد معلومات مهمة ومنفردة عن الموالي والمغنيين في مكة، وقدّم معلومات عن أسواق مكة ومواردها المالية لا سيما العطاء. وتفرّد بذكر بعض أمراء مواسم الحج لبعض الأعوام، كما تعرض للحديث عن الكعبة وبنائها، وسيول مكة ونتائجها الكارثية. وأشار إلى بعض شعراء الحزب الأموي.

• **ابن الأثير:** (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد ت ٦٣٠هـ = ١٢٣٣م) له عدة كتب أبرزها **الكامل في التاريخ** والذي يعد من أشهر كتب التاريخ الإسلامي، وأحسنها ترتيباً وتنسيقاً، أفاد البحث في الحديث عن الوضع الإداري والاجتماعي والاقتصادي والثقافي في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم. وتحدث عن نسب ابن الزبير، وجهود يزيد الحثيث في أخذ البيعة منه، إلا أن جهوده ذهبت أدراج الرياح، فتحدث عن الحصار الأموي الأول واحتراق الكعبة المشرفة، وحوار ابن

الزبير مع الخوارج والمختار بن أبي عبيد الثقفي، وموقفه من ابن الحنفية، وأورد كذلك بعض المعلومات عن معركة الربذة، وأسهب في الحديث عن الحصار الأموي الثاني، ووصية أسماء ذات النطاقين لابنها عبد الله. وتفرد ابن الأثير بالحديث عن لقاء دار بين ابن الزبير والأعراب أثناء الحصار الثاني وطرده لهم، مع العلم بأنه كان بأمس الحاجة لأي دعم، كما تحدث عن آثار الحصار الاقتصادي ليس على ابن الزبير فحسب بل مكة بأسرها، وأوضح عدم قدرة ابن الزبير على إدارة أمره في تلك الأزمة.

● **الذهبي:** (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨هـ = ١٣٤٧م) له عدة كتب أهمها سير أعلام النبلاء، وهو أحد الكتب التي استخرجها الذهبي من كتابه الضخم تاريخ الإسلام فأسقط الحوادث، مكثفياً بالوفيات، وفيما يخص البحث فقد أورد الذهبي معلومات خدمت البحث في معظم فقراته، ففي الوضع الإداري أشار إلى بعض الشخصيات التي اعتمد عليها بعض الخلفاء الراشدين ﷺ في حكم ولاية مكة، كما ذكر بعض المعلومات عن الوضع العمراني لمكة في الدور السفلي. وتناول بعض الشخصيات المشاركة في مؤتمر الجابية، كما قدّم معلومات عن بعض خلفاء الدور المرواني، وانتقل للحديث عن ابن الزبير وموقفه إزاء القوى المناوئة له، كما تحدث عن مجريات الحصار الأموي الثاني ونتائجه، وقدّم للبحث معلومات مهمة ومنفردة أثناء الحديث عن الآراء المتداولة حول دولة ابن الزبير.

● **المزي:** (أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن ت ٧٤٢هـ = ١٣٤١م) يعد كتابه تهذيب الكمال في أسماء الرجال أعظم كتاب ألف في موضوعه على الإطلاق، تميّز به على الكتب المتقدمة في هذا الشأن، وسارت به الركبان، وبالنسبة للبحث فقد أفاده في مجمل الفصول أثناء حديثه عن تراجم بعض الشخصيات، وتجلّى ذلك بأبهى صورة أثناء الحديث عن خلفاء الدور المرواني وولاية مكة وفقهائها، كما تعرض لبعض الأحداث التاريخية كمؤتمر الجابية والحصار الأموي لابن الزبير، ومعلومات عن بناء الكعبة.

● **الفاسي:** (أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد ت ٨٣٢هـ = ١٤٢٩م) من أشهر كتبه شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، خدم البحث في الحديث عن جغرافية مكة وامتداد ولايتها المكاني، وقدم معلومات مهمة أثناء الحديث عن أسماء مكة المتعددة وسبب تلك التسميات، وعرّج على

الطائف وطبيعتها الساحرة، وفي الوضع الإداري تحدث عن ولاية مكة في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، وتفرّد بذكر بعض المعلومات في هذا المجال، واستمر بذكر الولاية في الدور السفلي، وتحدث عن مؤتمر الجابية، وأسهم ببعض المعلومات عن خلفاء الدور المرواني ودولة ابن الزبير، وموقف هذا الأخير من بعض الأطراف، أضف إلى ذلك أحداث الحصار الأموي. وأورد بعض المعلومات المنفردة عن أمراء مواسم الحج في أعوام معينة. وأشار إلى الأحداث التي رافقت هدم الكعبة، كما قدم معلومات عن سيول مكة وآثارها الخطيرة وإجراءات الخلفاء تجاهها.

• **ابن فهد:** (النجم عمر بن فهد ت ٨٨٥هـ = ١٤٨١م) وله **إتحاف الوري بأخبار أم القرى**، أفاد البحث في مجمل فصوله في الفصل الأول تحدث عن تحويل عثمان بن عفان رضي الله عنه ميناء مكة من الشعبية إلى جدة. كما تناول ولاية مكة والطائف في عهد أبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان وعلي رضي الله عنهم. في الفصل الثاني أورد معلومات عن استعجال أهل العراق للحسين بالإضافة إلى تحريض ابن الزبير له على مغادرة مكة إلى الكوفة، ومراوغة ابن الزبير في مبايعة يزيد، وكيف جاء رد يزيد بتجيش الجيوش ضده بقيادة عمرو أخ ابن الزبير، بيد أن مصيرها كان الإخفاق، وتبع تلك الحملة الحصار الأول وأحداثه المؤلمة، والتي انتهت بموت يزيد ومشادة كلامية بين قائد حملة الأمويين وابن الزبير. ومن جهة أخرى أورد الكتاب أيضاً المشادة الكلامية بين ابن الزبير والخوارج، والتي نتج عنها مغادرة الخوارج مكة.

ثالثاً: المصادر الأدبية:

في ثنايا بعض كتب الأدب ثروة تاريخية قيّمة لا يوجد لها مثيل في المؤلفات التاريخية في كثير من الأحيان، ويأتي في طليعتها دواوين الشعر؛ فالشعر ديوان العرب وهو كالمراة تنعكس عليها صورة حياتهم في الحرب وفي السلم. وفائدة هذه المصادر شملت معظم جوانب البحث، وأهمها: **دواوين الشعر لكل من الشعراء الأخطل، عدي بن الرقاع، جرير والفرزدق. ومن الكتب الأدبية:**

• **ابن عبد ربه:** (أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ت ٣٢٨هـ = ٩٤٠م) له **العقد الفريد** الذي أغنى البحث بمقدم من معلومات عن الوضع العلمي لمكة عند الفتح، وتحدث عن وصية معاوية لابنه يزيد. وأورد شعراً بمناسبة بيعه مروان بن الحكم بالخلافة، كما أورد بعض المعلومات عن خلفاء الدور المرواني، وأسهم بالحديث عن جهود الأمويون في القضاء على ابن الزبير

عبر الحملتين الأولى والثانية، وما دار فيهما من الأحداث، ومن قبلهما معركة الريدة. وانفرد بذكر بعض المعلومات عن أعمال بعض ولاية مكة في الدور المرواني، وأورد شعراً في بعض الأحيان، كما تطرق إلى بعض المغنين في مكة خلال الدور المرواني. كما تحدث عن خيرات الطائف وبعض أسواق مكة. وتحدث بإسهاب عن عملية بناء الكعبة.

• **الأصفهاني:** (أبو الفرج علي بن الحسين ت ٣٥٦هـ = ٩٦٧م) كتابه المشهور **الأغاني** يعد من المصادر العربية الشاملة، وكانت الخدمة الكبيرة تجاه البحث في الوضع الاجتماعي، حيث أورد بعض المعلومات عن قبيلة ثقيف، ومعلومات عن بعض الطبقات كالرقيق وأصحاب اللهو، وكان ميدانه الأوسع في هذه النقطة، فقد أكثر من الحديث عن المغنين متفرداً بمعلومات مهمة لم يذكرها غيره أضف إلى ذلك حديثه عن بعض العادات والتقاليد.

• **ابن منظور:** (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي ت ٧١١هـ = ١٣١١م) صاحب **لسان العرب** موسوعة لغوية ومن الطراز الرفيع، وبالإضافة لذلك فهو مصدر مهم لحياة العرب مع من سواه من المعاجم والقواميس عامة، بما تحويه من لغة ونحو وصرف وفقه وأدب وحديث شريف وتفسير للقرآن الكريم ومعلومات تاريخية وردت أثناء الشرح.

• **ابن حمدون:** (محمد بن الحسن ت ٥٦٢هـ = ١١٦٦م) كتابه **التذكرة الحمدونية**، وهو موسوعة ضخمة من أحسن المجاميع، اشتمل على التاريخ والأدب والنوادر والأشعار. أفاد البحث بالحديث عن خلفاء الدور المرواني، وتحدث كذلك عن الحملة الأولى التي أرسلها الأمويون لإخضاع ابن الزبير، ومصرعه في الحملة الثانية، وخطبة الحجاج الشهيرة في هذا الشأن، كما أسهم في الحديث عن ابن الزبير وعاداته الدينية، وتحدث عن بعض المغنين في مكة، وأشار إلى بعض المعلومات عن الموارد الاقتصادية لأهل مكة، وأفاد البحث بالحديث عن بعض فقهاء مكة، وكذلك الأمر بالنسبة لبعض الشعراء.

رابعاً: المعاجم الجغرافية:

تعد الجغرافية رافداً أساسياً لكتب التاريخ والمعلومات التاريخية، فمنها يتعرف المرء على سكن القبائل، ومواردها الاقتصادية، وهجرتها وحياتها الاجتماعية ونظمها الإدارية وأشهرها:

• **ابن الفقيه:** (أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني ت ٣٤٠هـ = ٩٥١م) صاحب كتاب **البلدان** والذي لا يمكن عده كتاباً جغرافياً محضاً، بل هو في الواقع يضم بين دفتيه مجموعة أدبية مقترنة بالشعر والفكاهيات والأحاديث وقصص ومسائل غريبة جمعت من شتات الكتب الأخرى لاستفادة عامة الناس. وقد اتبع فيه ابن الفقيه أسلوب الانتقال من موضوع لآخر مخافة من الملل. خدم البحث بمحدثه عن جغرافية مكة بشكل رئيسي، كما تعرض إلى جهود معاوية العمرانية، وتحدث عن الزراعة في ولاية مكة، وتفرّد ببعض المعلومات عن زراعة الطائف.

• **ابن حوقل:** (أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي ت ٣٦٧هـ = ٩٧٧م) صاحب كتاب **صورة الأرض**، والذي يعد أحد المصادر الرئيسية والمعتبرة في علم الجغرافيا وجغرافيا التاريخ إلى حدّ ما. وإن أكثر المؤرخين والجغرافيين والباحثين عنوا به كمصدر مهم واستندوا إليه في أبحاثهم كياقوت الحموي في معجم البلدان وذكرياء القزويني وغيرهما. ويحتوي الكتاب أيضاً على مسائل اقتصادية جديدة وابتكارية. وقد عنى بالمحاصيل الزراعية أكثر من البضاعات الثمينة والنادرة. أفاد البحث بشكل رئيسي أثناء الحديث عن جغرافية ولاية مكة المكرمة، ومحدثه عن الزراعة في ولاية مكة المكرمة، وتعرض ببعض الإشارات للحديث عن مناطق سكن بعض القبائل في ولاية مكة.

• **الحموي:** (أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله ت ٦٢٦هـ = ١٢٢٩م) كتابه **معجم البلدان**، هو أشبه بدائرة معارف أكثرها جغرافية، ولكن فيها استطراداً كثيراً إلى الأدب والتاريخ. تم الاعتماد عليه في البحث حيث أسهب في التعريف الوافي عن المظاهر التضاريسية المختلفة في ولاية مكة من جبال وأودية وصحاري وغيرها، كما تحدث عن ميناء جدة وخيرات الطائف، كما أورد ذكر بعض الأسواق المشهورة في ولاية مكة، وقدم بعض المعلومات عن بناء ابن الزبير للكعبة. وبهذا المعنى فقد تعدى هذا الكتاب مجاله الجغرافي ليرفد البحث بمعلومات تاريخية ودينية واقتصادية مهمة خدمت البحث في معظم جوانبه.

خامساً: المراجع الحديثة:

لها أهمية لا تقل عن أهمية المصادر العربية، كونها تحوي بين دفتيها معظم الآراء ومجمل الروايات الواردة حول حادثة من الحوادث، كما تمت الاستفادة أحياناً من رأي المؤلف نفسه فزادت البحث غنى ومصداقية، وبرزت في الدراسة مراجع متعددة، ولعل أبرزها:

• **علي (جواد) بكتابه المشهور المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**, الذي يعد من أجمع المراجع التاريخية, وقد حاول المؤلف أن يجمع في كتابه كل ما قاله العرب قديماً وحديثاً, أفاد البحث في الربط بين أثر المناخ وطبائع الناس, وقدم معلومات عن الموالي وأخرى منفردة عن أهل الذمة في الطائف, وبعض العادات والتقاليد التي كانت سائدة في مكة. وتحدث عن الزراعة في ولاية مكة المكرمة وقدم معلومات مهمة عنها, وذكر بعض الصناعات التي اشتهرت بها ولاية مكة أيضاً, وبالانتقال إلى التجارة فقد ذكر معلومات مهمة ومنفردة عن الأسواق وأنواعها, وطرق البيع فيها وأسباب زوالها.

• **القنّامي (مناحي ضاوي) صاحب تاريخ الطائف**, الذي أفاد البحث فيما يخص مدينة الطائف, أورد معلومات الوضع الإداري للطائف في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم, وتحدث في الوضع العمراني خلال الدور السفلياني عن بعض الأعمال العمرانية لمعاوية لا سيما السدود حول الطائف, وتحدث عن القبائل القاطنة في الطائف إلى جانب ثقيف, ونجح في الربط بين أثر مناخ الطائف وطبيعة أهلها. وأشار إلى بعض المنتجات الزراعية والتي فاخرت بها الطائف, وإلى جانب ذلك مؤهلاتها لامتلاك ثروة حيوانية وأهم منتجاتها.

• **العبيدي (عبد الجبار) صاحب كتاب الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية**, أفاد البحث بالحديث عن جغرافية الطائف, وقدم معلومات منفردة عن أهم الطرق التي تصلها بمكة, كما تحدث عن مناخها, وفي الوضع الاجتماعي تحدث عن نسب ثقيف, وذكر منازل بعض القبائل في الطائف, وقدم معلومات منفردة وغاية في الأهمية عن علاقات المصاهرة القائمة بين مكة والطائف. وتحدث في الوضع الاقتصادي عن زراعة الطائف ومواسمها المتعددة على مدار العام, ومنتجاتها التي لا مثيل لها, إلى جانب الحديث عن ثروتها الحيوانية ومنتجاتها, كما تحدث عن صناعاتها المتعددة الأنواع, المتقنة العالية الجودة والمعدة للتصدير, وقدم معلومات عن الأسواق المشهورة والنشاطات المختلفة التي كانت تسود فيها. وفي الوضع العمراني قدّم معلومات عن سدود الطائف وغايتها.

• **السباعي: (أحمد) صاحب العمل الجليل تاريخ مكة**, والذي أفاد البحث في مواضع متعددة, حيث قدم معلومات عن الأوضاع العامة لمكة المكرمة في العصر الراشدي والدور السفلياني, وقدم آراء مهمة عن ما جرى في معركة مرج راهط, كما تناول بحديثه نسب ابن الزبير والمعطيات الإيجابية

لقيام دولته، ومبايعة بعض الأمصار له، وبالمقابل جهود الأمويين الحثيثة لمنع هذا القيام، وما تلاها من الحصار الأموي الأول وحرق الكعبة، والحصار الأموي الثاني ونتائجه. وذكر عدداً من حكموا ولاية مكة، وتفرّد ببعض المعلومات في هذا المجال. وأسهم بالحديث عن بعض المغنيين والمغنيات، وتفرّد بذكر بعض المعلومات عن بعضهم، كما تحدث عن بعض العادات والتقاليد السائدة. وتحدث عن الزراعة في ولاية مكة لا سيما الطائف وخيبراتها، وتشجيع ابن الزبير أهل مكة للاستثمار فيها، كما ذكر معلومات منفردة عن النقد المتداول في مكة. وتحدث عن هدم الكعبة وإعادة بنائها، كما أورد معلومات غنية عن توسعة المسجد الحرام وتذويقه، ومعلومات عن سيول مكة وإجراءات الخلفاء تجاهها، وقدم معلومات مهمة عن شق الطرق في مكة، وجهود الخلفاء في تأمين المياه لها. ومعلومات عن بعض الفقهاء في مكة وجهودهم الفقهية. وفي الملاحق قدم للبحث مجموعة من الأشكال والرسوم التوضيحية المهمة.

الفصل الأول

ولاية مكة المكرمة قبل الدور المرواني

- مقدمة.
- جغرافية مكة المكرمة.
- أولاً: أوضاع مكة المكرمة في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ﷺ:
- الوضع الإداري: ١- في عهد رسول الله ﷺ.
- ٢- في عهد الخلفاء الراشدين ﷺ. ٣- مهام الولاة.
- الوضع الديني.
- الوضع العمراني: ١- في عهد رسول الله ﷺ. ٢- في عهد الخلفاء الراشدين ﷺ.

• **الوضع الاجتماعي.**

• **الوضع الاقتصادي.**

• **الوضع الثقافي.**

ثانياً: مكة المكرمة في الدور السفلياني:

• **الوضع الإداري.**

• **الوضع العمراني**

• **الوضع الديني.**

• **الوضع الاجتماعي.**

• **الوضع الاقتصادي.**

• **الوضع الثقافي.**

• **مقدمة:**

تدخل الجغرافية في دراسة التاريخ من أبعاد متعددة، ولعل أهمها يتلخص في أثر الجغرافية في تكوين طبيعة الإنسان، ونمط حياته الاجتماعية ونشاطاته الاقتصادية، وهذه الأمور تنعكس وبشكل مباشر على الشعوب والمجتمعات، فالجغرافية بهذا المعنى تترك أثرها الحتمي في تواريخ الأمم وحياة الشعوب. ونظراً لتأثير الجغرافية البارز في صناعة الحدث التاريخي، فقد دأب الباحثون في التاريخ، وبمختلف الاختصاصات والموضوعات، إلى البدء بالحديث عن جغرافية محور البحث، على أمل أن يرتقي البحث وينال درجة الرضا العلمية من قبل المناقشين والمشرفين عليه.

وبما أن محور البحث يدور حول ولاية مكة المكرمة، فلا بأس من الإشارة إلى أن ولاية مكة المكرمة امتدت إلى الطائف، بحيث عُدت الطائف مخالفاً من مخاليف^١ مكة المكرمة^٢، وامتلك المكيون الأراضي الواسعة في الطائف، أولاً لأنها لا تبعد عن مكة المكرمة إلا يسيراً، وثانياً لأن مكة المكرمة في وادٍ غير ذي زرع، فعوّض القرشيون هذا النقص بامتلاك أراضٍ في الطائف كما يبدو.

وبناءً على ما سلف؛ فإن البحث سيبدأ بالحديث عن جغرافية مكة ومظاهرها التضاريسية، ثم سيعرج على جغرافية الطائف وموقعها وجبالها وأوديتها، يضاف إلى ذلك حاضرة ساحل مكة على بحر القلزم (الأحمر)، ألا وهي ميناء جدّة بعد أن كان الشعبية، مع الإشارة إلى اليمامة التي عدّت بمثابة ريف مكة، والسرّة وقبائلها وما كانت تحمله من ضروب الأطعمة.

• جغرافية ولاية مكة المكرمة:

مكة المكرمة شرفها الله ﷻ، مدينة في وادٍ ضيق قاحل منبسط لا يوجد فيه زرع^٣، وقد وصفه الله ﷻ بقوله في محكم تنزيله: ﴿بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾^٤، تحيط بها الجبال والشعاب من كل صوب

المخلاف واحد المخاليف، والمخاليف لأهل اليمن كالأجناد لأهل الشام، والكور لأهل العراق، والرّساتيق لأهل الجبال، والطّساسبج لأهل الأهواز. للمزيد انظر: ابن منظور: (محمد بن مكرم) لسان العرب، بيروت، دار صادر، د.ت، ط ١، مادة خلف، ج ٩ ص ٨٤.

^٢ البلاذري: (أحمد بن يحيى بن جابر) البلدان وفتوحها وأحكامها، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٢م، ص ٦٤. الفاسي: (أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٥م، ط ٥، ج ١ ص ١٤٤.

^٣ الاصطخري: (أبو اسحق إبراهيم بن محمد) المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر الحيني، مراجعة محمد شفيق غربال، القاهرة، دار القلم، ١٩٦١م، ص ٢١. المنجم: (إسحاق بن الحسين) آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٨هـ، ط ١، ص ٢٦. الحميري: (محمد بن عبد المنعم) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، مؤسسة ناصر، ١٩٨٠م، ص ٩٣. وقد قيل أن بطن الوادي فيه أشجار قصيرة، وكان الناس يتحاشون قطعها، حتى قطعها قصي فتبعه الناس فتوسع عمران مكة، انظر: مؤنس: (حسين) تاريخ قريش، بيروت، دار المناهل، ٢٠٠٢م، ط ١، ص ١٠٥.

^٤ سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

كالسور العالي^١، أشهرها جبل أبي قبيس شرقاً والجبل الأحمر غرباً وهما المدعوين بالأخشبين^٢، وتكاد هذه الجبال تحجب مكة إلا من ثلاثة منافذ، تصلها مع سواها، فأما المنفذ الأول فيصلها بطريق اليمن، والثاني بطريق قريب من بحر القلزم (الأحمر) عند مرفأ جدة، والثالث الطريق المؤدي إلى فلسطين^٣.

يبلغ طول مكة المكرمة من المعلاة^٤ جنوباً إلى المسفلة^٥ شمالاً نحو الميدين^٦، ومن أسفل أجياد إلى ظهر قعيقعان^٧ نحو ذلك أو الثلثين من ذلك^٨، وأورد بعضهم أن عرض مكة المكرمة ثلاث وعشرون درجة^٩، وطولها مئة وست عشرة درجة^{١٠}.

^١ الاصطخري: المسالك والممالك ص ٢١. الحميري: الروض المعطار ص ٩٣. السخاوي: (محمد بن عبد الرحمن) البلدانيات، تحقيق: حسام بن محمد القطان، السعودية، دار العطاء، ٢٠٠١م، ط ١، ص ٥١. هورخرونيه: (ك. سنوك) صفحات من تاريخ مكة المكرمة، تعريب: علي عودة الشيوخ، تعليق: محمد السرياني ومعراج ميرزا، مراجعة: محمد إبراهيم علي، الرياض، دار الملك عبد العزيز، ١٩٩٩م، ص ٦٥. الشريف: (أحمد إبراهيم) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٧م، ط ٢، ص ٢٤.

^٢ الأزرقى: (أبو الوليد محمد بن عبد الله) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح ملحق، بيروت، دار الأندلس، ١٩٦٩، ط ٣، ج ٢ ص ٢٦٧. الندوي: (أبو الحسن علي بن عبد الحلي) السيرة النبوية، دمشق، دار ابن كثير، ١٤٢٠هـ، ط ١٢، ص ١٣٤.

^٣ الشريف: مكة والمدينة ص ٨٧.

^٤ المعلاة: كل ما ارتفع عن المسجد الحرام يسمى المعلاة، فأعلى مكة المعلاة. انظر: المقدسي: (محمد بن أحمد) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٧م، ص ٧١.

^٥ كل ما نزل عن المسجد الحرام يسمى المسفلة، فأ أسفل مكة المسفلة. انظر: المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٧١.

^٦ سيورد البحث جدولاً للمسافات في ملاحقه.

^٧ جبل مكة المشرف على المسجد الحرام من الشمال الغربي، يمتد بين ثنيتي كداء وكدي. للمزيد انظر: شراب: (محمد بن محمد حسن) المعالم الأثرية في السنة والسيرة، بيروت، الدار الشامية، ١٤١١هـ، ط ١، ص ٢٢٧.

^٨ ابن حوقل: (أبو القاسم محمد بن حوقل) صورة الأرض، بيروت، دار صادر، ١٩٣٨م، ص ٢٨. الاصطخري: المسالك والممالك ص ٢١. الحميري: الروض المعطار ص ٩٣.

^٩ انظر ما تعادل الدرجة في جدول المسافات في الملاحق.

ومكة المكرمة مدينة قديمة البناء، أبنيتها من الحجارة والطين، التي تحصل عليها من جبالها المطلة عليها^٢، فوجود الجبال حولها هو السبب الذي دفع أهلها لبناء تلك البيوت بالحجارة، وذلك لتوفر المواد الأولية للبناء هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن قساوة المناخ شغل الدور نفسه في استخدام الحجارة في البناء.

ومن جبال مكة حراء، والذي يقع فيه غار حراء المبارك، بينه وبين مكة ميل ونصف وقيل ثلاثة أميال^٣، وهو جبل منفرد على طريق حُنين إلى مكة، صعب المرتقى لا يصعد إلى أعلاه إلا من موضع واحد^٤، أما جبل ثبير^٥ فيعد أعلى جبال مكة وأعظمها، يبلغ ارتفاعه قرابة ميل ونصف، وهو من الناحية المتصلة بمنى^٦، وهناك جبل ثور جنوب مكة، وهو الذي اختبئ فيه رسول

^١ الهمداني: (لسان اليمن أبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوخ، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٨٣، ط ٣، ص ٨٢.

^٢ القزويني: (زكريا بن محمد بن محمود) آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، ١٩٦٠م، ص ١١٣. المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٧١.

^٣ القزويني: آثار البلاد ص ١١٩. الزمخشري: (أبو القاسم محمود بن عمر) الجبال والأمكنة والمياه، تحقيق: إبراهيم السامرائي، بغداد، مطبعة السعدون، د.ت، ص ٧٦. ابن الضياء: (أبو البقاء محمد بن أحمد) تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تحقيق: علاء إبراهيم وأيمن نصر، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤، ط ٢، ص ١٩٦.

^٤ البكري: (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز) المسالك والممالك، تحقيق: ليوفن وفيري، تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٩٢م ج ١ ص ٤٠٣.

^٥ ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٩٦.

^٦ شعب على طريق عرفة من مكة، بينه وبين مكة ثلاثة أميال وطوله نحو ميلين وعرضه يسير. للمزيد:

العلي: (صالح) الحجاز في صدر الإسلام، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٠م، ط ١، ص ٦٧٨-٦٧٩.

الله ﷺ مع صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، حين خرج من مكة إلى المدينة مهاجراً^١، وبينه وبين مكة ميلين وقيل ثلاثة، أما ارتفاعه فنحو ميل^٢.

ومن جبال مكة جبل أظلم؛ وهو الجبل الأسود^٣ من ذات حبيس بمكة^٤، وهناك جبل الآل^٥، وجبل الحنْدمَة من بنيان مكة في ظهر أبي قبيس^٦، وجبل الحَجُون بفتح الحاء؛ وهو الجبل المشرف بحذاء المسجد^٧، وجبل النور بالمفجر من خلف مكة على طريق اليمن^٨، وجبل حليج^٩، وجبل قَدِيد؛ وهو من الجبال الوعرة والشاهقة الارتفاع بحيث يُصعب الوصول إلى ذروتها^{١٠}.

أما الصفا والمروة فهما هضبتان صخريتان قريبتان من الكعبة، وتبعد أحدهما نحو أربعمائة متر^{١١}، والواقف على الصفا يكون بحذاء الحجر الأسود، فالصفا مكان مرتفع من جبل أبي قبيس، وبينها وبين المسجد الحرام عرض الوادي، والمروة حجر من جبل قعيقعان وتقابل الصفا، والمسعى ما بين الصفا والمروة^{١٢}.

-
- ١ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٩٤. القزويني: آثار البلاد ص ١١٩. البلادي: (عاتق بن غيث) معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، مكة المكرمة، دار مكة، ١٩٨٢، ط ١، ص ٧٢.
- ٢ ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٩٩.
- ٣ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٨٨. الفاكهي: (أبو عبد الله محمد بن إسحاق) أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: عبد الملك عبد الله دهيش، بيروت، دار خضر، ١٤١٤هـ، ط ٢، ج ٤ ص ١٨٦.
- ٤ الزمخشري: الجبال والأمكنة والمياه ص ٧٨. الحموي: (أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله) معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت.، مادة أظلم، ج ٤ ص ٢٦٠.
- ٥ الزمخشري: الجبال والأمكنة والمياه ص ١٧. البلادي: معجم المعالم الجغرافية ص ٣٢.
- ٦ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٢٢٢. الزمخشري: الجبال والأمكنة والمياه ص ٧٨.
- ٧ الحميري: الروض المعطار ص ١٨٨.
- ٨ الزمخشري: الجبال والأمكنة والمياه ص ٤٢.
- ٩ الزمخشري: الجبال والأمكنة والمياه ص ٨١. الحموي: معجم البلدان ج ٢ ص ٤٤٩.
- ١٠ القزويني: آثار البلاد ص ١١٩.
- ١١ الشريف: مكة والمدينة ص ١٥٣.
- ١٢ القزويني: آثار البلاد ص ١١٩. الاصطخري: المسالك والممالك ص ٢٢. الحميري: الروض المعطار ص ٣٦٣.

أما فيما يتعلق بشعب مكة، فلعل أشهرها شعب منى، طوله نحو ميلين، وبينه بين مكة ومنى حوالي ثلاثة أميال^١، ومن المفيد ذكره الإشارة إلى وجود صحاري بين مكة والمدينة، أشهرها صحراء الحَبَّت^٢. ولعل أهم مشكلة واجهتها مكة نتيجة لموقعها الجغرافي، شح المياه وندرتها، فكيف استطاعت التغلب على هذه المشكلة؟

يبدو أن اعتماد أهل مكة كان موزعاً على مصدرين من الماء: الأول الأمطار، والثاني الآبار. فقد روي أنه كان في مكة بئران^٣، إذا كثرت الأمطار شربوا منهما، وإذا أقحطوا ذهب ماؤهما، وكانوا يشربون كذلك من أغاديير في رؤوس الجبال^٤.

وبقيت معاناة أهل مكة مع المياه حتى أخرج الله ﷻ ماء زمزم المبارك لإسماعيل عليه السلام وأمه^٥، وإلى جانب ماء زمزم كان يشرب أهل مكة أيضاً من بئر يدعى بئر ميمون بن الحضرمي^٦، والتي كانت آخر بئر حفرت قبل الإسلام، ويبدو أنهما الأشهر من بين آبار مكة. كما ذكرت روايات أخرى العديد من آبار الماء في مكة، ومنها: الشبيكة، والوردية، والواسعة؛ وهو بئر وراء جبل أبي قبيس^٧، وماء بدر وهو بين مكة والمدينة^٨، وماء عزور وهي ماء قريب من مكة^٩، كما اشتهر من مواضع المياه موقع الجعرانة الذي يضرب فيه المثل بعذوبته، وهو ماء بين مكة والطائف، وهو إلى

^١ العلي: الحجاز ص ٦٧٨-٦٧٩.

^٢ البكري: المسالك والممالك ج ٢ ص ٤٨٦. الحموي: معجم البلدان ج ٢ ص ٣٩٣.

^٣ يقال لها زم، حفرها مرة كعب بن لوي قرب عرفة، وحفر كلاب بن مرة بئراً يقال لها حُم. انظر:

الأزرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢١٤. الفاكهي: أخبار مكة ج ٤ ص ٩٧.

^٤ الأزرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٢٠. الفاكهي: أخبار مكة ج ٤ ص ١٠٤.

^٥ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٥٨. الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ١٠. ابن حوقل: صورة الأرض ج ١ ص ٣٠.

الاصطخري: المسالك والممالك ص ٢٢-٢٣. الحميري الروض المعطار ص ٩٣.

^٦ ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ٦٨.

^٧ ابن الجاور: (أبو الفتح يوسف بن يعقوب) تاريخ المستبصر، تصحيح: أوسكر لوفغرين، ليدن، مطبعة بريل،

١٩٥١م، ص ٥.

^٨ الزمخشري: الجبال والأمكنة والمياه ص ١٦٤.

^٩ الزمخشري: المصدر المتقدم ص ١٦٤.

مكة أدنى^١، هذا الشح بالماء يُظهر أهمية كبيرة لوظيفة سقاية الحجيج التي أوجدها قصي بن كلاب قبل الإسلام إلى جانب الوظائف الأخرى، أضف لذلك أن قلة المياه كانت السبب في عدم وجود شجر مثمر في مكة.

أما وديانها فمتعددة كجبالها وشعابها، ومن أشهرها مُحَسِّر وهو وادٍ بين منى ومزدلفة^٢، والهدّة، ومَرّ، وودان، والسائرة، وغُرّان، وفَيْدَة، وجميع هذه الأودية تقع ما بين حرم الله ﷺ من أودية تهامة، وبين الطائف، وكلها فيها النخل و العيون. وثمة أودية ليس بها عمران ولا مساكن أمثال دَعَان، وواسط، وكَوَى، وغلقة، وحَبَاقَة، والعميق، وقلهف، ورَحَاب ورحيب وغيرها^٣، ولا يفوت البحث ذكر وادي حُنين، الذي يقع شرق مكة بقرابة ثلاثين كيلو متراً على الطريق إلى الطائف^٤.

ويبدو أن هذه الأودية وعموم أودية الحجاز كان فيها مجرى الماء مؤقتاً إثر سقوط الأمطار الغزيرة، والتي لا تدوم طويلاً، وكثيراً ما تجري فيها المياه مشكّلة سيولاً جارفة تكتسح ما يقف أمامها، وبذلك لا تفيد الزراعة^٥. ولقد كان لتلك السيول الجارفة نتائج كارثية على مكة وأهلها، مما استنفر همة بعض الخلفاء، فسارعوا إلى تخديم مكة، وتقديم ما يلزم لدرء الأخطار، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان، كما سيوضح البحث لاحقاً. والجدير بالذكر أنه تعددت أسماء مكة، ولكل اسم دلالة لغوية استناداً إلى صفات مكة^٦.

^١ الفاكهي: أخبار مكة ج ٥ ص ٦٦. البكري: المسالك والممالك ج ٢ ص ٢٨. البلادي: معجم المعالم الجغرافية ص ٨٣.

^٢ الاصطخري: المسالك والممالك ص ٢١.

^٣ الزمخشري: الجبال والأمكنة والمياه ص ٢٣٥. ابن حوقل: صورة الأرض ج ١ ص ٣٣.

^٤ البلادي: معجم المعالم الجغرافية ص ١٠٧.

^٥ العلي: الحجاز ص ١٣١.

^٦ الأزرق: أخبار مكة ج ١ ص ٢٨٠ - ٢٨٢. البكري: معجم ما استعجم ج ١ ص ٢٤٥. ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي) مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن، تحقيق: مصطفى الذهبي، القاهرة، دار الحديث، ١٩٩٥م، ط ١، ص ٢٣١. الفاسي: (أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق: عمر التدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٥م، ط ٥، ج ١ ص ٧٥. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ٥٣.

أما الطائف فإنها مدينة تقع على طرف واد^١، على ربوة عالية فوق جبل غزوان^٢، الذي يبلغ ارتفاعه نحو ستة آلاف قدم، وبين الطائف وبين مكة المكرمة خمسة وسبعين ميلاً^٣. هذا وقد قرن الله ﷻ الطائف ببيته الحرام في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^٤، فكان ذلك غاية الفخر للطائف وأهلها^٥. والطائف بلد طيب الهواء، بارد الماء^٦، فيها عيون وآبار كثيرة، ونظراً لطبيعتها الخلابة، فقد كانت مصيف أهل مكة^٧. لقد حوت الطائف جميع المظاهر التضاريسية من سهول وأودية وجبال تخللتها مسالك وعرة ومخابئ كثيرة. أما سهولها فهي خصبة كثيرة الخيرات، بساتينها غناء، وأرضها معطاء، كثيرة الشجر والثمر^٨، وأكثر ثمارها الكروم التي تنتج العنب؛ والذي تتميز به الطائف على من سواها، كما يوجد فيها بساتين النخيل والموز وسائر الفواكه، وزرعت في أراضيها الحبوب^٩.

^١ القزويني: آثار البلاد ص ٩٧.

^٢ ورد غزوان عند الاصطخري: المسالك والممالك ص ٢٤. ابن حوقل: صورة الأرض ص ٣٢. ابن عبد الحق: (صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق) مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع، بيروت، دار الجيل، ١٤١٢هـ، ط ١، ج ٢ ص ٩٣٤. السخاوي: البلدانيات ص ٢٢٠. الشريف: مكة والمدينة ص ٢٤. العبيدي: (عبد الجبار) الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية، الرياض، دار الرفاعي، ١٩٨٢م، ط ١، ص ٢٣.

^٣ العبيدي: الطائف ص ٢٣. الندوي: السيرة النبوية ص ٢٠٩. كما ورد اثنا عشر فرسخاً عند القزويني: آثار البلاد ص ٩٧. كما ورد مرحلتين عند المحب الطبري: (أحمد بن عبد الله) القرى لقاصد أم القرى، تحقيق: مصطفى السقا، القاهرة، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، ١٩٧٠م، ط ٢، ص ٦٦٦. الحميري: الروض المعطار ص ٣٧٩.

^٤ سورة الزخرف: الآية ٣١.

^٥ الفاسي: شفاء الغرام ج ١ ص ١٤٤. العبيدي: الطائف ص ٢٤.

^٦ القزويني: آثار البلاد ص ٩٧. الفاسي: شفاء الغرام ج ١ ص ١٤٤.

^٧ العبيدي: الطائف ص ٢٤. برو: (توفيق) تاريخ العرب القديم، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠١م، ط ٢، ص ٢١.

^٨ ابن حوقل: صورة الأرض ص ٣٢.

^٩ القزويني: آثار البلاد ص ٩٨. الشريف: مكة والمدينة ص ٢٤.

أما أودية الطائف فمتعددة منها وادي ليّة^١، والشّديق^٢، والعرج^٣، ووادي جلذان^٤، ووادي نَعْمَان^٥، ووادي نَجَب^٦، ووادي قُرّان^٧.

أما جبال الطائف، فقد ورد أن ارتفاعها يبلغ ستمائة متر، ولعل أشهرها وأعلاها جبل غزوان كما سلف القول، والذي تسكنه قبائل هذيل، وليس بالحجاز موضع أعلى من هذا الجبل، ولعل ذلك يفسر اعتدال هواء الطائف^٨، حتى أنه قيل إن الماء يجمد فيه، وليس في الحجاز موضع يجمد فيه الماء سوى هذا الجبل^٩، ومن الجبال الأخرى جبل كراء^{١٠} في الطريق بين مكة والطائف ويبلغ علوه نحو مائتي متر^{١١}، ومن الجبال الشهيرة حَضَن والذي يقع شرق الطائف إلى الشمال^{١٢}.

أما جدة فكانت ميناء مكة وإسكلتها^١، وإطلالة ولايتها على البحر، ومنها يركب المسافرين في البحر إلى البلاد^٢، بينها وبين مكة ثلاثة وسبعون كيلو متر^٣. وأول من جعل جدة ساحلاً لمكة

-
- ^١ الهمداني: صفة جزيرة العرب ص ٢٣٣. البلادي: معجم المعالم الجغرافية ص ٢٧٤. العبيدي: الطائف ص ١٩.
- ^٢ الزمخشري: الجبال والأمكنة والمياه ص ١٥٥. الحموي: معجم البلدان، مادة شديق، ج ٣ ص ٣٧٣. ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٩٢٨. العبيدي: الطائف ص ٢١-٢٢.
- ^٣ الزمخشري: الجبال والأمكنة والمياه ص ١٥٥. الحموي: معجم البلدان، مادة عرج، ج ٤ ص ١١١. ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٩٢٨. العبيدي: الطائف ص ٢٠.
- ^٤ الهمداني: صفة جزيرة العرب ص ٢٣٣. ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ص ٣٤١.
- ^٥ الحموي: معجم البلدان، مادة نعمان، ج ٥ ص ٣٣٩. العبيدي: الطائف ص ٢١.
- ^٦ العبيدي: الطائف ص ٢٠. البلادي: معجم المعالم الجغرافية ص ٣١٦.
- ^٧ ابن عبد الحق: مراصد الإطلاع ج ٣ ص ١٠٧٤.
- ^٨ الشريف: مكة والمدينة ص ٢٤. برو: تاريخ العرب القديم ص ٢١.
- ^٩ القزويني: آثار البلاد ص ٩٨. ابن حوقل: صورة الأرض ص ٣٢. الحموي: معجم البلدان، مادة عروان ج ٤ ص ١٢٥. ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٩٣٤. السخاوي: البلدانيات ص ٢٢٠.
- ^{١٠} ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١١٥٢.
- ^{١١} ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١١٥٢. الشريف: مكة والمدينة ص ٢٤.
- ^{١٢} البلادي: معجم المعالم الجغرافية ص ١٠٢.

وميناءاً لها الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه عام ٢٦ هـ / ٦٤٦ م^٤، وجعلها خالصة لمكة، وقد كان ساحل مكة قبل ذلك الشعبية.^٥

أولاً: أوضاع مكة المكرمة في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم:

• الوضع الإداري:

١- في عهد رسول الله ﷺ:

هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون إلى المدينة المنورة، وهناك أسس نواة الدولة العربية الإسلامية، ولكنه تطلع والمسلمون معه وبشوق كبير وشغف عظيم للعودة إلى مكة المكرمة،

^١ الحضراوي: (أحمد بن محمد) الجواهر المعدة في فضائل جدة، تحقيق: علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٢م، ط ١، ص ١٣. وإسكلة مكة مرفأ سفنها، انظر: الحضراوي: المرجع المتقدم ص ١٣.

^٢ السخاوي: البلدانات ص ٤٣. الجدي: (عبد القادر بن أحمد) السلاح والعدة في تاريخ جدة، تحقيق: مصطفى الحديري، دمشق، دار ابن كثير، ١٩٨٨م، ط ١، ص ٢٦.

^٣ شراب: المعالم الأثيرة ص ٨٨.

^٤ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٣٢. ابن ظهيرة: (محمد بن محمد) الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، تحقيق: علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٣م، ط ١، ص ٧٩. السنجاري: (علي بن تاج الدين) منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاية الحرم، تحقيق: جميل المصري، مكة المكرمة، جامعة أم القرى ١٩٩٨م، ج ١ ص ٥٣٠. ابن فهد: (عمر بن فهد) إتحاف الوري بأخبار أم القرى، تحقيق: فهد محمد شلتوت، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٣م، ط ١، ج ٢ ص ٢٠. الحضراوي: الجواهر المعدة ص ١٨. الجدي: السلاح والعدة ص ٢٥.

^٥ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٣٢. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٧٩. الشريف: مكة والمدينة ص ١٧٦.

فحدث صلح الحديبية عام ٦٢٧/هـ الذي شكّل خطوة من الخطوات المهمة التي أوصلتهم إلى هدفهم المنشود، فبعد ما يقارب السنتين منه تم فتح مكة عام ٦٢٩/هـ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مكة جزءاً بل ومركزاً دينياً للدولة العربية الإسلامية. والسؤال هنا: ما هو وضع مكة الإداري بعد أن دخلها رسول الله ﷺ؟ وما هي إجراءاته المتخذة؟

حالما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة المكرمة يوم الجمعة من رمضان في عام ٦٣٠/هـ أعطى أوامره بهدم الأصنام، ومحو الصور التي كانت في الكعبة^١، وبدأ ﷺ بالبحث عن الرجل المناسب الذي سيوليّه مكة المكرمة، فوقع اختياره على أبي بكر ﷺ، وأمره أن يقيم للناس الحج، ويؤمن من حج من الناس، ويعلم الناس الإسلام. على أن الروايات أوردت أسماء كثيرة كعتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية^٢، ومعاذ بن جبل الأنصاري وهبيرة بن شبل بن عجلان الثقفي^٣، والذي يعد أول من صلى بمكة جماعة بعد الفتح^٤. وأمام هذه الروايات المتعددة، كيف من الممكن للبحث أن يلائم بينها حول شخص والي مكة في عهد رسول الله ﷺ؟

يمكن القول أن أبا بكر ﷺ كان بمثابة الوزير لرسول الله ﷺ، وبالتالي استعمله رسول الله

^١ البلاذري: البلدان وفتوحها وأحكامها ص ٤٧.

^٢ الواقدي: (محمد بن عمر) المغازي، تحقيق: مارسدن جونز، قم، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤١٨هـ، ط ٢، ج ٢ ص ٨٨٩. العسكري: (الحسن بن عبد الله) الأوائل، طنطا، دار البشير، ١٤٠٨هـ، ط ١، ص ٢٧٧. الشريف: دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٨م، ط ١، ص ٤٦٢. زامبور: (إدوارد فون) معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه: زكي محمد حسن وآخرين، بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨٠م، ص ٢٧. حميد الله: (محمد) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، بيروت، دار النفائس، ١٤٠٧هـ، ط ٦، ص ٢٨٦. العمري: (أكرم) عصر الخلافة الراشدة، الرياض، مكتبة العبيكان، د.ت، ص ١١١.

^٣ كما ورد هبيرة بن سبل، انظر: ابن حجر: (أبو الفضل أحمد بن علي) الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٢م، ط ١، ج ٦ ص ٥٣٠.

^٤ الطبري: (محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك، تقديم ومراجعة: صدقي جميل العطار، بيروت، دار الفكر، ٢٠٠٢م، ط ٢، ج ٣ ص ٣١٥. الخزاعي: (أبو الحسن علي بن محمد) تخريج الدلالات السمعية له ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٥م، ط ١، ص ٢٦٨.

للسعة أفقه وصلاحه وتقواه. ويمكن التوفيق بين الروايات السالفة بأن يكون عتاب أميراً، ومعاذ إماماً وفقهياً^١، واشترك هبيرة مع معاذ في الإمامة، ولا يعارض هذا كون هبيرة أول من صلى بمكة جماعة بعد الفتح لإمكان أن يكون حضر وقت الصلاة ومعاذ غائباً فتقدم هبيرة وصلى بالناس ليحصل فضيلة أول الوقت ثم حضر معاذ وصلى بمن لم يدرك الصلاة مع هبيرة^٢. ولقد عيّن رسول الله ﷺ عتبة بن أبي العاص والياً على مكة أيضاً^٣، والذي كان حفيداً لأمية، فنجح في حكم مكة بالإضافة إلى آخرين ساعدوه في ذلك^٤. وبالانتقال للحديث عن ولاية الطائف في عهد رسول الله ﷺ، فقد استعمل رسول الله ﷺ على الطائف عثمان بن أبي العاص الثقفي، الذي أسلم وكان في وفد ثقيف^٥، ولعل سبب ذلك لما رأى من فضله وحرصه على الخير والدين وكان أصغر الوفد سنّاً^٦، وتوفي رسول الله ﷺ وعثمان عامله على الطائف^٧.

-
- ^١ كرمي: (أحمد عجاج) الإدارة في عصر الرسول ﷺ، القاهرة، دار السلام، ١٤٢٧م، ط ١، ص ٩٩.
- ^٢ الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٥٣. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٢٤٦.
- ^٣ كما قيل (عتبة بن أبي سفيان) انظر: الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٧٧.
- ^٤ غوري: (جيرالد دو غوري) حكام مكة، ترجمة: محمد شهاب، مراجعة: محمد علي سويد، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠م، ط ١، ص ٤٧.
- ^٥ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٦٤.
- ^٦ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ١٩٥. ابن حزم: (أبو محمد علي بن أحمد) جمهرة أنساب العرب، تحقيق: لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م، ط ١، ص ٢٦٦. ابن حجر: الإصابة ج ٤ ص ٤٥١. العلي: الحجاز ص ٢٨١. كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص ١٠٠.
- ^٧ ابن سعد: (محمد بن سعد) الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م، ط ١، ج ٦ ص ٤٨. البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٦٤. الذهبي: (أبو عبد الله محمد بن أحمد) تاريخ الإسلام (عهد معاوية)، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٨م، ط ١، ص ٢٧٠. ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد) تاريخ ابن خلدون، المقدمة (المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) تحقيق: خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٨م، ط ٢، ج ٢ ص ٤٧٠. العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ١١١.

وفيما يتعلق بأجور العمال فقد فرض رسول الله ﷺ لعَتَّاب بن أسيد كل يوم درهم^١، وقيل درهين^٢، وحلف عَتَّاب مرة فقال: "ما أصبت في عملي الذي بعثني عليه رسول الله ﷺ إلا ثوبين كسوتهما مولاي كيسان"^٣.

٢- في عهد الخلفاء الراشدين ﷺ:

كانت سياسة أبي بكر الصديق ﷺ متطابقة مع تعيينات رسول الله ﷺ، فقد استمر عَتَّاب والياً على مكة في عهده^٤، ومنهم من ذهب للقول بأن أبا بكر ﷺ أبقى عَتَّاب على مكة والطائف معاً^١.

^١ ابن هشام: (عبد الملك بن هشام) السيرة النبوية، تحقيق: محمد علي القطب ومحمد الدالي بلطه، صيدا، المكتبة العصرية، ٢٠٠٢م، ج ٤ ص ١٢٢-١٢٣. الصلابي: (علي محمد محمد) عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج، عمان، دار البيارق، ١٩٩٨، ط ١، ص ١٠٨.

^٢ كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص ١٠٩. كما قيل أربعين أوقية من الفضة في السنة. انظر: الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٧٧. البيهقي: (أبو بكر أحمد بن الحسين) سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة، دار الباز، ١٩٩٠م، ج ٦ ص ٣٥٥.

^٣ ابن زنجويه: (أحمد حميد بن زنجويه) الأموال، رواية: حميد بن مخلد، تحقيق: شاکر ذيب فياض، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٨٦م، ط ١، ج ٢ ص ٦٠٧. ابن عبد البر: (يوسف عبد الله بن محمد) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد معوض و عادل أحمد عبد الموجود، قدم له: محمد عبد المنعم البري وجمعة طاهر النجار، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م، ط ١، ج ٣ ص ١٤٤. الخزاعي: تخریج الدلالات ص ٢٦٨. كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص ١٠٩.

^٤ ابن الكلبي: (أبو المنذر هشام بن محمد) جمهرة النسب، رواية: السكري عن ابن حبيب، تحقيق: ناجي حسن، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٦م، ط ١، ص ٥٨. الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٥٣. ابن عبد البر: الاستيعاب ج ٣ ص ١٤٤. ابن فهد: إتحاف الوری ج ٢ ص ٣. السنجاري: منائح الكرم ج ١ ص ٥٠٢. زامبور: معجم الأنساب ص ٢٧. الشريف: دور الحجاز ص ٤٦٢. راوه: (عبد الفتاح بن حسين) جداول تاريخ أمراء البلد الحرام، مكة المكرمة، ١٩٩٩م، ط ١، ص ١٩. ويقال أنه لما طرأ لعَتَّاب أثناء ولايته على مكة سفر استخلف المحرز ابن حارثة بن ربيعة من بني عبد مناف إلى أن رجع من سفره وكان ذلك زمن أبي بكر، انظر: الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٥٤. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٢٤٦.

وبالنسبة لجدة لم يكن الأمر كذلك، حيث استعمل أبو بكر عليه السلام الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ولد ابن عم رسول الله ﷺ، وهو أول أمير استعمل على جدة^٢، ويبدو أنه لم يطل به المقام حيث ورد قيام أبو بكر عليه السلام بعزل الحارث بن نوفل عن عمله في جدة^٣، في حين لم تذكر الروايات من كان بديلاً عنه، ولعلها وضعت تحت سلطة والي مكة بشكل مباشر.

لما آلت أمور الخلافة إلى عمر بن الخطاب عليه السلام، كان والياً على مكة محرز بن حارثة من بني عبد شمس، الذي قيل أن عتأباً استخلفه لما حضرته الوفاة، فأقر عمر عليه السلام محرزاً^٤، ثم ما لبث أن عزله وولى مكانه قنفذ بن عمير بن جدعان التيمي، ثم عزله وولى نافع بن عبد الحارث الخزاعي^٥. وما لبث عمر عليه السلام أن عزل نافع ولى بعده خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي^٦، فيما أوردت رواية أخرى أنه بعد عزل نافع جاء أحمد بن خالد بن العاص، ثم طارق بن المرتفع^٧، وثمة رواية تقول بأن عمر عليه السلام استعمل على صدقات مكة وبعض أعمالها الحارث بن نوفل^٨. وأمام هذا العدد الكبير للولاة في عهد عمر عليه السلام لابد من الإجابة عن سؤال وهو: ما هو سبب كثرة الولاة؟ لعل الإجابة على هذا السؤال لها عدة أسباب منها؛ طول عهد عمر عليه السلام زمنياً مقارنة بخلافة أبي بكر عليه السلام، والحقبة التي كانت بها مكة تحت سلطة رسول الله ﷺ والتي امتدت قرابة عشر سنوات،

^١ البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق: محمود الفردوس العظم، دمشق، دار اليقظة العربية، ١٩٩٩م، ج٥ ص٤٧.

^٢ الحضراوي: الجواهر المعدة ص٢٧.

^٣ الجدي: السلاح والعدة ص١٦.

^٤ البلاذري: أنساب الأشراف ج٥ ص٤٧. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص٧٨. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف

ص٢٤٦. زامباور: معجم الأنساب ص٢٧. راوه: جداول ص٢١. العمري: عصر الخلافة الراشدة ص١٣٠.

^٥ ابن حجر: الإصابة ج٥ ص٧٨٢. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص٢٤٦. السنجاري: منائح الكرم

ج١ ص٥٠٣. الفاسي: شفاء الغرام ج٢ ص٢٥٣.

^٦ ابن خياط: (خليفة بن خياط العصفري) تاريخ خليفة بن خياط، رواية بقي بن مخلد، تحقيق: سهيل زكار،

دمشق، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، ١٩٦٨م، ص١٥٣. العمري: عصر الخلافة الراشدة

ص١٣٠.

^٧ الفاكهي: أخبار مكة ج٣ ص١٦٧. الفاسي: شفاء الغرام ج٢ ص٢٥٥. راوه: جداول ص٢١.

^٨ الفاسي: شفاء الغرام ج٢ ص٢٥٦.

وسبب آخر وهو الأهم في رأي البحث وهو حرص عمر رضي الله عنه الشديد على تحري العدل والأخذ بأسبابه، فكان يتبع مع ولاته سياسة الشدة والمحاسبة.

أما الطائف في عهد عمر رضي الله عنه فقد كان عليها عثمان بن أبي العاص، الذي أقرّه على منصبه نظراً لكفاءته في عمله وتقواه، ثم أراد عمر رضي الله عنه أن يستعمله على البحرين، فطلب منه أن يخلف على عمله من أحب، ويقدم إليه على المدينة، فخلف عثمان أخاه الحكم بن أبي العاص، وذهب لعمله في البحرين^١، وقال البعض بأن عمر رضي الله عنه ولى عتبة بن أبي سفيان^٢ على الطائف وصدقاتها، كما ورد سفيان بن عبد الله الثقفي^٣.

على أية حال لا تبرز في الطائف مسألة تعدد الولاة كما كان شأن مكة، كونها أقل أهمية إذا ما قورنت بمكة المكرمة من جهة، وزائريها وساكنيها أقل من جهة أخرى. كما كانت الطائف تضاف إلى مكة في الولاية، عندما لا يكون لها والٍ خاص بها^٤.

ولما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه ولى على مكة علي بن عدي بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف^٥، ثم جاء من بعده خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي^٦، فقتل عثمان رضي الله عنه وهو عليها^٧، إلا أن رواية أخرى قالت أنه بعد علي بن عدي جاء أحمد بن خالد بن العاص^٨، حيث أقام على ولاية مكة إلى أن عزله علي بن أبي طالب رضي الله عنه^٩.

^١ ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٦ ص ٤٨-٤٩.

^٢ الصلابي: عصر الدولتين الأموية والعباسية ص ٨. العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ١٣٠.

^٣ العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ١٣١.

^٤ الشريف: دور الحجاز ص ٤٦٢.

^٥ ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٧٨. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٢٤٧. راوه: جداول ص ٢٣.

^٦ العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ١٣٧٠.

^٧ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ١٩٦.

^٨ العلي: الحجاز ص ٣٣٣.

^٩ الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٥٦.

وولي مكة أيضاً لعثمان رضي الله عنه الحارث بن نوفل من بني عبد المطلب، وعبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية؛ ابن أخي عتاب. ووليها كذلك كلاً من عبد الله بن عامر الحضرمي، ونافع ابن عبد الحارث الخزاعي.^١

أما الطائف فيبدو أن مجمل ولاية مكة كانت تمتد سلطتهم إلى الطائف في عهد عثمان رضي الله عنه،^٢ على أن ثمة رواية أوردت أن آخر عمال عثمان رضي الله عنه على الطائف كان القاسم بن ربيعة الثقفي^٣، عندما كان أحمد بن خالد بن العاص المخزومي والياً على مكة.^٤ أما جدة فقد ولى عليها عثمان الحارث بن نوفل بن الحارث للمرة الثانية بعد أن ولاه رسول

الله ﷺ عليها عند فتح مكة^٥، كما سلف أن عثمان رضي الله عنه ولاه مكة. وبشكل عام، يبدو أن سلطات والي مكة كانت واسعة وشاملة للولاية بأسرها حيث امتدت من جدة على البحر إلى الطائف في الداخل مروراً بمركز الولاية مكة المكرمة. وبعد مقتل عثمان رضي الله عنه واستتباب أمر الخلافة لعلي رضي الله عنه، قام وعزل أحمد بن خالد بن العاص المخزومي حسبما أورد الفاسي^٦، أو عزل خالد بن سعيد بن العاص حسبما أورد ابن خياط^٧، وولى أبا قتادة الأنصاري فارس رسول الله ﷺ على مكة المكرمة^٨، وبعد أن عزل أبا قتادة ولى مكانه قثم

^١ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٢٤٧. راوه: جداول ص ٢٣. زامباور: معجم الأنساب ص ٢٧.

^٢ العلي: الحجاز ص ٣٣٣.

^٣ ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٢٣. العلي: الحجاز ص ٣٣٣. العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ١٣٧.

^٤ العلي: الحجاز ص ٣٣٣.

^٥ ابن حجر: الإصابة ج ١ ص ٦٠٤. الجدي: السلاح والعدة ص ١٦.

^٦ شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٥٨.

^٧ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٢٣٢.

^٨ ابن خياط: المصدر المتقدم ص ٢٣٢. الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٥٧. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٢٤٧. زامباور: معجم الأنساب ص ٢٧. العلي: الحجاز ص ٣٣٣. الزركلي: (خير الدين) الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م، ط ١٥، ج ٢ ص ١٥٤.

ابن العباس، ابن عم علي عليه السلام، واستمر قثم في عمله إلى أن قتل علي عليه السلام^١، وقيل إن أخاه معبد بنالعباس ولي مكة لعلي عليه السلام^٢، أما قثم فقد كان والي المدينة.^٣ وذهبت بعض الروايات لتوسيع صلاحيات قثم، فأوردت الأولى أن علي عليه السلام استعمل قثم على مكة والطائف وما اتصل بذلك^٤، وأوردت أخرى بأن علي عليه السلام لما ولي الخلافة استعمل قثماً على

مكة، فلم يزل عليها حتى استشهد علي عليه السلام.^٥

ولعل إجماع المصادر على تولية علي عليه السلام لقثم بن العباس على مكة والطائف فيه دلالة واضحة على أنه كان من الهاشميين المخلصين للخليفة من جهة، ومشيه بسيرة حسنة مع جيران بيت الله في مكة، وبذله الجهد الكبير في سبيل الإصلاح من جهة أخرى. أضف لما سلف القلائل التي سادت في عهد علي عليه السلام، وعدم تفرغه لمسائل تعيين وعزل الولاة، ولا سيما على مكة والطائف. أما الرواية التي تحدثت عن ولاية قثم على المدينة، فلعل سفر علي عليه السلام إلى العراق كان وراء ذلك، حيث عهد إليه بولاية مكة والمدينة، وليس من الغريب أن يقطن قثم في المدينة مركز الدولة آنذاك، وأن يبعث من يمثله وينوب عنه إلى مكة كأخيه معبد ليحكمها باسمه، ولعل هذا الأمر يسوغ تعدد الروايات.

^١ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٢٣٢. ابن عساكر: (أبو القاسم علي بن الحسن) تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥م، ج ٦٧ ص ١٥١. ابن الأثير: (علي بن محمد) الكامل في التاريخ، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١، ج ٣ ص ١٥٠. الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٥٨. الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ، ط ٩، ج ٣ ص ٤٤١. العلي: الحجاز ص ٣٠٥.

^٢ ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ١٨. السنجاري: منائح الكرم ج ١ ص ٥٣٤.

^٣ ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ١٨. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٤٤١.

^٤ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ٧٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٧٤٨. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٢٨. العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ١٤٤.

^٥ الذهبي: تاريخ الإسلام (عهد معاوية) ص ٢٨٨. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٢٤٧.

وما إن أهل عام ٤٠ هـ / ٦٦٠ م حتى انطلقت جيوش معاوية لتسيطر على الولايات التابعة لعلي رضي الله عنه ومنها المدينة ثم مكة، والتي سلف ووصلتها أخبار اغتيال علي رضي الله عنه بالعراق، فخرج أهل مكة إلى قائد جيوش علي رضي الله عنه جارية بن قدامة صائحين: "لمن نبايع؟ وهذا علي مقتول"، فأبى إلا أن يأخذ البيعة لمن يتولى خلافته، فقبلوا بذلك.^١

٣- مهام الولاية:

كان رسول الله ﷺ يزود عماله بتعليمات إدارية أولية وكانت المهمة الإدارية للعمال هي إقامة الصلاة، وتعريف المصلين بالإسلام كونهم حديثو العهد به، أما بقية الأمور الإدارية فقد تركت للوالي يديرها حسب معرفته بطبيعة الولاية، وعلى أساس النظم السائدة فيها.^٢

كما كانت من أهم مسؤوليات الوالي حماية حدود ولايته من الأخطار المحدقة بها سواء الداخلية منها أم الخارجية. وينطبق هذا الكلام على طول عهد الخلفاء الراشدين، أي أن الوالي كان خادماً وراعياً لقاطني ولايته قبل أن يكون سيداً عليهم، والحديث عن مجمل الأوضاع لاحقاً سيوضح ذلك.

• الوضع الديني:

مما لاشك فيه أن وضع مكة الديني خلال عصر الرسول ﷺ شهد انقلاباً جذرياً، من الشرك بالله عز وجل إلى الإيمان به وبوحدانيته واتباع تعاليم الدين الجديد.

كما أكد رسول الله ﷺ على حرمة مكة وبيوتها حيث قال: "مكة حرام لا يحل بيع رباعها ولا أجور بيوتها"^٣، وسميت الدور والمساكن في عصر رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين بالسوائب في مكة

^١ السباعي: (أحمد) تاريخ مكة المكرمة، مكة المكرمة، نادي مكة الثقافي، ١٩٩٤م، ص ٧٩.

^٢ كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص ١٠٠.

^٣ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥٠. المحب الطبري: القرى ص ٦٤٦. الدار قطني: (أبو الحسن علي بن عمر) سنن الدار قطني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٤م، ط ١، ج ٣ ص ٥٧. البيهقي: سنن البيهقي الكبرى ج ٦ ص ٣٥.

لا تكرى ولا تباع من احتاج سكن ومن استغنى أسكن^١، وساعد رسول الله ﷺ في أمور الدين بعض أصحابه وولاته.

وشهد الوضع الديني فيعهد أبي بكر ﷺ فيه متغيرات مهمة؛ كردة العرب عن الإسلام، وامتناع البعض عن تأدية الزكاة لخليفة رسول الله ﷺ أبو بكر ﷺ، ولم يثبت على الإسلام سوى أهل مكة والطائف، والذين شغلوا الدور الكبير والمميز في تشكيل الجيوش الإسلامية للقضاء على المرتدين وأعدائهم. ثم وافت أبو بكر ﷺ المنية وآلت أمور الدولة إلى بعده إلى عمر بن الخطاب ﷺ فشهد عهده استقراراً واضحاً مكنه من الالتفات إلى الشؤون الداخلية للدولة الإسلامية الناشئة، فاستمر في إتباع وصايا رسول الله ﷺ وسنته الشريفة، وبالنسبة لمكة أمر عمر ﷺ أهلها ألا يتخذوا لدورهم أبواباً^٢، لينزل البادي حيث يشاء، كما أبان لعامله على الطائف سفيان بن عبد الله الثقفي الحكم في زكاة العسل، بعد أن شكاه له عامله بأن "أصحاب العسل لا يرفعون إلينا ما كانوا يرفعون إلى رسول الله ﷺ وهو من كل عشرة زقاق زق"^٣، فائلين: "إنما ذلك شيء كنا نؤديه لرسول الله ﷺ"، فكتب إليه عمر "إن فعلوا فاحموا لهم أوديتهم وإلا فلا تحموها"^٤، فأدوا إليه ما كانوا يؤدون لرسول الله ﷺ وحمى لهم أوديتهم.^٥

وكان لجهود عمر ﷺ الأثر الكبير في انتشار الفتوحات الإسلامية، ورفع راية الحق والإسلام، واستمرت الأمور على هذا المنوال في عهد عثمان ﷺ، فلم يدخر جهداً لنشر راية الإسلام وعلى مختلف الجبهات. وكان عهد عثمان رضي الله عنه بالتحديد من أطول العهود في الخلافة الراشدة،

^١ الأزرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٣. الدار قطني: سنن الدار قطني ج ٣ ص ٥٨. البيهقي: سنن البيهقي الكبرى ج ٦ ص ٣٥.

^٢ الأزرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٣. ابن زنجويه: الأموال ج ١ ص ٢٠٧. البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١-٦٥.
^٣ زقاق مفردتها زق، السقاء، وعاء للشراب من الجلد وهو الذي ينقل فيه الخمر. انظر: الفراهيدي: (الخليل بن أحمد) كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، إيران، دار الهجرة، ١٤٠٩ هـ، ط ٢، مادة زق ج ٥ ص ١٣. ابن منظور: (محمد بن مكرم) لسان العرب، مادة زقق، ج ١٠ ص ١٤٣.

^٤ ابن زنجويه: الأموال ج ٣ ص ١٠٨٩. البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١-٦٥.

^٥ ابن زنجويه: الأموال ج ٣ ص ١٠٩٠.

فشهد انضمام العديد من الأمصار إلى حظيرة الإسلام والمسلمين. بينما كان عهد علي عليه السلام حافلاً بالصراعات الداخلية، ولاسيما بينه وبين معاوية على الخلافة، مما كان له دور كبير في صرفه عن الفتوحات الخارجية، وأسهمت أقلام المؤرخين بوصف ما حدث سياسياً، مما أدى إلى تجاهل الوضع الديني وما سواه، والذي اهتموا بالحديث عنه في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم جميعاً.

• الوضع العمراني:

(١) في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله:

كان عمران مكة في عصر الرسول صلى الله عليه وآله محصوراً في نطاق ضيق نظراً لغلبة الأحداث السياسية، التي أفضت إلى تشكيل نواة الدولة العربية الإسلامية في المدينة المنورة، إلا أن هذه الأحداث وتسارعها لم تكن لتمنع رسول الله صلى الله عليه وآله من الاهتمام بالكعبة المشرفة وكسوتها، فقد كساها صلى الله عليه وآله كسا الكعبة بالثياب اليمنية^١، وبعث تميم بن أسد الخزاعي عام الفتح ٨/٦٢٩م ليجدد أنصاب الحرم^٢، لتصبح سنة فيما بعده.

(٢) في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم:

^١ الأزرقى: أخبار مكة ج١ ص ٢٥٤. البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥٣. ابن الجوزي: مثير الغرام الساكن ص ٢٥٦. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ١٠٠. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١١٨.

^٢ الأزرقى: أخبار مكة ج٢ ص ١٢٧-١٢٨. الفاكهي: أخبار مكة ج٢ ص ٢٧٦. ابن قيم الجوزية: (محمد بن أبي بكر) زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٤، ١٩٨٦م، ج ٣ ص ٤١٣. ابن حجر: الإصابة ج ١ ص ٣٦٧. الكتاني: (محمد عبد الحي بن عبد الكبير) التراتيب الإدارية، تحقيق: عبد الله الخالدي، بيروت، دار الأرقم، د.ت، ط ٢، ج ١ ص ٣٦٧.

ولم يشهد عهد أبي بكر رضي الله عنه أعمالاً عمرانية تُذكر لانشغاله بأمور الردة والمرتدين، بيد أنه كسا الكعبة القباطي^١، أضف إلى ذلك حفره رضي الله عنه بئر الياقوتة التي بمنى^٢، وهو أول من حفرها^٣. وبالمقابل حقق الوضع العمراني في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنجازات كبيرة، ويبدو أنها توزعت على ما يأتي:

أ-توسعة المسجد الحرام:

مع استمرار عمليات الفتوحات الإسلامية على مختلف الجبهات، وازدياد عدد المسلمين الراغبين بزيارة مكة، إلى جانب توفر الأموال اللازمة، كان لا بد من توسعة المسجد الحرام، وقد بدأت جهود عمر رضي الله عنه في عملية التوسعة بأن قرر أن الناس هم من ضيقوا على الكعبة وألصقوا دورهم بالمسجد الحرام، فعزم عمر رضي الله عنه على شراء الدور الملاصقة للمسجد وهدمها، ووسع المسجد الحرام، ثم أحاطه بجدار ارتفاعه نحو القامة^٤، وجعل فيه أبواباً بدلاً من الأربعة، وعلّق عليها السرج والقناديل، ولهذا قال علي رضي الله عنه "نور الله قبر عمر كما أنار مساجدنا"^٥، فعمر رضي الله عنه أول من سرج المسجد، وأمر بتجديد أنصاب الحرم، وكلف كلاً من مخزومة بن نوفل والأزهر بن عبد عوف وحويطب بن عبد العزى وسعيد بن يربوع^٦.

^١ ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١١٨. والقباطي: بفتح القاف، ثوب رقيق أبيض من ثياب مصر. انظر: المحب الطبري: القرى ص ٥١٤. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ١٠٠. العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ٢٤٨. الشريف: مكة والمدينة ص ١٧٧. ^٢ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٢٤. الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٢٤. ^٣ الفاكهي: المصدر المتقدم ج ٣ ص ٢٢٤. ^٤ ابن الجوزي: مثير الغرام الساكن ص ٢٥٣. العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ٢٤٧. راوه: جداول ص ٢٢. ^٥ الخربوطلي: (علي حسني) تاريخ الكعبة، بيروت، دار الجيل، د. ت، ص ١٧٠. ^٦ راوه: جداول ص ٢١-٢٢.

^٦ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ١٣٠. الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٧٣-٢٧٤. البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٦١. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، بيروت، دار صادر، ١٣٥٨هـ، ط ١، ج ٤ ص ٢٣١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٦٠-٢٦١. ابن فهد: إتحاف الورى ج ٢ ص ٩. الهندي: (علي بن حسام الدين) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حيان وصفوة السقا، بيروت، مؤسسة الرسالة،

ب- كسوة الكعبة:

كان عمر رضي الله عنه ينزع كسوة البيت في كل سنة ويقسمها على الحاج^١, حرصاً منه على

كسوتها كل عام, فقد كساها القباطي^٢ من بيت المال^٣, حيث كان يكتب إلى مصر لتحاك له.^٤

ج- عمل الردم:

ومن الإصلاحات العمرانية الخدمية الكبرى في مكة, قيام عمر ببناء ردماً أو سداً كبيراً من الصخور والتراب^٥, في مكان مرتفع لتصريف مياه السيول ومنعها من دخول المسجد الحرام^٦, ومن آثار هذا العمل وإيجابياته تأثيره الكبير في إحياء المنطقة التي كانت في شمال المسجد^٧, والتي كانت فيما يبدو مهجورة خوفاً من مخاطر السيول التي تجتاحها وتهددها.

١٩٨١م, ط٥, ج ١٤ ص ١١٥. أبو يعلى: (محمد بن الحسين) الأحكام السلطانية, تحقيق: محمد حامد الفقي, بيروت, دار الكتب العلمية, ٢٠٠٠م, ط٢, ص ٢٢٥.

١ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٢٥٤. ابن ظهيرة: الجامع ص ١٠٠. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٢١.

٢ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٢٥٤. البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥٥. ابن الجوزي: مثير الغرام الساكن ص ٢٥٦. المحب الطبري: القرى ص ٥١٦. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١١٩. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ١٠٠.

٣ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٢٦٠. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١١٩. العمري: عصر الخلافة ص ٢٤٨.

٤ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٢٥٤.

٥ هورخورنيه: صفحات من تاريخ مكة ج ١ ص ٩٤.

٦ رواه: جداول ص ٢١.

٧ العلي: الحجاز ص ٥٦٠.

ولعل السبب المباشر الذي دفع عمر إلى عمل هذا الردم، السيل الكبير الذي دهم مكة عام ١٧هـ/٦٣٨م، والذي سمي بسيل أم نمشل^١ كونها قتلت بذلك السيل الجارف، حيث عثر عليها بأسفل مكة، كما اقتلع السيل مقام إبراهيم عليه السلام^٢، وذهب به حتى وجد بأسفل مكة، وحالما علم عمر رضي الله عنه جاء مكة فزعاً، حتى ردم المقام مكانه وعمل الردم، ويبدو أن هذا الردم كان ناجحاً فلم يعله سيل لغاية عام ٨٢هـ/٧٠١م.^٣

د- توسعة شوارع مكة:

عني عمر رضي الله عنه بشوارع مكة^٤ وتوسعتها أمام المسلمين والوافدين إليها كما استأذنه أهل المياه في أن يبنوا منازل بين مكة والمدينة ولم تكن قبل ذلك، فأذن لهم وشرط عليهم أن ابن السيل أحق بالظل والماء^٥. ولا يخفى على أحد أهمية الطرق سواء كانت الداخلية أم الخارجية في تنشيط الحياة العامة في مكة من جميع نواحيها، ولا سيما في مواسم الحج.

واستمر النشاط العمراني في عهد عثمان رضي الله عنه، حيث أكمل خطوات سلفه، ويبدو أن أعماله العمرانية توزعت على ما يلي:

أ-توسعة المسجد الحرام:

^١ أم نمشل بنت عبيدة بن أبي سعيد بن العاص بن أمية. انظر: الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٣. الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٠٥. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٢٨. ابن حجر: الإصابة ج ٨ ص ٣١٦.
^٢ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٧. العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ٢٥٠.
^٣ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٧. الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٠٦. ابن فهد: إتحاف الورى ج ٢ ص ٧-٨. الهندي: كنز العمال ج ١٤ ص ١١٧-١١٨. العلي: الحجاز ص ٥٥٩.
^٤ راوه: جداول ص ٢٢.

^٥ ابن الجوزي: المنتظم ج ٤ ص ٢٣١. ابن كثير: (أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي ت ٧٧٤هـ) البداية والنهاية في التاريخ، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٦م، ج ٧ ص ٨١. أبو يعلى: الأحكام السلطانية ص ٢٢٥.

استمر عدد المسلمين بالازدياد نتيجة الفتوحات الإسلامية، فكان لا بد من التفكير مجدداً بتوسعة المسجد الحرام للمرة الثانية، ففي عام ٢٦هـ/٦٤٦م، بدأ عثمان رضي الله عنه بالتوسعة^١ كما فعل سلفه، ويبدو أن عثمان رضي الله عنه زاد على التوسعة الأفقية إضافات خدمية تجميلية للمسجد، فلقد جعل للمسجد الأروقة المسقوفة، وهي أول أروقة أظلت المسلمين بالمسجد الحرام^٢، كما أمر عثمان رضي الله عنه عبد الرحمن بن عوف أن يجدد أنصاب الحرم، فبعث ابن عوف كلاً من حويطب بن عبد العزى وعبد الرحمن بن أزهر ونفراً من قريش، يجددون أنصاب الحرم في كل سنة.^٣

ب-كسوة الكعبة:

كسا عثمان رضي الله عنه الكعبة - في بداية عهده - القباطي^٤، حيث كان يكتب فيها إلى مصر لتحاك له هناك^٥، غير أنه ذات مرة كساها بروداً يمانية أمر بعملها عامله على اليمن يعلى بن منبه^٦، كما يروى بأن عثمان رضي الله عنه أول من ظاهر بكساء الكعبة كسوتين؛ القباطي والبرود.^٧ أما الوضع العمراني في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فيبدو أنه لم يشهد نشاطاً كعهد سابقه عمر وعثمان رضي الله عنهما، ولم يحصل أي من الأعمال بمكة المكرمة لانشغاله بحروب الخوارج^٨ وغيرها من

^١ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٦٩. البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥٣. ابن حبان: (محمد بن حبان) ثقات ابن حبان، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٣م، ج ٢ ص ٢٤٦. البكري: المسالك والممالك ج ١ ص ٣٩١. ابن الجوزي: مثير الغرام الساكن ص ٢٥٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٤٦١. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١١٩. ابن فهد: إتحاف الورى ج ٢ ص ١٩.

^٢ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥٤. راوه: جداول ص ٢٣. الخربوطلي: تاريخ الكعبة ص ١٧٠.

^٣ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٧٦. ابن حبان: ثقات ابن حبان ج ٢ ص ٢٤٦. ابن فهد: إتحاف الورى ج ٢ ص ١٨. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٧ ص ١٥١. الهندي: كنز العمال ج ١٤ ص ١١٤.

^٤ ابن الجوزي: مثير الغرام الساكن ص ٢٥٦.

^٥ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ١٥٤. راوه: جداول ص ٢٣.

^٦ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٢٦٠. ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ، ج ١٣ ص ٢٤١.

^٧ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٢٦٠. البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥٥. المحب الطبري: القري ص ٥١٦. ابن حجر: فتح الباري ج ٣ ص ٤٦٠. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١١٩.

الأحداث. ولعله يمكن القول بأن عهد علي عليه السلام وإن لم يشهد توسعة للمسجد الحرام، أو انفراد في كسوة الكعبة بشي مميز، إلا أن الاهتمام بالمعالم الدينية والعمرانية استمر، فالكعبة كانت لها كسوتها، والمسجد الحرام كان له نصيبه من الاهتمام، وكذلك أنصابه وحدوده، وكان لطرق مكة وشوارعها نصيبها هي الأخرى من الاهتمام لكي تخدم العدد المتزايد من المسلمين والوافدين على مكة، وإن علي عليه السلام لم يكن ليقصر بأي عمل يرى فيه مصلحة مكة وساكنيها والمسلمين أجمعين.

• الوضع الاجتماعي:

شهد هذا الوضع في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة، والخلفاء الراشدين عامة تطوراً كبيراً وملحوظاً، ولم يرق هذا التطور إلى أن يكون انقلاباً جذرياً، فعندما جاء الإسلام إلى مكة حاملاً رسالته السمحاء، وجد أنه ثمة عادات وتقاليد وأعراف حميدة كانت تسود مكة قبل الإسلام، كإقراء الضيف وإغاثة الملهوف، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"^٢، وبلطف آخر: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"^٣، وبالمقابل فقد سادت في مكة العديد من العادات الاجتماعية السيئة والذميمة؛ كؤاد البنات والتعامل بالربا، أضف إلى ذلك التعالي والتكبر. واستمر هذا الوضع الاجتماعي حتى بزغ نور الإسلام في مكة، حيث وجد العبيد فيه ضالتهم المنشودة للخلاص مما يحيق بهم من ظلم وجور.

فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وغفار وأشجع موالي، ليس لهم مولى دون الله ورسوله"^٤، لقد رفع الإسلام مقام العديد من القبائل لتفاخر بنسبها أرفع

^١ راوه: جداول ص ٢٥.

^٢ البيهقي: سنن البيهقي الكبرى ج ١٠ ص ١٩١.

^٣ البخاري: (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي) الأدب المفرد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ١٩٨٩م، ط ٣، ص ١٠٤.

^٤ البخاري: صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر) تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت، دار ابن كثير، ١٩٨٧م، ط ٣، ج ٣ ص ١٢٩٠. مسلم: (أبو الحسين مسلم بن الحجاج) صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث، د.ت، ج ٤ ص ١٩٥٤. البيهقي: سنن البيهقي الكبرى ج ٢ ص ٢٠٠. الخلف:

القبائل التي كانت سائدة قبل الإسلام^١، فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفس محمد بيده، لغفار وأسلم ومُزَيِّنَةٌ ومن كان من جهينة أو قال جهينة، ومن كان من مُزَيِّنَةٍ خير عند الله يوم القيامة من أسد وطىء وغطفان"^٢.

وفي معرض الحديث عن الوضع الاجتماعي يمكن القول أنه سادت بعض النشاطات الرياضية الاجتماعية، والتي كانت تستقطب الناس من حولها لتصبح أشبه بمهرجان يحضره الناس ليستمتعوا به مع أقرانهم، ولعل أشهرها لعبة الكرة، كما وردت بلفظ الكُرْك، فيروى أنه لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه مكة، فرأى الكرك يُلعب به، فقال: "لولا أن رسول الله ﷺ أقرَّك ما أقررتك"^٣، وكان لكل حارة من حارات مكة كرك يعرف بهم، ويُجمعون له، ويلعبون في كل موضع وحارة في كل عيد.^٤ وفي عهد علي رضي الله عنه قدم رجل من أهل مكة، فقال له علي رضي الله عنه: "كيف تركت قريشاً والناس بمكة؟ فقال: تركت فتیان قريش يلعبون بالكرة بين الصفا والمروة".^٥

أما فيما يتعلق بالهجرة من مكة وإليها، فلا شك أنها في تحرك دائم، فثمة رجال من الصحابة هاجروا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، طامعين في البقاء معه ﷺ، يتعلمون منه أصول دينهم، وفقه عباداتهم، ولكن الهجرة منها أو إليها استمرت، وكانت تصل إلى الذروة في حقبة الحج. لقد كان لظاهرة الهجرة لدى المكيين آثاراً متعددة، ونتائج انعكست على مختلف نواحي الحياة، ولعل أهم أثر لها كان اجتماعياً، حيث تمازجت الدماء واختلطت الأعراق، ونشأ جيل جديد،

(عبد الله) مجتمع الحجاز في العصر الأموي بين الآثار الأدبية والمصادر التاريخية، المدينة المنورة، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ٢٠٠١م، ط ١، ص ١٤.

^١ الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٤.

^٢ البخاري: صحيح البخاري ج ٣ ص ١٢٩٤. مسلم: صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٥٥. الشريف: مكة والمدينة ص ١٨٩.

^٣ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٣٤.

^٤ الفاكهي: المصدر المتقدم ج ٣ ص ٣٤.

^٥ المصدر نفسه ج ٣ ص ٣٥.

بصفات جديدة، حقاً لقد أثر المكيون في الفئات التي قطنت أرضهم، وبالمقابل تأثروا بهم، من حيث اللباس والطعام والشراب، والعادات الاجتماعية المتنوعة. وفي الختام يبدو بأن أخوة الإسلام حلّت مكان أخوة الدم، وأصبحت المفاخرة بالدين، كما يمكن القول أن السمة العامة للوضع الاجتماعي في هذه الحقبة كان الزهد^١، كما كانت السمة العامة للحياة المعيشية للناس التقشف والفقر الغالب عليهم، ولاسيما في البادية، حيث كانوا يعيشون في غاية البساطة، وكانوا يعانون من شظف العيش وشدته^٢.

• الوضع الاقتصادي:

شهدت النشاطات الاقتصادية في ولاية مكة المكرمة في هذه الحقبة تنوعاً متبايناً، فكان لكل من مكة والشعبية تلتها جدّة نشاطاً تجارياً واضحاً وملحوظاً، إلى جانب بروز بعض الحرف والصناعات، ولاسيما في مكة. أما الطائف وما حولها من القرى والأودية المحيطة بها، فقد كان عصب الاقتصاد فيها يعتمد على الزراعة بشكل رئيسي، إلى جانب بروز بعض الصناعات المرتبطة بالزراعة وتربية الحيوان، كما مارس بعض أهلها التجارة، وكان لهم ارتباطات مع تجار مكة وسواها، كان للعباس عليه السلام أرضاً هناك، كما كانت لعامة قريش أموال بالطائف، يأتونها من مكة فيصلحونها^٣. أي أن أثرياء مكة تمكنوا من شراء أراضٍ في الطائف، وضح أموال ساعدت على توفير فرص عمل حقيقية لأهل الطائف، وزيادة مساحة الأراضي الزراعية؛ وبالتالي زيادة الإنتاج. تلبية لاحتياجات مكة المكرمة من الزراعة والمتاجرة بالمواد المصنعة في الأسواق والمواسم، أضف إلى ذلك أن اعتماد أهل مكة على الطائف لم يكن الوحيد، إنما كانت هناك قبائل السرو؛ كبجيلة وزهران

^١ الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٦١.

^٢ الخلف: المرجع المتقدم ص ١٦٣.

^٣ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٦٤.

وغامد^١، وأخلاط من جبلة وخنعم^٢، الذين كانوا يأتون مكة للعمرة أو الحج، ويحملون معهم ضروباً من الأطعمة؛ كالحنطة وسائر الحبوب، ويحلبون السمن والعسل والزبيب واللوز، فتجتمع ميرتهم بين الطعام والإدام والفاكهة.^٣

ومن آثار قدوم ميرتهم على مكة رخص الأسعار، والادخار منها حتى قدومهم العام التالي، وقد اتبعوا أسلوب المقايضة بدلاً من البيع والشراء، الأمر الذي يوضح مدى بدوية هذه القبائل، وبعدهم عن الصناعة وعدم درايتهم بها، فلا يجدون بُدّاً من مقايضة بضائعهم ببعض المواد المصنعة، والموجودة في أسواق مكة، أضف إلى ذلك عدم تداولهم للعملة النقدية المعروفة بمكة آنذاك في قضاء حاجاتهم. وخير ما يشير إلى أهمية قدوم ميرة السرو على مكة قول أهل مكة: "حاج العراق أبونا نكسب منه الذهب، والسرو أمانا نكسب منهم القوت".^٤

ولعل أهل مكة كان يعشرون حاج العراق في موقع يقال له السطح^٥، مع العلم بأن العشور على التجارة لم تُفرض في عصر الرسول ﷺ وخلافة أبي بكر رضي الله عنه، بل فرضها عمر رضي الله عنه. أما تجار المسلمين فلا يدفعون سوى الزكاة وهي ربع العشر^٦، ولا توجد إحصائيات توضح موارد بين المال من العشور في عصر الخلافة الراشدة^٧، ولا شك أن هذه العشور كانت تساهم في خدمة أبناء مكة، وتُعينهم على القيام بالخدمات اللازمة للمسجد الحرام، وزائريه من المعتمرين والحجاج.

^١ ابن جبير: (أبو الحسين محمد بن أحمد) رحلة ابن جبير، بيروت، دار بيروت، د.ت، ط ١، ص ١١٠. ابن بطوطة: (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، ١٤١٧هـ، ج ١ ص ٤٠٢.

^٢ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ٢٨٦.

^٣ السمعاني: (أبو سعيد عبد الكريم بن محمد) الأنساب، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، بيروت، دار الجنان، ١٩٨٨م، ط ١، ج ٣ ص ٢٥١. ابن عبد الحق: مرصد الإطلاع ج ٢ ص ٧١١.

^٤ ابن الجاور: تاريخ المستبصر ص ٢٧.

^٥ ابن عبد الحق: مرصد الإطلاع ج ٢ ص ٧١٣.

^٦ العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ٢١٧.

^٧ البيهقي: سنن البيهقي ج ٤ ص ٨٦. العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ٢١٧.

^٨ العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ٢١٧.

وممن عمل بالتجارة في مكة تجار النبط^١، وكانت تخفف عنهم العشر إذا جلبوا الحنطة والزيت لحاجة الناس إليهما، أما إذا جلبوا العدس والحمص واللوبياء وما شاكلها مما لا تشتد إليه الحاجة لتوفره محلياً، فكان يؤخذ منهم العشر^٢. هذا وبالنسبة للتجار من داخل ولاية مكة، فقد كان في مكة موالي لهم دقة نظر في التجارة، وتشدد في الإمساك والضبط لما في أيديهم، وكان يقال لهم الخوز^٣، وسكنوا بشعب من شعاب مكة نسب إليهم^٤. أما تجار الطائف، فقد كانوا خليطاً، قسم منهم من العرب، وقسم من اليهود الذين فرضت عليهم الجزية.^٥

وبالعودة إلى مكة، فقد كان رسول الله ﷺ قد عين على سوق مكة المكرمة بالحزورة^٦ سعيد بن سعيد بن العاص القرشي الأموي^٧، وكانت هذه السوق من الأسواق الدائمة في مكة وعلى مدار العام، وكان يتم التبادل التجاري فيها مع القبائل القريبة منها^٨، فمنهم من يأتي إليها بحيوانات

^١ جيل من الناس نزلوا سواد العراق، ثم استعمل في أخلاط الناس من غير العرب وعوامهم، انظر: الكتاني: التراتيب الإدارية ج ٢ ص ١٨. شراب: المعالم الأثرية ص ١٤٥. قلعجي وقتبي: (محمد وحامد) معجم لغة الفقهاء، بيروت، دار النفائس، ١٩٨٨م، ط ٢، ص ٤٧٤.

^٢ العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ٢١٧.

^٣ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٧٥. العلي: الحجاز ص ٦٧٢.

^٤ وكان أول من سكن نافع بن الخوزي مولى عبد الرحمن بن نافع الخزاعي وقيل مولى نافع نفسه. انظر: الأزرقى: في أخبار مكة ج ٢ ص ٢٧٥. الفاكهي: أخبار مكة ج ٤ ص ٢٠٧. العلي: الحجاز ص ٦٧٢.

^٥ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٦٤.

^٦ الحزورة: لغوياً الرابية الصغيرة، وهي مرتفع يقابل المسعى من مطلع الشمس، ودخلت في توسعة المسجد فيما بعد. الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٩٥. الفاكهي: أخبار مكة ج ٤ ص ٢٠٧. ابن عبد الحق: مرصد الإطلاع ج ١ ص ٤٠٠. البلاذري: معجم المعالم الجغرافية ص ٩٨. شراب: المعالم الأثرية ص ١٠٠. برو: تاريخ العرب القديم ص ١٩٢.

^٧ الخزاعي: تخريج الدلالات ص ٣٠٧. الصفدي: (صلاح الدين خليل بن أيبك) الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركلي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث، ٢٠٠٠م، ج ١٥ ص ١٣٩. ابن حجر: الإصابة ج ٣ ص ١٠٥. الكتاني: التراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٤٠. كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص ٢٤٣.

^٨ الشريف: مكة والمدينة ص ١٧٩. الفيومي: (محمد إبراهيم) تاريخ الفكر الديني الجاهلي، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٤م، ط ٤، ص ٣٧٨.

الجزيرة ومنتجاتها، والأطعمة والأشربة لبيعها، ومنهم من يأتي لشتريها، وكان سوق مكة يزدهر في مواسم الحج بشكل خاص^١، وكانت مهمة صاحب السوق أن تدفع له في بعض الأحيان العشور، وكان سعيد بن العاص أول محتسب في الإسلام يراقب الأسواق في مكة.^٢

ويبدو أن تعيين سعيد بن سعيد بن العاص القرشي الأموي، وعُتاب بن أسيد الأموي على مكة عقب الفتح، فيه دلالات واضحة منها أن رسول الله ﷺ كان يريد إرضاء بعض الأمويين فاستعملهم في شؤون الدنيا، من ولاية وأسواق وجمع ضرائب وما إلى ذلك، أما الأمور الدينية الفقهية فقد أوكّلها ﷺ إلى قوم آخرين أمثال معاذ بن جبل ؓ. وبالإضافة إلى سوق مكة الدائم، كان ثمة أسواق موسمية متعددة تنعقد في أرجاء الولاية ونواحيها، محددة بزمان ومكان معينين، وسيسلط البحث عنهم الحديث لاحقاً، كون مجمل الأسواق استمرت إلى نهاية عصر الدولة الأموية، مثل سوق عُكاظ والمجنة وذو المجاز وحُباشة.

وقبل الانتقال للحديث عن الصناعة والحرف في ولاية مكة، لابد من الإشارة إلى أن الإمامة كانت بمثابة ريف مكة^٣، ومن يرسل الحنطة إلى مكة في عصر الرسول ﷺ.^٤

أما الصناعات والحرف فقد كانت معظم مراكز الولاية تحتوي على مراكز صناعية وحرف كمكة والطائف وجدة، ومعظم من كانوا يجيدون الحرف والصناعات في الغالب من الموالي والعبيد، نظراً لنفور العرب، واحتقارهم للصناعات وأنفتهم منها.^٥

ولابد من القول هنا بأن ازدياد العرب للصناعة لم يكن السبب الرئيسي لانصرافهم عنها، وسيطرة الموالي والعبيد عليها، بل كان هناك أسباب أخرى، أهمها بأن العرب كانت مولعة بالتجارة

^١ الشريف: مكة والمدينة ص ١٧٩.

^٢ كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص ٢٤٣. عبد اللطيف: (عبد الشافي) السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، القاهرة، دار السلام، ١٤٢٨ هـ، ط ١، ص ١٥٧، ص ١٤٩.

^٣ البيهقي: سنن البيهقي الكبرى ج ٩ ص ٦٦. ابن قيم: زاد المعاد ج ٣ ص ٢٧٧. الندوي: السيرة النبوية ص ١٣٩. غلوش: (أحمد) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٣ م، ص ٤٦٨.

^٤ العلي: الحجاز ص ١٧٥.

^٥ كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص ١٧٥. الندوي: السيرة النبوية ص ١٤٤.

وبافتناء الخيل والجمال والمواشي^١، وكانوا مسرورين بعملهم هذا، كونه يدر كسباً سريعاً ووفيراً، كما كان لهم من أساليب إقناع الزبون بالبيع أو الشراء ما لم يكن لغيرهم، أضف إلى ذلك ألفاظهم الجزلة وشعرهم الرصين، كل هذه الأمور وغيرها دفعت قلوب الناس إليهم فازدهرت تجارتهم، أضف إلى ما سلف أن رسول الله ﷺ كان محباً للتجارة، ولم يمنع أصحابه من الشخوص إليها.^٢

إلا أن محبة العرب للتجارة والبيع والشراء، لم تحل دون تعلم البعض منهم الحرف، فلقد وُجد عدد من القرشيين ممن كانوا يمارسون الحرف، ولعل خير مثال على ذلك ما روي أن الزبير بن العوام وعمرو بن العاص كانا خزازين، أي يعملون الخزّ وهي نساجة تنسج من صوف وإبرسيم^٣، كما كان عثمان بن طلحة الذي دفع إليه النبي ﷺ مفتاح الكعبة خياطاً^٤، وكان عمار بن ياسر يعمل بالبناء، وهو أول بناء في الإسلام، فيما كان خبّاب بن الأرت يعمل بالحدادة، وكان يدعى من يعمل فيها قيناً^٥، وبالإضافة إلى هذه الحرف والصناعات، انتشرت في الطائف حرفة الدباغة للجلود^٦، وصناعة العطور.^٧

ويبدو أن معظم المواد الخام والأولية لهذه الصناعات، كانت موجودة في مكة أو في الطائف، كما كان يؤتى بغيرها عن طريق مينائي الشعبية وجدة، لقد كان حجم السلع كبيراً في مكة، منها المصنوعة محلياً ومنها المستوردة، وكان الناس في المواسم يتقاطرون لشراء ما يذكّرهم بحجهم إلى مكة، والسؤال هنا: ما هي العملة التي كانت مستخدمة في تلك الحقبة؟

^١ كان النبي ﷺ يرعى الغنم في أجباد، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يرعى بجوار مكة. انظر: الشريف: مكة والمدينة ص ١٨٥.

^٢ الكتاني: التراتيب الإدارية ج ٢ ص ٢١.

^٣ الكتاني: المرجع المتقدم ج ٢ ص ٤٣.

^٤ الخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ص ٧٠٩. الكتاني: التراتيب الإدارية ج ٢ ص ٤٣.

^٥ البخاري: صحيح البخاري ج ٤ ص ١٧٦١. الكتاني: التراتيب الإدارية ج ٢ ص ٥١. الندوي: السيرة النبوية ص ١٤٥. كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص ١٧٦. والقين هو الحداد أو الصانع، وكل عامل حديد عند العرب قين. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة قن، ج ١٣ ص ٣٥٠.

^٦ الشريف: مكة والمدينة ص ١٢٧، ص ١٧٩. عبد اللطيف: السيرة النبوية ص ٦٣.

^٧ الندوي: السيرة النبوية ص ١٤٥.

لقد كان النقد المتداول في مكة الدينار الذهبي والدرهم الفضي^١، ومع قدوم الإسلام أقرّ رسول الله ﷺ دنانير هرقل ودراهم الفرس، وأقرّها من بعده أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ^٢. وكان التعامل بهما دارجاً في الشام والعراق ومصر، كما عرفهم أهل مكة، وامتلكوا منهم ثروة كبيرة، ولم يكن هذين النقيدين حجازيين، ولم يضربا في الحجاز اقتباساً من الفرس والروم، ولم يكن في الحجاز سكة خاصة، ولا معلومات -حتى الآن- عن ضرب أهل مكة عملة خاصة بهم في دور الضرب العراقية أو الشامية^٣.

ويبدو أن المكين نجحوا إلى حد كبير، في استثمار رؤوس أموالهم في مشاريع مضمونة النجاح؛ كسواء الأراضي والبيوت في الطائف كما سلف ذكره.

• الوضع الثقافي:

أولى الإسلام العلم اهتماماً خاصاً، فجعل العلماء ورثة الأنبياء، وذكرت سور القرآن الكريم العديد من الآيات، التي تدعو إلى طلب العلم، والحضّ عليه، والثناء على العلماء، كما أوردت السنة النبوية الشريفة، العديد من أحاديث رسول الله ﷺ في المنحى ذاته. وكان لمكة حظوة في التعليم، فقد عرفت الكتابة منذ ما قبل الإسلام، وكان أهلها يعدون الكتابة أحد الأركان إلى جانب العوم والرمي والشعر لكي يعد الرجل من الكاملين^٤.

ولعل ما ساعد مكة على هذا الاهتمام نشاطها التجاري الواسع، فالتاجر كان بحاجة إلى الكتابة والحساب، حيث استخدموها في عملهم، فلا بد من الكتابة على المواد التجارية عدة معلومات، تتمثل في سعرها وصنفها ووجهتها ومصدرها، وما إلى ذلك من معلومات. أضف إلى ذلك وجود الشعراء والعديد من دواوين الشعر، الأمر الذي يدل دلالة واضحة على إتقان أهل مكة

^١ الشريف: مكة والمدينة ص ١٨٢.

^٢ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١٠-٥١١.

^٣ الشريف: مكة والمدينة ص ١٨٢.

^٤ الأصفهاني: (أبو الفرج علي بن الحسين) الأغاني، تحقيق: سمير جابر، بيروت، دار الفكر، د.ت، ط ٢، ج ٣ ص ٢٧. كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص ١١٨.

للكتابة والقراءة والحساب، وما النقوش التي وجدت في شمال شبه الجزيرة العربية؛ وأهمها نقش أم الجمل، والذي يُمثل لغة عربية مستقلة متحررة إلى حد كبير من النبطية^١، إلا دلالة واضحة على التطور الذي طرأ على الكتابة قبل الإسلام، وعززها الإسلام بيزوغه.

ولعل ما يؤكد الكلام السالف، أن أول إشارة إلى التعليم الموجه من قبل الدولة العربية الإسلامية كان إثر غزوة بدر عام ٦٢٣هـ/٦٢٣م، وكان مخصصاً لتعليم أبناء الأنصار دون المهاجرين، كون أهل مكة كانوا يكتبون بينما لم يتوافر هذا لأهل المدينة^٢.

وقد ذكر أنه كان في قريش سبعة عشر رجلاً يجيدون القراءة والكتابة^٣ عند ظهور الإسلام، وكان بعضهم يكتب ما يوحى للنبي ﷺ ومن أشهرهم عمر بن الخطاب^٤، علي بن أبي طالب، عثمان بن عفان، أبو عبيدة بن الجراح، شرحبيل بن حسنة، خالد بن سعيد، عبد الله بن سعد بن أبي سرح، والعلاء بن الحضرمي رضي الله عنهم جميعاً، فلما كان عام الفتح ٦٢٩هـ/٦٢٩م، أسلم معاوية وكتب الوحي أيضاً^٥، وكان كتاب النبي ﷺ يكتبون بالخط المقور النسخي، أما الخط المبسوط ويسمى اليابس، فقد استعمل في النقش على الأحجار وأبواب المساجد^٦.

لقد شهدت مكة في عهد رسول الله ﷺ العديد من الفعاليات والنشاطات لنشر العلم وتيسيره للناس، وكان المشرف الرئيسي عليها ورأبها رسول الله ﷺ، فما هي أهم هذه النشاطات؟ وأين كانت تقام الدروس؟ وما هي المعوقات أمام انتشار وظهور مؤسسات التعليم هنا وهناك؟ وهل كان للنساء دور في هذا الوضع سواء كن هن من يُعلمن أو يتعلمن؟

^١ زكّار وخربوطلي: (سهيل وشكران) تاريخ الوطن العربي القديم (الجزيرة العربية)، دمشق، جامعة دمشق، ٢٠٠٣م، ص ٢٨-٢٩. وأم الجمل قرية تقع غربي حوران.

^٢ الكتاني: التراتيب الإدارية ج ١ ص ١٠٨. كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص ١٢٣.

^٣ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١٧. كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص ١١٨.

^٤ ابن هشام: السيرة النبوية ج ١ ص ٢٥٦-٢٥٧. المقدسي: (المظهر بن طاهر) البدء والتاريخ، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت، ج ٥ ص ٨٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١ ص ٦٨١. الندوي: السيرة النبوية ص ٢٠٢.

^٥ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١٧-٥١٨. ابن عبد ربه: (أبو عمر أحمد بن محمد) العقد الفريد، تحقيق: محمد التونجي، بيروت، دار صادر، د.ت، ج ٤ ص ١٦٠.

^٦ العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ٢٩٦. كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص ١٢٢.

بداية لعل من أهم النشاطات في مكة، أن رسول الله ﷺ أمر الصحابي معاذ بن جبل^١ البقاء في مكة ليفقه الناس في الدين، ويعلمهم القرآن الكريم، وكان رسول الله ﷺ قد أرسل قبل معاذ مصعب بن عمير إلى الأنصار في المدينة، ليفقههم ويقرأ لهم القرآن^٢، كما كان عبد الله بن مسعود أول من علّم القرآن بمكة^٣ بعد رسول الله ﷺ. أما فيما يتعلق بمكان اجتماع المسلمين، لتعليمهم وتذكيرهم بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فقد كان يتم أحياناً في دور على أطراف مكة، وفيما بعد أصبحت المساجد تشغل الدور نفسه.

ومن أهم الدور التي كان يجتمع فيها النبي ﷺ مع أصحابه في مكة دار الأرقم بن الأرقم، القرية من الصفا، وكانت أعدادهم قليلة، يتسربون إليها خلسة خوفاً من قريش، وكانوا يتعلمون فيها من رسول الله ﷺ أمور دينهم، ويتلقون عنه ما ينزل من القرآن.^٤

وربما ليس من المبالغة القول بأن دار الأرقم تلك كانت ومجداة أول مدرسة، وأول مركز تعليمي، تبث فيه تعاليم الإسلام على لسان خاتم الأنبياء رسول الله ﷺ في تاريخ الإسلام، ونجحت نجاحاً باهراً في أن تشكل نواة العملية التعليمية الثقافية إلى أجل مسمى، حيث انتقلت مراكز التعليم إلى المساجد الكبرى؛ ولاسيما المسجد الحرام.

لقد قامت المساجد بهذه المهمة على خير وجه، فهي من أكثر الأماكن التي يمكن للمسلمين أن يجتمعوا فيها للتعليم من خلال الأوقات الخمسة، ومن بعد صلاة الفجر إلى أن تشرق الشمس، ومن بعد صلاة العصر حتى غروب الشمس، إلى جانب خطبة الجمعة والعيدين وغيرها.^٥

^١ العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ٢٩٠.

^٢ ابن هشام: السيرة النبوية ج ٤ ص ١٢٢. كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص ١٢٥.

^٣ ابن هشام: السيرة النبوية ج ١ ص ٢٣٢. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٢٣٦. العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ٢٨٩.

^٤ الأزرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٠٠. الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٠٩. المقدسي: البدء والتاريخ ج ٥ ص ٨٩. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٨٩. غلوش: السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي ص ٣٥٦.

^٥ العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ٢٨٩. كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص ٥٩-٦٠. غلوش: السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي ص ٣٥٥-٣٥٦.

^٦ العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ٢٩٠. كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص ١٢٥-١٢٦.

أما فيما يتعلق بأهم المعوقات التي قصرت ظهور مؤسسات التعليم على مدينتي مكة والطائف^١، فلعلها تعود بالدرجة الأولى إلى عدم اكتراث جمهور العرب بالكتابة والتدوين، كون سمة التعليم كانت في تلك الحقبة تعتمد بشكل أساسي على الذاكرة النشيطة والحافظة القوية، فسادت الأمية بين العرب^٢، أضف إلى ذلك ظروف المسلمين الصعبة، ومواجهاتهم العنيفة مع قريش، والتي كانت تقف حائلاً أمام توجيه معظم اهتمامهم للتعليم، إذ إن الاستقرار وهدوء البال يساعدان على انتشاره^٣، ومن المرجح أن أحداث الردة في عهد أبي بكر رضي الله عنه حالت دون النشاط التعليمي في مكة، ويبدو أن التعليم في عهد عمر رضي الله عنه كان من المسؤوليات المنوطة بالولاة.

ومع انتشار الفتوحات واستقرار الأمور في ولاية مكة لاشك أن الوضع الثقافي ازدهر، ولاسيما بعد أن قصدها بعض العلماء من الأمصار، واتخذوا منها مقراً لدروسهم أثناء مواسم الحج بشكل خاص، ويبدو أن مواضيع التدريس كانت تدور بشكل رئيسي حول القرآن الكريم وعلومه، تليها السنة النبوية الشريفة، بالإضافة إلى علوم اللغة العربية والتاريخ والأنساب والشعر والأمثال والحكم والمواعظ والقصص وغير ذلك، أي أن الطابع الديني هو الذي كان مسيطراً على مختلف صنوف العلوم، وما إن جاء العصر الأموي حتى اتسعت الاختصاصات وامتدت إلى معظم العلوم، إلا أن الريادة بقيت بحوزة المواد الدينية.

ولعله لا بد من الاعتراف هنا - والبحث يتحدث عن الوضع الثقافي - بأن المدينة المنورة في عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، كان لها الدور الأبرز في الحركة الفكرية والوضع الثقافي، ربما لأنها كانت دار الهجرة، ومركز الدولة العربية الإسلامية آنذاك، ومركز الثقل.

وقبل أن ينتهي البحث من حديثه عن هذا الوضع، لا بد من الحديث عن المرأة ودورها في هذا الوضع، حيث يبدو أن بعض النساء كن يكتبن، كما كن يحضرن الدروس في حضرة رسول الله ﷺ أسوة بالرجال، ولعل خير ما يؤكد على رغبة النساء في التعلم، قصة المرأة التي جاءت إلى رسول الله

^١ كان الحجاج معلماً في الطائف. انظر: الخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ص ٨٦.

^٢ العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ٢٦٨.

^٣ العمري: المرجع المتقدم ص ٢٨٩.

ﷺ فقالت له: "يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله"، قال: "اجتمعن يوم كذا وكذا فاجتمعن".^١

ومن النساء المشهورات في مكة الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس، أم سليمان^٢، واسمها ليلى وغلب عليها الشفاء^٣، أسلمت بمكة قبل الهجرة، وكانت من عقلاء النساء وفضلائهن، وكان رسول الله ﷺ يأتي لعندها، وقد طلب منها أن تُعلم حفصة الكتابة^٤، فكانت حفصة زوجة رسول الله ﷺ تكتب^٥، وهي أقدم إشارة إلى تعليم المرأة المسلمة الكتابة.^٦

وفي عهد عمر رضي الله عنه برزت أم المؤمنين هند بنت سهيل أم سلمة رضي الله عنها، وكانت تعد من فقهاء الصحابيات وأكملهن عقلاً^٧، والتي سألت عمر رضي الله عنه، بعد أن أخرج الرقيق والدواب من مكة، ولم يدع أحداً ييؤب داره بمكة، أن يجعل لها باباً يحول دون دخول الناس لها، فاستأذنته هند وقالت: "إنما أريد بذلك إحراز متاع الحاج وظهرهم"، فأذن لها، فجعلت بابين على دارها^٨، أي إنها اتخذت الأبواب لبيتها بهدف حماية أمتعة الحاج وممتلكاتهم، ولعل موقف هذه المرأة مع عمر رضي الله عنه يؤكد على مدى قوة شخصية المرأة، وجرأتها ومنطقها السليم.

^١ مسلم: صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٢٨. الكتاني: التراتيب الإدارية ج ٢ ص ١٦٣. كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص ١٢٤.

^٢ ابن خياط: طبقات خليفة بن خياط، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٣م، ص ٦٢٥. المزني: (أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: بشار عوَّاد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ج ٣٥ ص ٢٠٧. الخزاعي: تخريج الدلالات ص ٨٧. كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص ١٢٤.

^٣ المزني: تهذيب الكمال ج ٣٥ ص ٢٠٧.

^٤ المزني: تهذيب الكمال ج ٣٥ ص ٢٠٧. الخزاعي: تخريج الدلالات ص ٨٥. العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ٢٩٢. الزركلي: الأعلام ج ٣ ص ١٦٧-١٦٨. كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص ١٢٤.

^٥ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١٧.

^٦ العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ٢٩٢.

^٧ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٢٠٣. الزركلي: الأعلام ج ٨ ص ٩٨.

^٨ الأزرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٤. الهندي: كنز العمال ج ٥ ص ٢٨٢.

ثانياً: مكة المكرمة في الدور السفلياني:

بعد مقتل علي بن أبي طالب ﷺ عام ٤٠هـ/٦٦٠م، لم يستطيع ابنه الحسن الذي بايعه أهل العراق خليفة بعد أبيه، أن يتابع قتال الأمويين، ولعل ذلك مرده إلى ضعف أهل العراق وتشتتهم، مقابل قوة أهل الشام وتوحدتهم من جهة، وعدم اطمئنانه إليهم بعد ما فعلوه بأبيه من جهة أخرى، مما اضطره إلى الدخول في مفاوضات لحقن الدماء انتهت بتنازله عن الخلافة لمعاوية.

وبانتقال الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان عام ٤١هـ/٦٦١م، والذي اتفق المؤرخون على تسميته بعام الجماعة؛ لاتفاق المسلمين على خليفة واحد، بدأ عصر جديد من عصور الحكم في الدولة العربية الإسلامية هو العصر الأموي، وغدت الشام مركز الخلافة والولاية المركزية، واتخذ معاوية من دمشق عاصمة له، بسبب موقعها المتوسط، وعراقتها الحضارية، وبقيت العاصمة الرسمية للدولة حتى خلافة مروان بن محمد ١٢٧-١٣٢هـ/٧٤٤-٧٥٠م، آخر خلفاء بني أمية، والذي نقل بيوت الأموال والخزائن إلى حرّان في الجزيرة الفراتية.

• الوضع الإداري:

في عهد معاوية بن أبي سفيان تمت تولية مكة للعديد من الأشخاص الذين لم تتفق المصادر على ترتيبهم، بل ولم تتفق على ذكرهم. فها هو الفاسي يقول: "لا أعرف من أولهم في الولاية وهم أخوه عتبة بن أبي سفيان، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، وابنه عمرو بن سعيد الملقب بالأشدر، وخالد بن العاص المخزومي، وعبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص"، وذكر آخرون الأسماء السالفة بترتيب مغاير.^٢

^١ شفاء الغرام ج٢ ص٢٥٩-٢٦٠.

^٢ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٠٢. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص١٩٣. ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٢٤. السنجاري: مناقب الكرم ج٢ ص٨. القلقشندي: (أحمد بن علي) مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٥م، ط٢، ج١ ص١١٤. زامباور: معجم الأنساب ص٢٧.

توفي معاوية وكان والياً على مكة يحيى بن حكيم بن صفوان^١, وقيل عمرو بن سعيد بن العاص^٢, أما الطائف فقد ورد أنه كان والياً عليها عتبة بن أبي سفيان^٣, فيما ذكرت رواية أخرى أن عنبسة بن أبي سفيان كان والياً على الطائف لأخيه معاوية, وعزله معاوية وولى عتبة^٤, كما استعمل معاوية على الطائف عبد الله بن خالد بن أسيد, فأتى بعنبسة سكران من الخمر فحدّه, فغضب معاوية لذلك وعزله.^٥

ولعل ولاية عتبة للطائف هي الأشهر, كون اسمه كان من ضمن قائمة ولاية مكة في عهد معاوية, أما عنبسة فكانت ولايته على الطائف في مرحلة انتقالية كما يبدو, حيث من الممكن أن يكون عتبة خرج لأمر ما فاستخلف عنبسة, وما أن عاد من مهمته حتى استلم مهامه كوالي للطائف. ووفق الروايات كان معاوية إذا أراد أن يولي رجلاً من بني حرب ولّاه الطائف, فإن رأى فيه ما يعجبه ولّاه مكة والطائف معها, فإن أحسن الولاية جمع له معها المدينة^٦, في اختبار واضح لمدى قدرات ذلك الوالي في ممارسة العمل الإداري والنجاح فيه.

وعندما تولى يزيد مقاليد الخلافة عام ٦٠هـ/٦٧٩م, كان على مكة يحيى بن حكيم بن صفوان ابن أمية الجمحي^٧, وكان ابن الزبير مقيماً معه بمكة, لا يتعرض أحدهما للآخر, فكتب الحارث

^١ أبو حنيفة: (أحمد بن داود الدينوري) الأخبار الطوال, قدم له ووثق نصوصه ووضع حواشيه: عصام محمد الحاج علي, بيروت, دار الكتب العلمية, ٢٠٠١م, ط١, ص٣٣٥.

^٢ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٧٤. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص٢٤٨.

^٣ العلي: الحجاز ص٣٣٣.

^٤ الزبيري: (أبو عبد الله مصعب بن عبد الله) نسب قريش, تحقيق: ليفي بروفنسال, القاهرة, دار المعارف, ١٩٥٣م, ط٣, ص١٢٥. الصلابي: عصر الدولتين ص٩. الزركلي: الأعلام ج٥ ص٩١.

^٥ ابن حبيب: (محمد بن حبيب البغدادي) المنق في أخبار قريش, تحقيق: خورشيد أحمد فاروق, بيروت, عالم الكتب, ١٩٨٥م, ط١, ص٣٩٧.

^٦ ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٢٦٧.

^٧ أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص٣٣٥. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص١٦٠. ابن فهد: إتحاف الوري ج٢ ص٥٨.

ابن خالد بن العاص ليزيد، يذكر له مDAHنة ابن حكيم لابن الزبير، فعزله يزيد وولى الحارث.^١ فيما ذكرت رواية أخرى أن ابن الزبير كان قد بايع يزيد أمام يحيى بن حكيم بن صفوان في مكة، فلم يرضَ يزيد حتى يؤتى به في جامعة ووثاق^٢، وكان يحيى آنذاك نائباً للوليد بن عتبة والي المدينة على مكة، وقد وجه ابن الزبير كتاباً، ينتقد فيه الوليد بن عتبة، ويطالب يزيد بتغييره لما في الأمر صلاح الخاصة والعامة، ولعل ذلك بسبب تضيق الوليد بن عتبة الخناق على ابن الزبير عندما كان في المدينة ليأخذ البيعة ليزيد بن معاوية^٣، فكلما فُكر أو حاول الوليد بن عتبة فعل ذلك، وجد ابن الزبير متحذراً متمنعاً^٤. ويبدو أن ابن الزبير بكتابه هذا، قد استطاع أن يكيد للوليد بن عتبة، ونجح بخداع يزيد، فتخلص من الوليد بن عتبة، وجاء بفتى غرّ لم يجرب الأمور، ولم تحنكه التجارب، فأهمل النظر في شيء من سلطانه وعمله^٥، وكان هذا الفتى الغر الذي أرسله يزيد والياً على المدينة ومكة وعلى الموسم في رمضان هو عثمان بن محمد بن أبي سفيان^٦، ويروى بأنه بعث وفداً من أهل المدينة ليبايع يزيد بالخلافة، فبايعوه وأجازهم يزيد، وعندما عادوا من عند يزيد خلعه، فتابعهم الناس في ذلك.^٧

-
- ^١ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٨٣. الزبيري: نسب قريش ص ٣١٣. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ١٤٦. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ١١ ص ٤١٦. المزني: تهذيب الكمال ج ١٧ ص ١٢١. العلي: الحجاز ص ٣٣٤.
- ^٢ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٥٣. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٣٧٣.
- ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ٢٠٧. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٠٤.
- ^٣ الزبيري: نسب قريش ص ٤٣٠. اليافعي: (عبد الله بن أسعد) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، ط ١، ج ١ ص ١٠٧.
- ^٤ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٢٩٥. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ٢٦٢. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٧. الزركلي: الأعلام ج ٨ ص ١٢١. الشريف: دور الحجاز ص ٤٢٩.
- ^٥ الشريف: دور الحجاز ص ٤٢٩.
- ^٦ ابن بكار: (الزبير بن بكار) الأخبار الموفقيات، تحقيق: سامي مكي العاني، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٧٢م، ص ١٥٢. ابن قتيبة: (عبد الله بن مسلم) الإمامة والسياسة، تحقيق: علي شيري، قم، منشورات الشريف الرضي، ١٤١٣هـ، ط ١، ج ١ ص ٢٢٧. الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٦١. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٧.
- ^٧ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ٢٦٢-٢٦٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٠٣.

ويبدو أن مكة في هذه الأثناء كانت تحت سيطرة ابن الزبير، ولم يكن يتجرأ عثمان على الذهاب إليها وإخضاعها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لعل السبب الذي كان خلف تعيين يزيد لعثمان هو قرابته منه، ورغبته بحكم مكة والمدينة من قبل شخصية أموية تقف في وجه أهداف ابن الزبير وأطماعه، إلا أن شيئاً من هذا القبيل لم يتحقق.

هرب عثمان إلى الشام تاركاً المدينة^١، فولى يزيد الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي^٢، وقيل أن الحارث هذا ولي بعد عزل الوليد بن عتبة، ثم عزل يزيد الحارث، وولى عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، ثم عزله وأعاد الحارث^٣، إلا أن ابن الزبير منعه الصلاة بالناس، فصلى بالناس مصعب بن عبد الرحمن بن عوف بأمر من عبد الله بن الزبير^٤.

وثمة أمر مهم تجدر الإشارة إليه وهو أن معظم من حكم المدينة وكان والياً لها، كان يعين له نائباً على مكة، أي أنه ومن خلال ما سلف كان والي مكة والمدينة واحد، ويبدو أن الأمور سارت على النحو التالي: الوليد بن عتبة والي المدينة، يحيى بن حكيم نائبه على مكة، وخلفه في نيابة مكة الحارث ابن خالد المخزومي، تلاه عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، ثم عاد الحارث إلى أن أعلن ابن الزبير سيطرته الكاملة على الأرض، وبدأ التوسع في إقامة خلافته والتي اتخذ من مكة عاصمة لها.

^١ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج ١ ص ٢٣٠.

^٢ الزبيرى: نسب قريش ص ٣١٣. الشريف: دور الحجاز ص ٤١٨-٤١٩. وتجدر الإشارة هنا إلى أن بنو مخزوم كلهم كانوا زبيريين سوى الحارث فإنه كان مروانياً، وربما هذا هو سبب توليه مكة في عهد عبد الملك، وحضوره مع الحجاج في محاربة ابن الزبير كما سيورد البحث لاحقاً. انظر: البلادي: هديل الحمام في تأريخ البلد الحرام، مكة المكرمة، دار مكة، ١٩٩٦م، ج ١ ص ٣٥٨.

^٣ العلي: الحجاز ص ٣٣٤.

^٤ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ١١ ص ٤١٦. الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٦٣. ابن حجر: تهذيب التهذيب، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٤م، ط ١، ج ٦ ص ١٨٠. الزركلي: الأعلام ج ٨ ص ١٤٣.

ومن القضاة الذين كانوا في أيام يزيد على مكة وفق رواية عبيد بن حنين، وكان من استقضاه عليها عند يزيد هو عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب.^١

• الوضع العمراني:

يعد الوضع العمراني من أبرز الأوضاع التي تجسد نشاطات الخلفاء عموماً، وبالتالي يمكن لحد كبير أن يعطي هذا الوضع صورة واضحة المعالم عن مدى تأثير الأوضاع الأخرى فيه، ولا سيما السياسي والإداري، فيمكن للمرء أن يتحدث عن الوضع العمراني في زمن كل خليفة، بينما لا تشهد أوضاع أخرى إقبالاً عليها في الحديث كالاقتصادي والاقتصادي، ولعل سبب ذلك أن هذه الأوضاع تحتاج إلى ربح من الزمن حتى تتغير، بينما الوضع العمراني مرتبط بشكل رئيسي وفي أي عصر من العصور، بمهمة الخليفة أو الوالي، أي أنه سريع التغير والنشوء والزوال.

فلقد حرص معاوية بن أبي سفيان، وبعده يزيد بن معاوية، على تقديم كل ما هو ممكن لازدهار عمران مكة، وتقديم أفضل الخدمات لحجاج بيت الله الحرام وزائريه، حيث أضاف أموراً وتحسينات على الكعبة والمسجد الحرام، كان له فيها قدم السبق، وسار عليها من جاء بعده. ويمكن حصر جهود معاوية بشكل رئيسي فيما يلي:

أ- كسوة الكعبة:

يُعد معاوية ممن كسا الكعبة المشرفة كسوتين، الديباج مع القباطي^٢، وكان قد بعث بها إلى حاجبها شيبه بن عثمان، وأمره أن يجرد الكعبة ويغسلها ويطيبها ويلبسها ما بعث له، ففعل ذلك عثمان، وقسم ما عليها من الثياب على أهل مكة^٣. فلما كان يزيد بن معاوية كساها بالديباج الخسرواني^٤.

^١ ابن خياط: طبقات خليفة ص ٤٣٤. وكيع: (محمد بن خلف) أخبار القضاة، تحقيق: عبد العزيز مصطفى المراغي، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٤٧م، ط ١، ج ١ ص ٢٦٢. ابن حبيب: المنطق ص ٣٠١.

^٢ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢٥٤. الحب الطبري: القرى ص ٥١٦. السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٧.

^٣ السنجاري: منائح الكرم ج ٢ ص ٧.

^٤ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢٥٤. ابن الجوزي: مثير الغرام الساكن ص ٢٥٦. الحب الطبري: القرى ص ٥١٥.

ب- المسجد الحرام:

صحيح أن معاوية لم يكن من الخلفاء الذين زادوا من مساحة المسجد الحرام، إلا أنه قام بأعمال جليلة لا تقل أهمية عن التوسعة، ولم يسبقه إليها أحد فمعاوية أول من أجرى للمسجد الحرام قناديلاً وزيتاً من بيت مال المسلمين^١، وبالإضافة لذلك فقد جعل للمسجد خداماً من العبيد^٢، وانضم معاوية إلى قائمة الخلفاء الذين كانت لهم جهود في تحديد معالم أو أنصاب الحرم المكي^٣، كما يعد أول خليفة خطب على منبر مكة، كما سيشير البحث بعد قليل.

ج- مياه الشرب والسدود في مكة:

ونظراً لقلة الماء في أنحاء مكة، فقد أولى معاوية هذا الأمر أهمية بالغة، حيث قام وأجرى في مكة عشر عيون^٤، واتخذ لهذه العيون بساتين زرع فيها النخيل^٥، فسميت تلك البساتين بالحوائط^٦. ويبدو أن النفع العام حصل بهذه العيون لسكان مكة وزائريها على حدٍ سواء، فاستخدموها في مياه الشرب، كما استخدموها في سقاية المزارع الواقعة في ظاهر مكة^٧.

أما سدود المياه، ومن خلال الروايات، يبدو أنها تركزت بشكل رئيسي في منطقة الطائف، ربما بسبب ارتفاع الجبال هناك، وبالتالي هطول الأمطار الغزيرة، والتي تندفع نحو الوديان بكميات هائلة، مما يتسبب بكوارث في بعض الأحيان، وأمام هذه التحديات نشأت كما يبدو قناة لدى معاوية بإقامة السدود، وذلك بهدف درء خطر الفيضانات من جهة، وري الأراضي الزراعية على طرفيها

^١ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢٥٤، ص ٢٨٦. ابن الفقيه: (أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني) البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، بيروت، عالم الكتب، ١٩٩٦م، ط ١، ص ٧٧. ابن ظهيرة الجامع اللطيف

ص ١٠٣. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٢٣. السنجاري: منائح الكرم ج ٢ ص ٧.

^٢ ابن ظهيرة الجامع اللطيف ص ١٠٣. راوه: جداول ص ٣١. السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٧.

^٣ الأزرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ١٣٠-١٣١. الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٧٦.

^٤ الأزرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٢٧. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ٢١٠. راوه: جداول ص ٣١.

^٥ الفاسي: شفاء الغرام ج ١ ص ٥٥٢. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ٢١٠. السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٥.

^٦ عندما تُزرع النخيل في البساتين تسمى بالحوائط. انظر: العلي: الحجاز ص ٥٥٩.

^٧ هورخرونية: صفحات من تاريخ مكة ج ١ ص ٧٦.

من جهة ثانية، كما كان من المرجح أيضاً استفادة بعض القبائل القاطنة حول تلك السدود من الماء في شربهم وسقاية مواشيهم من جهة ثالثة. ومن أشهر تلك السدود:

أ- **سد العباد**: يبعد عن شرق الطائف^١ مسافة ست أميال، كتب على هذا السد بالخط الكوفي العبارة التالية: "سد عبد الله بن معاوية أمير المؤمنين بناه عبد الله بن إبراهيم" وكان ذلك سنة ٥٨هـ/٦٨٠م، ولعل عبد الله بن إبراهيم هذا هو المهندس الذي أشرف على بنائه، وقد بُني سد العباد بالحجارة الصلدة القوية، وهي طريقة معروفة في بلاد اليمن.^٢

ب- **سد السملقي**^٣: الذي يقول بعض الباحثين أن عمرو بن العاص هو الذي بناه بأمر من معاوية وفق ما وجد مكتوباً عليه، وسمي هذا السد أيضاً سد ثمالة؛ لسكن قبيلة ثمالة الأزدية عنده، أو سد بني هلال^٤، ويبعد نحو عشرين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من الطائف^٥، ولا تزال معظم جوانبه قائمة، أما طراز بنائه فهو متدرج يظهر فيه جسم السد على هيئة مدرجات.^٦

ج- **سد وادي سيسد**: المشهور في شرق الطائف، بناه يزيد بن معاوية، ويوجد قرب هذا السد وفي الجبال المحيطة به كتابات وآثار قديمة، تدل على وجود أمم كثيرة سكنت منطقته.^٧

د- شراؤه البيوت في مكة:

^١ القشامي: (مناحي) تاريخ الطائف قديماً وحديثاً، الطائف، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ١٤٠٧هـ، ط ٢، ص ٥٦. عبد الجبار وخفاجي: (عبد الله ومحمد) قصة الأدب في الحجاز، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، د.ت، ص ٢٨.

^٢ القشامي: تاريخ الطائف ص ٥٦. عبد الجبار وخفاجي: قصة الأدب في الحجاز ص ٢٨.

^٣ وقيل السملجي، انظر: عبد الجبار وخفاجي: قصة الأدب ص ٢٨.

^٤ القشامي: تاريخ الطائف ص ٥٥. عبد الجبار وخفاجي: قصة الأدب ص ٢٨.

^٥ القشامي: تاريخ الطائف ص ٥٥. عبد الجبار وخفاجي: قصة الأدب ص ٢٨.

^٦ عبد الوهاب: (لطف) العرب في العصور القديمة، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، د.ت، ص ١٣٤.

^٧ القشامي: تاريخ الطائف ص ٥٥.

ولعل من مظاهر اهتمام معاوية بمكة المكرمة ومحبتة لها، شراؤه الدور التي كانت لها علاقة بالدعوة الإسلامية، وتحديدًا برسول الله ﷺ، كما بنى بعض الدور التي جلب لها البنائين من خارج مكة، فكانت آية من آيات الفن المعماري.

ومن الدور التي ابتاعها معاوية دار الندوة التي كانت لبني عبد الدار، وجعلها داراً للإمارة^١، واهتم بعمارتهما، وكان ينزل فيها إذا حج، ونزلها من بعده الخلفاء من بني أمية إذا حجوا، وقد دخل بعضها في المسجد الحرام في زيادة عبد الملك بن مروان وابنيه الوليد وسليمان^٢.

أما فيما يتعلق بالدور التي بناها بمكة، أولها الدار البيضاء التي كانت على المروة، وسميت بيضاء لأنها بنيت بالحص ثم طليت به فكانت بيضاء، وإلى جانبها الدار الرقطاء، والتي كان رسول الله ﷺ يسكن بها^٣، وجلب لها البنائين من الفرس^٤، كما قيل أن النبط كانوا يعملون الأجر بها^٥، تليها دار المراحل، وإنما سميت دار المراحل لأنها كانت فيها قدور لمعاوية، وكانت الجُزر والغنم تذبح وتطبخ فيها، حيث رسم لها من ماله، كما يُطعم الحاج فيها أيام الموسم، ثم يفعل ذلك في شهر رمضان^٦، وإلى جانب دار المراحل توجد دار بَبَّة على رأس ردم عمر بن الخطاب رضي الله عنه^٧ وسميت نسبة إلى بَبَّة؛ وهو عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب^٨، ودار سلمة بن زياد وهي

^١ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٦٠. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٣٤. عبد اللطيف: مكة المكرمة في الجاهلية وبداية الإسلام، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت، ص ٢٣.

^٢ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ١١٠. عبد اللطيف: مكة المكرمة ص ٢٣.

^٣ ابن هشام: السيرة النبوية ج ١ ص ٢٦٠. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٣ ص ٨١.

^٤ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٣٧. الشريف: دور الحجاز ص ٤٥٨.

^٥ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٩٣. الفاكهي: أخبار مكة ج ٤ ص ٢٠٢.

^٦ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٣٧. الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٨٨. المحب الطبري: القرى ص ٤٩٣.

^٧ ابن عبد الحق: مراصد الإطلاع ج ١ ص ١٦٠.

^٨ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٨٩. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٣٧ ص ٤٣٨. وبة: هو ابن أخت معاوية هند. انظر: البغدادي: (أبو بكر أحمد بن علي) تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ، ط ١، ج ١ ص ٥٨٠. الذهبي: سير إعلام النبلاء ج ١ ص ٢٠٠.

إلى جانب دار ببة، وكان ابن زياد قيماً عليها ويسكنها، وإلى جانبها دار الحمام^١. وإلى جانب الدور السالفة، كانت هناك دار الزنج ودار جعفر ودار الحدادين ودار حنظلة بن أبي سفيان ودار أبي سفيان، وبين آخر دارين كانت الرحبة التي يقال لها بين الدارين، وكانت تحط فيها غير السراة والطائف، تحمل الحنطة والحبوب والسمن والعسل وتباع فيها^٢.

وأمام هذا الكم الهائل من الدور التي ابتاعها معاوية أو بناها، تعرض للمسألة؛ فها هي عائشة رضي الله عنها قالت لمعاوية: "أنت الذي عمدت إلى مكة فبنيتها مدائناً وقصوراً، وقد أباحها الله تعالى للمسلمين، وليس أحد أحق بها من أحد" فقال لها معاوية: "يا أم المؤمنين إن مكة كداء (جبال)، ولا يجدون ما يُكِنُّهُمْ من الشمس والمطر، وأنا أشهدك أنها صدقة عليهم"^٣.

لقد استطاع معاوية أن يُثبت للجميع مدى محبته لمكة المكرمة وأهلها، فأغدق المنح والعطايا عليها، وتعهد بتقديم أفضل الخدمات لكعبتها المشرفة ومسجدها الحرام، كما كان حريصاً أشد الحرص على اختيار ولائها بدقة، سواءً من الأمويين أو من غير الأمويين الموالين له.

ويبدو أن طول حقبة معاوية كان العامل الرئيسي للقيام بإنجازاته العمرانية، إلى جانب دهائه وسيطرته على الوضع أثناء خلافته، في حين لم يكن في عهد يزيد من بعده شيء يستحق الذكر بخصوص الوضع العمراني، نظراً لقصر عهده من جهة، وكثرة المشاكل السياسية التي واجهته من جهة أخرى، فلم يتفرغ للاهتمام بهذا الوضع والذي من أهم شروط توفر الأمن والرخاء والاستقرار.

• الوضع الديني:

لعل أهم ما يميز الوضع الديني في الدور السفلياني، الانتقال النوعي في إلقاء الخطبة في مكة، فقد روي أن معاوية أول من خطب بمكة على منبر، حيث أحضر معه منبر خشبي صغير له ثلاث

^١ الأزرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٣٨. الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٩٠.

^٢ الأزرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٣٩. الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٨٩.

^٣ الفاكهي: المصدر المتقدم ج ٣ ص ٢٩١.

درجات عندما قدم للحج بالناس عام ٤٤٤هـ/٦٦٤م^١، وكانت الخلفاء والولاة من قبله يخطبون على أرجلهم قياماً في وجه الكعبة^٢، وفي الحجر^٣، واستمر ذلك المنبر إلى زمن الرشيد العباسي^٤. أما الحديث عن أمراء الحج فقد كان يُختار أمير الحج من كان منتسباً للبيت الأموي، وفيما يلي جدول يوضح ذلك:

أمير الحج	موسم عام
شيبة بن عثمان الحجي ^٥	٣٧٠هـ/٦٥٧م
شيبة بن عثمان الحجي ^٦	٣٨٠هـ/٦٥٨م
شيبة بن عثمان الحجي ^٧	٣٩٠هـ/٦٥٩م
المغيرة بن شعبة ^٨	٤٠٠هـ/٦٦٠م
عتبة بن أبي سفيان ^١ ، وقيل	٤١٠هـ/٦٦١م

-
- ^١ السنجاري: منائح الكرم ج٢ ص٧. راوه: جداول ص٣١.
- ^٢ البكري: المسالك والممالك ج١ ص٣٩٦. راوه: جداول ص٣١.
- ^٣ الأزرقى: أخبار مكة ج٢ ص١٠٠. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص١٦٠.
- ^٤ السنجاري: منائح الكرم ج٢ ص٧.
- ^٥ الفاسي: شفاء الغرام ج٢ ص٣٣٨-٣٣٩. السنجاري: منائح الكرم ج١ ص٥٣٥.
- ^٦ ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٩٠.
- ^٧ ابن حبان: الثقات ج٢ ص٣٠١. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص٥٨. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص١٦٠.
- اليافعي: مرآة الجنان ج١ ص٨٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٢ ص٧٢٦-٧٢٧. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٢٣ ص٢٦٠-٢٦١. ابن فهد: إتحاف الوری ج٢ ص٢٩-٣٠. الزركلي: الأعلام ج٨ ص١٨٤.
- ^٨ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص٧٢. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص١٦٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٢ ص٧٥١.

عنيسة بن أبي سفيان ^٢ .	
عنيسة بن أبي سفيان ^٣ .	٦٦٢/هـ ٤٤٢ م
مروان بن الحكم ^٤ .	٦٦٣/هـ ٤٤٣ م
معاوية بن أبي سفيان ^٥ .	٦٦٤/هـ ٤٤٤ م
مروان بن الحكم ^٦ .	٦٦٥/هـ ٤٤٥ م
عتبة بن أبي سفيان ^٧ , وقيل عنيسة بن أبي سفيان ^٨ .	٦٦٦/هـ ٤٤٦ م
عتبة بن أبي سفيان ^٩ , وقيل عنيسة بن أبي سفيان ^{١٠} .	٦٦٧/هـ ٤٤٧ م
مروان بن الحكم ^١ .	٦٦٨/هـ ٤٤٨ م

- ^١ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص٧٨. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص١٨٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص١٧. الزركلي: الأعلام ج٤ ص٢٠٢.
- ^٢ ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص١٨٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص١٧.
- ^٣ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص٨٤. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص١٩٥.
- ^٤ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٠٢. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٥٧ ص٢٤٢. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٢٠٦. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٣٧.
- ^٥ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٠٤. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٥٩ ص١٦٠. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٢١٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٤٣. ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص١٣٣.
- ^٦ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٠٩. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٥٧ ص٢٤٢. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٢١٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٤٩.
- ^٧ ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٢١٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٥٢.
- ^٨ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١١١. المزي: تهذيب الكمال ج٢٢ ص٤١٥.
- ^٩ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١١١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٥٤.
- ^{١٠} الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١١١. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٢٢٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٥٤. المزي: تهذيب الكمال ج٢٢ ص٤١٥. اليافعي: مرآة الجنان ج١ ص٩٩.

٦٦٩/٥٤٩ م	سعيد بن العاص. ^٢
٦٧٠/٥٥٠ م	معاوية بن أبي سفيان ^٣ , وقيل يزيد بن معاوية. ^٤
٦٧١/٥٥١ م	يزيد بن معاوية. ^٥
٦٧٢/٥٥٢ م	سعيد بن العاص. ^٦
٦٧٢/٥٥٣ م	سعيد بن العاص. ^٧
٦٧٣/٥٥٤ م	مروان بن الحكم. ^٨
٦٧٤/٥٥٥ م	مروان بن الحكم. ^٩

- ^١ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١١٢. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٥٧ ص٢٤٢. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٢٢٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٥٥.
- ^٢ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١١٢. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٢٢٤.
- ^٣ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١١٦. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٢١ ص١٢٥, ج٥٩ ص١٦٠. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٢٣٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٦٧.
- ^٤ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١١٦. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٦٥ ص٤٠٦. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٢٣٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٦٧. ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٤٥.
- ^٥ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٤٤. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٢١ ص١٢٥. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٢٤٤. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٨٤. ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٥٦.
- ^٦ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٤٥. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٢١ ص١٢٥. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٢٤٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٨٦.
- ^٧ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٤٨. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٢١ ص١٢٥. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٢٥٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٨٩.
- ^٨ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٥١. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٢٦٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٩٤. ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٦٧.
- ^٩ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٥٢. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٢٧٩.

الوليد بن عتبة بن أبي سفيان. ^١	٦٧٥/٥٥٦ م
الوليد بن عتبة بن أبي سفيان. ^٢	٦٧٦/٥٥٧ م
الوليد بن عتبة بن أبي سفيان. ^٣	٦٧٧/٥٥٨ م
عثمان بن محمد بن أبي سفيان. ^٤	٦٧٨/٥٥٩ م
عمرو بن سعيد بن العاص. ^٥	٦٧٩/٥٦٠ م
الوليد بن عتبة بن أبي سفيان. ^٦	٦٨٠/٥٦١ م
الوليد بن عتبة بن أبي سفيان. ^٧	٦٨١/٥٦٢ م
عبد الله بن الزبير. ^٨	٦٨٢/٥٦٣ م
عبد الله بن الزبير. ^٩	٦٨٣/٥٦٤ م

- ^١ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٥٣. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٦٣ ص٢٠٨. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٢٨٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٩٧.
- ^٢ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص١٠٦. ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٨١.
- ^٣ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٦٠. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٦٣ ص٢٠٨. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٢٩٦. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص١١٢.
- ^٤ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٦٣. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٣٠٥.
- ^٥ ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٣٢٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص١٥٣. ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص١٧١.
- ^٦ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص٢٦١. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٦٣ ص٢٠٨. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٣٤٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٠٢. ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٢١٢.
- ^٧ ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٠٩. ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٢١٦.
- ^٨ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص٢٧٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٢١٩.
- ^٩ ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص٣١. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٢٨ ص٢١٢.

• الوضع الاجتماعي:

لم تخرج الدولة الأموية في حياتها الاجتماعية خروجاً بالغاً عن الحياة والعادات التي كانت متفشية في مكة والمدينة، فقد حافظت على التقاليد العربية، ورعتها أن تعصف بها رياح التطور، وكانت في أكثر المرات وفية لها.^١

أما العناصر الموسرة فقد انغمست في مكة في حياة الترف، ولقد كانت لهذه الحياة مظاهر عدة، انعكست على الأكل والشراب واللباس وما إلى ذلك، فبالنسبة للطعام والشراب، فقد كانوا يأكلون ويشربون في صحاف من الذهب والفضة، كما استجادوا أنواع المطاعم والمشارب^٢، ولا غرابة في ذلك فخيرات الطائف من فواكه وخضار ولحوم كانت بمتناول يدهم.

أما اللباس، فكما استجادوا المطاعم والمشارب، استجادوا أيضاً الملابس^٣، حيث لبسوا الخزّ والديباج والمطارف والحلل الموشاة^٤، وكل الملابس الفخمة^٥، والتي كانت في بعض الأحيان من الهدايا التي كان يخلعها الخلفاء الأمويون ولاسيما يزيد بن معاوية على الشعراء^٦.

ورافق اللباس الفاخر استخدام أجود أنواع العطور والطيب^٧، أما لباس النساء فكان يلبسن الثياب الرقيقة الشفافة، ويبالغن في التحلي بالؤلؤ والياقوت والجواهر الكريمة بكافة صنوفها^٨. ويبدو أنه كان هنالك مجلس لبعض المكيين في نواحي مكة يقال له الأقحوانة؛ وذلك بسبب حسن

^١ فيصل: (شكري) المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٥٢م، ص ٣٩٠.

^٢ ضيف: (شوقي) تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، القاهرة، دار المعارف، ٢٠٠٢م، ط ٢٠، ص ١٤٦.

السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٠. الشريف: دور الحجاز ص ٤٥٨.

^٣ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٠. الشريف: دور الحجاز ص ٤٥٩.

^٤ ضيف: العصر الإسلامي ص ١٤٧. الشريف: دور الحجاز ص ٤٥٨.

^٥ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٠. وسيأتي البحث على تفصيل معنى أسماء بعض الألبسة لاحقاً.

^٦ الأصفهاني: الأغاني ج ١٧ ص ٣٠١.

^٧ ضيف: العصر الإسلامي ص ١٤٧.

^٨ ضيف: المرجع المتقدم ص ١٤٧. الشريف: دور الحجاز ص ٤٥٨.

ثياب الجالسين فيها, حيث كانوا يلبسون الثياب المحمرة والموردة والمطيبة^١, كما استخدموا طبقة كبيرة من الرقيق لكي يلبوا حاجات المنزل.^٢ وعلى العموم فالحديث عن الحياة الاجتماعية في العصر الأموي لولاية مكة المكرمة, سيتناوله البحث لاحقاً في فصل خاص لهذه الغاية.

• الوضع الاقتصادي:

شهد الوضع الاقتصادي في الدور السفلي نشاطاً ملحوظاً استمر حتى سقوط الدولة الأموية, فلقد تضخمت الثروات بزيادة الأموال التي كانت تنقلها البيوت المكية, التي كانت تضرب في البلاد المفتوحة من آفاق الأرض والأعطيات التي كان يبذلها معاوية ومن بعده, فزاد النشاط التجاري عما كان في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه, وتوسع المزارعون أكثر مما توسعوا في عهده, فأصلحوا كثيراً من الأراضي البور, وتنافسوا في حفر الآبار, واتسعت إقطاعياتهم الزراعية في الطائف وضواحيها.^٣ ورافق ذلك التطور الزراعي تطوراً تجارياً, فاستمرت الأسواق بالقيام, سواء منها الموسمي أم اليومي, وتطوراً صناعياً امتد إلى مختلف أنواع الصناعات, وعلى أية حال, فقد خصص البحث الفصل الخامس كاملاً للحديث عن الوضع الاقتصادي لولاية مكة في الحقبة المدروسة.

• الوضع الثقافي:

يبدو أن الوضع الثقافي في الدور السفلي كان استكمالاً لما قبله, وتمهيداً لما جاء بعده, حيث استمر الناس في طلب العلم استجابة للآيات الكريمة والأحاديث الشريفة, والتي تحض على طلب العلم, وتعطي العلماء منزلة قريبة من منزلة الأنبياء, واستمر الفقهاء في التواجد بالمسجد الحرام يعلمون الناس أمور دينهم, ولعل من أهمهم حبر الأمة وبجرها؛ عبد الله بن عباس ومن تخرج على يديه من تلاميذه في مكة, وهذا ما سيعالجه البحث بالتفصيل لاحقاً في الفصل الثامن.

^١ الأزرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٧٩. الفاكهي: أخبار مكة ج ١ ص ٢٩٧, ج ٤ ص ١٦٥.

^٢ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٠. الشريف: دور الحجاز ص ٤٥٩.

^٣ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٥.

ولعل مما كان له تأثير أيضاً في الوضع الثقافي في هذا الدور, وجود القاصين في مكة, أشهرهم مولى لبني مخزوم, وعبيد بن عمير الليثي, أبو عاصم, القاص المكي الشهير, والذي لأثره وأهميته العلمية الفقهية الكبيرة, خصص البحث مساحة منه للحديث عنه لاحقاً.

الفصل الثاني

الوضع السياسي في ولاية مكة المكرمة في الدور المرواني

(١٣٢-٦٤هـ / ٦٨٤ - ٧٤٩م)

أولاً: انتقال الخلافة من الدور السفيناني إلى الدور المرواني.

ثانياً: جدول التعريف بخلفاء الدور المرواني.

ثالثاً: دولة عبد الله بن الزبير في مكة المكرمة (٦٤- ٧٣هـ / ٦٨٣-٦٩٢م):

- ١- اسمه ونسبه .
- ٢- موقف عبد الله بن الزبير منبيعة يزيد .
- ٣- الحصار الأموي الأول وحرق الكعبة .
- ٤- وفاة يزيد وإعلان ابن الزبير نفسه خليفة .
- ٥- موقف ابن الزبير من الخوارج .
- ٦- موقف ابن الزبير من المختار بن أبي عبيد الثقفي .
- ٧- موقف ابن الزبير من محمد بن الحنفية .
- ٨- الحصار الأموي الثاني ونهاية دولة ابن الزبير .
- ٩- نظرة في أسباب انهيار حكم ابن الزبير في مكة .

أولاً: انتقال الخلافة من الدور السفيناني إلى الدور المرواني:

استمرت الخلافة في الأسرة السفينانية حتى وفاة يزيد بن معاوية عام ٦٤هـ / ٦٨٣م، وموت ابنه معاوية بن يزيد بعد أربعين يوماً من ولايته، وكان من نتيجة شغور منصب الخلافة انتشار الفوضى وظهور الفتن، واستشرء العصبية بين القبائل، وتحزب الأحزاب، كل حزب حسب هواه

ومصالحه. والسؤال هنا: ماهو نصيب قبائل الشام تحديداً من هذه الأحداث والانقسامات؟ هل تأثرت بها وعصفت؟ أم أنها بقيت كما كان عهدا موحدة متماسكة خالصة لبني أمية؟
الواقع أن قبائل الشام تأثرت تأثراً كبيراً بهذه الأحداث والانقسامات، وزال عنها - ولو لوهلة - الإخلاص للأمويين، نتيجة الاختلاف حول شخص الخليفة صاحب الاستحقاق. ومما لا مناص من ذكره هنا، أن الشام بدت في أضعف حالاتها أمام صراعها مع الأقاليم الأخرى، ولا سيما الحجاز، وتحديداً مكة المكرمة، بل لا يذهب البحث بعيداً إذا ما ذكر أنه حتى الأمويين أنفسهم، وعلى رأسهم مروان بن الحكم، فكروا بمبايعة خليفة الحجاز عبد الله بن الزبير - في بداية الأمر - أما سبب ذلك فقد علّقوه على شناعة مكانته في الإسلام، ونسبه الشريف كما سيورد البحث لاحقاً. ولعل السبب الأكثر واقعية وتأثيراً في موقف مروان بن الحكم هو تفرق القبائل في الشام وتشرذمها، وميلها لاختيار ابن الزبير، فمال معها حيث مالت.

وبدت الأمور وكأنها ستسير لصالح أهل الحجاز، وستخرج من أيدي أهل الشام، ومما عزز هذه الفكرة أكثر فأكثر، عدم وجود منافس على الساحة الأموية ينافي ابن الزبير الخلافة، وهو صاحب الحظوظ القوية في الظفر بها، وربما لتلك الأسباب انقادت لابن الزبير جلّ المناطق التي كانت تحت سلطان بني أمية، حتى في داخل دمشق نفسها، كانت الدعوة لابن الزبير قائمة نتيجة لاتساع أمره في الأمصار، ولو كان هذا الأمر قد تم، لكان ذلك سابقة خطيرة على الأمويين وتاريخهم؛ كونها ستفضي إلى خروج السلطة من أيديهم خاصة، ومن أرض الشام عامة، إلى منافسهم في الحجاز عامة، ومكة المكرمة خاصة، فالأمر حسب تقدير البحث أشبه ما يكون بـ:

١- إقرار الأمويين بالهزيمة، من دون معركة أو مواجهة أو حتى عقد راية.

٢- إعطاء الخلافة لابن الزبير في مكة وعلى طبق من ذهب، ومن دون خسارة قطرة دم واحدة.
إلا أن هذا الأمر لم يتم، على الرغم من حماس مروان لبيعة ابن الزبير بمكة، فما الذي حدث؟ أثناء رغبة مروان بالذهاب إلى الحجاز، صادف ذلك قدوم عبيد الله بن زياد من العراق، فمنعه من ذلك الأمر، بل يبدو وأنه قد زجره ونهاه قائلاً له: "قد استحييت لك من ذلك، أنت كبير قريش وسيدها،

تمضي إلى أبي خبيب فتبايعه"، فقال مروان: "ما فات شيء بعد"، فقام معه بنو أمية ومواليهم، وتجمع إليه أهل اليمن، فسار إلى دمشق وهو يقول: "ما فات شيء بعد".^١

ويبدو أن كلمات ابن زياد وضعت الخطوط العريضة لضرورة إجماع الأمويين على شخص يكون نداءً لابن الزبير، ولعل هذا الشخص هو مروان بن الحكم؛ كونه كبير قريش وسيدها على حدّ تعبير ابن زياد، فغيّر مروان درب راحلته وعاد لدمشق، وليتغير بذلك تاريخ تلك الحقبة.

دخل مروان بن الحكم ومن معه دمشق، وكان فيها الضحّاك بن قيس الفهري^٢، والذي قد بايعه أهلها على أن يصلي بهم، ويقيم لهم أمرهم حتى يجتمع الناس على خليفة، إلا أنه كان يدعو إلى ابن الزبير سرّاً، وبحسب الروايات مال الضحّاك إلى دعم الأمويين، حيث كتب لهم ليسيروا إلى الجابية^٤، كي يبايعوا جميعاً رجلاً من بني أمية، وقد تعرّض الضحّاك لانتقادات شديدة، جرّاء هذا الكتاب^٥، وأحس -هو شخصياً- بالندم الشديد، وبعد مشاورات مع رجاله وقبائل قيس، قرر النكث بوعدده، والتخلف عن الخروج إلى الجابية، معلناً تأييده العلني والصريح لعبد الله بن الزبير^٦. ورجع

^١ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص٢١-٢٢. ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص٢٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٣٨. ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٢٤٠. ابن حجر: الإصابة ج٣ ص٤٧٩.

^٢ ويكنى أبا عبد الرحمن، كان مع معاوية بصفين، كما كان كاتباً لعثمان رضي الله عنه، وولي إمرة المدينة لمعاوية. انظر: ابن خياط: طبقات خليفة ص٦٦. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص١٧٨. المزني: تهذيب الكمال ج٢٧ ص٣٨٩.

^٣ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص٢١-٢٢. ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص٢٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٣٨. ابن حجر: الإصابة ج٣ ص٤٧٩. ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٢٤٠.

^٤ الجابية: بكسر الباء وياء خفيفة، قرية من أعمال دمشق. انظر: ابن عبد الحق: مرصد الاطلاع ج١ ص٣٠٤.

^٥ الوكيل: (محمد السيد) الأمويون بين الشرق والغرب، دمشق، دار القلم، ١٩٩٥م، ط١، ج١ ص٣٠٣.

^٦ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص٢٤. عاقل: (نبيه) خلافة بني أمية، سلسلة تاريخ العرب والإسلام، دمشق، ١٩٧٢م، ص١٢٤. وقيل بأن الضحّاك دعا لنفسه انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٢٤١. الفاسي: المقنع في أخبار الملوك وولاة مكة الشرفاء، تحقيق: محمد التونجي، دمشق، دار الملاح، ١٩٨٦م، ص٤٠.

الضحاك ومن معه، ودمشق بيده، فنزل بمرج راهط^١. اجتمع بنو أمية وحسان بن مالك بن بحدل الكلبي وغيرهم بالجابية، فصلى بهم حسان أربعين يوماً والناس يتشاورون^٢، وكان حسان رئيس الطرف اليميني^٣.

وبعد أن بلغ الأمويون تراجع الضحاك عن موقفه وتكتله وأعوانه في مرج راهط، بدت الأمور وكأنها تتجه نحو تصعيد قبلي خطير، لم يُعهد له مثيل منذ ظهور الإسلام، وطففت على السطح العصبية القبلية المقيتة، والتي قاومها الإسلام وانتصر عليها؛ ولكن إلى حين.

لقد اتخذ قيسو الجزيرة -زعامة الضحاك- موقفاً واضحاً، فهم لم يغفروا لمعاوية أنه فتح منطقتهم للمزيد من الهجرة، ولم يروا سبباً لدعم أسرته، فأعلنوا مناصرتهم لعبد الله بن الزبير، ولعلمهم كانوا يأملون منه أن يعيد إليهم استقلالهم الذاتي في الولاية، يضاف إلى ذلك أن القسط الكبير من الدعم الذي حاز عليه ابن الزبير كان من الحجاز الموطن الأصلي لأبناء قبائل الجزيرة^٤.

وبالمقابل، كان بعض بني كلب -أو أغلبهم- يريدون استمرار منصب أمير المؤمنين في بيت معاوية، ولكن أحداً من أبنائه لم يكن كبيراً إلى حدِّ كافٍ لتسلم هذا المنصب، كما أن بني كلب كانوا يفتقرون إلى القوة لفرض رغبتهم، ثم إن قبائل كندة من السكون من جند الأردن، كانت في البداية مؤيدة لابن الزبير، لكنها سرعان ما أدركت أن مرشحاً أموياً فقط هو الذي يستطيع أن يوحدهم، ويضمن لهم امتيازاتهم^٥.

ويبدو أن كل معسكر كان له من نقاط القوة ما يدفعه للاعتقاد بأن النصر سيكون حليفه، فالتحالف الأموي - اليميني نجح في توحيد الموقف السياسي في الشام من مشكلة الحكم، غير أن التحالف الزبيري - القيسي، كان قد قطع شوطاً في التنسيق القبلي والعسكري إلى حدِّ جعله قوة

^١ موضع معروف بالشام، على أميال من دمشق في الغوطة. انظر: البكري: معجم ما استعجم ج٢ ص٢٣٠. الحميري: الروض المعطار ص٥٣٦.

^٢ البلاذري: أنساب الأشراف ج٥ ص٢٩٨. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص٢٤.

^٣ ييئون: (إبراهيم) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩١م، ص٢١٣.

^٤ شعبان: (محمد عبد الحي) صدر الإسلام والدولة الأموية، بيروت، الأهلية للنشر، ١٩٨٧م، ص١٠٤.

^٥ شعبان: المرجع المتقدم ص١٠٥.

صعبة المنافسة، خصوصاً بعد التثام كبار القيادات القيسية في مرج راهط، من أمثال زفر بن الحارث الكلابي، وناتل بن قيس فضلاً عن الضحاك، وإعلانهم عن تأييد ابن الزبير وبيعته بالخلافة.^١ وفي حين كان المعسكر القيسي قد حسم أمره بتأييد ابن الزبير سرّاً تارةً وعلانيةً تارةً أخرى، كان لابد للمعسكر اليميني من تحديد شخص الخليفة من بني أمية، فما هي أهم الآراء التي طرحت في مؤتمر الجابية بين قادة المعسكر اليميني، ومن كان مرشح التسوية؟

يبدو أن نقاشاً دار حول تحديد شخص الخليفة من البيت الأموي، فقد كان مالك بن هبيرة السكوني يهوى خالد بن يزيد بن معاوية، وكذلك كان حسان بن مالك بن بحدل الكلبي، بينما أصّر الحصين بن نمير السكوني، ومعه عبد الله بن عضاة الأشعري على تولية مروان بن الحكم^٢، فهو ابن عم عثمان بن عفان رضي الله عنه أمير المؤمنين، وشيخ قريش، وأضاف أهل الأردن قائلين لمروان: "أنت شيخ كبير، وابن يزيد غلام، وابن الزبير كهل، وإنما يقرع الحديد بعضه ببعض، فلا تبار بهذا الغلام (خالد بن يزيد) وارم بنحرك في نحره، ونحن نبايعك، ابسط يدك، فبسطها، فبايعوه"^٣، ووافقهم حسان بن مالك على رأيهم، وأمر الناس بمبايعة مروان فهو أولى بميراث عثمان، وأحق بالأمر من الملحد ابن الزبير الذي خلع الخلافة، وجاهر الله بالمعصية^٤، وكانت البيعة يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذي القعدة عام ٦٤هـ/٦٨٣م^٥، وبالنتيجة، فقد ظهر مروان بن الحكم مرشح تسوية، وبالرغم من أن معاوية بن أبي سفيان كان قد تجاوزه مفضلاً عليه ابنه يزيد، فلقد كان مروان العضو الأكبر في بيت بني أمية. هذا ويبدو أيضاً أن مروان وعد قبائل السكون بمنحها المزيد من الأراضي في البلقاء^٦،

^١ بياضون: من دولة عمر ص ٢١٤.

^٢ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٨٩-٢٩٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٣٩.

^٣ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٢٣. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤١. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٤٧٦.

^٤ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٩٠.

^٥ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٢٣. السباعي: تاريخ مكة ص ٩٨.

^٦ البلقاء: كورة من أعمال دمشق، بين الشام ووادي القرى، قصبته عمان، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة، سميت بالبقاء بن سورية. للمزيد انظر: ابن عبد الحق: مرصد الاطلاع ج ١ ص ٢١٩. الحميري: الروض المعطار ص ٩٦.

وإرضاءً لباقي الأطراف، فقد تم الاتفاق على تسليم الخلافة إلى مروان^١، ومن بعده لخالد ابن يزيد إرضاءً للكليبيين، ومن بعده لعمرو بن سعيد الأشدق^٢، على أن تكون أثناء خلافة مروان دمشق تحت إمرة عمرو بن سعيد، وحمص تحت إمرة خالد بن يزيد^٣.

والآن، وبعد أن توحد صف بني أمية، وتوافر الند المناسب لابن الزبير، كان لابد لمروان بن الحكم أن يتخذ الخطوة التالية والأكثر حسماً، وهي مواجهة الضحاك ومن معه ممن يؤيدون ابن الزبير، ويسيطرون على مجمل الأوضاع في دمشق، فكيف سارت الأمور؟

التقديرات الأولية للنزاع كانت في صالح الضحاك زعيم القيسية المؤيدة لابن الزبير، فمجمعل عمال الشام أعلنوا صراحةً تأييدهم للضحاك بالقول والفعل، ففي قنسرين أرسل زفر بن الحارث الكلابي للضحاك بالجنود معلناً بيعته لابن الزبير، وفعل الأمر نفسه النعمان بن بشير الأنصاري، الذي أخذ البيعة لابن الزبير من أهل حمص، أما ناتل بن قيس بن زيد الجذامي فقد ولي فلسطين لابن الزبير، وانتزعها من روح بن زنباع الجذامي المؤيد للأمويين، بعد أن ثار عليه وباع لابن الزبير^٤، وكان حسان بن مالك بن بحدل الكلبي بفلسطين، فرفض البيعة لابن الزبير وأعلن تأييده لبني أمية، إلا أن اضطر أمام قوة خصومه للخروج إلى الأردن ونزل بطبرية، واستخلف على

فلسطين روح بن زنباع الذي لم يستطع الصمود أمام ناتل بن قيس^٥. وهكذا يبدو أن الشام كلها استقامت لابن الزبير وداعيته في الشام الضحاك، إلا الأردن، ويقال إن بعض أهل الأردن قد كانوا مائلين إلى ناتل، ومنحرفين عن حسان بن مالك بن بحدل الكلبي^١.

^١ التميمي: (أبو العرب محمد بن أحمد) المحن، تحقيق: يحيى وهيب الجبوري، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨م، ط ٢، ص ١٨٦-١٨٧.

^٢ عاقل: خلافة بني أمية ص ١٢٥. يبيضون: من دولة عمر ص ٢١٣.

^٣ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٩٩. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٢٥. الوكيل: الأمويون ج ١ ص ٣٠٣.

^٤ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٩٥. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٢١.

^٥ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٨٨. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٢١.

ويبدو أن قضية مقتل عثمان رضي الله عنه والمطالبة بالتأثر له، والقبض على المتهمين، كما كانت سبباً رئيسياً من أسباب اعتلاء مروان بن الحكم الخلافة كما سلف، كانت هي الأخرى سبباً من أسباب انحياز الناس لابن الزبير، فلطالما قالت الزبيرية بالشام أن ابن الزبير أولى أهل زمانه بالأمر، لأنه ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمطالب بدم الخليفة المظلوم عثمان رضي الله عنه، ورجل له شجاعة وسنّ وفضل.^٢

فالمطالبة بدم عثمان رضي الله عنه، والاقتصاص له، كانت كما يبدو شائعة علّق عليها كلا الطرفين آمالهما في الوصول إلى الخلافة، ولعل نجاح معاوية بن أبي سفيان من قبلهما في الوصول إلى إمرة المؤمنين، بعد أن نادى بذلك الشعار، شكّل حافزاً كبيراً لكليهما على سلك هذه الطريق.

واجتمع لدى الضحّاك ستين ألف جندي على خلاف بالعدد^٣، أمده بهم النعمان بن بشير الأنصاري، وزفر بن الحارث الكلابي من قنسرين، وناتل بن قيس الجذامي من فلسطين^٤. أما مروان فقد اجتمع عنده من كلب وغسان والسكاسك والسكون ما يقارب من ثلاثة عشر ألفاً^٥، أكثرهم رجالة، واستعد مروان للحرب، فجعل على ميمنته عمرو بن سعيد، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد.^٦

والتقى الجمعان بمرج راهط، واقتتلوا قتالاً شديداً عشرين ليلة^٧، وكان للكثرة العددية في جيش الضحّاك أثراً سلبياً على بني أمية، وهنا كان لابد من المكر والحيلة، وطلب ابن زياد من مروان وقف

ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٣٨. عاقل: خلافة بني أمية ص١٢٥. الوكيل: الأمويون ج١ ص٣٠٢.

^١ البلاذري: أنساب الأشراف ج٥ ص٢٨٩.

^٢ البلاذري: المصدر المتقدم ج٥ ص٢٨٩.

^٣ البغدادي: (عبد القادر بن عمر) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٩٧م، ط٤، ج٢ ص٢٧٣. وقيل ثلاثين ألفاً، انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٢٤٣.

^٤ ابن خياط: تاريخ خليفة ص٣٢٦. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص٢٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٥٤٧.

^٥ البغدادي: خزانة الأدب ج٢ ص٣٧٣. ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٢٤٢.

^٦ ابن خياط: تاريخ خليفة ص٣٢٦. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص٢٥. عاقل: خلافة بني أمية ص١٢٥.

^٧ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص٢٦. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٤١.

القتال، وطلب المودة^١، فإذا كفوا فاشدد عليهم، وتأول حديث "الحرب خدعة"^٢، ومشت السفراء بينهم، فكف الضحاك عن القتال، فشدد عليه مروان في الخيل، ففزعوا إلى رأيهم عن غير تعبئة^٣، وصبر الضحاك صبراً عظيماً، ولكن بدون جدوى، فقد حطم الغدر نفوسهم، ودارت الدائرة على القيسيين^٤، واستولت الدهشة على قلوبهم، فلم يستطيعوا مقاومة الغدرة المشؤومة، وقاتل مروان أهل المرج فظفر بهم، وقُتل الضحاك^٥ على يد دحية بن عبد الله^٦، وقتل معه ثمانين رجلاً من أشرف أهل الشام، وقرابة ثلاثة آلاف آخرين^٧، وهرب ناتل بن قيس الجذامي عن فلسطين لاحقاً بآبن الزبير بمكة، وهرب زفر بن الحارث الكلابي عن قنسرين، وأعلن عدم اعترافه بخلافة مروان بن الحكم، واعترف بآبن الزبير^٨، وهرب النعمان بن بشير عن حمص، وهكذا استوثقت الشام لمروان واستعمل عماله عليها^٩. ويبدو أن النصر الذي تحقق في معركة مرج راهط، كان متزامناً مع خضوع دمشق لسلطة مروان بن الحكم، ولكن كيف حدث ذلك التزامن؟

لقد استطاع يزيد بن أبي النميس الغساني^{١٠}، والذي كان مختفياً بدمشق، ولم يشهد الجابية، أن يثور على دمشق ويتغلب على عامل الضحاك فيها، ويخرجه منها، كما غلب على الخزائن وبيت

^١ البغدادي: خزانة الأدب ج٢ ص٣٧٣. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٣ ص٥٤٧.

^٢ الوكيل: الأمويون ج١ ص٣٠٧.

^٣ ابن خياط: تاريخ خليفة ص٣٢٦. المسعودي: (أبو الحسن علي بن الحسين) التنبيه والإشراف، بيروت، دار الهلال، ١٩٩٣ م. ص٢٨٣.

^٤ عيسى: (رياض) الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية، تقديم: سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٢ م، ط١، ص٢٧٩.

^٥ البلاذري: أنساب الأشراف ج٥ ص٢٩٣. الشريف: دور الحجاز ص٤٣٨. عيسى: الحزبية السياسية ص٢٧٩.

^٦ وقيل زحمة بن عبد الله من بني كلب، طعنه بحرته فأنفذه ولم يعرفه. انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق ج١٨ ص٤٤٧، ج٢٤ ص٢٩٦. ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٢٤٣.

^٧ الفاسي: المقنع ص٤٠.

^٨ عيسى: الحزبية السياسية ص٢٨٠.

^٩ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص٢٦-٢٧. السباعي: تاريخ مكة ص٩٨. الوكيل: الأمويون ج١ ص٣٠٩.

^{١٠} ورد اسمه يزيد بن أبي النمر. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٢٤٢.

المال , وبائع لمروان وأمدّه بالأموال والرجال والسلاح , فكان ذلك أول فتح على بني أمية^١ , وما إن قدم مروان دمشق حتى بايعه الناس بيعة جديدة.

لقد كانت معركة مرج راهط -وبحق- محاكاة لأيام العرب قبل الإسلام, حيث تعدّت العصبية القبلية كل الاعتبارات الخلقية والدينية, وتجاوزت مختلف الضوابط بما فيها المصلحة العامة للقبيلة^٢. وبصيغة أخرى, لقد فتحت مرج راهط باب العصبية بين القبائل بعد الإسلام, بعد أن مرّ بالإسلام عهد نسي فيه المتعصبون التحيز^٣.

وبالنتيجة, لقد مثّلت معركة مرج راهط حرب القبائل في الشام من أجل السيادة والنفوذ والامتيازات, وليست حرب الاتجاهات السياسية حول قضية مبدئية أو إصلاحية معينة^٤, حيث استطاع مروان بن الحكم أن يستفيد من احتكاك القيسيين واليمنيين, وأن يستعين بسيوف اليمنيين, على الرغم من نسبه إلى القيسية^٥. ولعل ذلك بسبب ميل القيسية لأهل الحجاز عامة حيث موطنهم الأصلي, وأهل مكة خاصة ولاسيما ابن الزبير المتمركز بها.

لقد كانت هذه المعركة سبب ردّ الملك إلى بني أمية, والذي كاد يزول عنهم إلى بني أسد (ابن الزبير), بغض النظر عن تغيير الأسرة الحاكمة من السفينانية إلى ابتداء عهد حكم الأسرة المروانية^٦, وقد رأى قوم أن مروان بن الحكم أول من أخذ الخلافة بالسيف, وهذه المعركة مما تفتخر بها اليمانية على النزارية (القيسية)^٧, واستتب الأمر لمروان في الشام, وبدأت عيناه ترنو لإخضاع باقي الأمصار, وإخضاع خصمه التقليدي عبد الله بن الزبير في مكة, كما سيورد البحث لاحقاً.

^١ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص٢٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٤١.

^٢ بياضون: من دولة عمر ص٢١٤.

^٣ السباعي: تاريخ مكة ص٩٩.

^٤ بياضون: من دولة عمر ص٢١٤.

^٥ السباعي: تاريخ مكة ص٩٩.

^٦ عاقل: خلافة بني أمية ص١٢٢.

^٧ المسعودي: التنبيه والإشراف ص٢٨٣.

الترتيب	الخليفة	مدة حكمه	طريقة استحواذه على الخلافة
---------	---------	----------	----------------------------

ثانياً: جدول التعريف بخلفاء الدور المرواني:

١.	مروان بن الحكم بن أبي العاص.	(٦٤-٦٥هـ / ٦٨٤-٦٨٥م).	بموجب نتائج معركة مرج راهط (٦٤هـ/ ٦٨٤م), بعد أن بويغ في مؤتمر الجابية من العام نفسه.
٢.	عبد الملك بن مروان	(٦٥-٨٦هـ / ٦٨٥-٧٠٥م).	بموجب ولاية العهد من أبيه.
٣.	الوليد بن عبد الملك	(٨٦-٩٦هـ / ٧٠٥-٧١٥م).	بموجب ولاية العهد من أبيه.
٤.	سليمان بن عبد الملك	(٩٦-٩٩هـ / ٧١٥-٧١٧م).	بموجب ولاية العهد من أخيه.
٥.	عمر بن عبد العزيز	(٩٩-١٠١هـ / ٧١٧-٧٢٠م).	بموجب ولاية العهد من ابن عمه.
٦.	يزيد بن عبد الملك	(١٠١-١٠٥هـ / ٧٢٠-٧٢٤م).	بموجب ولاية العهد من ابن عمه ووصية سليمان.
٧.	هشام بن عبد الملك	(١٠٥-١٢٥هـ / ٧٢٤-٧٤٣م).	بموجب ولاية العهد من أخيه.
٨.	الوليد بن يزيد بن عبد الملك	(١٢٥-١٢٦هـ / ٧٤٣-٧٤٤م).	بموجب ولاية العهد من أخيه.
٩.	يزيد بن الوليد بن عبد الملك	(١٢٦-١٢٦هـ / ٧٤٤-٧٤٤م).	فرض بيعته بالقوة بعد قتله لابن عمه الوليد بن يزيد, وهي سابقة في التاريخ الأموي السياسي.
١٠.	إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	(١٢٦-١٢٧هـ / ٧٤٤-٧٤٤م).	بموجب ولاية العهد من أخيه.
١١.	مروان بن محمد	(١٢٧-١٣٢هـ / ٧٤٤-٧٤٩م).	فرض بيعته بالقوة في ثاني حادثة من نوعها في التاريخ الأموي السياسي.

ثالثاً: دولة عبد الله بن الزبير (٦٤هـ-٧٣هـ/ ٦٨٣م-٦٩٢م):

١- اسمه ونسبه:

عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، كان يكنى بأبي بكر، وقيل له أبو خبيب^١، أبوه الزبير أحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو حواري الرسول ﷺ، شهد بدرًا وكان أحد أصحاب الشورى، وأم عبد الله هي ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر الصديق ﷺ، وأم أبيه صفية عمة النبي ﷺ، وخالته عائشة أم المؤمنين ﷺ.^٢

ولد عبد الله بالمدينة المنورة بعد الهجرة، وهو أول مولود ولد للمهاجرين بعد الهجرة^٣، وفرح المسلمون بولادته فرحاً شديداً؛ لأن اليهود كانوا يقولون: "سحرناهم فلا يولد لهم ولد"^٤، فتحته رسول الله ﷺ بتمر لأكها، وتماه عبد الله وكناه أبا بكر باسم جده الصديق ﷺ وكنيته^٥. ويبدو أن ابن الزبير كان قد اتخذ من نسبه الشريف هذا أحد الأسلحة الفعالة، والتي واجه فيها خصومه

^١ ابن قتيبة: المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ط ٢، ص ٢٢٤. البلاذري: أنساب الإشراف ج ٦ ص ١٢. ابن حبان: الثقات ج ٣ ص ٢١٢. ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار، وضع حواشيه وعلق عليه: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥ م، ط ١، ص ٣٨. الشيرازي: (إبراهيم ابن علي) طبقات الفقهاء، هذبه: محمد بن مكرم بن علي بن منظور، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٧٠ م، ط ١، ص ٥٠. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ١٤٦. ابن خلكان: (أبو العباس أحمد بن محمد) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د.ت، ج ٣ ص ٧١.

^٢ ابن الكلبي: جمهرة النسب ص ٦٩. ابن حبيب: المنقح ص ٤٢٣. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ١٣٧.

^٣ الزبيري: نسب قريش ص ٢٣٧. أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص ٣٨٩. ابن حبان: الثقات ج ٣ ص ٢١٢. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ١٤٦. الذهبي: سير أعلام ج ٣ ص ٣٦٤. السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن) تاريخ الخلفاء، بيروت، دار الفكر، د.ت، ص ١٩٦.

^٤ الزبيري: نسب قريش ص ٢٣٧. ابن قتيبة: المعارف ص ٢٢٥. البلاذري: أنساب الأشراف ج ٦ ص ١٣. ابن قدامة: (عبد الله بن أحمد) التبيين في أنساب القرشيين، تحقيق: محمد نايف الدليمي، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٨ م، ط ٢، ص ٢٥٧. المقدسي: البدء والتاريخ ج ٤ ص ١٨١. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ٢٠٩.

^٥ الذهبي: سير أعلام ج ٣ ص ٣٦٥. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٧ ص ٩١. ابن حجر: فتح الباري ج ٧ ص ٢٤٩.

^٦ ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص ٣٨. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ١٥٢. ابن الجوزي: صفة الصفوة، تحقيق: محمود فاخوري ومحمد رواس قلعة جي، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٩ م، ط ٢، ج ١ ص ٧٦٤. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ١٣٧. ابن قدامة: التبيين ص ٢٥٧. الوكيل: الأمويون ج ١ ص ٣٥٥.

السياسيين, فلم يجدوا له سبيلاً من هذا الباب, فعمدوا إلى سلاح الحرب التقليدية. وصف ابن الزبير بشدة الذكاء والحنكة والجرأة, وفي الوقت نفسه كان شديد التمرس بشؤون السياسة^١, وسيعرض البحث تفاصيل أخرى عن حياته, من خلال الحديث عن دولته.

٢- موقف عبد الله بن الزبير منبيعة يزيد:

أخذ معاوية بن أبي سفيان ولاية عهده لابنه يزيد عام ٦٧٥/٥٥٦م، واستوثق له أمر الناس, ووافقوه على رأيه غير خمسة نفر, وهم: الحسين بن علي, ابن الزبير, ابن عمر, ابن عباس, وعبد الرحمن بن أبي بكر^٢. ولتبيد مخاوف معاوية من هؤلاء الرهط, فقد عمد إلى أخذهم بالرفق تارة, وبالتهديد والوعيد تارة أخرى, ولكن كيف تم له ذلك؟

بدأ معاوية بلقاء كل واحد منهم على حدا, ووجه له أصابع الاتهام بأنه سبباً في فرقة المسلمين, وتشتت شملهم, وتفرق كلمتهم. ولعل دهاء معاوية وجهه إلى تلك الفكرة, فمن الصعوبة بمكان إقناعهم مجتمعين بوجهة نظره.

فقد أرسل معاوية إلى عبد الله بن الزبير وقال له: "قد استوثق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش أنت تقودهم, يا ابن أخي فما إربك إلى الخلاف؟ قال: أنا أقودهم؟ قال: نعم أنت تقودهم, قال: فأرسل إليهم فإن بايعوا كنت رجلاً منهم, وإلا لم تكن عجلت علي الأمر, قال: وتفعل؟ قال: نعم". فأخذ معاوية عليه عهداً ألا يخبر بحديثهم أحداً, إلا أن ابن الزبير أبي ذلك قائلاً: "يا أمير المؤمنين, نحن في حرم الله عز وجل, وعهد الله سبحانه ثقيل" فأبى عليه وخرج^٣.

^١ عاقل: خلافة بني أمية ص ١٠٥. عيسى: الحزبية السياسية ص ٢٠٧.

^٢ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ١٥٣-١٥٤. ابن الجوزي: المنتظم ج ٥ ص ٢٨٦.

^٣ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ١٥٤. ابن الجوزي: المنتظم ج ٥ ص ٢٨٦.

وفي رواية ثانية أن معاوية قال لابن الزبير: "يا ابن الزبير إنما أنت ثعلب رَوَّاع، كلما خرج من جحر دخل في آخر"، فقال له ابن الزبير: "إن كنت قد مللت الإمارة فاعتزلها، وهلم ابنك فلنبايعه، أرايت إذا بايعت ابنك معك، لأيكما نسمع لأيكما نطيع، لا تجتمع البيعة لكما أبداً".^١

ولعل من خلال الرواية الثانية يمكن القول بأن ابن الزبير ساير معاوية، بعدما أحس منه لهجة قاسية، فاعترف صراحة ببيعة يزيد، بل وطلب مبايعته بالحال، ولكن هذا الاعتراف كان بأسلوبٍ مكرٍ، استطاع به ابن الزبير أن ينجو فيه من غضب معاوية السيد المطاع والأمر الناهي.

وثمة شيء مهم ورد في الرواية الثانية لامناص من الإشارة له، ألا وهو تساؤل ابن الزبير أمام معاوية، أنه إذا ما وافق على تولية يزيد لولاية العهد، فإلى من يسمع ويطيع، مع أن الطاعة واجبة للخليفة وليس لأحد سواه، ولعل تساؤل ابن الزبير يمكن تسويغه كون ولاية العهد لم تكن معروفة من قبل في تاريخ الإسلام، أي أن هذه التجربة السياسية كانت جديدة على المجتمع الإسلامي آنذاك، ومن ثم أصبحت هذه المبايعة سُنَّة اتبعتها مجمل الخلفاء الأمويين في تعيين ولي عهدهم.

في عام ٦٠هـ/٦٧٩م توفي معاوية بن أبي سفيان، بعد أن ترك وصية صريحة لابنه يزيد لا لبس فيها، تحمل رؤية ومعرفة معاوية بمعادن الرجال؛ لاسيما ابن الزبير، فما الذي جاء في الوصية؟

قال معاوية في الوصية مخاطباً يزيد: "أما ابن الزبير فإنه خبٌّ ضبٌّ^٢، فإذا شَخَّصَ لك فالبُذْ له فإن ظفرت به فقطعه إرباً إرباً، إلا أن يلتمس منك صلحاً، فإن فعل فأقبل، واحقن دماء قومك ما استطعت"^٣. وعلى هذا الحال، فإن معاوية أوصى ولده بالحذر والسطوة من جهة، وفي الوقت ذاته الجنوح للسلم مع ابن الزبير، طالما وجد لذلك سبيلاً من جهة أخرى، فالصلح خير.

^١ ابن العربي: (القاضي أبي بكر بن العربي) العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ، حققه وعلق حواشيه: محب الدين الخطيب، خرج أحاديثه وعلق عليه: محمود مهدي الاستانبولي، بيروت، دار الجيل، ٢٠٠٣م، ص ٢٢٤. السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٨٣-١٨٤.

^٢ خبٌّ ضبٌّ: منكر مراوغ، الخب الخداع المفسد، والضب الحقد في الصدور. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة خب، ج ١ ص ٣٤٢. مادة ضب، ج ١ ص ٥٤٠.

^٣ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٣٥٣. الشريف: دور الحجاز ص ٤١٧. صفوت: (أحمد زكي) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، بيروت، المكتبة العلمية، د.ت، ج ٢ ص ١٨٨.

وحالما استلم يزيد الخلافة في عام ٦٠هـ/٦٧٩م^١، كان جلّ اهتمامه منصباً على بيعه النفر الذين أبوا على معاوية الإجابة إلى بيعة يزيد، فكتب إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان واليه على المدينة في صحيفة كأنها أذن فأرة: "أما بعد: فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا، والسلام"^٢. والسؤال هنا: ما هو موقف ابن الزبير من دعوة يزيد له بالبيعة؟ هل يبت ابن الزبير النية لإعلان نفسه خليفة، وإن صحّ ذلك؛ فما الذي منعه من ذلك؟ ألم تكن وفاة معاوية فرصة سانحة لإعلان دولته؟

في الواقع لقد كان ابن الزبير حذراً أشد الحذر في التعامل مع رسالة يزيد لواليه في المدينة، فهو ليس لديه القدرة على رفض البيعة كون لهجة الرسالة قاسية، وفي الوقت ذاته لا يستطيع الإعلان عن نواياه في استلام السلطة، فلم يكن هناك مرحلة انتقالية بين معاوية وابنه، أي أن الدولة التي انتقلت إلى يزيد كانت قوية، واستمرت قوية لتفرض رغبتها على الجميع، ولم يعكر صفوة انتقال السلطة أي شائبة، اللهم إلا ما تقدم من رفض البعض للاعتراف بخلافة يزيد.

وعلى العموم يبدو أن مقومات إعلان ابن الزبير لدولته، لم تكن قد تبلورت بعد لأسباب عدة، لعل أهمها وجود الحسين بن علي عليه السلام معه في الحقة نفسها، فلم يكن أمام ابن الزبير إلا طريق واحد، ألا وهو تفضيل السلامة على المواجهة، والانحناء أمام العاصفة، حتى تحين اللحظة المناسبة. فلما أتاه رسول الوليد وجده مجتمعاً في أصحابه متحرزاً، فقال له ابن الزبير بعد أن عرض عليه البيعة ليزيد: "لا تعجلوني فإني آتيكم، أمهلوني". وبعث الوليد إلى ابن الزبير موالي له، فشتموه وصاحوا به: "يا ابن الكاهلية والله لتأتين الأمير أو ليقتلنك"^٣.

وبدأ ابن الزبير باستخدام الحيلة والمكر والخداع، فالموقف يبدو أنه لا يحتمل التأجيل، فأرسل أخاه جعفر إلى الوليد طالباً منه الكف عن أخيه عبد الله، على أن يأتيه صباحاً مبايعاً ليزيد، فكف

^١ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٧٤. المسعودي: التنبيه والإشراف ص٢٧٨. الزركلي: الأعلام ج٨ ص١٨٩.

^٢ ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٣٢٣. ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص١٤٧. الشريف: دور الحجاز ص٤١٨.

^٣ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٧٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص١٢٩.

الوليد رسله, فما كان أمام عبد الله بن الزبير وأخيه جعفر, إلا أن يخرجوا سراً من ليلتهما إلى مكة المكرمة, ممتنعين عن بيعه يزيد.^١

وبهذا المعنى, يبدو أن ابن الزبير كان قد اتخذ قراره النهائي بالامتناع عن بيعه يزيد, ولم يكتف بهذا القدر, بل صعد حملته ضد يزيد قادحاً فيه وذاماً له, فقد روي أنه امتنع بالحرم وجميع مواليه, وجعل يظهر عيب يزيد ويشتمه, ويذكر شربه الخمر^٢, وكان يسميه بالسكير والخمير^٣, وقال عنه: "وهو مشغول بلعب الفهود والقروذ وشرب الخمر والملاهي والفجور".^٤

وذهب البعض للقول ببطلان ذلك الإدعاء, ولعل خير شاهد على ذلك محمد بن الحنفية حيث قال: "إني كنت عند يزيد بالشام مقيماً إلى وقت الانصراف عنه, فلم أطلع منه على كفر, ولا فجور, وأكثر ما ينتهي إلي من خبره أنه كان يشرب الخمر, وقد نهيته عن ذلك"^٥, كما قيل أنه لا يجوز اتهام يزيد بشرب الخمر دون شاهدين^٦, وعلى العموم, ظل يزيد خلال عصور طويلة من التأليف التاريخي موضع لعنة المؤرخين, لعدة أسباب -ليس البحث بصدد ذكرها- لعل أشهرها كون أخباره كتبت بأيد عباسية أو شيعية, لا تكفُّ له الودّ والصدقة.^٧

ولما يهنأ ابن الزبير بانفراده بمكة, حتى تبعه الحسين قادمًا إليها سراً, ولعل الحسين بعمله هذا قد أفسد على ابن الزبير خطته بالاستحواذ على قلوب المكيين, وكسب تعاطفهم ضد يزيد, فماذا صنع ابن الزبير؟

^١ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج٢ ص٥٠. أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص٣٣٦-٣٣٧. المقدسي: البدء والتاريخ

ج٦ ص٩٠. ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص١٣٧. الياضي: مرآة الجنان ص١٠٧. عيسى: الحزبية السياسية ص٢٠٨.

^٢ الأزرقى: أخبار مكة ج١ ص٢٠١. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص١٠٤.

^٣ المسعودي: التنبيه والإشراف ص٢٧٩.

^٤ ابن أعثم: (أحمد بن محمد) الفتوح, تحقيق: علي شيري, بيروت, دار الأضواء, ١٩٩١م, ط١, ج٢ ص٢٠٣.

^٥ ابن أعثم: المصدر المتقدم ج٢ ص١٩٥.

^٦ ابن العربي: العواصم من القواصم ص٢٣٢.

^٧ عاقل: خلافة بني أمية ص١١٧-١١٨.

أيقن ابن الزبير أنه طالما وجد الحسين في مكة، فإن دوره سيبقى دوراً ثانوياً لا أهمية له، وأن الناس جميعاً تسمع ما يطلب الحسين منهم، حتى ابن الزبير نفسه، كان لا يتردد في تنفيذ أوامر الحسين، وأمام هذا الوضع كان لا بد من اللجوء إلى خطة أخرى، فما هي؟

علم ابن الزبير أن ثمة مراسلات قائمة ما بين الحسين وأنصاره في الكوفة، فاستغل هذه الحادثة، وحشد كل طاقته وجهده لتحريض الحسين على مغادرة مكة إلى الكوفة مع معرفته بأنه لا يمكن الاعتماد على أهل الكوفة من قبل الحسين، وبالمقابل كان الحسين يعلم جيداً ما وراء تشجيع ابن الزبير له، وبالرغم من اعتراض الكثير على خروج الحسين؛ وعلى رأسهم ابن عباس الذي توسل إليه بعدم الذهاب إلى قوم خذلوا أبيه وطعنوا أخيه، وإن كان لا بد من الخروج من مكة فليكن إلى اليمن، فإنها في عزلة، وفيها أنصار له وإخوانه، إلا أن الحسين لم يستجيب لطلبه^١، وبعد إخفاق ابن عباس بثني الحسين عن قراره، خرج من عنده، ومّرّ بابن الزبير وهو جالس، فقال له: "قرّرت عينك يا ابن الزبير بخروج الحسين".^٢

وبهذا المعنى، فالكل كان يعرف أن ابن الزبير صاحب المصلحة الحقيقية بخروج الحسين، كونه لم يكن لابن الزبير أي دور يذكر بوجود الحسين، لقد كان قرار الحسين بالرحيل أول بارقة أمل لابن الزبير في تأسيس نواة خلافته في مكة، كونه الأجدر بالسمع والطاعة بما بعد الحسين، وسليل أسرة لطالما اشتهرت بالعلم والدين والورع.

^١ الزبيري: نسب قريش ص ٣٦١. أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص ٣٦٠. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: قاسم الرفاعي، بيروت، دار القلم، ١٩٨٩م، ط ١، ج ٣ ص ٦٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٤٧. الشريف: دور الحجاز ص ٤٢٩. الخلف: مجتمع الحجاز ص ١١٣.

^٢ أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص ٣٦١. المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٦٨. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ١٤ ص ٢١١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٤٩. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٧. الشريف: دور الحجاز ص ٤٢٩. وفي ذلك شعر، انظر: الأصفهاني: مقاتل الطالبين، تحقيق: السيد أحمد صقر، بيروت، دار المعرفة، د.ت، ص ١١١. الدار قطني: المؤلف والمختلف، تحقيق: موفق بن عبد الله بن عبد القادر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦م، ص ١٩١٣. ابن الجوزي: المنتظم ج ٥ ص ٣٢٨.

وبالفعل نال ابن الزبير ما تمنى حين خرج الحسين إلى الكوفة، تاركاً مكة لابن الزبير يصول ويجول فيها كيف يشاء، وكلما أرسل والي مكة عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق إلى ابن الزبير يطلب البيعة يقول له: "إني في الطاعة غير أني لا أباع أحداً، وأنا مستجير وممتنع بالبيت الحرام"^١، أو يقول: "إنما أنا عائد بالبيت"^٢، ولم يكن يصلي بصلاتهم، ولا يفيض بإفاضتهم، وكان يقف هو وأصحابه في ناحية، ثم يفيض بهم وحده، ويصلي بهم وحده^٣، وقد برهن ابن الزبير على دهاء وتبصر حين اعتصم بالبيت الحرام، وحين بقي في الحجاز ولم يخرج منها، ولعل اعتقال ابن الزبير مع أصحابه، كان يشكل مصدر قلق لوالي مكة الأشدق، فبث العيون حول أنصاره، ورتب الجواسيس ليحصوا حركات أتباعه.

وعندما لم تنفع الحسنى مع ابن الزبير، قرر يزيد قلب كف المجن وتغيير سياسته، فها هو ذا يستشيط غضباً من ابن الزبير الذي رفض بيعته، ويحلف أغلظ الإيمان لبياعين أو يؤتى به مغلولاً في جامعة^٤. وبالمقابل صعد ابن الزبير من تصرفاته بعد مقتل الحسين، فمنع من سواه - ولا سيما نائب مكة الحارث بن خالد المخزومي - بالإمامة في الصلاة بالحرم، وتكتل حوله أصحابه، ولم تنفع رقابة الحارث شيئاً، حيث لم يعيرها ابن الزبير أي اهتمام، وهو يشعر ببأسه في مكة، واتفاق من فيها عليه.^٥

^١ أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص ٣٨٨. المسعودي: التنبيه والإشراف ص ٢٧٨. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٤٣.

^٢ المبرد: (محمد بن يزيد) الكامل في الأدب، تحقيق: محمد أحمد الدالي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م، ط ٣، ج ٣ ص ١١٩٣. حسن: (حسن إبراهيم) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٦م، ط ١٤، ج ١ ص ٣٣٦. طهوب: (صلاح) العصر الأموي، عمان، دار أسامة، ٢٠٠٤م، ط ١، ص ٧٦.

^٣ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ١٧٧. الشريف: دور الحجاز ص ٤١٨.

^٤ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٢٠١. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ١٧٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١٣٢. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٣٧٢. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٩.

^٥ السباعي: تاريخ مكة ص ٩٣-٩٤.

كما أظهر الخلاف على يزيد، بل وخلعه، وتُويع له من بعد أن أظهر الدعاء على نفسه، وقام خطيباً بأهل مكة معظماً مقتل الحسين، كما عاب أهل الكوفة خاصةً، ولام أهل العراق عامةً^١، فيما ذهب البعض للقول بأن ابن الزبير لم يدع لنفسه بالخلافة حتى هلك يزيد^٢، ويبدو أن نائب مكة الحارث نقل الصورة لعمر بن سعيد الأشدق والي المدينة، والذي أرسل بدوره كتاباً إلى يزيد، طلب منه أن يبعث جيشاً لمواجهة ابن الزبير، وقرر عمرو بن سعيد - بعد موافقة يزيد - بعث عمرو بن الزبير صاحب شرطته لحرب أخيه عبد الله بن الزبير، وذلك نظراً لما بينهما من العداوة والبغضاء^٣.

ولا غرابة في ذلك، فالخلاف السياسي لطالما فرق بين الأخوة، كالتيار الجارف الذي لا يميز ما يجرفه معه، ولطالما عصفت السياسة بالعواطف وأواصر القرى، لتحل محلها المصالح والأهواء، حيث توعد عمرو بن الزبير أخيه عبد الله، وأقسم ليقاتلنه وليغزونه في جوف الكعبة، وأرسل لأخيه كتاباً - بعد كتاب يزيد - جاء فيه: " برّ يمين الخليفة، واجعل في عنقك جامعة من فضة لا تُرى، لا يضرب الناس بعضهم بعضاً، واتفق الله فإنك في بلد حرام"^٤.

ولعل بعض كلمات هذا الكتاب كان لها مفعول غريب في فكر ابن الزبير، فكان لا بد له من مراجعة موقفه مع أقرب الناس له، ألا وهي أمه، فقد روي أنه طلب من حملة الكتاب أياماً حتى ينظر في أمره، فشاور أمه أسماء، فأبت عليه أن يذهب مغلولاً، فالموت أحسن من هذا^٥، وينوع من

^١ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص٢٥٩.

^٢ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٢٨ ص٢٠٢.

^٣ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٧٧. ابن أعثم: الفتوح ج٢ ص٢٠٧. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٣٢٤. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص١٣٢. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٣ ص٤٧٣. ابن فهد: إتحاف الوري ج٢ ص٤٩. الشريف: دور الحجاز ص٤١٨-٤١٩. عيسى: الحزبية السياسية ص٢٠٩-٢١٠. عاقل: خلافة بني أمية ص١٠٧.

^٤ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٧٨. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٣٢٤-٣٢٥. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٣ ص٣٧٣. ابن فهد: إتحاف الوري ج٢ ص٥١. عاقل: خلافة بني أمية ص١٠٧.

^٥ الأزرقي: أخبار مكة ج١ ص٢٠١-٢٠٢.

التحدي وعدم العبء بتهديد أخيه عمرو أرسل له: "موعدك المسجد"^١, فرد عليه عمرو بن سعيد: "إن الحرم لا يعيد عاصياً ولا فاراً بدم"^٢.

ولعل من المفيد هنا ذكر معارضة شخصيات أموية بارزة، لقرار يزيد بغزو ابن الزبير بمكة، ولعل أبرز تلك الشخصيات مروان بن الحكم؛ الذي امتنع من ذلك القرار، وقال لعمرو بن سعيد: "لا تغز مكة واتق الله، ولا تحلّ حرمة البيت، وخلّوا ابن الزبير فقد كبر، هذا له بضع وستون سنة، وهو رجل لجوج"^٣، والله لئن لم تقتلوه ليموتن"^٤.

وحشد عمرو بن الزبير قواته، وخرج معه أنيس بن عمرو الأسلمي على مقدمة قوة تتألف من سبعمائة رجل، فأرسل له عبد الله بن الزبير عبد الله بن صفوان الجمحي، ومعه قوم ممن نزلوا حول مكة، وقتلوا أنيس بن عمرو، فهزم أنيس أقبح هزيمة، وتفرق عن عمرو جماعة أصحابه، وأجار عمرو أخوه عبيدة بن الزبير، وقدم به إلى عبد الله فقال له: "إني قد أجرته"، فقال عبد الله: "أتجير من حقوق الناس! هذا ما لا يصلح"^٥، وأبى أن يجيره، وسجنه وضربه بكل من كان قد ضربه عمرو

^١ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٧٨. ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص١٤٩.

^٢ وكان عمرو بن سعيد رد بذلك الرد على أبو شريح الخزازي الفقيه عندما ذكر له حديثاً لرسول الله ﷺ بحرمة مكة. للمزيد انظر: البخاري: صحيح البخاري ج٢ ص٦٥١. مسلم: صحيح مسلم ج٢ ص٩٨٧. الفاكهي: أخبار مكة ج٢ ص٢٥٠. النسائي: (أحمد بن شعيب) سنن النسائي الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان البغدادي وسيد كسروي حسن، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩١م، ط١، ج٣ ص٤٣٠. البيهقي: سنن البيهقي الكبرى ج٧ ص٥٩.

^٣ لجوج متجاسر، ومتماذي في الخصومة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة لجج، ج٢ ص٣٥٤-٣٥٥.

^٤ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٧٨. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٣٢٤. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص١٣١. ابن فهد: إتحاف الوري ج٢ ص٤٩. الشريف: دور الحجاز ص٤١٩.

^٥ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٧٨. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٦ ص١١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص١٣٢. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٣ ص٤٧٣.

بالمدينة، ممن تعاطف مع عبد الله بن الزبير، ومات تحت السياط^١. وكانت هذه الحملة أول حملة تأديبية ضد ابن الزبير^٢، باءت بالفشل الذريع. لقد كان لانتصار ابن الزبير في هذه الحملة دوراً مهماً، وحجر الأساس في السير قُدماً بتأسيسه لدولته، وبالمقابل وجّهت ضربة كبيرة للتواجد الأموي في مكة، بل والحجاز عموماً آنذاك، كما تسببت هذه الحملة بإقصاء عمرو بن سعيد عن الحجاز، بعد أن قال أناس من بني أمية ليزيد: "لو شاء عمرو ابن سعيد لأخذ ابن الزبير وبعث به إليك"^٣، فعزله، وولى مكانه الوليد بن عتبة، وأقام الوليد يريد ابن الزبير - كونه جاء لهذه المهمة - فلا يجده إلا متحذراً متمنعاً^٤.

٣- الحصار الأموي الأول وحرق الكعبة:

جند يزيد بن معاوية^٥ لحرب عبد الله بن الزبير رجالاً أموي الهوى، وهو القائد مسلم بن عقبة المري، وأمره بقتال أهل المدينة إذا امتنعوا عليه، بل وأمره بأن ينهبها ثلاثة أيام^٦ -وفق الوصية- ففعل، وبعد أن فرغ منها، توجه إلى مكة يريد هدفه الرئيسي وهو ابن الزبير^٧.

^١ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٧٨-١٧٩. ابن أعثم: الفتوح ج٢ ص٢٠٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٣٢. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٣ ص٣٧٢. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٢٧. ابن فهد: إتحاف الوري ج٢ ص٥٢-٥٣. الشريف: دور الحجاز ج٣ ص٢٧. عيسى: الحزبية السياسية ص٢١٠.

^٢ السباعي: تاريخ مكة ص٩٤.

^٣ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص٢٦١. ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٣٤٨.

^٤ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص٢٦٢.

^٥ ورد أن يزيد طلب من الضحاك أن يحارب ابن الزبير، إلا أنه رفض، فكلف بذلك مسلم بن عقبة المري. انظر: ابن أعثم: الفتوح ج٢ ص٢١١. واعتذر عمرو بن سعيد وعبيد الله بن زياد. انظر: ابن طباطبا: (محمد بن علي) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت، دار صادر، د.ت. ص١١٦.

^٦ الزبير: نسب قريش ص١٢٧. الأزرق: أخبار مكة ج١ ص٢٠٢. الفاكهي: أخبار مكة ج٢ ص٣٥٤. المقدسي: البدء والتاريخ ج٦ ص١٤. ابن حمدون: (محمد بن الحسن) التذكرة الحمدونية، بيروت، دار صادر، ١٤١٧هـ، ط١، ج٩ ص٢٤٨. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٢٤ ص٤٧٨.

^٧ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج١ ص٢٣٢. أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص٣٩١-٣٩٢. ابن أعثم: الفتوح ج٢ ص٢١٣. الفاسي: المقنع ص٣٩. السنجاري: منائح الكرم ج٢ ص١٥. السباعي: تاريخ مكة ص٩٤.

ولقد أسهبت الروايات في الحديث عن مسألة استباحة جيش يزيد للمدينة، في حين ذهب البعض للقول بالمبالغة فيها^١، وعدّ بعضهم ثورة المدينة آخر محاولات الأنصار لشغل دور سياسي، وذلك بعدما أخفقوا يوم السقيفة^٢. ويبدو أن يزيد زاد الأعطيات لجنوده حتى يحثوا السير قدماً نحو مكة والمدينة^٣، فيما يدل على الأغلب على تردد بعض الجنود، أو إحجامهم عن السير لمعركة ستجري على أرض الحرمين الشريفين، أو بنسبة قليلة تعاطفهم مع ابن الزبير. وأياً كان فالحديث عن هذه المعركة خارج إطار البحث، وحسبه ما ذكر.

وتابعت الحملة طريقها متجهة نحو مكة، وفي الطريق مرض قائد الحملة مسلم بن عقبة مرض الموت، واستخلف على الجند الحصين بن النمير^٤ -بناءً على تعليمات يزيد بن معاوية - فقدم الحصين على ابن الزبير بمكة، وقد بايعه أهلها وأهل الحجاز، بعد أن دعا لنفسه^٥، وحاصر الحصين مكة الحصار الأول، وجالدهم ابن الزبير في حربه مع جموعاً من القبائل من أطراف مكة، وعدد ممن التحق به من أشراف المدينة، وبدأت المناوشات، والتقى المتبارين من الفريقين^٦، وظل شأنهم كذلك

^١ الصلابي: عصر الدولتين ص ٢٩-٣٢.

^٢ زَكَار: (سهيل) تاريخ العرب والإسلام منذ ما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٢، ص ١٥٩.

^٣ الشريف: دور الحجاز ص ٤٣١. حسيني: (مولوي س. أ. ق) الإدارة العربية، ترجمة: إبراهيم أحمد العدوي، مراجعة: عبد العزيز عبد الحق، القاهرة، المطبعة النموذجية، ١٩٥٨م، ص ٢٤٩.

^٤ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٢٠٢. ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٣٦٩. المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٤. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٤ ص ٤٧٨. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ١٣. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٣ ص ٥٧.

^٥ الزبيرى: نسب قريش ص ٣٩٠. ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج ١ ص ٢٤١. أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص ٣٩٥-٣٩٦. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ٢٧٣. ابن أعثم: الفتوح ج ٢ ص ٢١٦. الخلف: مجتمع الحجاز ص ١١٥.

^٦ السباعي: تاريخ مكة ص ٩٦.

حتى قذف المحاصرون البيت الحرام بالمجانيق، من على أخشي مكة وحرّقه بالنار^١، فجمع ابن الزبير أصحابه، فتحصنوا في المسجد وحول الكعبة، وضربوا فيه خياماً أو ألواحاً من الساج، وعليها الفرش والقطائف، ليكتنن بها من حجارة المنجنيق، ويستظلون فيها من الشمس، وكانوا يطوفون تحت تلك الألواح.^٢

واحتزقت الكعبة قبل أن يأتي نعي يزيد، فاتهم كل طرف الطرف الآخر بأنه مسؤول عن هذا الفعل الشائن، فذهب فريق ابن الزبير للقول بأن الحصين بن النمير عندما قذف البيت بالمجانيق نتج عنه اشتعال النيران بالكعبة^٣، وذهب فريق الحصين لإبعاد التهمة بقولهم أن أحد أصحاب ابن الزبير، وأثناء نقله لقبس من النار في رأس رمح، طارت شرارة فتعلقت النار بالبيت فاحترق، وجردتها من الحرير، وانصدع الركن في ثلاثة أماكن.^٤

ومع تنكر كلا الطرفين من حرق الكعبة، وأمام المعطيات السالفة لا بد من الإشارة إلى نقطتين: النقطة الأولى أن طرفي النزاع مسؤول مسؤولية مباشرة عن حرق الكعبة، ولا يجوز بأي حال من الأحوال تبرئة أحدهما، أو حتى التعاطف معه ضد الطرف الآخر لغايات سياسية أو دينية. أما النقطة الثانية فهي أن الكعبة المشرفة لم تكن أبداً مقصودة بعملية الرمي والحرق^٥، لا من طرف الحصين، ولا من طرف ابن الزبير. وعليه فالمسألة برمتها كانت قضاءً وقدرًا، ولعل الحكمة منها

^١ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢٠٣. ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٦-١٧. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ٢٧٤. ابن أعمش: الفتوح ج ٢ ص ٢١٧. المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٨٦. المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٥. الفاسي: المقنع ص ٤٠. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٩. السنجاري: منائح الكرم ج ٢ ص ١٧. السباعي: تاريخ مكة ص ٩٦. عثمان والجميعي: (سعد بن حسين وعبد المنعم إبراهيم) الاعتداءات على الحرمين الشريفين عبر التاريخ، د. م. ن، ١٩٩٢م، ط ١، ص ٣٤. الصلابي: عصر الدولتين ص ٣٣.

^٢ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢٠٢-٢٠٣. التميمي: المحن ص ١٨٥-١٨٦.

^٣ خربوطلي: تاريخ الكعبة ص ١٥٩.

^٤ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٧-١٩. التميمي: المحن ص ١٨٦. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٦٢-

٦٣. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٨١-٨٢. خربوطلي: تاريخ الكعبة ص ١٥٩-١٦٠.

^٥ السباعي: تاريخ مكة ص ٩٦. عثمان والجميعي: الاعتداءات على الحرمين ص ٣٧.

إعادة وتحديد بناء الكعبة، كما سيبين الوضع العمراني لاحقاً. واستمر الحصار الأول بحسب بعض الروايات أربعين يوماً^١، وذهب آخرون للقول بأن مدة الحصار كانت خمسين يوماً^٢. وبهذا المعنى فإن الحصين غلب على كامل مكة إلا المسجد الحرام، وكان ابن الزبير قد ضرب فسطاطاً في ناحية المسجد، فكان فيه نساء يسقين الجرحى ويداوينهم ويطعمن الجائع، فكلما جرح أحد من أصحابه أدخله ذلك الفسطاط^٣، وهذا الفسطاط كان هدفاً سعى أهل الشام لإحراقه، فطارت منه شرارة على الكعبة حتى احترقت وفق بعض الروايات^٤.

٤- وفاة يزيد وإعلان ابن الزبير نفسه خليفة:

وأثناء الحصار، تناهى إلى أسمع ابن الزبير خبر موت يزيد قبل أن يعلم الحصين بذلك، وكان ذلك حسب بعض الروايات بتسعة وعشرين يوماً^٥، وكعادة ابن الزبير في استغلال الحوادث؛ فما كان منه إلا أن أرسل لمخاصريه: "لقد مات صاحبكم"^٦، وقيل أرسل لهم: "إن طاغيتكم قد هلك"^٧.

وعلى كل حال وبالرغم من اختلاف اللفظين، إلا أن فحوى الرسالة كان واحداً، والمضمون متطابقاً، وما بقي أمام الحصين إلا أن يتأكد من صحة الخبر، فجميع الاحتمالات واردة في

^١ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٣. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٢٣.

^٢ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٦-١٧. أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص ٣٩٥. ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٣٦٩. المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٨٦. ابن عساکر: تاريخ دمشق ج ٦٧ ص ٢٣٦-٢٣٩.

^٣ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٩. الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٥٥. ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٣٧١. التميمي: المحن ص ١٨٦. عثمان والجميعي: الاعتداءات على الحرمين ص ٣٦.

^٤ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٥٥. ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٣٧١.

^٥ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ١٩٧. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٨٢.

^٦ البكري: المسالك والممالك ج ١ ص ٣٨٩. ابن عساکر: تاريخ دمشق ج ٦٧ ص ٢٣٦-٢٣٩.

^٧ أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص ٣٩٧. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٣. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٢٣.

ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٢٦. عيسى: الحزبية السياسية ص ٢١١. عاقل: خلافة بني أمية ص ١١٦.

الحروب, ويجب عدم تصديق أي خبر حتى يتم التأكد منه, وذلك لما له من أثر على سير المعركة. وبعد أن تأكد الحصين من صحة الخبر, يبدو أنه تصور أنه ليس من بين أولاد يزيد من يستطيع حمل أعباء الخلافة من بعده, وبالتالي فإن الحكم الأموي قد انتهى^١. وأمام هذه المعطيات الجديدة خرج الحصين بقرار غيّر فيه ولاؤه السياسي بشكل جذري وكامل, فما فعل؟

طلب الحصين من ابن الزبير المودة, وأن يفتح له أبواب المسجد فيطوف ومن معه بالبيت, فقبل ابن الزبير بذلك^٢, وثمة رواية أشارت إلى رفض ابن الزبير طلب الحصين بالطواف بالبيت فارتحل الحصين^٣, ولعل الرواية الأولى أكثر مصداقية, والأقرب إلى المنطق, وذلك لأن ثمة حديث كان قد دار بين الحصين وابن الزبير في الحرم قبل أن يفترقا, وقد ذكرته جلّ المصادر, فما هو ذلك الحديث؟

التقى الحصين مع ابن الزبير أثناء الطواف, فأخذ الحصين بيد ابن الزبير سراً, وقال له: "هل لك في الخروج معي إلى الشام فأدعو الناس إلى بيعتك, فإن أمرهم قد خرج, ولا أرى أحداً أحق بها اليوم منك, ولست أعصى هناك", فاجتذب ابن الزبير يده من يده - ظناً منه أنها خدعة^٤ - وقال وهو يجهر بقوله: "دون أن أقتل بكل رجل من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام", فقال الحصين: "لقد كذب من زعم أنك من دهاة العرب, أكلمك سراً وتكلمني علانية, وأدعوك إلى الخلافة وتدعوني إلى الحرب"^٥.

^١ عيسى: الحزبية السياسية ص ٢١١.

^٢ أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص ٣٩٧. عيسى: الحزبية السياسية ص ٢١١.

^٣ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٧.

^٤ السباعي: تاريخ مكة ص ٩٦.

^٥ المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٩٩. ابن أعثم: الفتوح ج ٢ ص ٢١٨. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٥٨ ص ١١٢. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٢٣. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٢٦. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٦٤. عثمان والجميبي: الاعتداءات على الحرمين ص ٣٥. الخلف: مجتمع الحجاز ص ١١٥.

فتركه الحصين, وانطلق بجيشه عائداً إلى الشام^١. وهنا لابد من الإجابة عن سؤال مهم وهو: لماذا رفض ابن الزبيربيعة قدمت له على طبق من ذهب؟ هل غلب غضب ابن الزبير حلمه في طلب مهلة للتفكير؟ وما الذي دفعه للطلب بالثأر لقتلى المدينة؟ أم كل ما بدر عنه كان مقصوداً ومدبراً ولديه أسبابه وراء ذلك؟

لعل من المناسب القول هنا أن ابن الزبير رفض البيعة, كونها ستكون خارج مكة, وبمعنى آخر لم يشأ ابن الزبير بإعلان نفسه خليفة إلا من مكة, تلك الأم الحنون التي ضمته وحمته وقدمت له كل عون, وكجزء من رد الجميل لها, قرر ابن الزبير جعلها مركزاً لخلافته المستقبلية, فهي تملك مهابة وجلالاً تسمو بهما على كل مدن المعمورة. وبالمقابل بالنسبة للحصين, فإنه عبّر عن رغبته في إبقاء دمشق عاصمة للخلافة, ولم يبد تنازلاً عن هذه المسألة بالتحديد.

أما الذي أخرج ابن الزبير عن طوره وأخذ يطلب بالثأر للقتلى, فلعله الحنق الشديد على فظاعة ما قام به الأمويون في المدينة, من نهبها وسلبها وتشريد الأطفال وقتل رجالها, والتعدي على حرمة نسائها, هذا من جانب, ومن جانب آخر ليكسب عدم ثورة أهل المدينة ضده, فإن خرج إلى الشام والوضع بالمدينة على ما ذكر, فربما ينقلب عليه أهل المدينة فيقع بين نارين, أضف إلى ذلك أن ابن الزبير كان قاصداً للجهر بصوته لإسماع من كان حوله, ولا سيما الخوارج ولكن لماذا؟ ذهب البعض للقول أن ابن الزبير حين أجاب الحصين علانية, فعل ذلك لإرضاء أعوانه آنذاك في مكة؛ وتحديد الخوارج, والذين كانوا يشكلون القوة الضاربة من أصحاب ابن الزبير في مكة, وكان بحاجة إلى مداراتهم^٢.

على أية حال يبقى كلام الحصين مجرد وعد, فهو لا يمثل قوة أهل الشام كلها, ولا قوة القبائل الكبيرة فيها, فلو أطاعه ابن الزبير, ولم يستطيع الحصين أن يحقق له البيعة, لكان قد سلم نفسه بيديه وألقاها في أيدي بني أمية وأهل الشام, ثم إنه لا يثق بأهل الشام, وكان يدرك أنهم لا يدينون بالولاء لغير بني أمية, ثم ماذا سيكون موقف أهل الحجاز لو رأوه يرحل مع أهل الشام إلى دمشق؟ لاشك أنهم سيتخلون عنه, وعند ذلك يفقد أنصاره وجنده.

^١ ابن كثير: البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٢٦. الشريف: دور الحجاز ص ٤٣٥. الصلابي: عصر الدولتين ص ٣٣.

^٢ عيسى: الحزبية السياسية ص ٢١١.

لذلك كان ابن الزبير حريصاً على مشاعر الحجازيين، وهذا ما جعله يخاطب الحصين جهراً في حين كان الحصين يخاطبه سراً، فقد كان أنصاره قريبين منه، فلما يشأ أن يثير شكوكهم، بل حرص على أن يسمعهم ما يرضيهم.^١

ويبدو أن الكلام السالف صحيح إلى حد كبير، فالقاصي والداني يعرف ولاء أهل الشام التاريخي والمطلق لبني أمية، فقبيلة كلب اليمنية كانت موالية أشد الولاء ليزيد كون أمه منها، بينما كان دعم ابن الزبير الأساسي يعتمد على أنصاره من قبائل الحجاز القيسية خصوصاً.

وأياً كان السبب وراء تصرف ابن الزبير، لا بد من الإشارة بأن ابن الزبير افتقد إلى الرؤية السياسية الصحيحة، وقوت على نفسه فرصة أشبه ما تكون محققة للاستحواذ على الخلافة، فكان يجب عليه - وذلك أضعف الإيمان - طلب مهلة للتفكير ليكتشف حسن أو سوء نوايا الحصين تجاهه. ومما يعزز وجهة نظر البحث تلك ما قد ورد في إحدى الروايات، أن ابن الزبير ندم على الذي صنع، وطلب من الحصين أن يأخذ له البيعة بالشام، إلا أن الحصين رفض ذلك وانسحب بأصحابه إلى الشام.^٢

وحالما انصرف القوم من عند ابن الزبير، جمع إليه وجوه أهل تهامة والحجاز فدعاهم إلى بيعته فبايعوه جميعاً^٣، كما اتفقت فرقة كبيرة من الخوارج على بيعته^٤، كما بايعه أهل حمص وفلسطين والعراق وسائر بلاد الشام إلا الأردن^٥، وكان ذلك لسبع خلون من سنة ٦٤هـ/٦٨٣م، ولم يكن

^١ الشريف: دور الحجاز ص ٤٣٤.

^٢ ابن قتيبة: المعارف ص ٣٥١. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٠٤. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٢٣.

ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٢٦. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٦٥.

^٣ ابن أعثم: الفتوح ج ٢ ص ٢٠٢.

^٤ السباعي: تاريخ مكة ص ٩٧. في حين أشارت الروايات إلى أنه التف حول جماعة من الخوارج يدافعون عنه ولعل ذلك قبل انفصالهم عن بعض، للمزيد انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٩.

^٥ المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٨. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ١٨ ص ٢٤٨. السباعي: تاريخ مكة ص ٩٧.

يدعو إليها ولا يُدعى لها حتى مات يزيد^١, وهنا يبدو أن ابن الزبير تخطى عن اقتراحه بأن تكون البيعة شورى بين الأمة, كما كان يدعو من قبل وفاة يزيد^٢, ولعل في ذلك مفارقة طريفة.

وكان من الشخصيات المهمة والتي امتنعت عن بيعه ابن الزبير عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية^٣, إذ كانا يعتقدان أن بني هاشم أحق بالخلافة^٤, إلا أن ابن الحنفية بايع يزيد, وسيفرد البحث موضعاً للحديث عن موقف ابن الحنفية لاحقاً.

وقامت دولة ابن الزبير, ودانت لها معظم الأمصار الإسلامية, وقد ارتكز ابن الزبير على عدة عوامل جسدت نقاط القوة لإعلان نفسه كخليفة على المسلمين, ولعل أشهرها عوامل ثلاث وهي: العامل الديني والسياسي والاقتصادي.

فالعامل الديني يعتمد على تأييد عدد كبير من المسلمين لحركة ابن الزبير, وقد شعر عبد الله بأهمية الدور الفعال لهذا العامل, حيث حاول تقليد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حمل الدرة كشعار لخلافته^٥, وبث دعاية فيما بين المسلمين من أن عثمان بن عفان رضي الله عنه جعله على رأس المدافعين عن داره, كما استغل قدسية مكة, واتخذها مركزاً لحركته, وأطلق على نفسه - كما سلف - لقب العائد, وكانت قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة أبيه وأمه, واعتقاد أهل الحجاز أن أولاد الصحابة أحق بالخلافة, من الأمور التي ساعدته على إسباغ الصفة الدينية على نفسه^٦.

والعامل الثاني السياسي كان يعتمد على اعتقاد البعض - من أهل الحجاز بالذات - أن نجاح ابن الزبير سيعيد للحجاز أهميتها السياسية التي كانت في عهد الخلفاء الراشدين^٧, والتي فقدتها منذ

^١ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٢٣. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٣٧٣.

^٢ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٢٤. المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٨.

^٣ أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص ٣٩٠. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٧٢.

^٤ حسن: تاريخ الإسلام ج ١ ص ٣٣٦.

^٥ حتى قيل الشعر فيه: لم نر من سيرة الفاروق عندكم غير الإزار وغير الدرة الخلق

انظر: البلاذري: أنساب الإشراف ج ٦ ص ٧.

^٦ طهوب: العصر الأموي ص ٧٦.

^٧ سرور: (محمد جمال الدين) الدولة العربية الإسلامية, القاهرة, دار الفكر العربي, ٢٠٠٠م, ص ٢٣٥.

مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه, كما كان ابن الزبير بؤرة تجمعت حولها الأحزاب المعارضة للحكم الأموي, خاصة بعد مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه.^١

أما العامل الاقتصادي فقد شغل دوراً فعالاً في خلق روح العداء ضد الأمويين, فلقد احتكر الأمويون سوق المواد الغذائية, وتحكموا بأسعارها؛ مما أدى إلى ارتفاعها مقارنة مع باقي المدن الإسلامية^٢, كما اعتمد اقتصاد خلافة ابن الزبير بالدرجة الأولى على الأموال التي كانت تصله من الأمصار الإسلامية التي بايعته كدليل طاعتها له, وهذا التمويل كان بمثابة حجر الأساس لبناء دولته.

وبعد, ما هي سياسة ابن الزبير تجاه الأطراف المختلفة التي كانت في مكة ووقفت معه كالخوارج؟ وما هو موقفه تجاه بعض الشخصيات التي ترددت في بيعته, أو لم يبايعوه بالأصل, مثل ابن الحنفية؟ وسيعرض البحث للإجابة في الفقرات الآتية.

٥- موقف ابن الزبير من الخوارج:

لما ثار ابن الزبير بمكة عام ٦٤هـ/٦٨٣م, وسار أهل الشام كي يتصدوا له بزعامه الحصين بن النمير السكوني, اجتمعت الخوارج التي كانت في البصرة وعلى رأسها نافع بن الأزرق الحنظلي, وخاطب الجموع بضرورة الذهاب إلى البيت الحرام لمقابلة ابن الزبير, فإن كان على رأيهم جاهدوا معه عدوهم وعدوه, وإن لم يكن على رأيهم دافعوا عن بيت الله الحرام.^٣

وفي هذه الأثناء كان يتوجب على ابن الزبير جمع أكبر قدر من المؤيدين له, أمام جحافل بني أمية المدربة والمنظمة, والتي لتوها خرجت من موقعة الحرة مزهوة بنصرها, ويبدو أن ابن الزبير بدأ في إتباع خطة جديدة تقوم على وضع أولويات للخروج من معركته بنصر مؤزر, فماذا فعل؟

تقول الروايات إن عبد الله بن الزبير, وأثناء حصاره أبدى مرونة كبيرة - أو انتهازية عظيمة - فأظهر للناس ما أوحى للحورية أو الخوارج أنه يرى رأيهم, وأدى هذا إلى قدوم نجدة بن عامر

^١ طهوب: العصر الأموي ص ٧٦.

^٢ طهوب: المرجع المتقدم ص ٧٦.

^٣ المبرد: الكامل في الأدب ج ٣ ص ١٢٠٤. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٤٢. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٩. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ١٨١-١٨٢. عاقل: خلافة بني أمية ص ١٦٤.

الحروري الخارجي إلى مكة لمساعدة ابن الزبير في الدفاع عن الحرم ضد الجيش الأموي، كما أرسل ابن الزبير مبعوثين عنه ومن قبله إلى الأمصار، لاسيما إلى العراق لاستنصار المسلمين للدفاع عن الكعبة، واستجاب زعماء خوارج البصرة وتوجهوا إلى مكة^١، وعندما قدموا فرح ابن الزبير بمقدمهم، ونباهم بأنه على رأيهم، وأعطاهم الرضا من غير توقف وتفتيش، فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية، وانصرف أهل الشام عن مكة^٢. فالأولوية لدى ابن الزبير كانت حماية نفسه ونواة خلافته بمكة، أما المسائل الفقهية الأخرى، فيبدو أنها كانت ثاني اهتماماته، ولعل الخوارج أدركوا ذلك متأخرين، فما عساهم يصنعوا؟

اجتمع الخوارج وأصر بعضهم على أخذ موقف حاسم من ابن الزبير، وذلك بسؤاله عن مقالته في عثمان رضي الله عنه، وفعلاً فقد جاؤوا إلى عبد الله بن الزبير وطرحوا عليه سؤالاً: "خبرنا ما مقالتك في عثمان"، إلا أن ابن الزبير - وبأسلوبه المراوغ - أجّل الجواب على السؤال إلى العشية، نظراً لعدم وجود عدد كبير من أصحابه حوله^٣. وكأنه قرر الانتقال إلى المرحلة الثانية من خطته.

وفي المساء أعد ابن الزبير أصحابه وألبسهم السلاح، وجاءت الخوارج، وتكلم ممثل الخوارج، واسترسل في الكلام عن عثمان ومثالبه، وبعد أن انتهى وجه ابن الأزرق الكلام لابن الزبير قائلاً: "فما تقول أنت يا ابن الزبير؟"، ولكن ابن الزبير خيّب رجاء الخوارج وخالف رأيهم - جملة وتفصيلاً - عندما قال: "وأنا أشهدكم ومن حضر أني ولي لابن عفان في الدنيا والآخرة، وولي أوليائه، وعدو أعدائه"، قالوا: "فبرئ الله منك يا عدو الله"، قال: "فبرئ الله منكم يا أعداء الله" وتفرق القوم^٤.

^١ عيسى: الخزينة السياسية ص ١٢٣-١٢٤.

^٢ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٤٢. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٩. حسن: تاريخ الإسلام ج ١ ص ٣١٢.

^٣ المبرد: الكامل في الأدب ج ٣ ص ١٢٠٦-١٢٠٨. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٤٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٥٤. صفوت: جمهرة خطب العرب ج ٢ ص ١٧٠.

^٤ المبرد: الكامل في الأدب ج ٣ ص ٢٠٩-٢١١. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٤٢-٤٣. ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٢ ص ٣٣١-٣٣٢. حسن: تاريخ الإسلام ج ١ ص ٣١٢.

وبعد هذا الحوار الطويل الذي انتهى إلى عدم الاتفاق، اتضح أن ابن الزبير كان يعمل في سبيل مصالحه الذاتية، وليس لصالح الأهداف الخارجية، فما كان من الخوارج إلا أن غادروا مكة، فانطلق نافع ابن الأزرق الحنظلي ومن معه حتى أتوا البصرة، وذهب فريق آخر إلى اليمامة حيث أجمعوا على نجدة بن عامر الحنفي.^١

وبهذا المعنى، فقد صفا الملك لابن الزبير في مكة بعد رحيل الخوارج عنها، وبعد أن نجح نجاحاً باهراً في الاستفادة من حضور الخوارج، وقدومهم على مكة ضد جيش الحصين، ومكر بهم، وراوغهم مرواغة الثعلب، وما إن وضعت الحرب أوزارها، ومات يزيد بن معاوية، حتى وثب عليهم وثبة قوية، رافضاً الانصياع لتيارهم ومذهبهم، كيف لا وهو الآن سيد مكة المطاع، فتفرق الخوارج متذمرين، ليشكلوا فرقة هنا وفرقة هناك.

٦- موقف ابن الزبير من المختار بن أبي عبيد الثقفي:

وقف المختار إلى جانب ابن الزبير في صراعه مع بني أمية - كما وقف الخوارج معه - ويبدو أن المختار لم يجد بداً من الوقوف إلى جانب ابن الزبير، إلا أنه من المؤكد أن موقفه هذا لم يكن حباً بابن الزبير أو مناصرة لقضيته، وإنما كرهاً بحكم بني أمية، وانتقاماً من قتله الحسين عليه السلام. فبعد أن كان المختار منفيّاً إلى الطائف، وحالماً سمع بمصرع الحسين، سار إلى مكة، وأظهر المناصحة لابن الزبير، وعرض عليه طاعته، واستأذنه بالخروج للكوفة ليدعو الناس له، فوثق به، وكان أكبر همه الدخول إلى الكوفة والانتقام من قتلة الحسين، ولكن عندما مات يزيد، وتسمى ابن الزبير بالخلافة، فارقه المختار، وأخذ يدعو لمحمد بن علي بن أبي طالب (محمد بن الحنفية)، ويعيب في الباطن ابن الزبير، وكثر أنصار المختار، والتفت الشيعة حوله، بعد أن دعاهم للطلب بدم الحسين، ومبايعة ابن الحنفية، عندما علم ابن الزبير بذلك سعى إلى حبس ابن الحنفية - كما سيورد البحث

^١ عيسى: الحزبية السياسية ص ١٢٥. المبرد: الكامل في الأدب ج ٣ ص ٢١١. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٤٣. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٩. حسن: تاريخ الإسلام ج ١ ص ٣١٢. عيسى: الحزبية السياسية ص ١٢٥.

بعد قليل- بعد أن رفض البيعة له, مما دفع المختار لإرسال قوة من رجاله, فأخرج ابن الحنفية مع ابن عباس من سجنهما, وانصرف للطائف.^١

ويبدو من خلال ما سلف, أن العداة أصبح سيد الموقف بين ابن الزبير والمختار, إلا أن الأحداث في تلك الحقبة, دفعتهم لتغيير موقفيهما, ففي عام ٦٦هـ/٦٨٥م, بعث المختار جيشاً إلى المدينة للمكر بابن الزبير, وهو مظهر له أنه وجههم معونة له ضد الجيش الذي كان عبد الملك بن مروان قد وجه إليه لحربه, فنزلوا وادي القرى^٢, وكان سبب المواعدة تلك أنه أخبر بأن أهل الشام قد أقبلوا نحو العراق, فعرف أنه به يُبدأ, فخشي أن يأتيه أهل الشام من قبل المغرب, ويأتيه مصعب بن الزبير التابع لأخيه عبد الله بن الزبير من قبل البصرة, بعد أن طرد عامل ابن الزبير عن الكوفة, فقرر المختار أن يوادع ابن الزبير, ويكايده على الجيش الذي أرسله إليه عبد الملك بن مروان بقيادة الحارث بن الحكم بن أبي العاص إلى وادي القرى, وكتب المختار إلى ابن الزبير كتاباً جاء فيه: "أما بعد, فقد بلغني أن عبد الملك بن مروان قد بعث إليك جيشاً, فإن أحببت أن أمدك بمدد أمددتك"^٣, ولعله من الواضح في الرواية السالفة وضوح الشمس أسلوب المراوغة والمكر لدى الطرفين, من أجل السيطرة على مقاليد الأمور في مكة, نظراً لأهميتها الدينية لدى المسلمين في كافة أصقاع المعمورة.

فما كان من ابن الزبير إلا أن كتب إليه: "أما بعد فإن كنت على طاعتي فلست أكره أن تبعث الجيش إلى بلادي, وتبايع لي الناس قبلك, فإذا أتني بيعتك صدقت مقاتلتك, وكففت جنودي عن

^١ أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص ٤٢٤. المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٨. ابن طباطبا: الفخري ص ١٢٠.

الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٥٤٣. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٣٦.

^٢ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٢٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣١٧. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٧٦. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٣٥.

^٣ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٢١. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٥٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣١٧. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٧٦. الوكيل: الأمويون ج ١ ص ٣٤٣.

بلادك، وعجل عليّ بتسريح الجيش الذي أنت باعته، وأمرهم فليسيروا إلى من بوادي القرى من جند ابن مروان، فليقاتلوهم والسلام".^١

وبعدما وصل كتاب ابن الزبير على المختار، يبدو أن المختار قرر مواصلة لعبته ومكره بابن الزبير، فأرسل إليه بشرحبيل بن ورس من همدان بثلاثة آلاف أكثرهم من الموالي، وليس فيهم من العرب إلا سبعمائة رجل، وأمره بالسير إلى المدينة، فإذا دخلوها كتبوا له بذلك حتى يأتي أمره، وهو يريد إذا دخلوا المدينة أن يبعث عليهم أميراً من قبيلة، ويأمر ابن ورس أن يمضي إلى مكة حتى يحاصر ابن الزبير ويقاتله بمكة، وخشي ابن الزبير مكيدة المختار، فأرسل إلى المدينة عباس بن سهل بن سعد الساعدي في ألفين، وأمره أن يستنفر الأعراب، وأن يسير ومن معه بأصحاب المختار إلى عدوهم المقيم بوادي القرى، فإن رفضوا فليحذرهم ويكايدهم حتى يهلكهم، ويتخلص منهم، وبعد أن رفضوا الامتثال لأوامر ابن الزبير - كما كان متوقعاً - التي نقلها لهم ابن سهل، أحس هذا الأخير بخطرتهم، وقرر خداعهم نتيجة لكثرتهم العددية ونواياهم السيئة تجاه ابن الزبير، فأرسل لهم ذبائح وطعام شغلوا بها عن أسلحتهم وتعبيتهم، حتى إذا كان الليل، جمع ابن سهل من أصحابه نحو ألف رجل من ذوي البأس والنجدة، وأقبل نحو فسطاط شرحبيل بن ورس، وقاتلوهم حتى قتل ابن ورس في سبعين من أهل الحفاظ، ورفع ابن سهل راية الأمان لأصحاب ابن ورس.^٢

وبلغ ذلك المختار فغضب غضباً شديداً، وحنق على ابن الزبير^٣، فكتب إلى ابن الحنفية كتاباً يعرض عليه الطاعة له، واصفاً آل الزبير بالظلمة الملحدون، بيد أن ابن الحنفية فضّل السلامة

والاعتزال حتى يحكم الله حكمه، وأوصى المختار بتقوى الله، والكف عن هدر دماء المسلمين.^١

^١ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص١٢٢. ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص٥٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٣١٧. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٣٥. الوكيل: الأمويون ج١ ص٣٤٣.

^٢ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص١٢٢. ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص٥٩. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٣١٧. الوكيل: الأمويون ج١ ص٣٤٣-٣٤٤. الزركلي: الأعلام ج٣ ص١٥٩-١٦٠.

^٣ حيث كتب إليه كتاباً بدأه بالقول: من المختار بن أبي عبيد الثقفي خليفة الوصي محمد بن علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن أسماء، ثم ملأ الكتاب بسبه وسب أبيه. انظر: المبرد: الكامل في الأدب ج٣ ص١١٩٣.

ويمكن للبحث أن يستنتج من علاقة ابن الزبير بالمختار ما يلي:

- ١- محاولة ابن الزبير أن يستفيد من قوة المختار ضد الأمويين, كما نجح سابقاً في الاستفادة من قوة الخوارج ضد الحنين وأهل الشام.
- ٢- عدم وجود الرغبة الصادقة لدى المختار بمساعدة ابن الزبير, ولعل ما يؤيد وجهة النظر هذه, أن أكثر من ثلثي الجيش من الموالي, وبالأحرى من المرتزقة.
- ٣- اعتقاد المختار بأن الحصار الأموي الأول لابن الزبير قد أضعفه ودولته, وأن الفرصة الآن سانحة لـ حصار ثاني, والذي سيكون - حسب اعتقاده - حصاراً قاتلاً, ويؤدي لإخضاع مكة لسلطته.
- ٤- تدرع المختار بأنه سيخضع مكة لتصبح تحت سلطة ابن الحنفية, قول فيه كثير من اللغط والمبالغة والبعد عن الحقيقة, فالمختار يسعى لهدف شخصي محض, وليس لمصلحة ابن الزبير أو ابن الحنفية.
- ٥- لعل النزاع بين المختار وابن الزبير, كان يمثل وإلى حد كبير التنافس التقليدي بين قريش وثقيف أو بين مكة والطائف, كما أنه من الوارد أيضاً أن تتحد قوى المدينتين على عدو واحد مشترك لهما يهدد مصالحهما, فكان ذلك شأن تحالف المختار مع ابن الزبير ضد قوى بني أمية.
- ٦- ولكي لا يعيش ابن الزبير طويلاً مع هاجس الخوف من المختار, وجّه إليه أخوه مصعب بن الزبير, فقتل المختار عام ٦٧هـ/٦٨٦م.^٢

٧- موقف ابن الزبير من محمد بن الحنفية^١:

^١ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص١٢٣. المبرد: الكامل في الأدب ج٣ ص١١٩٣. ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص٦١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٣١٨. ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٢٧٨. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٣٦. الوكيل: الأمويون ج١ ص٣٤٤.
^٢ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٣١٩. الزركلي: الأعلام ج٧ ص١٩٢.

مضى الحسين وعامة أهل بيته - كما أسلف البحث - إلى مكة، هرباً من بيعة يزيد بن معاوية، إلا أن أخاه محمد بن الحنفية لم يخرج وأقام، ولعل في ذلك دلالة واضحة على أن ابن الحنفية لم يكن لديه مشكلة في مبايعة يزيد، بل إنه -وفق الروايات- كان راضياً مبايعاً طائعاً، وبالتالي فإن توجهه السياسي يختلف عن توجه الحسين وابن الزبير.

ومما يعزز الكلام السالف أنه في عام ٦٦هـ/٦٨٥م^١، دعا ابن الزبير محمد بن الحنفية إلى البيعة فأبى، لأنه بايع يزيد من قبل^٢، فاشتد غضب ابن الزبير فحبسه في شعب بني هاشم في عدة من أصحابه^٣، وأبوا جميعاً البيعة وقالوا بأنهم لا يبايعون حتى تجتمع الأمة، فتوعدهم ابن الزبير، وأكثر الوقيعة في ابن الحنفية وذمه^٤، وحبسهم في شعب بني هاشم^٥، وقيل بزمزم^٦، وتوعدهم بالقتل والإحراق، إن لم يبايعوا، وضرب لهم في ذلك أجلاً، فأشار بعض من كان مع ابن الحنفية عليه أن يبعث إلى المختار يعلمه حالهم، ففعل ذلك، وكتب للمختار وأهل الكوفة^٧.

ومما لاشك فيه أن ابن الحنفية كان مرتاباً وفي حيرة من أمره، هل سيلبي المختار وأهل الكوفة طلبه، ويستجيب لنداء استغاثته؟ أما سيكون مصيره الخذلان كما حُذِل من قبل أخيه الحسين؟ لبي المختار - وكما سلف - طلب ابن الحنفية، ووجه إليه بأبي عبد الله الجدلي في سبعين ركباً من أهل القوة، ووجه معه العديد من الجنود، فسار بهم حتى دخلوا المسجد الحرام، وهم ينادون: "يا

^١ ورد في بعض المصادر عام ٦٥هـ/٦٨٤م. انظر: ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٣٠.

^٢ ابن أعمش: الفتوح ج ٢ ص ١٩٤-١٩٥. الخلف: مجتمع الحجاز ص ١١٣.

^٣ المبرد: الكامل في الأدب ج ٣ ص ١١٩٢. التميمي: المحن ص ٣٣٥. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٥ ص ٣٣٧. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ١٢٠. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٧٧.

^٤ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٨١. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٢٤. المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ٢١. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ٢٠٤. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٦٠. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٧٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣١٨-٣١٩. اليافعي: مرآة الجنان ص ١١٣.

^٥ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٣٠.

^٦ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٢٤. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣١٨.

^٧ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٢٤. المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ٢١. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٦٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣١٨. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٧٧.

لثارات الحسين"^١, حتى انتهوا إلى زمزم, وقد أعدّ ابن الزبير الخطب ليحرقهم, وكان قد بقي من الأجل يومان, فطردوا الحرس, وكسروا أعواد زمزم, ودخلوا على ابن الحنفية, فقالوا له: "خلّ بيننا وبين عدو الله ابن الزبير", فقال لهم: "إني لا أستحل القتال في حرم الله", وكاد الجمع أن يتصادما لولا زجر ابن الحنفية لأصحابه, وتحذيره لهم من الفتنة, وتوالى قدوم الوفود المؤيدة لابن الحنفية, حتى أن ابن الزبير لما رآهم خافهم, فهرب إلى منزله وقيل إلى الكعبة, وكان عدد أنصار ابن الحنفية من الشعب أربعة آلاف رجل.^٢

وبالنتيجة, لم يستطع ابن الزبير إرغام ابن الحنفية على بيعته, فقد جاءت قوات المختار للدفاع عنه, وإن نجاح هذه القوات يدل على أن ابن الزبير لم يمتلك قوة عسكرية قادرة خاصة به في مكة.^٣

إلا أنه من الممكن القول بأن ابن الزبير, كان يفكر في هذه الأثناء بكسر شوكة المختار قبل كل شيء, كون جنوده هم من كانوا يهددون خلافته, فأعد العدة لذلك, وأعطى الأوامر لأخيه مصعب لتخليصه من المختار, وكان له ذلك.

واستوثقت البلاد لابن الزبير بعد مقتل المختار, فأرسل إلى ابن الحنفية قائلاً: "أدخل في بيعتي وإلا نابذتك"^٤, كما قيل أن ابن الزبير خاطب ابن الحنفية مع ابن عباس قائلاً: "إما أن تباعاني أو تخرجنا من جوازي"^٥, فخيّر ابن الحنفية أصحابه في البقاء معه, أو الانصراف عنه فثبتوا معه.^٦

^١ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص١٢٤. المقدسي: البدء والتاريخ ج٦ ص٢١. ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص٦٠.

^٢ الفاكهي: أخبار مكة ج٢ ص٣٨٢. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص١٢٤. المقدسي: البدء والتاريخ ج٦ ص٢١. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٧٣ ص٢١٦. ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص٦٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٣١٩. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٣ ص٣٥٦. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٣٦.

^٣ عيسى: الحزبية السياسية ص٢١٣.

^٤ ابن أعمش: الفتوح ج٢ ص٣٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٣٢٠.

^٥ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٤ ص٣٥٠. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٤ ص١٢٤.

^٦ ابن أعمش: الفتوح ج٢ ص٣٨٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٣٢٠.

ولعل اللهجة القاسية في الكتابين السالفي الذكر، توضح مدى تأثير وجود المختار في صف ابن الحنفية -بغض النظر عن نوايا المختار تجاهه- أضف إلى ذلك قوة شوكة خلافة ابن الزبير أكثر من أي وقت مضى. وهنا كان لابد لابن الحنفية من أن يصارح أصحابه بخطورة الوضع، فاتحاً أمامهم حرية الاختيار بعد أن أصبح الحلقة الأضعف أمام ابن الزبير إثر مقتل سنده الرئيسي المختار كما سلف، وعندما بلغ عبد الملك موقف ابن الزبير من ابن الحنفية، يبدو أنه فكّر بأن يستميله لصفه نظراً لنسبه الشريف، وليبدأ صفحة جديدة مع آل البيت، لذا كتب عبد الملك إلى ابن الحنفية كتاباً يعلمه أنه إن قدم عليه أحسن إليه، وأن ينزل إلى الشام إن أراد حتى يستقيم أمر الناس^١، فخرج ابن الحنفية وأصحابه إلى الشام، وكانوا نحو سبعة آلاف^٢، فلما وصل إلى أيلة بلغه غدر عبد الملك بعمر بن سعيد، وذلك في عام ٦٩هـ/٦٨٨م^٣، بعد أن أعطى عمرو من المواثيق^٤ استوحش^٥، وندم على إتيانه وخافه فنزل أيلة، وتحدث الناس بفضله وعبادته وزهده^٦. وفي أيلة أحس ابن الحنفية بالأمن والأمان، والسعادة والارتياح؛ نتيجة تقدير الناس بفضله وعبادته وزهده^٦. وفي أيلة الغزير، كما شعر أن ابن الزبير وأعدائه لن يطالوه أبداً لأنه مقيم خارج سلطانه، داخل سلطان ألد أعدائه وهم الأمويون، إلى أن حدث ما لم يكن بالحسبان، حيث جاء التهديد المباشر - هذه المرة - من عبد الملك؛ ذلك الرجل الذي دعاه ووعدته بالإحسان.

ولعل سبب ذلك ما بلغه عن حديث الناس بفضل ابن الحنفية وزهده وعبادته، فيروى أن عبد الملك ندم على إذنه له في قدوم بلاده، ودخول سلطانه، ولكي يتدارك الأمر قبل أن يتفاقم خطره، كتب عبد الملك لابن الحنفية: "إنه لا يكون في سلطاني من لم يبايعني"^٧، وقيل أرسل له: "إما أن

^١ ابن أعمش: الفتوح ج ٢ ص ٣٨٤. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ١٢٤

^٢ ابن عساکر: تاريخ دمشق ج ٥٤ ص ٣٥٠. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٨.

^٣ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٦٤-١٧٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣٢٠.

^٤ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٦. ابن الجوزي: المنتظم ج ٥ ص ٢٩٩. اليافعي: مرآة الجنان ص ١١٦.

^٥ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٦.

^٦ ابن أعمش: الفتوح ج ٢ ص ٣٨٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣٢٠.

^٧ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣٢٠. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٣٦.

تبايعني, وإما أن تخرج من أرضي"^١, فارتحل ابن الحنفية إلى مكة, ونزل شعب أبي طالب, فأرسل ابن الزبير إليه على الفور يأمره بالرحيل, فسار إلى الطائف, ودخل ابن عباس على ابن الزبير وأغلظ له, وخرج من عنده ولحق بالطائف, ومات ابن عباس بالطائف وصلى عليه ابن الحنفية.^٢

لقد وصلت الأمور في هذه الحقبة من التاريخ الإسلامي - وللأسف - إلى حد بعيد من التفرقة والتشتت بين صفوف المسلمين, ولعل أبرز مثال على ذلك ما حصل في مواسم الحج, والتي يفترض أن تصهر الناس في بوتقة واحدة, لا أن تفرقهم.

ففي موسم الحج عام ٦٥هـ/٦٨٤م^٣, وقيل عام ٦٦هـ/٦٨٥م^٤, وقيل ٦٨هـ/٦٨٧م, حيث وافت عرفات أربعة ألوية, ابن الحنفية وأصحابه في لواء, وابن الزبير وأهل الحجاز في لواء, ونجدة الحروري في لواء الخوارج, ولواء بني أمية, ثم لواء ابن الزبير الذي قام مقام الإمام واتبعه الناس^٥. وكان أسكن وأسلم تلك الألوية لواء ابن الحنفية^٦, كما سيرد لاحقاً في البحث.

ويبدو أن حدة التوتر بين ابن الزبير وابن الحنفية قد خفّت, ولاسيما بعد رفض ابن الحنفية البيعة لبني أمية, بيد أنها لم تتلاشى, فصحيح أن ابن الزبير أمن جانب ابن الحنفية عندما سمع بأنه رفض البيعة لعبد الملك, وفرح بهذا الخبر نظراً لوزن ابن الحنفية الديني والسياسي, إلا أن ابن الزبير مازال على موقفه من ضرورة مبايعة ابن الحنفية له, مما اضطر هذا الأخير أن يُنفى من مكة إلى الطائف, ولم يفكر ابن الزبير بحبسه بمكة أو حرقه, كما فعل سالفاً فيؤلب الناس عليه.

^١ ابن عساکر: تاريخ دمشق ج ٥٤ ص ٣٥٠. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ١٢٤.

^٢ أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص ٤٤٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣٢٠. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٠٦. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ١١٩. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٣٦.

^٣ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٣٣.

^٤ الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٣٤٠.

^٥ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٦٤. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٧٠-٧١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣٥٤. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ١٢٠.

^٦ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣٥٤. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ١٢٠.

توفي ابن الحنفية في منفاه بالطائف^١، فيما ذكرت رواية أخرى بأن ابن الحنفية مات بأيلة^٢، ولعل الرواية الأولى هي الأصح والأشهر، نظراً لتتالي الأحداث بعد أن عاد من أيلة إلى مكة.

٨- الحصار الأموي الثاني ونهاية دولة ابن الزبير:

شنت الدولة الأموية سلسلة من الحروب نجحت من خلالها في إخضاع الولايات الإسلامية كافة لحكمها، بعد أن كانت مشتتة بين العديد من القوى، ويبدو أن أحد أهم الأخطار التي وضعت الدولة الأموية بحسبانها تصفيتها، هو خطر دولة ابن الزبير في مكة المكرمة. فكيف استطاعت الدولة الأموية بزعامة عبد الملك القضاء على دولة ابن الزبير؟

يبدو أن عبد الملك أدرك أهمية العراق السياسية والاقتصادية في نجدة ابن الزبير في مكة، وضرب أي خطر يتهدهده، فاتخذ قراراً جوهرياً بضرب العراق قبل مكة، ولعل خير ما يؤيد هذا الكلام قيام عبد الملك شخصياً بالذهاب لقيادة الحرب ضد مصعب بالعراق، حيث استطاع وبعد معركة طاحنة، من أن يدخل الكوفة في مطلع عام ٧١هـ/٦٩٠م، وخطب الناس على منبرها، وتحدث عن ابن الزبير بكلام قاس، حتى أنه قال: "إن عبد الله بن الزبير لو كان خليفة كما يزعم، لخرج فأسى بنفسه، ولم يغرز ذنبه في الحرم"^٣.

ومن الممكن أن يعد قول عبد الملك السالف، مؤشراً واضحاً دالاً على مدى العداء والحقد السياسي الدفين والمتخفي بعباءة الدين، بينه وبين ابن الزبير، كما ويحمل إهانة واضحة لشخص ابن الزبير، وانتقل عبد الملك إلى الخطوة الثانية والقاضية لدولة ابن الزبير، حيث بدأ يفكر فيمن سيعينه من القادة العسكريين على رأس الجيش الأموي المتوجه إلى مكة.

وقع اختيار عبد الملك بن مروان على الحجاج بن يوسف الثقفي، وأرسل معه قرابة ألفين من جند أهل الشام عام ٧٢هـ/٦٩١م، ولم يعرض للمدينة، وسلك طريق العراق فنزل بالطائف^٤، ولم

^١ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص٦٩.

^٢ أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص٤٥٠.

^٣ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص١٧٩. ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص١١٢.

^٤ الفاكهي: أخبار مكة ج٢ ص٣٦٨-٣٦٩. ابن قتيبة: المعارف ص٣٩٦. البلاذري: أنساب الأشراف ج٦ ص٢٢٠. التميمي: المحن ص١٩٠. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص١٨٥. المسعودي: مروج الذهب

يتوجه مباشرة إلى مكة عن طريق الشام؟ فهل ثمة خطة عسكرية كانت بذهن الحجاج منطلقها الطائف؟

يبدو للبحث بأن هناك عدة أسباب دفعت الحجاج لنزول الطائف لعل أهمها:

- ١- كونها مسقط رأسه ومسكن قبيلته، وفيها أقرباؤه وأصحابه.
- ٢- لأنها تشكل امتداداً طبيعياً لولاية مكة المكرمة، ومن غير المستبعد أن يبدأ الحجاج بقطع المؤن والأرزاق التي تتوجه من الطائف باتجاه مكة، كبادرة من بؤادر الحصار الاقتصادي.
- ٣- دراسة قوة خصمه ابن الزبير وقدراته عن كثب، ونقاط قوته وضعفه، ومعادن الرجال التي يعتمد عليها، وليس من المستغرب بأن يحوز الحجاج على جميع تلك المعلومات بواسطة الجواسيس والأموال.

٤- جعل الطائف معسكراً لتدريب الجيش، ومركزاً لتنظيم قوته، ومنطلقاً لمناوشات جيشه مع جيش ابن الزبير دون معركة فاصلة. ولقد أكدت معظم الروايات بأنه حصلت مناوشات جانبية بين الطرفين، فكان الحجاج يبعث البعوث إلى عرفة في الخيل، ويبعث ابن الزبير بعثاً، فيقتتلون هناك، فتُهزم خيل ابن الزبير، وترجع خيل الحجاج بالظفر.^١

وعلى ما يبدو أن الحجاج وبخبرته العسكرية الطويلة أدرك أن قوة ابن الزبير بدأت تنهار، نتيجة هزائم ابن الزبير المتلاحقة في المناوشات الجانبية، فأراد الحجاج أن يباغت ابن الزبير في عقر داره قبل أن يقوم ابن الزبير ببناء قوته مجدداً من جهة، ولكي لا يساعده أحد الأطراف المناوئة للأُمويين - كما ساعده الخوارج في الحصار الأول - من جهة أخرى.

فكتب الحجاج لعبد الملك كتاباً يستأذنه فيه بأن يعاجل ابن الزبير ويدخل عليه الحرم، ويخبره بأن شوكته قد كَلَّت، وتفرق عنه عامة أصحابه، ويسأله أن يمدّه برجال، فجاء كتاب عبد الملك

ج٣ ص١٣٤. ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص١١٩. الفاسي: المقنع ص٤١. السباعي: تاريخ مكة ص١٠٢. زَكَار: تاريخ العرب والإسلام ص١٦٣. حسن: تاريخ الإسلام ج١ ص٣٣٧. عاقل: خلافة بني أمية ص١٥٦. الشريف: دور الحجاز ص٤٤٩.

^١ الفاكهي: أخبار مكة ج٢ ص٣٦٩. البلاذري: أنساب الأشراف ج٦ ص٢٢٠. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص١٨٥. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٤٠. السباعي: تاريخ مكة ص١٠٢.

بالإيجاب، حيث أمر طارق بن عمرو^١ أن يلحق بمن معه من الجند بالحجاج، فسار طارق في خمسة آلاف من أصحابه حتى لحق بالحجاج، فلما دخل شهر ذي القعدة من العام نفسه - ٧٢هـ/٦٩١م - رحل الحجاج من الطائف حتى نزل ببئر ميمون، وحاصر ابن الزبير، ونصب المجانيق على جبل أبي قبيس^٢.

ويبدو أن ابن الزبير كان يعي خطر ارتقاء الحجاج وجنوده على الجبال حول مكة، فهذا هو ذا يقول لأهل مكة: "احفظوا هذين الجبلين، فإنكم لن تزالوا أعزة ما لم يظهروا عليهما"^٣. وحج الحجاج بالناس في هذه السنة، وابن الزبير محصور، وكان قدوم طارق بن عمرو مكة للال ذي الحجة، ولم يطف الحجاج بالبيت، ولم يصل إليه وهو محرم، وكان يلبس السلاح، وأقسم بألا يقرب النساء ولا الطيب إلى أن يقتل ابن الزبير^٤، ونحر ابن الزبير بُدناً بمكة يوم النحر، إذ لم يقدر على إتيان منى وعرفة، ولم يحج ذلك العام ولا أصحابه، لأنهم لم يقفوا بعرفة^٥. والآن أصبح الفريقان وجهاً لوجه، وبدأت معركة الحسم لدولة ابن الزبير، فيما أن ينجو كما نجا من الحصار الأول، أو تكون نهايته ونهاية دولته كما هو متوقع، ففي الوقت الذي بدأت فيه

^١ طارق بن عمرو البلوي الأموي المكي، مولى عثمان بن عفان، قائد من الولاة، للمزيد انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٤ ص ٤٣٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١١. المزني: تهذيب الكمال ج ١٣ ص ٣٤٨. الزركلي: الأعلام ج ٣ ص ٢١٧-٢١٨.

^٢ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٥٨، ص ٣٧٣. ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٣٧. البلاذري: أنساب الأشراف ج ٦ ص ٢٢٠. أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص ٤٥٨. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٨٥. التميمي: المحن ص ١٩١. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ١٢٠. ابن طباطبا: الفخري ص ١٢٣. الياضي: مرآة الجنان ص ١١٩. الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٢٦٥. السباعي: تاريخ مكة ص ١٠٣. الشريف: دور الحجاز ص ٤٤١. ^٣ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٥٨. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ٢٣١.

^٤ عادة كانت قبل الإسلام عند الأخذ بالثأر.

^٥ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٦٩. البلاذري: أنساب الأشراف ج ٦ ص ٢٢٤. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٨٥. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ١٢٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ١١٩. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٢٥. السباعي: تاريخ مكة ص ١٠٢. الوكيل: الأمويون ج ١ ص ٣٨٦.

الإمدادات تتدفق من الشام على جيش الحجاج، وفي جعبتها الطعام الكثير من كعك وسويق^١ ودقيق^٢، كان جيش ابن الزبير محاصراً منذ ليلة هلال ذي القعدة عام ٧٢هـ/٦٩٢م^٣، وأصابته الناس مجاعة شديدة فذبح ابن الزبير فرساً، وقسمه في أصحابه^٤، وقد روي أن من أصحاب ابن الزبير من كانوا يأكلون البراذين^٥ أثناء الحصار^٦.

لقد نجح الحجاج بحبس الميرة عن ابن الزبير، وحاصره أشد الحصار^٧، حيث جعل عبد الملك على قطع الميرة عن ابن الزبير وأهل مكة معبد بن خالد بن ربيعة العدواني، وكان ناسكاً من أهل الشام^٨، كما وجه الأوامر إلى أخيه عبد العزيز بن مروان والي مصر بالمشاركة في الضغط على ابن الزبير، فأرسل له المزيد من الرجال^٩، كما سبق وأن أقنع مروان بن الحكم القبائل في مصر، برفض الخضوع لمنافسه المكي، وبالتوقف عن إرسال شحنات القمح إلى الحجاز^{١٠}.

^١ السويق: ما يتخذ من الخنطة والشعير. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة سويق، ج ١٠ ص ١٧٠.

^٢ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٧٠. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٨٦.

^٣ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٦ ص ٢٢٣. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٨٦.

^٤ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٧٠. البلاذري: أنساب الأشراف ج ٦ ص ٢٢٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ

ج ٣ ص ٤٠١. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٤٠١. الوكيل: الأمويون ج ١ ص ٣٨٥.

^٥ البراذين ومفردها برذن، نوع من الخيل دون الفرس العربي، وكنيته أبو الأخطل لطول ذنبه، وهو ما كان من غير نتاج العرب. انظر: الأبهسي: (محمد بن أحمد) المستطرف في كل فن مستظرف، القاهرة، شركة القدس، ٢٠٠٦م، ص ٤٤١. ابن منظور: لسان العرب، مادة برذن، ج ١٣ ص ٥١. قلنجي وقيني: معجم لغة الفقهاء ص ١٠٦.

^٦ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٧٠.

^٧ ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ١ ص ٧٧٢.

^٨ ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ج ١ ص ٢٤٤. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٥٩ ص ٣٠٨.

^٩ الكندي: (أبو عمر محمد بن يوسف) كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق: محمد حسن إسماعيل وأحمد الزبيدي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م، ط ١، ص ٢٣٢.

^{١٠} شعبان: صدر الإسلام ص ١٠٥.

لقد عانى ابن الزبير معاناة كبيرة من آثار الحصار الاقتصادي، ويبدو أن موقف ابن الزبير أصبح في أسوأ حالاته، فالمجانيق حوله من كل جانب، والحصار الاقتصادي أخذ يلقي بظلاله القاسية على أتباعه، بل وعلى أهل مكة عموماً.

ولا يفوت البحث أن يذكر أنه أثناء موسم الحج، قابل الحجاج جمعاً من الناس وعلى رأسهم عبد الله بن عمر^١، وطلبوا منه وقف الرمي حتى يصدر الناس من الطواف، وألقى الحجاج اللوم على ابن الزبير قائلاً: "إني لكاره لما ترونه، ولكن ابن الزبير لجأ إلى البيت، والبيت لا يمنع خالع طاعة ولا عاصياً، ولو أنه اتقى الله تعالى وخرج إلينا فأصحر لنا، فيما أن يظفر وإما أن نظفر به، فيستريح الناس من هذا الحصر"، فدخل القوم المسجد وذكروا لابن الزبير ما قال لهم الحجاج، فقال ابن الزبير: "لو كان لهذا كارهاً لم يرم الكعبة نفسها، والله ما تقع حجارته إلا فيها".^٢

وكفّ الحجاج عن الرمي حتى قضى الناس ما يجب عليهم بمكة وخرجوا إلى منى، ولم يتعرض ابن الزبير لأحد، وبعد أن قضوا ما عليهم بمكة، نادى منادي الحجاج في الناس أن انصرفوا إلى بلادكم فإننا نعود بالمنجنيق على الملحد ابن الزبير^٣، ولعل مما يثير الدهشة أن عبد الملك كان من المنكرين لرمي البيت بالمجنيق على الملحد ابن الزبير^٤، ثم أمر بذلك أثناء خلافته، فكان الناس يتعجبون منه ويقولون: "خُذِلَ في دينه".^٥

وبدأ أهل الشام بقذف ابن الزبير المتحصن بالحرم بالمنجنيق، ورعدت السماء وبرقت، وعلا صوت الرعد والبرق على الحجارة، فأعظم ذلك أهل الشام، فأمسكوا بأيديهم، فقام الحجاج ووضع بنفسه حجراً في المنجنيق، وأمرهم بمتابعة الرمي، وبعد أن أصبحوا فاجأهم صاعقة تتبعها أخرى، فقتلت من أصحابه اثني عشر رجلاً، فخاف القوم فزجرهم الحجاج بشدة قائلاً لهم أنه ابن تهمامة وهذه صواعق تهمامة، وأن الفتح قد حضر فأبشروا، وأن قوم ابن الزبير يصيبهم مثل ما أصابكم،

^١ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٧٢. البلاذري: أنساب الأشراف ج ٦ ص ٢٢٤.

^٢ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٧٢-٣٧٣.

^٣ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٦ ص ٢٢٤. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٤٩.

^٤ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٦ ص ٢٢٤. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٠٠.

فصّـق عدد من أصحاب ابن الزبير، فسرى عنهم قائلاً: "ألا ترون أنهم يصابون، وأنتم على الطاعة وهم على خلاف الطاعة!"^١.

نعم لقد كان الحجاج حاضر البديهة، خطيب مفوه يؤثر في سامعيه، يستغل حتى الظواهر الطبيعية للتأثير إيجاباً في معنويات جنوده، فكيف لجيش أن يهزم وفيه الحجاج. فلم تزل الحرب حتى كان قبيل مقتل ابن الزبير، حيث تفرق عنه أصحابه وخذلوه، وتسلبوا إلى الحجاج، حتى خرج إليه نحواً من عشرة آلاف، ومن فارقه ابنه حمزة وخبيب^٢، فأخذوا من الحجاج لأنفسهما أماناً، وضعف موقف ابن الزبير بعد أن خذله الناس^٣، وأمام هذا الإحباط، عاد ابن الزبير إلى أمه أسماء، وطلب منها النصـح، فأوصته وصية^٤ بليغة ومؤثرة ذكرتها جُل المصادر، شحذت فيها همته، ونصحته بالمواجهة بعد أن ذكر البعض بأن ابن الزبير نفسه قد راودته أفكار التخلي عن المقاومة والاستسلام للحجاج، لولا أن أمه قد منعتـه من ذلك.^٥

ووزع ابن الزبير رجاله في مواجهة الأمويين، حيث جعل محمد بن المنذر بن الزبير على قتال من جاء من المأزمين^٦، وجعل حمزة بن عبد الله على قتال من جاء من المسعى، وجعل هاشم بن عبد الله على قتال من جاء من الردم، وأحاط أهل الشام بأبواب الحرم يوم الثلاثاء، وأسلم أصحاب ابن الزبير

^١ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص١٩٥-١٩٦. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٤٩.

^٢ ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص١٢٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٤٠١.

^٣ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص١٩٤. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٤٩. الفاسي: المقنع ص٤١. الشريف: دور الحجاز ص٤٤٩. السباعي: تاريخ مكة ص١٠٤. عيسى: الحزبية السياسية ص٢١٥.

^٤ ابن بكّار: الأخبار الموفقيات ص٣١٤-٣١٦. الفاكهي: أخبار مكة ج٢ ص٣٥٨. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص١٩٥. التميمي: المحن ص١٩٢. ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص١٢٥. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٢٨ ص٢٢٦. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٤٠١. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٢ ص٢٩٣. الياضي: مرآة الجنان ص١٢٠. عثمان والجميعي: الاعتداءات على الحرمين ص٤١-٤٢. السباعي: تاريخ مكة ص١٠٤.

الوكيل: الأمويون ج١ ص٣٨٦-٣٨٧. صفوت: جمهرة خطب العرب ج٢ ص١٧٨.

^٥ عيسى: الحزبية السياسية ص٢١٥.

^٦ المأزم: طريق ضيق بين جبلين، ويتسع ما وراءه، والميم زائدة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة أزم، ج١٢ ص١٧.

المحارس, وأقام أهل الشام على كل باب رجالاً وقائداً وأهل بلد, فكان لأهل حمص الباب الذي يواجه باب الكعبة, ولأهل دمشق باب بني شيبه, ولأهل الأردن باب الصفا, ولأهل فلسطين باب بني جُمح, ولأهل قنسرين باب بني سهم, وكان الحجاج وطارق بن عمرو جميعاً من ناحية الأبطح على المروة, فمرة يحمل ابن الزبير في هذه الناحية ومرة في هذه الناحية, كأنه أسد في أجمة, ما يقدم عليه الرجال فيغدو في أثر القوم وهم على الباب حتى يخرجهم من المسجد.^١

ولقد اجتمع إليه المكيون فقالوا: "ألا تكلمهم في الصلح", فقال: "أو حين صلح هذا, والله لو وجدوكم في جوفها - يعني الكعبة - لذبجوكم جميعاً, والله لا أسألكم ذلك أبداً"^٢, وضاق الناس بإصراره على رفضه النزول على الأمان^٣, فجعلوا يتسللون إلى الأبطح طالبين الأمان من الحجاج فيؤمنهم - كما أسلف البحث قبل قليل - ومع هذا لم يززع ذلك من ثباته شيئاً, وأثناء الحصار, زُمي ابن الزبير بحجر فأصاب جبهته, فسقط ثم تحامل فقام قائلاً لأصحابه: "اخرجوا إلى من بالباب واحملوا, ولا يُلْهينكم طلي والسؤال عني, فإني في الرعيل الأول"^٤, وقد ورد أنه أقبل على آل الزبير يعظهم ويقول لهم: "ليكن أحدكم سيفه كما يكن وجهه, لا ينكر سيفه فيتقي بيده عن نفسه كأنه امرأة, والله ما لقيت زحفاً قط إلا كنت في الرعيل الأول"^٥. فخرج وخرجوا معه فقاتل قتالاً شديداً, حتى قُتل عامة من كانوا معه مثل عبد الله بن صفوان بن أمية, وكان متعلق بأستار الكعبة.^٦

^١ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٥٩. أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص ٤٥٩. الطبري: تاريخ الرسل والملوك

ج ٧ ص ١٩٥. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٧ ص ٩٢. الفاسي: المقنع ص ٤١. الوكيل: الأمويون ج ١ ص ٣٨٨.

^٢ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٥٩. السباعي: تاريخ مكة ص ١٠٤.

^٣ المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ٢٦. الشريف: دور الحجاز ص ٤٤٩.

^٤ السباعي: تاريخ مكة ص ١٠٤.

^٥ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٤٢. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٥٠.

^٦ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٥٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٠٤.

^٧ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٤٢. الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٦٦. ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار

ص ١٠٨. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ١٦٠. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ١٥١.

وبلغ ابن الزبير أن الحجاج كان يقول: "احذروا أن يفرّ كما فرّ أبوه", فقال: "هو عدو الله الفرار ابن الفرار يوم الرّيدة"^١, وقاتل ابن الزبير حتى أهدقوا به من كل جانب, فضربوه بأسيا فهم حتى قتلوه^٢, وقيل إن شرفة من شرفات المسجد وقعت على رأسه فصرعته, وبعد مقتله أمر به الحجاج فصلب^٣.

كان مقتل ابن الزبير يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة, وقيل لثلاث عشرة, وقيل لعشرة من جمادى الآخرة عام ٧٣هـ/٦٩٢م^٤. أما فيما يتعلق بمدة الحصار الثاني, فقد استمر ستة أشهر وسبع عشرة ليلة^٥, وقيل سبع أشهر^٦. وبالمقابل تعددت الروايات حول مدة ولاية ابن الزبير, إلا أن معظمها

^١ البلاذري: أنساب الأشراف ج٦ ص٧. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٧٤ ص٢٣٤. ويوم الرّيدة عام ٦٨٤هـ/٦٨٤م حين سيّر مروان بن الحكم جيشاً لاسترداد المدينة من عامل ابن الزبير, وباءت بالفشل. للمزيد انظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص٧١. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص٢٢٨. ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص٣٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٧٣. ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٢٦٠.

^٢ الفاكهي: أخبار مكة ج٢ ص٣٧٤. أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص٤٥٩. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٣ ص٣٧٧.

^٣ ابن قتيبة: المعارف ص٢٢٥. أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص٤٥٩. التميمي: المحن ص١٩٣. ابن عبد البر: الاستيعاب ج٣ ص٤٢. ابن حمدون: التذكرة الحمدونية ج٢ ص٤٨٤. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٢٨ ص٢٢٥.

^٤ الفاسي: شفاء الغرام ج٢ ص٢٦٦. السيوطي: تاريخ الخلفاء ص١٩٨. عثمان والجميعي: الاعتداءات ص٤٢.

^٥ ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٥ ص١٧٧. ابن خياط: تاريخ خليفة ص٣٤٢. التميمي: المحن ص١٩٣. المسعودي: التنبيه والإشراف ص٢٨٧. ابن الجوزي: صفة الصفوة ج١ ص٧٧٢. السباعي: تاريخ مكة ص١٠٥.

^٥ البلاذري: أنساب الأشراف ج٦ ص٢٣٤. عاقل: خلافة بني أمية ص١٥٧. زكار: تاريخ العرب والإسلام ص١٦٣.

^٦ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٧ ص١٩٦. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج١٢ ص١١٧. الوكيل: الأمويون ج١ ص٣٨٩.

قالت بأنها امتدت قرابة تسع سنين، وقيل نحواً من عشر، بسط نفوذه من خلالها على أكثر أمصار الإسلام.^١

لقد ضرب ابن الزبير أروع الأمثلة في الدفاع عن دولته، وقبلها عن مبدئه وقناعته، ويبدو أن أتباعه لم يمتلكوا مثل هذه القوة والقناعة، فبدؤوا بالتخلي عنه فرادى وجماعات، في الوقت الذي أبدى فيه الحجاج نوعاً من المراوغة بإعطائهم الأمان، فكان القتل المصير المحتوم لابن الزبير.

وبعث الحجاج برأس ابن الزبير إلى المدينة، فنصب بها، ثم ذهب به إلى عبد الملك بن مروان^٢، فأنفذه عبد الملك إلى عبد الله بن خازم السلمي^٣، يدعوه لطاعته وبيعته ويطعمه خراسان، فحلف ابن خازم أن لا يعطيه طاعة أبداً، ودعا بطست فغسل الرأس وحنطه وكفنه وصلى عليه^٤، وبعث به إلى أهل ابن الزبير بالمدينة^٥، وروي أن ابن عمر أقبل على الحجاج، وطلب منه أن يأذن له في دفن ابن الزبير، فأمره فذهب فدفنه^٦، وبعد أن دخل الحجاج مكة، بقي فيها ليدبر أمورها، كما أخذ البيعة لعبد الملك ممن بها من قريش^٧، وخطب بأهلها خطبة بليغة بعد أن ارتحت مكة بكاءً

^١ ابن قتيبة: المعارف ص ٣٥٦. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ٢٤٤. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٠٧. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٤٣٢. الفاسي: المقنع ص ٤٢. السباعي: تاريخ مكة ص ١٠٦.

^٢ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٩٧. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٧٤.

^٣ عبد الله بن خازم بن أسماء بن الصلت السلمي البصري، أبو صالح، أمير خراسان لبني أمية عشر سنين، وعندما قامت دولة ابن الزبير، ولي خراسان لابن الزبير، وأبى البيعة لعبد الملك بن مروان، قتله الأمويون على يد بكير بن الوساج وقيل وكيع بن عمير. انظر: المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ٢٣. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٢١٩. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣٩٦. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ٨٤.

^٤ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٧٤. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٢٦. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ٨٤.

^٥ ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ١٢٢. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٧٤. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٢٦.

^٦ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٧٦.

^٧ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢١٠. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٩٧. المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ٢٦. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٧٤. الوكيل: الأمويون ج ١ ص ٣٨٩-٣٩٠.

على عبد الله بن الزبير حيث قال: "أيها الناس، إن عبد الله بن الزبير كان من خيار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة ونازعها أهلها، وألحد في الحرم فأذاقه من عذابه الأليم، وإن آدم كان أكرم على الله من ابن الزبير، وكان في الجنة، وهي أشرف من مكة، فلما خالف أمر الله وأكل من الشجرة التي نُهي عنها، أخرجه الله من الجنة، قوموا إلى صلاتكم"^١. ووردت الخطبة في مصادر أخرى بنفس المعنى ولفظ مختلف^٢.

٩- نظرة في أسباب انهيار حكم ابن الزبير في مكة:

انطوت صفحة دولة عبد الله بن الزبير في التاريخ الإسلامي، بعد أن استمرت قرابة عقد من الزمن، فرضت فيها هيمنتها على أصقاع واسعة من العالم الإسلامي آنذاك، فما هي أبرز أسباب سقوطها وانهيارها، بعد أن توفرت فيها جميع المقومات اللازمة لاستمرارها؛ من خليفة وولادة وعمال وموارد اقتصادية وأرض شاسعة؟

في الواقع يمكن للبحث أن يلخص أسباب سقوط حكم ابن الزبير من خلال ما يأتي:

١- الشح الذي كان فيه، فقد ورد أن ابن الزبير كان شديد البخل عظيم الشح، فلذلك لم يتم أمره^٣، والناس في أيامه كانوا يريدون خليفة موائده منصوبة، ومجالسه مفتوحة، وأعطيته جاهزة، فانصرفوا عنه لبخله من جهة، ولكرم الأمويين من جهة أخرى، وقد عرف فيه عبد الملك هذا البخل، فتنبأ بأقول نجمه، وقال لمصعب عندما طلب منه أن ينضم إليه ويترك أخاه: "والله إن فيه ثلاث خصال لا يسود بها أبداً: عجب قد ملأه، واستغناء برأيه، وبخل التزمه"، أضف لذلك إخراج ابن الزبير بني أمية من المدينة، وتحامله على بني هاشم وحطه من شأنهم، فاتخذ الحجاج من ذلك وسيلة لإثارة الناس عليه^٤.

^١ ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٣١.

^٢ انظر: ابن حمدون: التذكرة الحمدونية ج ٦ ص ٢٧٤. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ١٢ ص ١٢٠. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤١. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ١٢٠.

^٣ ابن حمدون: التذكرة الحمدونية ج ٢ ص ٣٤٠-٣٤١. ابن طباطبا: الفخري ص ١٢٣.

^٤ بياضون: من دولة عمر ص ٢١٥. عيسى: الحزبية السياسية ص ٢١٤.

^٥ حسن: تاريخ الإسلام ج ١ ص ٣٣٩.

ولم يكن بخله نابع من حرصه على موارده القليلة، إنما ثمة روايات ذكرت بأن ابن الزبير كان يكتنز الذهب والفضة^١، ويضع على رأسه من العطور ما تبلغ قيمته حداً كبيراً، ويجمع المال جمعاً جمّاً^٢، وبيوت كانت مملوءة قمحاً وشعيراً وذرةً وتمرّاً، ولا ينفق منها إلا ما يمسك الرmq يقوي بها نفوس أصحابه^٣، ولما قال له أصحابه أن يخرجهم قال: "إن أخرجته فني، ولكنكم تنظرون إليه فتقوى قلوبكم وتطيب أنفسكم، ومتى أكلتموه نفذ، ولا يأتيكم ميرة فتلقون بأيديكم"^٤، كما روي أنه قال: "أنفس أصحابي قوية ما لم يفنى"^٥، وفي الوقت الذي كان فيه عبد الملك يظهر الكرم والصفح عن أعدائه، كان ابن الزبير يوزع على أنصاره الصاع^٦ أو الصاعين من التمر، حتى إذا أظهروا تراخياً في تنفيذ أوامره خاطبهم قائلاً: "أكلتم تمرى وعصيتم أمري"^٧.

كما روي أن ابن عباس وصف ابن الزبير بالبخل، وبني أمية بالجود والكرم عندما قال: "ما رأيت أحداً أخلق للملك من معاوية، إن كان ليرد الناس منه على أرجاء واد رحب، ولم يكن كالضيق الحصر"^٨، كما أوصى ابن عباس ابنه علياً أن يأتي الشام، ويتنحى عن سلطان ابن الزبير إلى سلطان عبد الملك بن مروان، وقال له: "الحق بابن عمك عبد الملك، فإنه أقرب وأخلق للإمارة، ودع ابن الزبير فإني رأيته لا يعرف صديقه من عدوه، ومن يكن كذلك لم يتم أمره، ولم يصف له"^٩.

^١ المقدسي: البدء والتاريخ ج٦ ص٢٥.

^٢ العش: (يوسف) الدولة الأموية، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٨م، ط١٧، ص٢٠٤.

^٣ الفاكهي: أخبار مكة ج٢ ص٣٧٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٤٠١. ابن حمدون: التذكرة الحمدونية ج٢ ص٣٤١. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٤٩. الوكيل: الأمويون ج١ ص٣٨٥.

^٤ البلاذري: أنساب الأشراف ج٦ ص١٣.

^٥ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٤٠١.

^٦ انظر جدول المسافات والموازين في الملاحق.

^٧ البلاذري: أنساب الأشراف ج٦ ص٢٨. ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٦ ص١٨٢. المقدسي: البدء والتاريخ ج٦ ص٢٥. طهوب: العصر الأموي ص٧٧.

^٨ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٧٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص١٢٧. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٣ ص١٥٣. الحصر: البخيل، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة حصر، ج٤ ص١٩٤.

^٩ عطوان: (حسين) الفقهاء والخلافة في العصر الأموي، بيروت، دار الجيل، ١٩٩١م، ط١، ص١٥-١٦.

وعلى الرغم من جميع الروايات السالفة، والتي تدل على بخل ابن الزبير وشحه على أتباعه، إلا أنه يجب عدم الانجرار خلفها وتصديقها بسهولة، فابن الزبير كان نداً قوياً لحكم الأمويين، بل إنه كان معادياً لجميع الأطراف كالخوارج والشيعة والأمويين، فلا غرابة إذاً في وجود العديد من الروايات الساعية للتقليل من شأنه، والانتقاص من قدره أمام المسلمين. كما لا يمكن نكران أثر الحصار الاقتصادي الأموي، والذي فرضه الأمويون بالتزامن مع حصارهم العسكري، حيث نجحوا في قطع الميرة والطعام عن ابن الزبير ومن معه من أهل مكة^١، مما أثر تأثيراً كبيراً في عزيمة جنوده وأنصاره، ففرّ غالبهم من الجوع نتيجة قلة مخزون الطعام، وارتفاع أسعار المواد الغذائية ارتفاعاً فاحشاً^٢، وسط جو من الفقر^٣.

٢- انعدام ثقته برجاله: فقد روي أن ابن الزبير خطب بمن قدم مع مصعب من أهل العراق قائلاً: "أما والله لو كانت الرجال تصرف، لصرفتكم تصريف الذهب بالفضة، أما والله لوددت أن لي بكل رجلين منكم رجلاً من أهل الشام، بل بكل خمسة، بل بكل عشرة، فما بكم من يدرك الثأر، ولا بكم من يمنع الجار"، فقام إليه رجل من أهل البصرة، وقال له: "علقناك وعلقت أهل الشام، وعلق أهل الشام بني مروان، فما عسانا أن نصنع"^٤. فكان الأجدر بابن الزبير أن يرفع من معنوياتهم، ويباهي بهم أجناد الأرض، ويزيد في أعطياتهم، ويشجعهم، فمصيروه مرتبط بمصيهرهم.

وثمة قصة أخرى، عندما جاءته الأعراب ليساعدوه وينصروه في حماية الكعبة المشرفة، وبدلاً من أن يستقبلهم بشكل يليق بهم، وبشجاعتهم وغيرتهم على الكعبة، استقبلهم بخطاب مهين قائلاً

^١ ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٢٤٤. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٥٩ ص ٣٠٨.

^٢ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٦ ص ٢٢٦. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٠١. الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٤٢٩. السنجاري: مناقب الكرم ج ٢ ص ٤٢٩. الوكيل: الأمويون ج ١ ص ٣٨٥.

^٣ الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٣٦. عاقل: خلافة بني أمية ص ١٥٧.

^٤ ابن حمدون: التذكرة الحمدونية ج ٥ ص ٢١٨. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٥٨ ص ٢٣٩. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٧٤. صفوت: جمهرة خطب العرب ج ٢ ص ٣٩٨.

لهم: "يا معشر الأعراب, لا قريبكم الله! فو الله إن سلاحكم لرت, وإن حديثكم لغث, وإنكم لقتال في الجذب, أعداء في الخصب" فتفرقوا.^١

٣- اختلاف ابن الزبير مع شخصيات إسلامية بارزة, كان لها حضورها وأتباعها في تلك الحقبة, أمثال عبد الله بن عباس, ومحمد بن الحنفية, وهذا أمر حرم ابن الزبير من مناصري وأقرباء تلك الشخصيتين, ولا سيما بعد أن عاملهم معاملة لا تليق بعلمهم ومكانتهم الدينية بين الناس, وهذا يعني أنه لم يكن جميع المكيين يدينون بالولاء لابن الزبير.^٢

٤- ويبدو أن اختلاف ابن الزبير لم يقتصر على المكيين فحسب, بل كان ثمة اختلاف وتغاير في وجهات النظر بين ابن الزبير وإخوته وأبنائه, أي داخل الأسرة الواحدة, فعمر بن الزبير كان في صف الأمويين, وعندما وقع في قبضة أخيه عبد الله, لم يرحمه أو يقبل التوسلات بإعطائه الأمان حتى قُتل عمرو تحت وطأة السياط - كما أسلف البحث - وكان لموقفه هذا تجاه أخيه عمرو وقعاً سيئاً, حيث أضر بابن الزبير وسمعته, ونقّر بعض الناس عنه, وأثر في شعبيته.^٣

هذا من جانب, ومن جانب آخر تركه وتخلّى عنه بعض من أبنائه كخبيب وحمزة في أصعب اللحظات, بعدما أدركوا ضعف موقف أبيهما أولاً, ووعد الحجاج بإعطائهما الأمان ثانياً.

٥- اتخذ ابن الزبير الحجاز مقراً لخلافته, حيث كان الحجاز أقل الأمصار الإسلامية صلاحية لأن يكون قاعدة للدولة في ذلك الوقت؛ لقلة موارده الاقتصادية والبشرية, فقد كانت موارده المالية تأتيه من الأقاليم الخارجية, كما كانت العناصر السياسية النشيطة قد خرجت منه إلى الأمصار الإسلامية, وبخاصة بلاد الشام والعراق, وأصبح الحجاز مأوى للطبقة الارستقراطية التي أبعدت عن شؤون الحكم, ومالت إلى حياة الترف لما تدفق عليها من مال, وما ترك لها آباؤها من الثروة.^٤

٦- خبرة أهل مكة المتواضعة في مسائل الحرب والسياسة, فلم يكن ابن الزبير يمتلك آنذاك جهازاً إدارياً متطوراً, مثل أجهزة دمشق وبقية الأمصار, وهذا يعني أنه لم يكن لديه المستشارون والأعوان,

^١الفاكهي: أخبار مكة ج٢ ص٤٦٤. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٤٠١.

^٢عيسى: الحزبية السياسية ص٢١٢.

^٣عيسى: المرجع المتقدم ص٢١٠.

^٤الشريف: دور الحجاز ص٤٣٩. حسن: تاريخ الإسلام ج١ ص٣٣٨.

بل كل ما امتلكه بعض الحلفاء المؤقتين مثل المختار، وكذلك الخوارج^١. أما سبب ذلك فلعله يعود إلى اشتغال أهل مكة بالتجارة قبل الإسلام، والتاجر يهمل الأمان والسلامة بالمقام الأول، وموقف مكة في تلك الحقبة كان حيادياً بين القوى المتصارعة، بينما كان أهل الشام موالين لبيزنطة، وكثيراً ما اشتركوا معهم في قتال الفرس، هذا الولاء أعطاهم خبرة عسكرية لم تكن متوفرة لدى أهل مكة.

٧- لم يكن ابن الزبير سياسياً قياساً بالدرجة التي كانت على منافسه عبد الملك، فقد أظهر ضعفاً في مجال الدعاية والإعلام^٢، وأوكلها إلى أنصاره كالضحاك بن قيس، وزفر بن الحارث بالشام، وأخيه مصعب بالعراق، على حين كانت السياسة الحكيمة تقضي عليه بأن يتولى ذلك بنفسه في الولايات الإسلامية الأخرى كالعراق ومصر، كما أنه لم يسر إلى بلاد الشام حين دعاه الحصين بن نمير لبياع له بعد وفاة يزيد، فأبى ابن الزبير أن يغادر بلاد الحجاز^٣. هذا مع العلم أن ذلك لا ينتقص شيئاً من شجاعة ابن الزبير، والتي شهد له بها الأعداء قبل الأصدقاء، وهو محاصر لأشهر من غير جند ولا حصن ولا منعة^٤.

وفي الختام لا بد من القول بأن دولة عبد الله بن الزبير لم تعط حقها في الدراسة والبحث، بما يتناسب مع قدرها وقدر صاحبها، والمساحة الهائلة التي امتدت عليها، وإن قيل إن عمرها كان قصيراً فأهملت لذلك السبب، فإنه يجب القول بأن هذا السبب غير كاف لتعليل ذلك التجاهل، فمع قصر عمرها فإنها حرمت الدولة الأموية ذاتها من ممارسة دورها الديني في قيادة إمرة مواسم الحج لقرابة عقد من الزمن، ويبدو أن من أسباب تغييب دور هذه الدولة أن بعض العلماء لم يعدوا ابن الزبير في أمراء المؤمنين، وعدّوا دولته زمن فرقة^٥، ولعل تلك القناعة كانت متأثرة - وإلى حد كبير -

^١ عيسى: الحزبية السياسية ص ٢١٢.

^٢ طهوب: العصر الأموي ص ٧٧.

^٣ حسن: تاريخ الإسلام ج ١ ص ٣٣٨.

^٤ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٦ ص ٢٣٤. اليافعي: مرآة الجنان ص ١٢٠.

^٥ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٣٦٤.

بالنصر الذي استقر للبيت الأموي أيام عبد الملك بن مروان^١, واستمرار الخلافة الأموية, فثبت مع الاستمرار, والمؤرخون يهتمون بالواقع أكثر مما يهتمون بالأمور النظرية, والواقع لم يكن إلى جانب ابن الزبير, ثم إن الخلفاء الذين أتوا من بعده لم يقرّوا بخلافته, وهكذا أسقط اسم خلافته من كتب التاريخ.^٢

وعلى أي حال لا يمكن للأسباب السالفة أن تسوغ إهمال هذه الدولة وعدم دراستها, فدورها في التاريخ الإسلامي لا يخفى على أحد, وقد أثّرت في بعض معالمه تأثيراً واضحاً, ولا سيما إعادة بنائها للكعبة كما سيرد في الفصل العمراني لاحقاً. أما بالنسبة للوضع السياسي في مكة بعد عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان, فإنه كان مستقرّاً, حيث دانت مكة بشكل كامل للخلافة الأموية, فليس ثمة قوة كانت تهددهم, وتقض مضجعهم, وسيتطرق البحث في فصوله المختلفة للتأكيد على ذلك حتى سقوط الدولة الأموية, ووقوع مكة كغيرها بيد العباسيين.

^١ الشريف: دور الحجاز ص ٤٥٠.

^٢ العش: الدولة الأموية ص ٢٠٥.

الفصل الثالث

الوضع الإداري في ولاية مكة المكرمة في الدور المرواني

• مقدمة.

أولاً: جداول ولاية مكة المكرمة:

- ١- في عهد عبد الله بن الزبير.
- ٢- في عهد عبد الملك بن مروان.
- ٣- في عهد الوليد بن عبد الملك.
- ٤- في عهد سليمان بن عبد الملك.
- ٥- في عهد عمر بن عبد العزيز.
- ٦- في عهد يزيد بن عبد الملك.
- ٧- في عهد هشام بن عبد الملك.

٨- في عهد الوليد بن يزيد .

٩- في عهد يزيد بن الوليد .

١٠- في عهد إبراهيم بن الوليد .

١١- في عهد مروان بن محمد .

ثانياً: أسس اختيار الولاة.

ثالثاً: أعمال الولاة.

• **المقدمة:**

إن الباحث في تاريخ ولاية مكة المكرمة في العصر الأموي، لا بد أن يفاجئ بعدد الولاة الكبير، على الرغم من قصر الحقبة التاريخية للعصر الأموي، ويبدو أن همَّ الخلفاء الأمويين كان منصّباً على ضرورة تولية مكة المكرمة للأنسب أو الأتقى أو الأقوى أو أصحاب القرابة، مما أدى إلى تزايد أسماء ولاية مكة في الروايات التاريخية، ومما زاد الأمور تعقيداً؛ استخلاف ولاية مكة لشخصيات تنوب عنهم بدون إذن مسبق من الخليفة، فقامت بعض المصادر بإيراد اسم من تولى مكة مدة من الزمن ولو قصرت على أنه والي، وأهملت بعض الروايات ذكر ذلك محتجة بأنه لم يصدر بتسميته أي قرار من الخليفة، وبين هذا وذاك جهلت الروايات العديد من الأسماء الحاكمة لولاية مكة في الحقبة المدروسة. وسيسلط البحث الضوء -وبقدر المتاح له- على أسماء ولاية مكة في الدور المرواني، محاولاً قدر الإمكان الإطلاع على أكبر عدد من الروايات، للوصول إلى المعلومة الصحيحة، وسيتم وضع ذلك في جدول.

الخليفة	الوالي	التعيين	المصدر	تعليق
---------	--------	---------	--------	-------

أولاً: جداول ولاية مكة المكرمة:

١- في عهد عبد الله بن الزبير:

عبد الله ابن الزبير	عبد بن الزبير.	مكة.	البلاذري: أنساب الأشراف ج ٦ ص ٢٥.	كانت مكة مركز خلافة ابن الزبير، وكانت إقامته فيها، إلا أن اضطراره في بعض الأحيان إلى السفر من جهة، وانشغاله بأمور دولته من جهة ثانية، دفعه إلى تعيين من يدير شؤونها.
	عبد الله بن يزيد ابن يزيد الأنصاري.	مكة.	ابن حجر: الإصابة ج ٤ ص ٢٦٧. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ١٤٦.	
	الحارث بن حاطب بن معمر الجمحي القرشي المكي.	مكة.	الفاسي: العقد الثمين ج ١ ص ١٦٣. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٥٦.	
	عبد الرحمن بن الوليد بن عبد شمس المخزومي.	الطائف	ابن حجر: الإصابة ج ٥ ص ٤٨. العلي: الحجاز ص ٣٣٤.	

٢- في عهد عبد الملك بن مروان:

الحجاج بن يوسف الثقفي.	مكة والمدينة والطائف	ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٨٣. ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٣٩. أبو النصر: (عمر)	والي بصلاحيات واسعة.
---------------------------	----------------------------	---	-------------------------

	سيوف أمية في الحرب والإدارة، بيروت، المكتبة الأهلية، ١٩٦٣م، ص ٣٢٢.			عبد الملك ابن مروان
عبد الرحمن بن نافع بن عبد الحارث الخزاعي	مكة.	عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٦٠.	عينه الحجاج نائباً عنه بعد خروجه من مكة، وعزله بعد شهر.	
قيس بن مخزومة.	مكة والمدينة والطائف .	ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٨٣. العلي: الحجاز ص ٣٣٥.	استخلفه الحجاج بعد أن أمره الخليفة بالتوجه إلى العراق.	
نافع بن علقمة ابن صفوان.	مكة والمدينة والطائف	الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٧١. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٢٤٩.	ولاه عبد الملك بعد الحجاج.	
الحارث بن خالد المخزومي.	مكة والمدينة والطائف .	ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٢٤٩. العلي: الحجاز ص ٣٣٤. السباعي: تاريخ مكة ص ١٠٧.		
خالد بن عبد الله القسري.	مكة.	الأزرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٩. ابن فهد: إتحاف الوري		

عبد الملك ابن مروان			ج ٢ ص ١٠٩ . العلي: الحجاز ص ٣٣٤.
	عبد الله بن سفيان المخزومي.	مكة.	. الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١١٣ . البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٦٢.
	عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد	مكة.	البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٧٧-٧٨ , ج ٧ ص ١٨٤ - ١٨٥.
	يحيى بن الحكم ابن أبي العاص.	مكة.	الفاسي: العقد الثمين ج ١ ص ١٦٣ . ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٥٠ . السباعي: تاريخ مكة ص ١٠٧ .
	هشام إسماعيل المخزومي.		عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٦١ . راوه: جداول ص ٤٠ .
	أبان بن عثمان ابن عفان.	مكة.	ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٥٠ . العلي: الحجاز ص ٣٣٤ . السباعي: تاريخ مكة ص ١٠٧ . زامباور: معجم الأنساب ص ٢٧ .

	نافع بن علقمة ابن صفوان الكناني.	مكة.	الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٧١.	وهو خال مروان بن الحكم, وبقي حتى مات عبد الملك.
--	--	------	-------------------------------	--

٣- في عهد الوليد بن عبد الملك:

	نافع بن علقمة ابن صفوان الكناني.	مكة.	ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٤١٥. المزي: تهذيب الكمال ج ٨ ص ١١٠. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٦٥.	أقره الوليد لسنتين ثم عزله.
الوليد ابن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري.	مكة.	الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٦٧. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٨٢. العلي: الحجاز ص ٣٣٤.	بقي حتى مات الوليد.
الوليد ابن عبد الملك	عمر بن عبد العزیز	مكة والمدينة.	أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص ٤٧٤. القلقشندي: مآثر الإنافة ج ١ ص ١٣٧. أبو النصر: الأيام الأخيرة للدولة الأموية, بيروت, المكتبة الأهلية, ١٩٦٢م, ط ١, ص ٩١. Smith: Arabic Literature P.293.	

	خالد بن عبد الله القسري.	ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١١٧. عبد الغني: تاريخ أمرء مكة ص ١٧٠. الشريف: دور الحجاز ص ٤٦٤.	للمرة الثانية.
--	-----------------------------	---	----------------

٤- في عهد سليمان بن عبد الملك:

سليمان ابن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	مكة	ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٤٢٨. الأزرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ٦١. الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٦٧.	أبقاه سليمان في بداية حكمه, ثم عزله.
	طلحة بن داود الحضري	مكة	الفاسي: العقد الثمين ج ١ ص ١٦٣. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٢٩.	
	عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد	مكة	الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٧٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٨٤. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٢٤٩.	

ابن عبد الملك	محمد بن طلحة, وعروة ابن عياض, وعبد الله قيس, وعثمان ابن عبد الله.	مكة	السباعي: تاريخ مكة ص ١٠٨. زامباور: معجم الأنساب ص ٢٨.	نواب عبد العزيز, حكموا مكة لفترات وجيزة.
---------------	---	-----	---	--

٥- في عهد عمر بن عبد العزيز:

عمر بن عبد العزيز	عبد العزيز بن عبد الله	مكة	ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٤٢٨. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٣٣. السباعي: تاريخ مكة ص ١٠٨.	
	محمد بن طلحة	مكة	الفاسي: العقد الثمين ج ١ ص ١٦٤. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٢٤٩. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٨٤.	
	عبد الله بن قيس بن مخزومة	مكة	الفاسي: العقد الثمين ج ١ ص ١٦٤. العلي: الحجاز ص ٣٣٥. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٨٥.	
	عثمان بن عبد	مكة	الفاكهي: أخبار مكة	

العزیز	الله بن سرقة العدوي	ج ٣ ص ١٧٩ . ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٢٥٠ . العلي: الحجاز ص ٣٣٥ .	
	عروة بن عياض النوفلي	مكة ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزیز ص ١١٨ . المزي: تهذيب الكمال ج ٢٠ ص ٢٩ .	

٦- في عهد يزيد بن عبد الملك:

يزيد بن عبد الملك	عبد العزيز بن عبد الله	مكة ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٤٨٢ . الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٢٥ . السباعي: تاريخ مكة ص ١٠٨ .	
	عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس	مكة والمدينة ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٢٣ . الفاسي: العقد التمين ج ١ ص ١٦٤ . راوه: جداول ص ٤٧ .	
يزيد بن عبد الملك	عبد الواحد بن عبد الله النضري	الطائف ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٥٠ . ابن فهد: إتحاف الورى ج ٢ ص ١٣٦ . العلي: الحجاز ص ٣٣٦ .	
	عبد الواحد بن	مكة ابن فهد: إتحاف الورى أصبحت ولايته أكبر .	

	عبد الله	والمدينة والطائف.	ج ٢ ص ١٣٧. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٢٥٠. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٨٧.	
--	----------	----------------------	--	--

٧- في عهد هشام بن عبد الملك:

هشام ابن عبد الملك	إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي	مكة والمدينة والطائف.	ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ١٧٥. ابن حجر: فتح الباري ج ١ ص ٢٧٤. العلي: الحجاز ص ٣٣٦.	خال الخليفة
	محمد بن هشام ابن إسماعيل المخزومي	مكة والمدينة والطائف.	ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥٣٤. القلقشندي: مآثر الإنافة ج ١ ص ١٥٤. العلي: الحجاز ص ٣٣٦.	خال الخليفة
	أبو محمد, وكان من قریش	الطائف	الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٠٤.	

٨- في عهد الوليد بن يزيد: و ٩- في عهد يزيد بن الوليد:

الوليد ابن يزيد	يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي	مكة والطائف.	ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٢٦٧. السباعي: تاريخ مكة ص ١٠٩. الزركلي: الأعلام ج ٨ ص ٢٤٦.	خال الخليفة
--------------------	-----------------------------------	-----------------	--	-------------

يزيد بن الوليد	أبو محمد عبد العزیز بن عمر ابن عبد العزیز	مكة والمدينة والطائف	ابن فهد: إتحاف الوری ج ٢ ص ١٥٧-١٥٨. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٢٥١. زامباور: معجم الأنساب ص ٢٨.
	عبد العزیز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان	مكة والمدينة والطائف.	ابن الكلبي: جمهرة النسب ص ٤٣. ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥٥٩.

١٠- في عهد إبراهيم بن الوليد:

إبراهيم ابن الوليد	يوسف بن محمد الثقفي	مكة والمدينة وسائر الحجاز.	القلقشندي: مآثر الإنافة ج ١ ص ١٦٢.
	عبد العزیز بن عمر بن عبد العزیز	مكة والمدينة والطائف.	راوه: جداول ص ٥٢.

١١- في عهد مروان بن محمد:

عبد العزیز بن عمر بن عبد العزیز	مكة والمدينة والطائف.	ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ١٠٦. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٣ ص ٣٢٩. العلي:
---------------------------------------	-----------------------------	---

	الحجاز ص ٣٣٧.			مروان ابن محمد
عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك	مكة والمدينة والطائف.	ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٥٩. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٢٥١. زامباور: معجم الأنساب ص ٢٨.	وهو الذي سالم أبو حمزة الخارجي وهرب إلى المدينة.	
أبرهة بن الصباح الحميري	مكة	البلاذري: أنساب الأشراف ج ٧ ص ٦٣٤. الذهبي: تاريخ الإسلام ص ٢٧. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٦٢.	عينه أبو حمزة الخارجي بعد استيلائه على مكة.	
عبد الملك بن محمد	مكة والمدينة والطائف	الفاسي: العقد الثمين ج ١ ص ١٦٥. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٦٢. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ٢٠٨.		
زومي بن ماعز الكلابي	مكة	ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٦١٩. الفاسي: العقد الثمين ج ١ ص ١٦٥. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ٢٠٩.	رجل من الشام عينه عبد الملك لفترة وجيزة, وتعد سابقة كونه ليس من الأمويين أو قريش.	
محمد بن عبد الملك بن مروان	مكة والمدينة والطائف	ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٢٥٢. العلي: الحجاز ص ٣٣٧. زامباور: معجم الأنساب ص ٢٨.		
الوليد بن عروة	مكة	الفاكهي: أخبار مكة	عينه عمه عبد الملك	مروان

ابن محمد	السعدي	والمدينة والطائف	ج ٣ ص ١٤٨. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٧٥. الفاسي: العقد الثمين ج ١ ص ١٦٥.	ابن محمد, وقيل أنه آخر ولاية بني أمية على مكة.
يوسف بن عروة	مكة والمدينة واليمن	ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٦١٩. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ١٠٦. العلي: الحجاز ص ٣٣٧.		

ثانياً: أسس اختيار الولاة:

في كل عصر من العصور عبر التاريخ, ثمة قواعد وأسس تُراعى عند اختيار الولاة, ولكن على الرغم من اختلاف أنظمة الحكم وأهداف كل دولة, إلا أن الصفة العامة لجميع الدول تتفق إلى حدٍ كبير في أسس اختيار الولاة لأصقاع الدولة.

ففي العصر الأموي - محور البحث - كانت السمة العامة العروبة وعراقة النسب وثمة صفات أخرى كالقوة والدهاء, كما كان الحال مع الحجاج بن يوسف الثقفي وخالد بن عبد الله القسري. أو صفة الكفاءة والعدل والأمانة, كما هو الحال مع عثمان بن عبد الله بن سُراقَة, وعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز, ومحمد بن عبد الملك بن عطية.

ويمكن تجاوز كل الشروط السالفة, إذا كان الوالي يخص الخليفة أو من أحد أقربائه, مثل تعيين هشام لخاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي, وخاله الآخر محمد بن هشام. وليس هشام حالة خاصة, بل إن الخليفة الوليد بن يزيد والذي لطالما انتقد هشام على توليته خاليه محمد وإبراهيم, هو الآخر بعد أن آلت إليه الخلافة, عيّن على ولاية مكة خاله يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي.

وثمة أسس أخرى لاختيار الولاة, كرجبة الوالي القديم في تقديم شخص في اعتقاده بأنه كفء لهذا المنصب, كتقديم عبد الملك بن محمد بن عطية لرومي بن ماعز الكلابي, وهو رجل جاء معه

من الشام, ولربما شاهد من كفاءته ومقدرته ما يؤهله ليصبح والياً, وفعلاً أفضى له بالولاية, ولو أن أيامه كانت قصيرة مقارنة مع من سواه.

والمفيد ذكره أنه تقع على عاتق الوالي عدم استغلال النفوذ للإثراء أو البطش بالغير^١, أضاف إلى ذلك أن يكون الوالي من البيت المال^٢, فمثلاً لقد عين عبد الملك ومن تلاه من الخلفاء ولاية منوعين, منهم ثلاثة من الأسرة الأموية, فيهم عدد من أهل مكة, وفيهم عدد غير قليل من غير أهل مكة, وكلهم ممن لم يتول ولاية في مكان آخر قبل ولايته مكة.^٣

ثالثاً: أعمال الولاية:

تتلخص مهام الوالي بتلك التي يحددها له الخليفة, ويجب التمييز هنا بين ولاية يملكون الصلاحيات الواسعة, وهذا عادة ما يتناسب طرذاً مع مسؤولياتهم, حيث تصبح أكثر من المعتاد, كونهم يملكون تفويض من الخليفة نفسه في فعل ما يروونه مناسباً, حتى دون الرجوع إلى الخليفة, ولعل خير مثال على الولاية أصحاب الصلاحيات الواسعة في ولاية مكة, الحجاج بن يوسف الثقفي وخالد القسري.

وولاية-ولعلمهم الأكثرية- لا يملكون من السلطة إلا الاسم, فصلاحياتهم محدودة ولا يتجرؤون على فعل أي شيء, إلا بعد استشارة الخليفة مراراً وتكراراً. وعلى العموم, وفي كلتا الحالتين يمكن القول بأن أعمال الوالي تتلخص في:

(١) اتخاذ الإجراءات الكفيلة بقمع الميل إلى الثورة, ومراقبة جميع العناصر النشطة, والتي من الممكن أن تشغل دوراً محورياً في هذا الشأن, واتخاذ كل ما من شأنه الوقوف في وجه التحديات للدولة الأموية. وعلى سبيل المثال لا الحصر, قيام والي مكة خالد بن عبد الله القسري, وإلقائه القبض على الفقيه سعيد بن جبير, والبعث به إلى الحجاج^٤. ولعل ما يلفت النظر في أعمال الحجاج أثناء ولايته على

^١ الصيحي: (محمد إبراهيم) الحكم والإدارة عند العرب, القاهرة, مكتبة الوعي العربي, ١٩٦٧م, ص ٣٣.

^٢ حسيني: الإدارة العربية ص ٢٠٦.

^٣ العلي: الحجاز ص ٣٠٥.

^٤ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٦٠. المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ٣٩. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٣١٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٥٤. الزركلي: الأعلام ج ٣ ص ٩٣. عطوان: الفقهاء والخلافة ص ٣٠.

مكة هو الشدة والقسوة -والتي أنكرها الناس^١- على كل من كان يظن بهم الخطر على بني أمية، فتعرض مثلاً لمحمد بن الحنفية بما يكره، وعندما وصل الخبر إلى الخليفة عبد الملك أرسل للحجاج كتاباً وبَّخه فيه أشد توبيخ، وهَدَّده قائلاً: "لا تعرض لمحمد ولا لأحد من أصحابه، جنبني دماء بني عبد المطلب، فليس فيها شفاء من الحرب، وإني رأيت بني حرب سلبوا ملكهم لما قتلوا الحسين بن علي"^٢. فما عاد الحجاج إلى شيء يكرهه محمد بن الحنفية بعدها.^٣

ومن الذين طاهم ظلم الحجاج في مكة أيضاً عبد الله بن عمر، الذي مات بزج^٤ رمح مسموم في أخمص قدمه، فلزقت قدمه بالركاب، فنزل ونزعها وذلك بمنى، فبلغ ذلك الحجاج فأثاه يعود^٥، فقال: "لو نعلم من أصابك لضربت عنقه" فقال ابن عمر: "أنت أصبتني، قال: كيف، قال: حملت السلاح في يوم لم يكن يُحمل فيه، وأدخلت السلاح الحرم، وكان السلاح لا يدخل الحرم".^٦ وثمة روايات حاولت تفنيد ما ورد عن ظلم الحجاج، فشخص مثل الحجاج يعرف حق المعرفة قيمة عبد الله بن عمر^٧، فكيف له أن يقتله، ولا سيما أنه كان رجلاً كبيراً قد كف بصره^٨، فاتهام ابن عمر للحجاج كان مجازياً أكثر من كونه واقعياً، ولطالما كانت الأقلام مشرعة ضد الحجاج، والمبالغة في

^١ أبو النصر: (عمر) سيوف أمية في الحرب والإدارة، بيروت، المكتبة الأهلية، ١٩٦٣م، ص ٣٢٣.

^٢ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٣٧٨.

^٣ التميمي: المحن ص ٣٣٥. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٥٤ ص ٣٥٢-٣٥٣.

^٤ الحديدة التي بأسفل الرمح، وبه تركز الرمح في الأرض. ابن منظور: لسان العرب، مادة زجج، ج ٢ ص ٢٨٥-٢٨٦.

^٥ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٥٠. ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٥ ص ٣٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤١٠. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٧ ص ١٩٨. عبد الغني: (عارف) تاريخ أمراء مكة، دمشق، دار البشائر، ١٩٩٢م، ط ١، ص ١٥٨-١٥٩.

^٦ البخاري: صحيح البخاري ج ١ ص ٣٢٨. الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٥٠. البيهقي: سنن البيهقي الكبرى ج ٥ ص ١٥٤. ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ١ ص ٥٨١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤١٠.

^٧ السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٠٠. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٥٨-١٥٩.

^٨ الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ١٠٨.

وصف أفعاله بالقسوة. ولربما كان يجب أن يلوم ابن عمر الخليفة الأموي نفسه؛ لأنه هو من ولى الحجاج على مكة.

وفي السياق ذاته كان تهديد خالد القسري — السالف الذكر — الصريح والمباشر لأهل مكة في ضرورة الامتناع عن إيواء الزائعين عن الجماعة — على حد وصفه — وإلا فإن بيوتهم ستهدم^١، ومن طعن بإمامه (الخليفة الأموي أو الوالي) صلبه في الحرم^٢. ولكن تعنت خالد واستكباره على أهل مكة دفع ثمنه غالياً ولكن كيف؟

في عهد سليمان بن عبد الملك، كان قاضي مكة طلحة بن هرم، فاختصم إليه رجل من بني شيبه (خدمة الكعبة) يقال له الأعجم، مع ابن أخ له في أرض لهما، فقاضى للشيخ على ابن أخيه، فأقبل (ابن الأخ) إلى خالد فأخبره، فحال خالد بين الشيخ وبين ما قضى له القاضي، فكتب القاضي كتاباً إلى سليمان يشكو له خالداً، ووجه إليه الكتاب مع محمد بن طلحة (ابن القاضي)، فكتب سليمان إلى خالد أنه: "لا سبيل لك على الأعجم ولا ولده"، فقدم محمد بن طلحة بالكتاب على خالد وقال: "لا سبيل لك علينا، هذا كتاب أمير المؤمنين"، فأمر به خالد فضرب مائة سوط قبل أن يقرأ كتاب سليمان، فبعث القاضي ابنه المضروب إلى سليمان، وبعث ثيابه التي ضرب فيها بدمائها، فأمر سليمان بقطع يد خالد إن كان قد ضربه بعد ما قرأ الكتاب، وجلده مئة سوط قبل أن يقرأ الكتاب، فجلد خالد مئة سوط^٣. وفي هذه الحادثة قال الفرزدق: (البحر الطويل)

لَعَمْرِي لَقَدْ صُبَّتْ عَلَى ظَهْرِ خَالِدٍ شَايِبٌ مَا اسْتُهْلِلَ مِنْ سُبُلِ الْقَطْرِ
أَتَجَلَّدُ فِي الْعَصِيَانِ مَنْ كَانَ عَاصِيًا وَتَعْصِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَخَا قَسْرِ
وَقَالَ أَيُّضًا: سَلُوا خَالِدًا لَا فَدَسَ اللَّهُ خَالِدًا مَتَى وَلَيْتَ قَسْرٌ قُرَيْشًا تُهِنُّهَا
أَبْعَدَ رَسُولِ اللَّهِ أَمْ قَبْلَ عَهْدِهِ وَجَدْتُمْ قُرَيْشًا قَدْ أَعَثَّ سَمِينَهَا

^١ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٨٢. الشريف: دور الحجاز ص ٤٦٤.

^٢ ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٣٠٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٣٣. الشريف: دور الحجاز ص ٤٦٤.

^٣ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٦٩. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٢٤-١٢٥.

رَجَوْنَا هُدَاهُ لَا هَدَى اللَّهُ قَلْبَهُ وَمَا أُتْمُهُ بِالْأُمِّ يُهْدَى جَنِينُهَا^١

على أنه كان لخالد القسري عدداً من الأعمال الجيدة، فهو أول من أمر بإدارة الصفوف حول الكعبة للصلاة^٢، وكانوا يصلون صفوفاً بعد باب الكعبة للمطاف، تاركين الجهات الأخرى للطائفين وغيرهم، ولكي لا يقطع الطواف لغير المكتوبة أمر خالد الناس أن يطوفوا بين كل ترويحتين سبعة، كما عين على جبل أبي قبيس شخصاً يرقب طلوع الفجر في رمضان، وذلك للصائمين حيث ينادي بالإمساك عند الفجر، وكان عطاء بن رباح وعمرو بن دينار وغيرهم من العلماء يرون ذلك ولا ينكرونه^٣، حتى وصف الفقيه طاووس بن كيسان إدارة الصفوف حول الكعبة بقوله: "كأننا كنا عن هذا عمياً"^٤، كما فرّق بين النساء والرجال في الطواف^٥، والعديد من الأعمال العمرانية، والتي سيوردها البحث لاحقاً في الوضع العمراني.

كما سجن هشام بن إسماعيل المخزومي ثابت بن عبد الله بن الزبير، بعد أن بدأ بسب رهط أمير المؤمنين الخليفة عبد الملك، وبقي ثابت بالسجن حتى أمر عبد الملك بإطلاق سراحه^٦. ويبدو أن هذه الحادثة كانت بعد صدور الأوامر التي أرسل بها عبد الملك لواليه على مكة هشام، والتي أمره فيها بجمع آل علي وآل الزبير، فيشتم آل علي علياً، ويشتم آل الزبير الزبير، فرفض ذلك واستماتوا في الرفض، فتدخلت أخت هشام -وكانت راجحة العقل- وأشارت على أخيها باستبدال ذلك، وأن يأمر آل الزبير بشتم آل علي، وآل علي بشتم آل الزبير، وعندما رفض آل علي ذلك

^١ الفاكهي: أخبار مكة ج٣ ص ١٦٨-١٦٩. ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٤ ص ٤٠٤. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٩ ص ١٧٤. الفرزدق: (همام بن غالب) ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه: علي فاعور، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م، ط ١، ص ٦٣٢. مع العلم أنه مدحه من قبل، انظر: ص ٢٣٦ من الديوان.

^٢ الأزرق: أخبار مكة ج٢ ص ٦٥. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٥٠. السباعي: تاريخ مكة ص ١٣٠.

^٣ الأزرق: أخبار مكة ج٢ ص ٦٥-٦٦. الفاكهي: أخبار مكة ج٢ ص ١٥٥-١٥٦. ابن فهد: إتحاف الوري ج٢ ص ١١٩-١٢١. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٧٩. راوه: جداول ص ٤٠.

^٤ العسكري: الأوائل ص ٣١٦. السنجاري: منائح الكرم ج٢ ص ٣١.

^٥ الفاكهي: أخبار مكة ج٣ ص ١٦٧.

^٦ الزبيري: نسب قريش ص ٤٨-٤٩.

الأمر، أمر هشام بضربهم حتى سال دمهم، ففعلوا ما أمروا به، وبالمقابل سب آل الزبير آل علي خوفاً من العذاب.^١

ولعل هذه الحادثة توضح مدى تهديد الأسرتان للدولة الأموية، وبالتالي حاول أن يبذر بينهما بذور الشقاق والخلاف، على أمل عدم إجراء أي اتفاق بينهما ضد الأمويين، أضف إلى ذلك عفو عبد الملك عن ثابت، يؤشر إلى رغبة الأول في كسب ودّ الثاني إلى جانبه، وكسر محور المعارضة آل علي - آل الزبير، والخروج بمظهر العفو الكريم.

ومن أعمال عمر بن عبد العزيز في التصدي للمناوئين للدولة الأموية، عندما كان والياً على الحرمين للوليد بن عبد الملك، قيامه بتنفيذ أوامر الخليفة الوليد بضرب خبيب بن عبد الله بن الزبير، وصبّ الماء البارد على رأسه، فضربه خمسين سوطاً وصب عليه ماءً بارداً في يوم شات، وأوقفه على باب المسجد فمات من يومه.^٢

كما اتخذ الوليد بن عروة وهو على مكة والياً لمروان الأرصاد على الشاعر سديف بن ميمون^٣ مع أصحابه حتى أخذه، وكان سديف يجلس في لمة له مع أهل مكة وأهل الطائف، يسمرون في المسجد الحرام إلى نصف الليل ونحوه، فيتحدثون ويخبرهم بدولة بني هاشم أنها قريبة، فحبسه الوليد، ثم جعل يجلده كل سبت مائة سوطاً^٤. ولعل القسوة في العقوبة والسرعة في تنفيذها بلا تردد من قبل خالد أو هشام أو عمر أو الوليد، توضح مدى التزام الولاة التام، واجتهادهم بتنفيذ أوامر الخليفة، مهما كان نوعها.

(٢) ومن مهام الوالي تمثيل الخليفة في الأمور الدينية، كقيادة مواسم ومناسك الحج، وتنفيذ الحدود الشرعية في المسائل المعروضة عليهم، فعندما ذهب عبد الله بن الزبير إلى الطائف، واستخلف مكانه

^١ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ١٣ ص ٦٨. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١١ ص ٣١٩.

^٢ الزبير: نسب قريش ص ٢٤٠. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٤٤. الدار قطني: المؤتلف والمختلف ج ٢ ص ٦٣١. المزني: تهذيب الكمال ج ٨ ص ٢٢٥. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ١٢٠.

^٣ سديف بن ميمون المكي الشاعر، مولى آل أبي لهب، كان شديد السواد أعرابياً بدوياً، وهو الذي حرض السفاح على قتل من كان في محبسه من بني أمية فقتلوا، انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٥ ص ٧٨.

^٤ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٤٧ - ١٤٨.

ابنه عباد بن عبد الله - كما أسلف البحث - أتى عباد بخالد بن المهاجر بن الوليد المخزومي, وقد شرب خمراً وجدت معه^١, كما شهد عليه بأنه يعانق النساء في الطواف, فأمر بضربه الحد فجلد, فأتى بنو مخزوم أباه, فكلموه فقال: "ما أصنع به", وكان يتحدث عند امرأة من قریش, فقيل لابن الزبير فحبسه وقيده, ثم أخرجه وسيّره إلى الشام, حيث تزوج هناك^٢.
وثمة أعمال عمرانية مهمة قام بها الولاية, ونظراً لأهميتها بالنسبة لمكة وأهلها, فقد حرص البحث على ذكرها في فصل من فصول البحث, خصص الحديث فيه عن الوضع العمراني لولاية مكة المكرمة في الحقبة المدروسة.

الفصل الرابع

الوضع الاجتماعي في ولاية مكة المكرمة في الدور المرواني

• مقدمة.

أولاً: عناصر المجتمع في ولاية مكة المكرمة:

(١) القبائل العربية: أ- سكان المدن والحوضر (مكة والطائف).

ب- سكان البوادي (البدو الرُّحْل).

(٢) الموالي والرقيق والجواري

(٣) أهل الذمة (غير المسلمين).

(٤) أصحاب اللّهُو والغناء:

١. ابن مسجح (ت ٨٥هـ / ٧٠٤م).

^١ ابن حبيب: المنقح ص ٣٩٩. البلاذري: أنساب الأشراف ج ٦ ص ٢٥.

^٢ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٦ ص ٢٥.

٢. الغريص (ت نحو ٩٥هـ/نحو ٧١٤م).

٣. ابن سريج (ت ٩٨هـ/٧١٦م).

٤. الأبيجر.

٥. الهذلي (ت نحو ١١٠هـ/٨٢٧م).

٦. ابن محرز (ت ١٤٠هـ/٨٥٧م).

٧. ابن مشعب وعمر الوادي.

٨. المغنيات في مكة.

ثانياً: العادات والتقاليد. ثالثاً: الهجرة من وإلى مكة المكرمة.

• مقدمة:

ليس من المستغرب القول - والبحث بصدد الحديث عن عناصر المجتمع في ولاية مكة المكرمة- بأن معظم جمهور المؤرخين والكتاب؛ بل وحتى قسماً كبيراً من الباحثين المحدثين قد صرفوا جلَّ اهتمامهم للحديث عن الأوضاع السياسية وأخبار السلطان وخفايا البلاط، وبمقدار ما أبدعوا وأسهبوا في الحديث عن هذا الوضع؛ بمقدار ما أهملوا أو تناسوا الوضع الاجتماعي وما يتعلق به، ومع أن ثمة إشارات مهمة وردت أثناء حديثهم تتعلق بالوضع الاجتماعي، إلا أن هذه الإشارات أو المعلومات كانت تدرج في سياق خدمة حديثهم عن الوضع السياسي بشكل رئيسي. وأمام هذا كله، كيف يتسنى للباحث الوصول إلى ما يروي ظمأه، ويرضي مرامه، من معلومات وتفاصيل عن الوضع الاجتماعي؟

الحق يقال بأن الشعور بهذه المشكلة لم يكن حديثاً بل كان قديماً، حيث شعر البعض من المؤرخين والباحثين بظلم الناحية الاجتماعية إلى حدٍ كبير قياساً بالنواحي الأخرى، ولعل هذا ما دفع بعضهم لتخصيص مؤلفات كاملة وضخمة تخدم هذا الوضع بالتحديد، كتلك التي تتحدث عن الأنساب والقبائل والرحلات والعادات، وما دار في فلك ذلك.

ولعل من باب الإنصاف القول بأن ثمة عدد يسير من الباحثين المحدثين ممن شتموا عن ساعد الجدل، وخاضوا في سبيل البحث عن معلومات وروايات تغني الوضع الاجتماعي، فقدّموا بجليل أعمالهم للبحث مادة دسمة تخدم هذا الوضع إلى حدٍ كبير. وبما أن المجتمع المكي جزء لا يتجزأ من المجتمع الإسلامي عامة، فإن العوامل المؤثرة على الكل بطبيعة الحال ستؤثر على الجزء، وبالإجمال: ما هي العوامل التي يمكن أن تؤثر - سلباً أو إيجاباً - على الوضع الاجتماعي؟ يبدو أن مجمل العوامل لها تأثير لا يُستهان به على الوضع الاجتماعي، ولعل أهمها:

١. العامل السياسي والإداري:

فاندلاع حرب في البلاد يدفع عدداً من الناس - كبيراً كان أم صغيراً - على الهرب خوفاً على أنفسهم، وبالتالي تغيير مكان إقامتهم، وتطبعهم بطباع جديدة. كما أن تغير الخليفة أو الوالي يمكن أن يؤدي إلى إزاحة عصابة، وإبراز عصابة أخرى، وبين الإقصاء والبروز ثمة نتائج لها كبير الأثر على هذا الوضع.

٢. العامل الاقتصادي:

حيث فضّل الناس السكن في المراكز الاقتصادية الرائدة، والتي أمنت لقاطنيها الوظائف والعمل، والتي بدورها درّت عليهم أموالاً طائلة، مما دفع العديد من الناس لترك البوادي والأطراف، والتكتل في المراكز الاقتصادية المهمة كمكة المكرمة والطائف.

٣. العامل المناخي:

الذي كان لتغيره واشتداده آثاراً خطيرة على مر التاريخ، فانقطاع المطر والقحط والجفاف دفع العديد من الأسر إلى الهجرة والرحيل، بل ويمكن القول مع استمرار سوء هذا العامل، تحوّل سكان المدن إلى بدو رحّل بحثاً عن الكأ والماء، أي يتحولوا إلى أهل ضرع بعد أن كانوا أهل زرع. ومن تأثير المناخ على مكة، خروج أشرافها إلى الأماكن المعتدلة واللطيفة كالطائف مثلاً، واقتنائهم فيها المزارع والأراضي والقصور، منذ ما قبل الإسلام، مما كان له أبلغ الأثر في قيام علاقات اجتماعية، وقيام نخبة الطائف الزراعية خصوصاً والاقتصادية عموماً.

٤. العامل الفكري والثقافي:

حيث جذبت المراكز الدينية، ولاسيما مكة المكرمة العديد من طلاب العلم، وفي معظم الأحيان مع عائلاتهم، مما أدى إلى قيام علاقات اجتماعية، وامتزاج بين العروق والأصول نتيجة قيام علاقات المصاهرة بين القادمين إلى مكة وأهل مكة.

لقد شهد الوضع الاجتماعي في مكة المكرمة غلياناً مستمراً، نتيجة تعدد عناصره من جهة، وغزارة زائريه وقاصديه بغرض الدين أو الدنيا من جهة أخرى، واستطاعت مكة المكرمة - دون سواها من مدن المعمورة - أن تجسد أروع الأمثال في ناحيتين:

- **الناحية الأولى** تجاور الدنيا والآخرة فيها، فيمكن للعامل أو التاجر المسلم أن يقوم بالحج أو العمرة، ومن ثم يتفرغ لأموال دنياه من بيع وشراء، أو أي عمل آخر يبتغي فيه رزقاً في مكة، قال الله تعالى: **﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَهُمْ﴾**^١.

- **الناحية الثانية** صهرها لجميع الشعوب والقبائل الإسلامية في بوتقة واحدة، في سابقة لها في تجسيد مبدأ المساواة والسواسية والإنسانية، في بلد أقرب ما يكون للسماء، وأبعد ما يكون عن الدنيا ومتاعها.

لقد نجحت مكة نجاحاً باهراً في جعل أبنائها وزوارها يتسابقون إلى الطاعات، ويتقاعدون عن المعاصي والمنكرات، واستطاع هذا المجتمع أن يرسخ قناعة مفادها بأن أي شعب من الشعوب لا يمكنه أن يقطع رحلة الحياة منفرداً ووحيداً، وإنما لطالما احتاج إلى الآخرين.

إن المجتمع الذي يُبنى على أسس راسخة ثابتة ومتينة، يكون أكثر تماسكاً وترابطاً أمام الشدائد والنائبات التي تعصف وتلم به ممن سواه، ولعل هذا التلاحم كان في يوم من أيام تاريخ مكة وراء قيام خلافة عبد الله بن الزبير فيها، ومعاودة أهل مكة له لحقبة تقارب العقد من الزمن. وبالإجمال، فإن فئات المجتمع المكي متعددة، سيحرص البحث على دراستها وفق الآتي:

أولاً: عناصر المجتمع في ولاية مكة المكرمة:

(١) القبائل العربية:

^١ سورة الحج: الآية ٢٨.

لعله من الممكن تقسيم القبائل إلى قسمين متفق عليهما وهما: القبائل العربية المقيمة في المدن والحوضر، كتلك القاطنة في مكة والطائف وغيرهما، والقبائل العربية الرُّحْل ذات الطابع البدوي، والتي اعتادت على التنقل أو الإقامة في ظواهر مكة، وبوادي الطائف وما حولهما.

أ- سكان المدن والحوضر (مكة والطائف):

تمثل هذه القبائل الأرستقراطية العربية، وهي في نظر الجميع أو الأغلبية، ذات المكانة المرموقة، وصاحبة الحسب والنسب والشرف على ما سواها من القبائل، ولعل من أشهرها في مكة قبيلة قريش، وفي الطائف قبيلة ثقيف، والبداية مع قريش.

كانت قريش تفتخر بنسبها فخراً كبيراً قبل الإسلام، وازداد فخرها أكثر عندما خرج من بين ظهرانيها رسول الله محمد ﷺ، ونزل القرآن بلسانها وبيانها، فزادها ذلك عزاً وفخراً في الإسلام. اتصل بنسب قريش فيما قبل الإسلام، ووصل الإسلام عشرة رهط من عشرة أبطن وهم: هاشم، أمية، نوفل، عبد الدار، أسد، تيم، مخزوم، عدي، جمح، وسهم^١، وأضاف بعضهم بنو زهرة^٢. وفي تقسيم آخر عمد النسابون إلى التمييز بين بطنين في قريش؛ قريش البطاح القاطنة بين أخشي مكة وداخل شعبها، وقريش الظواهر خارج شعب مكة^٣. وبما أن قوة قريش كانت في تجمعها، فما الذي دفعها إلى التفرق بعد التجمع؟

يمكن للبحث الإجابة عن هذا السؤال انطلاقاً من ثلاثة أمور:

الأمر الأول: العامل الجغرافي فرض واقعه على قريش فقسمها شطرين، ولطالما كان لهذا العامل أهمية كبيرة في العديد من الأحداث، والتي غيّرت مجرى التاريخ.

^١ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٣ ص ٢٦١. ابن سعيد: (علي بن موسى) نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق: نصرت عبد الرحمن، عمان، مكتبة الأقصى، د. ت. ص ٣٢٦. العلي: الحجاز ص ٥٦١.

^٢ ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٤. الزركلي: الأعلام ج ٣ ص ٥١.

^٣ السمعاني: الأنساب ج ٤ ص ٤٨٥. ابن منظور: لسان العرب، مادة بطح، ج ٢ ص ٤١٢. الحِمَيزي: الروض المعطار ص ٧. الشريف: مكة والمدينة ص ١٠٨. كحالة: (عمر رضا) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥، ط ٥، ج ٣ ص ٩٤٨. العلي: الحجاز ص ٥٦١. الزركلي: الأعلام ج ٥ ص ١٩٥.

الأمر الثاني:ربما يتعلق بالمكانة الاجتماعية لبعض البطون, وتفاضلها فيما بينها على من سواها, وهذا التفاوت الاجتماعي دفع أصحاب المنزلة من البطون للسكن في البطاح, ودفع من كان دونهم للخروج إلى الظواهر.^١

الأمر الثالث: فلعله كان له أعظم الأثر, وذلك لتأثيره المباشر على حياة جميع البطون, وهو الحاجة الاقتصادية والنشاط الاقتصادي لكل شطر على حدة, أي أن ثمة بطون من قريش كانت تفضل حياة الظواهر, حيث مارست نشاطها في تربية الحيوانات وإنتاج المشتقات وغير ذلك منها, كما أن هناك بطون أحببت السكن في بطحاء مكة فمارست النشاط التجاري, فالمصلحة الاقتصادية لكل منهما شغلت دوراً رئيسياً في ذلك الانقسام.

وثمة أمر آخر من الممكن إضافته لما سلف, وإن كان لا يخرج عن سياقها الجغرافي والاجتماعي والاقتصادي, وهو أن اقتسام البلاد بين تلك القبائل كان قد تم من قبل قصي بن كلاب^٢ قبل الإسلام, والذي يبدو أنه كان على دراية كافية للقيام بهذا الإجراء, بعد أن توفرت له معطيات وأسباب مقنعة.

وقبل الانتقال للحديث عن قبائل الطائف, لابد من التنويه أن ثمة قبائل من قريش لم ينسبوا لا إلى قريش البطاح, ولا إلى قريش الظواهر, وهم بنو سامة بن لؤي وبنو عوف بن لؤي^٣, ويبدو أنه لم يكن بمكة منهم أحد^٤, فقد روي أنهم أقاموا بالطائف متخذين الأموال والمزارع^٥, ولما جاء الإسلام انتقل من أراد منهم إلى مكة وغيرها من البلاد, وبطل ذلك الحكم الذي كان قبل الإسلام.^٦

^١البلاذري:أنساب الأشراف ج١ص٥٩.الفاسي: شفاء الغرام ج٢ص١٠٠.كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ ص٣٥.

^٢الزيري: نسب قريش ص١٣. ابن سعيد: نشوة الطرب ص٣٢٦. كحالة: معجم قبائل العرب ج٣ص٩٤٨. مؤنس: تاريخ قريش ص٩٩. البلادي: معجم قبائل الحجاز, د. م. ن, ١٣٧٨ هـ ج٣ص٣٩٥.

^٣ ابن حجر: فتح الباري ج٥ص٣٣٨. الحميري: الروض المعطار ص٧.

^٤ ابن حجر: فتح الباري ج٥ص٣٣٨.

^٥الأفغاني: (سعيد) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام, دمشق, المطبعة الهاشمية, ١٩٣٧ م, ص٨٠.

^٦ ابن سعيد: نشوة الطرب ص٣٦٩.

أما قبيلة ثقيف فقد اختلف النسابون في تحديد أصلها، ولهم في ذلك عدة أقوال^١، ليس البحث بصدد ذكرها. وإلى جانب ثقيف سكنت الطائف جماعة من حمير، وقوم من قريش، فالحميريون من أزد السراة، والقرشيون من كنانة وعُدرة، كما سكنها جماعة من هوازن والأوس والخزرج ومزينة وجهينة^٢، أضف إلى ذلك بني هلال وغوث وهذيل^٣، كما كان في الطائف جماعة من اليهود أقاموا فيها للتجارة، وسكنها قوم من الروم وبعض النصارى أيضاً^٤. لقد حوت الطائف مزيجاً غريباً من السكان، ولعل ذلك مرده إلى جَوْها المعتدل، ونشاطاتها الاقتصادية المتعددة، وقرىها من مكة المكرمة، أضف إلى ذلك المجتمع الطائفي المتحضر، والذي رَغِب الكثيرين بالإقامة فيه.

ب- سكان البوادي (البدو الرُّحَّل):

تمثل عدداً كبيراً من العرب الذين احتفظوا بأصالة تقاليدهم وأنفسهم، وما من شك أن مجتمع الرُّحَّل وقع تهميشه اتكالا على أعيان المدن وأنصارهم، أي على الطرف الذي استفاد أكثر من غيره من المغام، وأصبح يمتلك الأراضي الشاسعة، ويروج في التجارة أموالاً طائلة، كما اصطدمت تلك القبائل أحياناً مع الأمويين، حين أرسلوا لهم ولادة ليحكموهم من بلاد أخرى لا صلة لهم بها، وهم من طبيعتهم أن يختاروا شيوخ قبائلهم بحرية.^٥

^١ ابن الكلبي: جمهرة النسب، ص ٣٨٥. البلاذري: أنساب الأشراف ج ١ ص ٢٩-٣٠. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٢٦٦. السمعاني: الأنساب ج ١ ص ٥٠٨-٥٠٩. علي: (جواد) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٠م، ط ١، ج ٤ ص ١٤٩. سالم: (عبد العزيز) تاريخ الدولة العربية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٦م، ص ٢٧١. العبيدي: الطائف ص ٥٠. ص ٣١.

^٢ القثامي: تاريخ الطائف ص ٤٤. البلاذري: معجم المعالم الجغرافية ص ٣٣٢. سالم: تاريخ الدولة العربية ص ٢٧٢. زُكَّار وخربوطلي: تاريخ الجزيرة العربية القديم ص ٢٥١.

^٣ القثامي: تاريخ الطائف ص ٤٤. زُكَّار وخربوطلي: تاريخ الجزيرة العربية القديم ص ٢٥١.

Lammens, H: La Cité Arabe de Taif à La Veille del Hegire, Byrouth, 1922, P.12.

^٤ العبيدي: الطائف ص ٥٧. سالم: تاريخ الدولة العربية ص ٢٧٣.

^٥ حركات: (إبراهيم) السياسة والمجتمع في العصر الأموي، المغرب، دار الآفاق الجديدة، ١٩٩٠م، ط ١، ص ١٣٢.

وأفراد تلك القبائل لم يسافروا إلى جبهتي العراق أو الشام، ولم يشتركوا في الجهاد جنداً محاربين، فاستقروا في البادية، يحيون حياة تشبه حياة ما قبل الإسلام في بداوتها، وكانوا مستائين من وضعهم، فهم لم يفوزوا بما كانوا ينتظرون من تمتع بثمرات الحياة الجديدة، ولم يخدموا الأشراف لأن الموالي قاموا بذلك، فظلّوا فقراء محرومين يقومون بفروض الإسلام، دون أن يفيدوا شيئاً مادياً، لإبعادهم عن ميدان السياسة وإهمالهم.^١

وأمام التعتن الأموي هذا، لم يكن أمام قسم من الأعراب إلا أن يذهبوا إلى ابن الزبير ليقاتلوا معه، إعظماً للبيت وحرمة، وتلملاً من الحكم الأموي والذي لم ينصفهم، بل وحرّمهم من حقوقهم، فحاولوا نصره ابن الزبير بحجة حماية البيت، إلا أن هذا الأخير صدّهم وطردهم بأقسى العبارات، مع العلم أنه كان في أحوج لحظاته إليهم.

وبين القبائل وأهل مكة يبدو أن علاقات اقتصادية قامت بين الطرفين، فأمن أهل مكة للقبائل القاطنة حولهم ما يحتاجونه من مصنوعات وأدوات ومستلزمات العيش في ظواهر مكة وجبالها وشعابها، كما أمنت تلك القبائل لهم المنتجات الحيوانية، بالإضافة إلى الخيل والإبل والماشية وغيرها مما يلزم العملية التجارية. هذا فيما يتعلق بالقبائل القاطنة بوادي مكة وظواهرها. أما قبائل بادية الطائف فهي قبائل بادية مكة بمعظمها، أي أنها تمتد على الطريق الواصلة بين المدينتين على ما يبدو.

وعلى العموم سواء كانت القبائل حضرية أو بدوية، فإنها لطالما تفاخرت بحسبها ونسبها، ورفعت رأسها بأبنائها وشيوخها. ويبدو أن العلاقات الاجتماعية الخارجية كانت أقوى فيما بين القبائل الحضرية أو القبائل البدوية، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ، فالتجانس أكبر بين القبائل (البدوية - البدوية) أو (الحضرية - الحضرية). ولعل ما يؤكد الرأي السالف علاقات المصاهرة التي قامت بين أهل مكة وأهل الطائف، حيث اختلطوا ببعضهم البعض^٢، فعلى سبيل المثال؛ هناك الكثير من

^١ أبو النصر: الأيام الأخيرة للدولة الأموية، بيروت، المكتبة الأهلية، ١٩٦٢م، ط ١، ص ٣٥٣.

^٢ العبيدي: الطائف ص ٢٦.

الثقفيين كانوا متزوجين بقرشيات، والكثير من رجالات قريش كانوا متزوجين بثقفيات^١، وينطبق هذا الكلام على معظم القبائل القاطنة بين مكة والطائف.

وتتويجاً لهذه العلاقة الاجتماعية المميزة بين مكة والطائف قالت العرب: "مكة من الطائف والطائف من مكة"^٢، على الرغم من اختلاف طباع وأعمال أهل الطائف، عن طباع وأعمال أهل مكة، نتيجة الجو المعتدل للأولى، والجو الحار للثانية، إلا أن ذلك لم يفسد للودّ بينهما قضية.

٢) الموالي والرقيق والجواري:

معظمهم من العناصر الغير عربية والغير أحرار، على نقيض القبائل العربية بشقيها، والذين عدّوا أنفسهم أحراراً، وعلى الرغم من تحرر بعض الموالي والرقيق والجواري أو عتقهم حيث أصبح أمرهم بيدهم، إلا أن الصبغة الاجتماعية العامة، والنظرة السائدة تجاههم، ركزت على أنهم غير أحرار، فهم رهائن غيرهم، ومملوكين للأشراف والأغنياء، يبيعونهم ويشترونهم مثل أي سلعة أخرى.

فالموالي صنفان: الأول عبيد حرّهم أسيادهم، وأصبحوا موالي شخصيين لهم وهؤلاء قلة، والصنف الثاني مسلمون أحرار أرادوا أن يكون لهم مكان في المخطط الاجتماعي، ولما كان المجتمع العربي يلتفت إلى النسب ويتألف من وحدات قبلية، فإن مجموعات الموالي حالفت قبائل عربية، ودخلت بذلك في ولائها لقاء منافع متبادلة، حيث أسهم الموالي في دفع الديات، كما أنهم شاركوا بالقتال إلى جانب القبيلة التي أعلنوا ولاؤهم لها^٣. ومما سلف يمكن للمرء أن يصل إلى نتيجتين وهما:

الأولى أن الموالي هم المسلمون من غير العرب^٤، وهذا التعريف أصبح السائد والأنسب لهم ولاسيما في حقبة الدولة الأموية. **والنتيجة الثانية** أن ثمة دور كبير شغله الموالي، ويبدو أنه كان يُحسب لهم حساباً في الحياة السياسية. فهاهم ذا يشتركون في المعارك؛ كمعركة الحرة عام ٦٤ هـ / ٦٨٣ م، كما كان لهم دوراً خلال خلافة عبد الله بن الزبير في مكة، حيث اشترك الموالي في المعركة التي قامت بينه

^١ العبيدي: المرجع المتقدم ص ٤٤-٤٥.

^٢ المرجع نفسه ص ٤٤.

^٣ الدوري (عبد العزيز): مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، بيروت، ١٩٦٨ م، ص ٤١.

^٤ فروخ: (عمر) العرب في حضارتهم وثقافتهم، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨١ م، ط ٢، ص ١٧٣.

وبين الأمويين^١, حتى أن الإماء كانت تقاتل مع ابن الزبير, فقد روي أنه كان للسائب بن أبي السائب أمة نوبية يقال لها سلامة, وكانت تقاتل أيام ابن الزبير جيش الحصين مع مولاها أشد قتال, وقد روي أنه قدم على ابن الزبير حبشان من أرض الحبشة ليقاتلوا معه يرمون بالمزاريق^٢, فقدمهم لأهل الشام, فجعلوا يرمون بمزاريقهم, فلا يقع لهم مزراق إلا في رجل, فقتلوا من أهل الشام قتلى كثير, ثم حمل عليهم أهل الشام حملة واحدة فانكشفوا^٣. أي أن الموالي وقفوا مع ابن الزبير ضد الأمويين, ولكن لماذا؟

كان في تولي ابن الزبير الخلافة في مكة وقع سرور عظيم لجموع الموالي, فلقد طال انتظارهم لمن يأتي ويقضي لهم على الأمويين, كونهم أهملوهم وعدّوهم دون مرتبة العرب في الشرف والرياسة, لقد بدا لهم أن الدولة الأموية تشكل عقبة كآداء - أمام حقوقهم - إذا ما استمرت في سلطاتها, خاصة أمام تعصبها للعرب والعروبة, ولعل من هذا المنطلق يمكن أن يُفسر وإلى حد كبير موقفهم المبدئي في مساندة ابن الزبير. ولكن السؤال الآن هنا: هل كان ابن الزبير مقدراً لوقفه الموالي معه, أم كان شأنه معهم كما كان شأن الأمويين معهم؟ أم أنه ما خشي الموالي من حدوثه قد حدث؟

بعد أن نجح ابن الزبير في التصدي للخطر الأموي - بمساعدة الموالي - لم يتبع سياسة مشجعة لإقبال الموالي عليه, إذ وقف منهم موقفاً عدائياً, فكان يقرب العرب وينصرهم على الموالي, وكان شحّه بالأموال, وتضييقه عليهم في العطاء والرزق والصلوات, وراء شكواهم منه وتحليلهم عنه^٤.

لقد ضاع حلم الموالي بالمساواة في خلافة ابن الزبير, عندما تخلى عنهم, وقدم عليهم أشراف العرب, والذي كان حريصاً على كسب ودّهم, ولو كان ذلك على حساب الموالي. ولكن ما هي النتيجة المتوقعة لهذا التصرف؟

^١ العظم: (أسيمة) المجتمع في العصر الأموي, بيروت, دار العلم للملايين, ١٩٩٦م, ط ١, ص ٤٤.

^٢ المزاريق: جمع مزراق وهو الرمح القصير, انظر: ابن منظور: لسان العرب, مادة زرق, ج ١٠ ص ١٣٩.

^٣ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ٢٣٤.

^٤ المقداد: (محمود) الموالي ونظام الولاء بين الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي, دمشق, دار الفكر, ١٩٨٨م, ط ١, ص ٢٩٠.

يبدو أن النتيجة لم تكن مفاجئة أو غير متوقعة لهم، حيث أوقف الموالي دعمهم لابن الزبير، ولعل إيقاف هذا الدعم، بل ومعاداتهم له كان أحد أسباب سقوط خلافة عبد الله بن الزبير وزوال ملكه. لقد اتخذ عدد من الموالي في الحجاز موقفاً غير مبال من الصراع بين الأمويين من جهة، والمختار وابن الزبير من جهة أخرى، نتيجة الإحباط الذي لقوه على يد ابن الزبير.

لقد استفاد الأمويون استفادة عظيمة من تخلي الموالي عن ابن الزبير، وبالوقت نفسه بدأ بعض الخلفاء منهم بالتخلي عن روح التعالي والتكبر تجاههم، في محاولة لفتح صفحة جديدة بينهما. ففي زمن عمر بن عبد العزيز قرر - رحمه الله - إنصاف مقاتلة الموالي، ضمن إطار سياسته للتأكيد على وحدة عناصر الأمة في الإسلام.^١

وعلى العموم، ربما لا يمكن تحميل الخلفاء الأمويين المسؤولية الكاملة عن إقصاء الموالي وإهمال مطالبهم، بل إن القبائل أنفسها اشتركت في هذه المسؤولية، فلم يرضوا مساواتهم بالموالي بالعتاء، كما نظروا نظرة أشبه ما تكون بالوضيعة للموالي؛ كونهم عبيد وأرقاء أو مملوكين، وهذا الكلام ليس له بالإسلام أصل، ومرفوض جملة وتفصيلاً، إلا أن التمايز بقي موجود، ودفع الأمويون ثمنه بعد مدة قصيرة، وكان الثمن باهظاً كلفهم زوال ملكهم في الشرق إلى غير رجعة.

إلا أن مما يثير الدهشة بعد كل ما سلف، ما ذهب إليه البعض في تأكيدهم على ارتقاء مكانة الموالي في العصر الأموي إلى أعلى المناصب، وبلوغهم درجة رفيعة جداً أهّلتهم لأن يتناولوا على العرب تناولاً ذريعاً ويتحدوا سلطانهم^٢. ولكن كيف؟ وما هي المناصب التي تحدوا بها العرب؟

وفق الروايات لقد كان جلّ كتاب الدواوين في الدولة من الموالي، ومعظم حجاب الخلفاء والأمراء والولاة وعظماء الدولة في العصر الأموي من الموالي أيضاً^٣، كما أن معظم الفقهاء والعلماء في مكة - محور البحث - من الموالي أمثال عطاء بن أبي رباح؛ الذي ساد مكة بالديانة والرواية^٤،

^١ الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي ص ٤٢.

^٢ المقداد: الموالي ص ١٩٨.

^٣ الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي ص ٤٣. المقداد: الموالي ص ١٩٩.

^٤ ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٢١.

ومجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وسليمان بن يسار وغيرهم^١. لقد كان الموالي يعيشون مع العرب جنباً إلى جنب في الحياة الاجتماعية العامة، وهم يتمتعون بالحرية والمساواة، والحق في التقدم والارتقاء، بقدر ما يتمتعون به من مواهب وكفاءات^٢.

وبعد ومن خلال وجهتي النظر السالفتي الذكر، وللتين يمكن أن تبدوان على طرفي نقيض، يمكن للمرء القول بأنه لا يمكن رفض ما سلف، فكلّاً منهما لديهما ما يسوغهما، وباختصار يمكن القول بأن مكانة الموالي في العصر الأموي، تراجعت مقارنة مع مكانتهم في حقبة صدر الإسلام، أيام عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ﷺ ولا أحد يمكن أن ينكر تعصب الأمويين للعرب، لدرجة وصلت الأمور عندهم إذا لم يكن الأمير منهم عربي الأم والأب لا يمكن له أن يصبح خليفة، حتى ولو كان فارساً من الطراز الأول كحال مسلمة بن عبد الملك، وإن كان الأمويون قد سلّموا بعض المناصب للموالي، فلكسب ودّهم مع الحذر منهم في أن يصلوا إلى مناصب قيادية أو إدارية حساسة في الدولة.

أما الرقيق، فإن جوهر الإسلام اتجه إلى تحريرهم، وحسن معاملة الرقيق والعطف عليهم، بل وحتى عدم إرهابهم وتحميلهم فوق طاقتهم، كما حبّب إلى المالكين والأغنياء عتق الرقاب، جاعلاً هذا العتق - كما ورد في القرآن الكريم - وسيلة للتكفير عن ذنوبهم وخطاياهم، وزيادة رصيدهم من الحسنات على حدّ سواء. ولعل هذا التصرف من شأنه أن يزيد المودّة داخل المجتمع الإسلامي.

ومن الناحية الاقتصادية، فقد قدّم الرقيق خدماتهم في مجالات كثيرة، منها الكتابة والمشاركة في الحروب والزراعة^٣ والتجارة والرعي والسقي، ولعل من أولويات خدماتهم الخدمة في البيوت لإعداد الطعام والشراب^٤، إلا أن الخدمة في البيوت كانت تقتصر في معظم الأحيان على الإماء والجواري، إلا في حالات خاصة، ولاشك أن الرقيق كانوا يختلفون في نوع الأعمال التي كانوا يحسنون القيام

^١ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٣ ص ٣٢٤.

^٢ المقداد: الموالي ص ٢٠١.

^٣ العظم: المجتمع في العصر الأموي ص ٣٨.

^٤ ضيف: العصر الإسلامي ص ١٤٦.

بها، ولا بد أن ذلك قد أخذ بعين الاعتبار عندما تم الانتفاع بهم، وكان لهم في العصر الأموي ديواناً خاصاً بهم ينظر في شؤونهم.^١

وإن وجود ديوان^٢ خاص بهم، يمكن أن يعد مؤشراً للعديد من الأمور منها: أهمية وجودهم في المجتمع، كثرتهم العددية، وبالتالي الحاجة إلى إحصائهم بشكل مستمر، ولا يخلو الأمر من رغبة الدولة الأموية بمراقبتهم ومعرفة نواياهم. ولكن ما هي مصادر الحصول على الرقيق، وهل كان للخلفاء الأمويين أيادٍ بيضاء في إعتاق بعض منهم؟

مع امتداد الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي، وما رافقها من السبي والأسرى، أدى ذلك إلى كثرة الرقيق^٣، فابن الزبير مثلاً كان يفتني العبيد حتى قيل أنه كان له مئة غلام يتكلم كل غلام منهم بلغة^٤، وكان الأسرى إما أن يُقتلوا، أو يُمن عليهم بالعفو، أو يُفادى بهم على مال، أو أسرى مسلمين، أو يسترقوا^٥. وثمة مصدر آخر للحصول على الرقيق، وهو حالات الفقر والعجز عن وفاء الديون وغيرها^٦. ويبدو أن الخليفة سليمان بن عبد الملك شعر بتضخم طبقة العبيد، حتى أصبحت تعد بمئات الألوف، وقد نُسب إليه أنه أعتق في يوم واحد سبعين ألفاً من العبيد.^٧

كانت معاملة الرقيق في العصر الأموي سيئة، فبعد أن كانوا يحظون مع الموالى بالتكريم في صدر الإسلام، صارت الرقيق في أدنى السلم الاجتماعي في العصر الأموي، لما كانت تعانيه في البيوت والمزارع من الأعمال الشاقة.^٨

أما الجواري فقد دخلت المجتمع العربي عن طريق الأسرة، وكانت توجد أسواق خاصة لبيع

^١ بطاينة: (محمد) الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام، المدينة المنورة، دار التراث، ١٩٨٨م، ط ١، ص ١٢٣.

^٢ الدِّيوانُ: مُجْتَمَع الصُّحُفِ؛ وَهُوَ فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، فصل الدال، ج ١٣ ص ١٦٦.

^٣ العظم: المجتمع في العصر الأموي ص ٤٤. فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ١٧٦.

^٤ العش: الدولة الأموية ص ٢٠٤.

^٥ بطاينة: الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام ص ١٢١.

^٦ بطاينة: المرجع المتقدم ص ١١٧.

^٧ العظم: المجتمع في العصر الأموي ص ٤٤. حركات: السياسة والمجتمع ص ٢١٩.

^٨ حركات: المرجع المتقدم ص ٢١٨.

الرقيق ذكوراً وإناثاً^١، كما وجدت الجوّاري من كل الجنسيات^٢، ولقد كان عمل الجوّاري الرئيسي الخدمة في البيوت^٣. ويبدو أنه كان للجوّاري دوراً رئيسياً في خلق أجواء العبث والفسق واللهو والغناء في ولاية مكة، كونها أتت من أرض قوم - مثل الفرس والروم - قد اعتادوا على ذلك، وتلك الأقوام تختلف اختلافاً كبيراً في نظمها عن بلاد المسلمين، حيث تسود الفوضى والفساد في أحوالها الاجتماعية.

وبما أن الجوّاري انغمسوا في أجواء الغناء واللهو، يبدو أن بعضهن أخذن يتذوقن الشعر، ويفتقدن موت شاعر أو فراقه. ولعل خير دليل على ذلك؛ أنه كانت مولدة من مولدات مكة، حبشية ظريفة لبعض بني مروان، وحالما سمعت خبر موت عمر بن أبي ربيعة المخزومي اشتد جزعها، وجعلت تبكي عليه وهي تقول: "من لمكة وشعابها وأباطحها ونزهها، ووصف نساءها وحسنهن وجمالهن، ووصف ما فيها"، فقليل لها أن خففي عليك، فقد نشأ فتى يدعى العرجي^٤، يأخذ مأخذه ويسلك مسلكه، فقالت: "أنشدوني من شعره" فأنشدوها، فمسحت عينيها وضحكت وقالت: "سرّيتم والله عني، الحمد لله الذي لم يضيع حرمه"^٥. ولعل شهرة بعض الجوّاري في مكة دفع بعض الخلفاء الأمويين إلى قصدها، فهذا هو ذا يزيد بن عبد الملك، وحالما قدم مكة اشترى الجارية سلامة القس^٦.

^١ حركات: السياسة والمجتمع ص ٢١٩.

^٢ حركات: المرجع المتقدم ص ٢٢٠.

^٣ بطاينة: الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام ص ١٢٣.

^٤ عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان، نُسب إلى عرج الطائف. انظر: السمعاني: الأنساب ج ١ ص ٢٩.

ابن الكلبي: جمهرة النسب، ص ٣٨٦. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٢٦٦.

^٥ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٦٤. الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ٣٧٢.

^٦ الأصفهاني: الأغاني ج ٨ ص ٣٥٣. والقس هو عبد الرحمن بن أبي عمار من بني جشم بن معاوية، وكان منزله بمكة، كان من أعبد أهل مكة وكان يشبهه بعباءة بن أبي رباح، سمع غناء سلامة على غير تعمد فبلغ منه كل مبلغ. انظر: الأصفهاني: الأغاني ج ٨ ص ٣٤٨. ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٦ ص ١٨. شيخاني: (سمير) أشهر المغنيين عند العرب، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٢م، ص ٦١.

٣) أهل الذمة (غير المسلمين):

أتباع الديانات السماوية المنزلة إلى جانب المجوس، تمتعوا بحرية واسعة في ممارسة شعائرهم وطقوسهم الدينية، وارتبطت قضاياهم حتى في الأمور المدنية والجنائية برؤسائهم الروحيين.

وتوثقت علاقات المصاهرة بين أهل الذمة والمسلمين، فميسون بنت بحدل زوجة معاوية بن أبي سفيان كانت نصرانية، وخالد بن عبد الله القسري -الوالي الأموي الشهير لمكة- كانت أمه نصرانية، وقد ابنتى لها كنيسة تتعبد فيها، كما أن بعض الشعراء المسيحيين تمتعوا بالتقرب من الخلفاء كالأخطل، حتى أصبحوا من شعراء البلاط الأموي، واستعمل الأمويون الأطباء من المسيحيين واليهود، وأقننهم على أعز ما لديهم وهي حياتهم.

ويبدو أن ثمة تناغم كان بين الأمويين وأهل الذمة، فكلاهما ارتقى بالعلاقة مع الآخر من باب المصالح أولاً وأخيراً، وأقصى الأمويون أهل الذمة عن المناصب القيادية في الدولة، كون الإسلام هو العمود الفقري للدولة الأموية، فيما سمحوا لهم بالتواجد -تحت رقابتهم- في بعض الوظائف المختلفة، حيث استعانوا بهم في الشؤون المالية والإدارية، فانصرفوا للفعاليات الاقتصادية السلمية، سواءً منها المالية أو المهنية.^١

ولقد قطن قوم منهم ولاية مكة، ووجد قوم من اليهود في الطائف كانوا قد طردوا من اليمن والمدينة، فقصدوا الطائف وأقاموا بها للتجارة، فوضعت عليهم الدولة العربية الإسلامية الجزية^٢، ومن هؤلاء اليهود يروى أن معاوية ابتاع أمواله بالطائف^٣، ويبدو أن أهل الذمة كانوا يفضلون المجتمع الحضري أكثر من المجتمع البدوي، فالمجتمع الطائفي مجتمع متحضر بطبيعته، كونه مجتمع زراعي وصناعي ومدني منذ البدء، وهو أقرب لاهتماماتهم ووظائفهم، ولطالما كان للمجتمعات المستقرة فنونها وإبداعاتها المتميزة، ولطالما كانت محط أنظار الجميع.

^١ الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي ص ١٤١. فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ١٧٥.

^٢ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٦٤.

^٣ علي: المفضل ج ٦ ص ٥٣٠.

٤) أصحاب الله والغناء:

أغرم العرب في العصر الأموي بالغناء والموسيقا، فانتسعو في العيش، وتفننوا في أحواله، فبلغوا الغاية في ذلك، وتطوروا بطور الحضارة، فقد كانت تسود في مكة حياة فرح ومرح وطرب وشراب، وتشبيب بالنساء، ومن العجب - كل العجب - أن يفوق هذا الفن في الحجاز مثيله في الشام والعراق، فقد امتلأت مكة وضواحيها بالمغنين والمغنيات^١، حتى قيل أن المجتمع المكي كان مليئاً بالترف والمرح والرقّة^٢، ولعل خير مثال على ذلك ما روي من أن ابن الزبير خطب أهل مكة فقال: "يا أهل مكة بلغني أن رجالاً من قريش يلعبون لعبة يقال لها النَّزْدَشِير^٣، وإن الله ﷻ يقول في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾"، وإني أقسم بالله ﷻ لا أوتى برجل لعب بهذه - اللعبة - إلا عاقبته في شَعْرِهِ وَبَشَرِهِ، وَأَعْطِيْتُ سَلْبَهُ لِمَنْ أَتَانِي بِهِ"^٤.

كما روي أنه كان عدد من فتيان قريش، ومن أشهرهم عبد الحكم^٥ بن عمرو بن صفوان الأموي، قد اتخذ بيتاً في مكة يؤمه الزائرون، فيه شطرنجات ونردات وقرقات^٦ ودفاتر، فيها من كل علم، وجعل في الجدار أوتاداً فمن جاء علّق ثيابه على وتد منها ثم جرّ دفتراً فقرأه، أو بعض ما

^١ أمين: (أحمد) فجر الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٧٩م، ط ١١، ص ١٧٦.

^٢ ضيف: العصر الإسلامي ص ١٤٧.

^٣ وَالنَّزْدُ: شَيْءٌ يُلْعَبُ بِهِ؛ فَارِسِيٌّ مَعْرَبٌ، وَهُوَ النَّزْدَشِير. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نرد، ج ٣ ص ٤٢١.

^٤ سورة المائدة: الآية ٩٠.

^٥ البخاري: الأدب المفرد ج ١ ص ٤٣٥. ابن أبي الدنيا: (أبو بكر عبد الله بن محمد) ذم الملاهي، تحقيق: عمرو عبد المنعم سليم، جدة، مكتبة العلم، ١٤١٦هـ، ط ١، ص ٧٣. البيهقي: سنن البيهقي الكبرى ج ١٠ ص ٢١٦.

^٦ الأصفهاني: الأغاني ج ٤ ص ٢٥٠. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٣٢ ص ٢١٢.

^٧ القرقات جمع قرق، والقرق لعبة للصبيان يخطون في الأرض خطأً ويأخذون حصيات فيصفونها. انظر:

ابن منظور: لسان العرب، مادة قرق، ج ١٠ ص ٣٢٢.

يلعب به مع بعضهم^١, وكان الفقيه سعيد بن جبير إذا مر على أصحاب التَّزْدَشِير لم يُسلم عليهم^٢, أيضاً كان أهل مكة يلعبون بالقرقأو الكرك, ولم يزل حتى كانت سنة عشر ومائتين, وكانوا يلعبون به في كل عيد, وكان لكل حارة من حارات مكة كرك يعرف بهم, يُجمعون له ويلعبون في حارة, ويذهب الناس فينظرون إليه في تلك المواضع إلى الثنية^٣ وإلى قعيقعان وإلى أجيادين وإلى فاضح وإلى المعللة وإلى المسفلة, فكان ذلك من لعبهم يلعبون به في كل عيد, فأقاموا على ذلك, ثم تركوه زماناً طويلاً لا يلعبون به, حتى كان في سنة اثنتين وخمسين ومائتين^٤, والسؤال الذي يطرح نفسه؛ ما سبب كثرة المغنين بمكة؟ وما هو سبب ازدهار حياة اللهو والمجون فيها؟

يبدو أن ثمة عوامل تضافرت, وهيات الأجواء لذلك لعل أهمها:

- كان بالحجاز أرستقراطية العرب, وهم العنصر الفاتح, وقد نال هؤلاء الأرستقراطيون خير الجواري وأرفعهن نسباً, وأكثرهن تأديباً, فنقلن ذلك اللهو إلى الحجاز .
- قد تكون العلة أن البدو إذا تحضروا, وبسط لهم في العيش, أسرفوا في اللهو, شأن كثير ممن غني بعد حرمان وشطف.
- توافر الثراء والترَف°, حيث توضحت رغبة الأمويين بحجب السياسة عن بطون قريش, بحيث لا يتعدونها إلى مكان آخر, وكانوا يبذلون لهم الأموال الطائلة, فانصرف فتيان الحجاز بما لهم من مال وفير, وجاه عزيز وعطيات سنوية عن الإمارة والخلافة والسياسة إلى اللهو, فكان الظرف, وكان الغناء, وكان الشراب, وكان المجون.^٥

^١ حتي: (فيليب وآخرون) تاريخ العرب, بيروت دار غندور, ١٩٩٠م, ط ٨, ص ٣٠١-٣٠٢.

^٢ ابن قدامة: المغني, دار القاهرة, ١٩٦٨م, ج ١٠ ص ١٥١.

^٣ الثنية في الأصل: الطريق بين جبلين. انظر: قلعي وفنيي: معجم لغة الفقهاء ص ١٥٤.

^٤ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٣٣-٣٤.

^٥ الهادي: (صلاح الدين) اتجاهات الشعر في العصر الأموي, القاهرة, مكتبة الخانجي, ١٩٨٦م, ط ١, ص ٥٧.

^٦ أمين: فجر الإسلام ص ١٧٨-١٧٩. العظم: المجتمع في العصر الأموي ص ١١٩. السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٢.

● الفراغ الذي كان -ومازال- من مقومات حياة الترف واللهو، والذي اصطبغت به حياة مكة الاجتماعية أيام بني أمية، حيث انصرفوا إلى سماع الأغاني، واقتناء الجواري والقيان، لملاً فراغهم، وكان فن الغناء والموسيقا قد ارتقى في هذا العصر، عن طريق الأسرى الذين حملوا معهم في جملة ما حملوا موسيقاهم وفنونهم الغنائية، فكثر عدد الموالي المشتغلين بهذا الفن^١، وإن اختلاط العرب بالشعوب الأجنبية، كان له أثراً كبيراً في حياتهم الاجتماعية، فرقت الأمزجة ورهفت الأذواق^٢.

● وجود الكعبة المشرفة في مكة، دفع الكثيرين للسفر إليها وبحجة كأداء فريضة الحج، فتحت هذه المواسم أبواب اللهو للشباب في ذلك العصر، فكانوا تحت شعار العبادة يعبثون، ومن وراء حجب الورع يهتكون^٣.

● توافر المحفيزات في الطائف، فيألى جانب الهواء اللطيف، والمناخ المعتدل، ثمة الفواكه المتنوعة والشهية، مما دفع أشراف مكة لقصدها أيام الصيف، وبهذا المعنى فقد أسهمت الطائف بقسط وافر من اللهو والغناء، فأدمن بعض أهلها على الشرب كالعرجي^٤.

وربما يمكن لحد كبير عدّ تغير نوعية التركيب السكاني لولاية مكة عامة، أحد الأسباب الرئيسية في خلق هذا الجو، فكثرة الوافدين عليها ومعهم ما معهم من عاداتهم وتقاليدهم، لها أكبر الأثر على مجتمعاتها.

إن القول بأن خلفاء بني أمية -وحدهم- أرادوا صرف أهل مكة إلى اللهو، هو قول لا يستند إلى دليل، ولا يتوافق مع الحقائق التاريخية، ولا مع تلك الأخبار التي تكاد تُجمع على التأكيد بأن أولئك الخلفاء وولاتهم كانوا يؤدبون المنحرفين، ويأخذون على أيدي العابثين، ويرسلون الألوفا إلى ميادين الجهاد، حتى الشعراء الذي يمكن أن يكونوا من أقرب فئات المجتمع إلى اللهو، كانوا يخرجون إلى الجهاد، كما فعل العرجي عندما خرج تحت راية مسلمة بن عبد الملك إلى أرض الروم، وكان له

^١ أبو النصر: الأيام الأخيرة ص ٣٥٣.

^٢ العظم: المجتمع في العصر الأموي ص ٧٥.

^٣ العظم: المجتمع في العصر الأموي ص ١٢٥.

^٤ العظم: المرجع المتقدم ص ١٢٤-١٢٥.

بلاء حسن ونفقة كثيرة، ولو أن الحكام كانوا يريدونهم أن يحيوا حياة عابثة لاهية، لما دفعوا بهم إلى ميادين القتال.^١

فثمة مبالغة واضحة، وتجنّي مسيس، يقصد منه الإساءة إلى المكيين والأمويين، والأمويين خاصة، لاسيما إذا ما عرف المرء بأن التاريخ الأموي بمعظمه، كان قد كتب في العصر العباسي، وبين الأمويين والعباسيين عداوة لا تخفى على أحد. إلا أنه ثمة نقطة يجب الإشارة إليها، وهي أن معظم أصحاب الغناء كانوا من الموالي، ولم يكونوا من القرشيين أو الثقفيين، وفيما يلي سيعرض البحث أشهر أسماء المغنيين في مكة خلال العصر الأموي:

١. ابن مسجح (ت ٨٥هـ/٧٠٤م):

اسمه سعيد بن مسجح، مولى بني جمح، أبو عثمان^٢ وقيل أبو عيسى، كان أسود من أهل مكة، ملحن من كبار المغنين، وأول من غنى بمكة الغناء المتقن^٣، لما احترقت الكعبة وأتى ابن الزبير بعمال من الفرس ليعيدوا بناءها، كانوا أثناء عملهم في البناء يتغنون بالفارسية، فاشتق ابن مسجح من غنائهم مذهباً في الغناء قلده فيه الغناء الفارسي في شعر عربي^٤، ثم رحل إلى الشام فأخذ ألحان الروم، وانتقل إلى فارس، فنقل غناءهما إلى غناء العرب^٥، وعاد إلى الحجاز، فأهمل ما لم يستسغه من النبرات والنغم في غنائي الفرس والروم^٦، وجعل لنفسه مذهباً في التلحين صار فيه أستاذاً، وكان

^١ الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٢٥.

^٢ الأصفهاني: الأغاني ج ٣ ص ٢٧٣. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٥ ص ٢٠١٦. الزركلي: الأعلام ج ٣ ص ١٠١.

ووردت في عام ٨٧هـ/٧٠٦م، فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٢٠٤.

^٣ ضيف: العصر الإسلامي ص ١٤٦. السباعي: تاريخ مكة ص ١١٩.

^٤ فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٢٠٤.

^٥ حتي: تاريخ العرب ص ٣٤٠. فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٢٠٤.

^٦ ضيف: العصر الإسلامي ص ١٤٦. فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٢٠٥. السباعي: تاريخ مكة ص ١١٩.

مذهبه هذا ذا تأثير على تطوير الموسيقى العربية في ناحيتها النظرية والعملية^١, وهو أيضا أستاذ الغريز وابن سريج^٢, التاليي الذكر.

ومع أنه كان قليل الأغاني^٣, إلا أن الناس أقبلوا على غنائه يسمعون, وكان بينه وبين مغني المدينة مفاخرة, وفي الوقت نفسه تعاون وثيق^٤, وذاع صيته وانتشر خبره, حتى يروى أنه نعى إلى عبد الملك بن مروان, أن رجلاً أسود بمكة يقال له سعيد بن مسجح أفسد فتيان قريش, وأنفقوا عليه أموالهم, فكتب إلى عامله أن اقبض على ماله وسيّره^٥. ومن المفارقات الطريفة أن عبد الملك بن مروان سمع غنائه دون أن يعرفه فاهتز طرباً, وسأله من يكون, فقال له ابن مسجح: "أنا المظلوم المقبوض ماله, المسير عن وطنه سعيد بن مسجح, قبض مالي عامل الحجاز ونفاني", فتبسم عبد الملك ثم قال له: "قد وضع عذر فتيان قريش في أن ينفقوا عليك أموالهم", وأمنه ووصله, وكتب إلى عامله برد ماله عليه, وألا يعرض له بسوء^٦. فتأثيره كان واضحاً على الغناء بمكة, فلقد احترفه وكان له وقع حتى على الخليفة عبد الملك نفسه, فعفا عنه.

٢. الغريز (ت نحو ١٩٥هـ/٧١٤م):

اسمه عبد الملك, كنيته أبا زيد وقيل أبا مروان, وإنما الغريز لقبه لطراوة وجهه ونضارة شبابه, وقيل لنوحه الغريز الناجح^٧, حيث كان لا يلحقه في الندب والنياحة أحد^٨, سكن مكة, كان حلو

^١ حتي: تاريخ العرب ص ٣٤٠.

^٢ الأصفهاني: الأغاني ج ٣ ص ٢٧٣. العظم: المجتمع في العصر الأموي ص ٧٩-٨٠. ضيف: العصر الإسلامي ص ١٤٦. حركات: السياسة والمجتمع ص ٢١٩. حتي: تاريخ العرب ص ٣٤٠.

^٣ الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٥ ص ١٦٠.

^٤ ضيف: العصر الإسلامي ص ١٤٦.

^٥ الأصفهاني: الأغاني ج ٣ ص ٢٧٩. أمين: فجر الإسلام ص ١٧٧.

^٦ الأصفهاني: الأغاني ج ٣ ص ٢٨١.

^٧ عند موت محمد بن الحنفية كان الغريز مملوكاً عند سكينه بنت الحسين, فأمرته بالنواح عليه. انظر:

الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ٢٥٠.

^٨ ضيف: العصر الإسلامي ص ١٤٦. فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٢٠٦.

الحديث, لطيف المعشر, حسن المظهر, ظريفاً, سريع البديهة, حاضر النكتة, زكي الفؤاد, نبهياً, وكان أحدى المغنيين الذين عاصروه بعد ابن سريج, والذي أخذ عنه الغناء في أول الأمر^١, واستطاع الغريض أن يقلد ابن سريج في الغناء ويجيد, حتى كان من العسير أن يفرق الناقد البصير في الغناء بينهما^٢, كما كان يضرب بالعود^٣.

وأورد البعض أخباراً غريبة, فقد كان الغريض يغني في مواسم الحج, فيحبس الجميع عن تأدية فروض دينهم, إلى أن ينقطع غناؤه عنهم, وربما لهذا السبب يروى أن أحد الأمراء الذين كانوا ولاية على مكة في تلك الحقبة, أمر بنفي جميع المغنين من الحرم, ولما حلت الليلة التي عزم فيها الأمير على إخراج المغنين في غدها من مكة, اجتمع الغريض ومعبد وابن سريج, وعقدوا النية على الاجتماع إلى أبي قبيس, والغناء تلك الليلة, وقرروا أن يُكوا أهل مكة, فاندفع معبد يغني, وتبعه الغريض, وجاء دور ابن سريج, وارتفع صراخ أهل مكة وعويلهم, من كل دار ومنزل, وهددوا بالشغب والحرب, وذهب وفد من الناس إلى الأمير, فالتمسوا إليه أن يعود عن قراره بنفي المغنين, فأجابهم إلى طلبهم^٤.

ويبدو أن الرواية السالفة لا تخلو من المبالغة, وعلى فرض قبولها, فهي تدلل على تذوق أهل مكة للغناء, ومحبتهم لمعشر المغنين أصحاب الألحان والأصوات العذبة. ومن أخبار الغريض مع الدولة الأموية, قول والي مكة الحارث بن خالد المخزومي الشاعر له, وهو يصفه وفنه: "يا غريض, لو لم يكن لي في ولايتي مكة حظ إلا أنت لكان كافياً وافياً, يا غريض, إنما الدنيا زينة, فأزین الزينة ما فرح النفس, ولقد فهم قدر الدنيا على حقيقته من فهم قدر الغناء"^٥. وفي رواية على طرقي نقيض أن الحارث بن خالد المخزومي بعث إلى الغريض فقال له: "لا أرينك في عملي", وكان قبل ذلك يطلبه ويستدعيه فلا يجيبه, فخرج الغريض إلى ناحية الطائف,

^١ الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ١٩٤. شيخاني: أشهر المغنيين عند العرب ص ٥٥.

^٢ فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٢٠٦.

^٣ الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ١٩٤. فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٢٠٦.

^٤ شيخاني: أشهر المغنيين عند العرب ص ٥٦-٥٧.

^٥ الأصفهاني: الأغاني ج ٣ ص ٣٢٤. شيخاني: أشهر المغنيين عند العرب ص ٥٥.

وبلغ ذلك الحارث، فرّق له فردّه، وقال له: "لم كنت تبغضنا، وتهمجر شعرنا، ولا تقربنا"، فقال له الغريص: "كانت هفوة من هفوات، وخطرة من خطرات الشيطان" فعفا عنه.^١

ولعل هذه المودّة نشأت بعد ذاك الخصام، فاعتاد الحارث على سماع الغريص، وقال فيه الحارث ما قد سلف من الكلام الجميل، وكما كان الغريص قريباً من قلب والي مكة، فيبدو أنه كان من المقربين عند الخليفة الوليد بن عبد الملك، ويزيد بن عبد الملك أيضاً. فعندما قدم الوليد مكة، واشتهى أن يذهب إلى الطائف - طلباً للاستجمام وتفقد الأحوال - وودّ بمن يصحبه إلى هناك، على أن يكون خبيراً بها وبأحوالها، فقليل له عليك بعمر بن أبي ربيعة، فأبى الوليد أن يصطحبه، ومازال بالقوم يسألهم عن إنسان خبير بأحوال الطائف ليذهب وإياه، والقوم يشيرون عليه باصطحاب عمر حتى رضي وذهب معهما إلى الطائف الغريص، وقضى الخليفة للغريص جميع حوائجه، بعد أن مشى مع الخليفة^٢. كذلك عندما قدم يزيد بن عبد الملك مكة، بعث إلى الغريص سراً، فأتاه فغناه، فطرب يزيد، وأمر له بجائزة سنّية، وكان قدوم يزيد مكة قبل أن يُستخلف.^٣

ورغم وجود بعض المبالغات بأخبار الغريص كما سلف، إلا أنه لا يستطيع أحد أن يُنكر إصغاء البعض له وتعلقهم به، بيد أنهم لا يعدّون أن يكونوا إلا قلة من معدن آخر، أما جموع الحجاج أو المعتمرين؛ فإنهم أبعد ما يكونوا في تلك اللحظات المباركة عن الدنيا ومتاعها.

مات الغريص بفالج عاجله وهو يُعني كما يقال، وكانت وفاته أيام سليمان أو عمر بن عبد العزيز، والمرجح أيام سليمان لأن الوليد كان قد بعث نافعاً بن علقمة والياً على مكة، فالتجأ الغريص إلى اليمن هرباً من ابن علقمة ونشر ألقانه فيها، حيث كان قد طلبه ولم يجده، ومات الغريص في اليمن، وكان يحنّ لأيام مكة وسحرها، وأبى مغادرة اليمن إلى مكة مسقط رأسه.^٤

^١ الأصفهاني: الأغاني ج ٣ ص ٣٢٢.

^٢ شيخاني: أشهر المغنيين عند العرب ص ٥٨.

^٣ الأصفهاني: الأغاني ج ٢ ص ٣٧٦.

^٤ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٢.

^٥ الأصفهاني: الأغاني ج ٢ ص ٣٩١. شيخاني: أشهر المغنيين عند العرب ص ٥٩.

٣. ابن سريج (ت ٩٨هـ/٧١٦م):

أبو يحيى عبيد الله بن سريج^٢, مولى بني نوفل, وقيل مولى بن الحارث بن عبد المطلب^٣. كان مولده في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه, ومات في خلافة هشام^٤, إلا أنه -على الأرجح- توفي بمرض الجذام في مكة خلال خلافة سليمان بن عبد الملك, أو آخر خلافة الوليد^٥.
عُدَّ ابن سريج من أحسن الناس غناءً, وكان يغني مرتجلاً فيأتي باللحن المبتكر^٦, وكان منقطعاً لعبد الله بن جعفر^٧ ملازماً له^٨, وبعد وفاة ابن جعفر انقطع إلى الحكم بن المطلب أحد بني مخزوم^٩, كان من سادة قريش ووجهها^{١٠}.
أخذ ابن سريج الغناء عن ابن مسجح^{١١}, كما كان من تلاميذ طويس^{١٢} في المدينة^{١٣}, ويعد ابن

-
- ^١ الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ١٩٤. وورد (٢٣-١٠٨هـ/٦٤٤-٧٢٦م) فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٢٠٨.
- ^٢ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٩. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٣٨ ص ١٩٥. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٢٥٥. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٩ ص ٢٧٩. شيخاني: أشهر المغنين عند العرب ص ٥٠.
- ^٣ الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٩ ص ٢٧٩. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ١٩٤.
- ^٤ الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ٢٤٩. فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٢٠٨.
- ^٥ الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ٣٠٨. شيخاني: أشهر المغنين عند العرب ص ٥٠.
- ^٦ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٩. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ١٩٤. فروخ: العرب في حضارتهم ص ٢٠٨.
- ^٧ سيرد ذكره أثناء الحديث عن الشعراء لاحقاً.
- ^٨ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٩. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٢٥٥.
- ^٩ الحكم بن المطلب بن عبد الله بن المطلب بن حنطب بن الحارث بن عبيد القرشي, من أجواد قريش من أهل المدينة, قدم منبج وسكنها مرابطاً إلى أن مات بها. انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ١٥ ص ٣٧.
- ^{١٠} الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ٢٤٦-٢٤٧.
- ^{١١} الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٩ ص ٢٧٩. فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٢٠٨.
- ^{١٢} طويس: أبو الغناء في الإسلام وأول من غنى بالمدينة, وأول من غنى مصحوباً بالآلة الموسيقية المعروفة بالدف.
- انظر: الأصفهاني: الأغاني ج ٤ ص ٢١٩. حتي: تاريخ العرب ص ٣٤٠.
- ^{١٣} ضيف: العصر الإسلامي ١٤٦. حتي: تاريخ العرب ص ٣٤٠. فروخ: العرب في حضارتهم ص ٢٠٨.

سريج أول من ضرب بالعود على الغناء العربي بمكة^١، وذلك أنه رآه مع العجم الذين قدم بهم ابن الزبير لبناء الكعبة، فأعجب أهل مكة غناؤهم، فضرب ابن سريج به فكان أحذق الناس^٢، وهو ممن غنى الغناء المتقن، وأول من غنى بالحجاز بعد طويس^٣، كما قال بعضهم: "إن أصل الغناء أربعة مكيين ومدنيين، فالمكيان ابن سريج وابن محرز، والمدنيان معبد ومالك"^٤، كما قيل عنه "ما كان ابن سريج إلا خلق من كل قلب، فهو يغني لكل إنسان ما يشتهي"^٥.

كان ابن سريج يقيم بمكة، ويرتاد أحد الدور ببساتينها ليخضب أطراف أصابعه بالحناء، كما كان يناوئ الغريض ويضاده، وكانا يأتیان تلك الدار في كل جمعة، ويجتمع لهما الناس فيوضع لكل منهما كرسي يجلس عليه ثم يتناقضان الغناء^٦، وسئل ابن سريج عن المصيب المحسن من المغنين فقال: "هو الذي يشيع الألحان، ويملأ الأنفاس، ويعدل الأوزان، ويفخم الألفاظ، ويوف الصواب، ويقيم الإعراب، ويستوفي النغم الطوال، ويحسن مقاطع النغم القصار، ويصيب أجناس الإيقاع، ويختلس مواضع النبرات، ويستوفي ما يشاكلها في الضرب من النقرات"^٧.

وأمام هذا التعليق الدال على الحرفية الغنائية العالية، ومن قبله المديح والإطراء بحق ابن سريج، لم يكن من الغرابة أن يكتب الوليد بن عبد الملك إلى عامله على مكة، يأمره بإرسال ابن سريج إليه، ويسترسل الوليد في مدحه^٨، كما حاز ابن سريج على جائزة سليمان بن عبد الملك للمغني الذي

^١ الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ٢٤٥. الصفدي: الواقي بالوفيات ج ١٩ ص ٢٧٩. فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٢٠٨. ضيف: العصر الإسلامي ١٤٦. شيخاني: أشهر المغنين عند العرب ص ٥٠.

^٢ الصفدي: الواقي بالوفيات ج ١٩ ص ٢٧٩. فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٢٠٨.

^٣ الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ٢٤٩. فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٢٠٨.

^٤ الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ٢٤٦. العمري: (شهاب الدين أحمد بن يحيى) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ١٤٢٣هـ، ط ١، ج ١٠ ص ١٣٠. شيخاني: أشهر المغنين عند العرب ص ٥٠.

^٥ ابن حمدون: التذكرة الحمدونية ج ٨ ص ٣٨٩. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ١٩٤.

^٦ الصفدي: الواقي بالوفيات ج ١٩ ص ٢٨٠. العمري: مسالك الأبصار ج ١٠ ص ١٣٣.

^٧ الصفدي: الواقي بالوفيات ج ١٩ ص ٢٨٠. فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٢٠٩.

^٨ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٣٨ ص ١٩٥.

ينشده أحسن صوت^١, كما قصده الشاعر جرير في مكة لسماع غنائه فأبدع, فلم يتمالك جرير نفسه إلا وهو يقول: "الله دركم يا أهل مكة, ماذا أعطيتكم! والله لو أن نازعاً نزع إليكم ليقم بين أظهركم يسمع هذا صباح مساء, لكان أعظم الناس حظاً ونصيلاً, ومع هذا بيت الله الحرام, ووجوهكم الحسان, ورقة ألسنتكم, وحسن شارتكم, وكثرة موائدكم".^٢

وذات مرة ارتقى ابن سريج جبل أبي قبيس, وغنى ليلاً فسمع صوته عبد الله بن الزبير, فأبدي إعجابه به^٣, كما أن فقيه مكة عطاء بن رباح أعجبه صوت ابن سريج الرقيق^٤, فكان إذا غنى لم يقل له اسكت, وإذا سكت لم يقل له غنّ^٥, وكان هذا من فعل أهل مكة يشغفون الغناء ويتسامحون فيه^٦, حتى أن رأي فقهاءهم كان في الاستماع إليه ويروون في ذلك الأحاديث^٧, وقيل: "إذا أعجزك أن تطرب القرشي, فغنه غناء ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة, فإنك ترقصه", ويبدو في الوقت الذي كان يرقص به القرشي, كان ابن سريج - المعتد بنفسه إلى درجة كبيرة - يشعر وكأنه يحل محل الخليفة^٨. أما المغنون الآخرون, فقد كانوا يقدرّون فن ابن سريج, ويعترفون له بعلو كعبه فيه, وإحراز قصب السبق, حتى أنهم كانوا يصمتون ويجلسون, وكأن على رؤوسهم الطير إذا ما دخل مجلسهم.^٩

ويبدو من خلال بعض الروايات أن غناء ابن سريج كان فيه فحش, ودلالة ذلك ما روي عن دخول عبد الله بن عمر على عبد الله بن جعفر, فأمر الأخير بإخراج جواريه وقال لهن: "تغنين لمعبد؟ ففعلن, فقال ابن عمر: هذا الحداء, فقال لهن: تغنين للغريض؟ ففعلن, فقال ابن عمر: هذا

^١ شيخاني: أشهر المغنيين عند العرب ص ٥٣-٥٤.

^٢ ابن حمدون: التذكرة الحمدونية ج ٩ ص ١٢.

^٣ الأصفهاني: الأغاني ج ٩ ص ٨٥.

^٤ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٣.

^٥ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٦ ص ١٢.

^٦ ضيف: العصر الإسلامي ص ١٤٧. السباعي: تاريخ مكة ص ١١٨.

^٧ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٣.

^٨ شيخاني: أشهر المغنيين عند العرب ص ٥٢-٥٣.

^٩ شيخاني: المرجع المتقدم ص ٥٠.

البكاء، فقال له: تغنين لابن سريج؟ ففعلن، فنفض ابن عمر ثوبه وقام وقال: هذا الذي نَحِينَا عنه".^١

٤. الأبحر:

عبيد الله بن القاسم، أبو طالب الأبحر، مولى كنانة وقيل بني الليث، مغني مكِّي^٢، وكان لا يُلْحَق في النَّدْب والنيَاحَة^٣، وروي أنه أخذ الغناء عن الغريض^٤، كما وصف بأنه لم يكن بمكة أطرف ولا أشجى ولا أحسن هيئة منه، فقد كانت حلَّته بمائة دينار، وفرسه بمائة دينار، ومركبه بمائة دينار^٥. ويعد الأبحر من أشهر من غنى للأمويين في مكة، حيث أغدقوا عليه الأعطيات السنية، وعلى رأسهم الوليد بن يزيد؛ الذي قدم مكة حاجاً أيام خلافة هشام بن عبد الملك، فسمع صوته في الحج، وعندما طلب منه الناس أن يعيد ما غنى به وأطرب، امتنع طالباً حوائج له، فأرسلها له الوليد بن يزيد لمكان سكنه وهي فرساً وأربعمائة دينار، وتحت من ثياب وشي (مطرزة) وغير ذلك.^٦ وربما تلك الحادثة كانت الممهدة للصحبة بين الطرفين، فلطالما وصف الوليد بحبه للمجون واللهو واللعب، وما تكليف الخليفة هشام له بالحج، إلا ليكشف للناس مدى خلاعته، فيسوغ ما كان يريد أن يفعله من خلعه عن ولاية العهد، وتنصيب ابنه مكانه، إلا أن خطته باءت بالفشل حيث لم يتحقق مرامه. لقد نشأت بين الأبحر والوليد بن يزيد علاقة قوية، حيث كان كل منهما ينتفع من الآخر، فالأبحر يطرب الوليد، ويغدق الوليد عليه جوائزه الثمينة^٧، وعندما عاد الوليد إلى

^١ ابن بكار: الأخبار الموفقيات ص ١٦٨.

^٢ الأصفهاني: الأغاني ج ٣ ص ٣٤٠-٣٤٣. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٩ ص ٢٨٠.

^٣ ضيف: العصر الإسلامي ص ١٤٦.

^٤ الأصفهاني: الأغاني ج ٣ ص ٣٤٢. العمري: مسالك الأبصار ج ١٠ ص ٨٢.

^٥ الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٩ ص ٢٨٠. العمري: مسالك الأبصار ج ١٠ ص ٧٩.

^٦ الأصفهاني: الأغاني ج ٣ ص ٣٤٢. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٩ ص ٢٨٠. العمري: مسالك الأبصار

ج ١٠ ص ٨٠. العظم: المجتمع في العصر الأموي ص ٨٦-٨٧.

^٧ ابن حمدون: التذكرة الحمدونية ج ٩ ص ٦٦.

الشام، عاد معه الأبحر، وغناه بشعر بعد أن أصبح خليفة، وبقي معه حتى قُتل، حيث خرج الأبحر إلى مصر وتوفي بها^١، بعد أن أشاع ألحان مكة فيها^٢.
ولعل مما دعاه إلى ذلك الهروب، خوفه على نفسه بعد مقتل الخليفة، كيف لا ويبدو أن البعض قد حمّله جزءاً من المسؤولية عن مجون الخليفة وخلاعته. ومما يثير الدهشة عدم اشتها الأبحر كسواه من المغنين في مكة، فالروايات التي طالما تحدثت عن الغريض وابن مسجح، لم تتعرض له، ولعل السبب عائد إلى سكنه في الشام، وهربه لمصر، وتلاحق الأحداث السياسية آنذاك.

٥. الهذلي: (ت ١١٠هـ/٨٢٧م)^٣:

سعيد بن مسعود الهذلي، أبو عبد الرحمن أو أبو مسعود^٤، من كبار المغنين من أهل مكة، كان ينقش الحجاره بأبي قبيس، فإذا أقبل المساء رفع صوته بالغناء، فيتسارع إليه فتیان قريش وغيرهم فيأتون بطحاء يقال لها بطحاء قريش، فيجلسون عليها ويأتيهم فيغني لهم ويكون معهم، بعد أن يلزمهم بتقطيع الحجاره له، وحدها عن الجبل إلى الأبطح^٥، وكان لا يلحق بالهذلي أحد في الندب والنياحة^٦.

تزوج الهذلي بنت ابن سريج فأخذ غناء أبيها كله عنها^٧، وكان منزله بمنى فحدره (طرده) الحارث بن خالد المخزومي من منى، وكان عاملاً على مكة، ثم أذن له فرجع إلى منى^٨، ولعل ذلك العفو بعد أن سمعه الحارث، فطرح عليه مقطعات من الخز^٩.

^١ الأصفهاني: الأغاني ج ٣ ص ٣٤٢، ٣٤٥. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٩ ص ٢٨٠.

^٢ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٢.

^٣ الزركلي: الأعلام ج ٣ ص ١٠٢.

^٤ الأصفهاني: الأغاني ج ٥ ص ٧٠-٧١. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٥ ص ١٦٢. الزركلي: الأعلام ج ٣ ص ١٠٢.

^٥ الأصفهاني: الأغاني ج ٥ ص ٧٠-٧١. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٥ ص ١٦٢. الزركلي: الأعلام ج ٣ ص ١٠٢.

^٦ ضيف: العصر الإسلامي ص ١٤٦.

^٧ الأصفهاني: الأغاني ج ٥ ص ٧٢. العمري: مسالك الأبصار ج ١٠ ص ١٣٨. الزركلي: الأعلام ج ٣ ص ١٠٢.

٦. ابن محرز (ت ١٤٠هـ / ٧٥٧م):^٢

مسلم بن محرز ويكنى بأبي الخطاب، مولى بني عبد الدار بن قصي، أصله من فارس إلا أنه نشأ بمكة، حيث كان أبوه من خدام الكعبة. كان ابن محرز يسكن مكة مدة والمدينة مدة، وذات مرة أتى المدينة وأقام بها ثلاثة أشهر، تعلم خلالها الضرب على العود من عزّة الميلاء^٤، ثم ما لبث أن رجع إلى مكة فأقام بها ثلاثة أشهر، ثم شخص منها إلى فارس فتعلم منها ألحان الفرس، وأخذ غناءهم، ثم صار إلى الشام، فتعلم ألحان الروم، وأخذ غناءهم، فأسقط من ذلك ما لم يستحسن من نغم الفريقين، وأخذ محاسنها فمزج بعضها ببعض، وألف منها الأغاني التي صنعها في أشعار العرب، فأتى بما لم يُسمع مثله، ونال -وبجدارة- لقب صنّاج العرب.^٥

كان ابن محرز قليل الملابس للناس، ولعل سبب ذلك إصابته بالجذام، فلم يعاشر الخلفاء، ولميخالط الناس لأجل ذلك^٦، فأخمل ذلك ذكره، فما يُذكر منه إلا غناؤه، وأخذت أكثر غنائه جارية كانت لصديق له من أهل مكة، وكان أول من غنى بزوج من الشعر، وعمل ذلك بعده المغنون اقتداءً به، وكان يقول الأفراد لا تتم بها الألحان، وذكر أنه أول ما أخذ ابن محرز الغناء أخذه

^١ الأصفهاني: الأغاني ج ٥ ص ٧٢.

^٢ الزركلي: الأعلام ج ٣ ص ١٠٢.

^٣ الزركلي: الأعلام ج ٧ ص ٢٢٣.

^٤ فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٢٠٥. عزّة الميلاء (ت نحو ١١٥هـ / نحو ٧٣٣م) أقدم من غنفي الحجاز، كانت تضرب بالعيدان والمعازف. وكانت وافرة السمن، جميلة الوجه، لقبت بالميلاء لتمايلها في مشيتها. سمعها معبد المغني وحسان بن ثابت الشاعر. وزارها النعمان بن بشير الأنصاري في بيتها، وسمع غناءها في أيام يزيد بن معاوية وابن الزبير، وقال فيها: "إنها لمن يزيد النفس طيباً والعقل شحذاً" وكان عبد الله بن جعفر وابن أبي عتيق وعمر بن أبي ربيعة يزورونها في منزلها فتغن لهم. للمزيد انظر: الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ٢٣٠-٢٣١.

^٥ الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ٣٦٣-٣٦٤. الزركلي: الأعلام ج ٧ ص ٢٢٣. حتي: تاريخ العرب ص ٣٤٠.

^٦ الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ٣٦٥. فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٢٠٥.

عن ابن مسجح^١. ويبدو أنه كان له علاقة مع ولاية مكة ولاسيما الحارث بن خالد المخزومي والذي كان يغني له الشعر.^٢

٧. ابن مشعب وعمر الوادي:

اشتهر ابن مشعب بالغناء في الطائف، وكان من أحسن الناس غناء، وهو مولى لثقيف، إلا أنه غادرها إلى مكة - بالرغم من الجو المعتدل في الطائف - ليستقر بها مع أمثاله من جماعة أهل الغناء^٣. كما برز من مغنبي مكة عمر الوادي، الذي كان يغني في وادي القرى، وكان يفد على مكة، ليتعلم فيها الضرب والغناء والعزف^٤، وهذا يعني أن مكة أصبحت موئلاً للموسيقى في العصر الأموي، ومربعاً لهواتها.^٥

٨. المغنيات في مكة:

ويبدو أنه كانت للمرأة مشاركة في هذا المجال، إلا أنها في الغالب كانت من الموالي، أما النساء الحرائر، فلم يكن لهن نصيب إلا بالاستماع والتذوق وإجزال العطايا.

ومن النساء القرشيات سكينه بنت الحسين، والتي كان لها اتصالاتها مع أهل الغناء مثل ابن سريج، حيث طلبت منه أن يصوغ لها لحناً يُنّاح به، كما أرسلت له مملوك يقال له عبد الملك، وأمرت ابن سريج أن يعلمه النياحة، وليصبح ذلك المملوك - فيما بعد - مغن مشهور وهو الغريض^٦ السالف الذكر، وكان لسكينه في الطائف المصيف المشهور، والذي شهد فيه أهل الطائف

^١ ضيف: العصر الإسلامي ص ١٤٦. فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ص ٢٠٥.

^٢ الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ٣٦٦.

^٣ الأصفهاني: الأغاني ج ٤ ص ٣١٥.

^٤ ضيف: العصر الإسلامي ص ١٤٨.

^٥ حتي: تاريخ العرب ص ٣٤٢.

^٦ الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

المناظرات^١، كما أن سكيئة لم تتخرج من الحفاوة بشعر عمر بن أبي ربيعة، فقد كان يصادفها في الطريق ويأخذ بلجام بغلتها لينشدها شعره فتستمع إلى نشيده وتناقش بعض معانيه.^٢ ومن أشهر المغنيات في مكة، سمية وبُعُوم، وكانتا مولاتين لابن أبي ربيعة، ومكة وإن لم تُعرف بها دار كبيرة للغناء كدار جميلة في المدينة، فإن دار كل مغنٍ فيها كانت تُعد نادياً من نوادي الغناء^٣، والتي انتشرت في أطراف مكة أو ضواحي الطائف.^٤

وكان لهؤلاء القيان^٥ قيمة لا يُستهان بها، فقد فَتَنَ شباب هذا العصر، وملكن عليهن قلوبهم، ومن النساء القيان عزة الميلاء وحبّابة وسلامة، وقيل أنه لما خرجت جميلة المغنية إلى الحج، فما بقي مغن إلا ورافقها، ولا بقيت مغنية إلا وصحبتها، ولما وصلت إلى مكة، خرج الناس إلى استقبالها، بينهم الأشراف والشعراء وأبناء أهل مكة من الرجال والنساء، ينظرون إلى جمعهم وحسن هيئتهم.^٦ ومما سلف، يبدو بأن الموالي كانوا هم المسيطرون على مجال الغناء، ونافسوا العرب في هذا المجال، بعد أن شعروا بأنهم مهضومي الحقوق في المناصب الإدارية للدولة، وكردة فعل لديهم أبدعوا بهذا الفن على العرب الأحرار؛ الذين كانوا في شوق دائم لسماعهم بكل آذان صاغية.

ثانياً: العادات والتقاليد:

لم تخرج الدولة الأموية في حياتها الاجتماعية خروجاً بالغاً عن الحياة التي كانت سائدة في الجزيرة العربية قبلها، ولم تبتعد عن عمود هذه الحياة التي كانت تنفّس في مكة والمدينة، فقد

^١ حتي: تاريخ العرب ص ٣٠٣.

^٢ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢١.

^٣ ضيف: العصر الإسلامي ص ١٤٦.

^٤ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٠.

^٥ القيان الإماء أو العبيد، والقينة الأمة غنّت أو لم تغن، وكثيراً ما يطلق على المغنية في الإماماء. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة قون، ج ١٣ ص ٣٥٢.

^٦ الأصفهاني: الأغاني ج ٨ ص ٢١٨. العظم: المجتمع في العصر الأموي ص ٨٤-٨٥.

حافظت على التقاليد العربية، ورعتها أن تعصف بها رياح التطور، وكانت وفية لها.^١ فمن عادات أهل مكة الدينية، احتفالاً بهم في السابع والعشرين من رجب احتفالاً عظيماً في الخروج إلى العمرة رجالاً ونساءً، تبركاً بفضل هذه الليلة لأنها من الليالي الشهيرة الفضل، وهذه العمرة يسمونها عمرة الأكمة؛ لأنهم يحرمون فيها من أكمة^٢ أمام مسجد عائشة رضي الله عنها^٣. والأصل في عمرة الأكمة عندهم أن عبد الله بن الزبير لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة، خرج ماشياً حافياً معتمراً وأهل مكة معه، فانتهى إلى تلك الأكمة فأحرم منها - وكان ذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب - وجعل طريقه على ثنية الحجون^٤ المفضية إلى المعلى، التي كان دخول المسلمين منها يوم فتح مكة، فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة في ذلك اليوم بعينه، وعلى تلك الأكمة بعينها.^٥

وكان يوم عبد الله بن الزبير هذا مذكوراً مشهوراً، لأنه أهدى فيه مائة بدنة وبالجملية أكثر، وأقام أهلها أياماً يُطعمون ويُتعمون ويتنعمون، شكراً لله عز وجل على ما وهبهم من المعونة والتيسير في بناء بيته الحرام، على الصفة التي كان عليها زمن الخليل إبراهيم عليه السلام^٦. ولعل تلك العادة استمرت في الحياة الاجتماعية لمكة في حقبة ما بعد ابن الزبير، والتي لم يجد الأمويون من حرج في السماح للناس بممارستها، كونها لا تأثير لها على سلامة دولتهم.

^١ شكري: المجتمعات ص ٣٩٠. النفوري: (نحال) الأزياء العربية الإسلامية في العهد الأموي من خلال المراجع الأدبية والتاريخية والأثرية، جامعة دمشق، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٩٩-١٠٠، ٢٠٠٧م، ص ١٥٤.

^٢ جمعها الإكام، وهو المرتفع من الأرض والرابية دون الجبال. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة أكم، ج ١٢ ص ٢١.

^٣ حلاق: (حسان) مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جببر وابن بطوطة، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩٦م، ط ١، ص ٧٤.

^٤ الحجون جبل بأعلى مكة، يبعد عن المسجد الحرام قرابة ميل ونصف. للمزيد انظر: العلي: الحجاز ص ٦٥٧.

^٥ ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٧٦. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٨٧. حلاق: مكة المكرمة ص ٧٤-٧٥.

^٦ ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٠٩. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٧٦. حلاق: مكة المكرمة ص ٧٥.

ومن عمل أهل مكة في ليلة النصف من شعبان اجتهدهم فيها لفضلها، وخروج عامتهم من الرجال والنساء إلى المسجد، فيصلوا ويطوفوا ويحيوا ليلتهم حتى الصباح بالقراءة في المسجد الحرام، حتى يَخْتَمُوا القرآن كله، كما يأخذوا من ماء زمزم تلك الليلة، فيشربونه ويغتسلون به، ويخبؤونه عندهم للمرضى، يبتغون بذلك البركة في هذه الليلة.^١

ومن العادات الحميدة التي تميزت بها مكة، قيام وجهائها بإطعام الحجيج -وهي عادة كانت سائدة قبل الإسلام وقد استنها قصي بن كلاب، واستمرت في أولاده من بعده- وتوزيع هبات الدولة على المحتاجين.^٢

وبالنسبة للضيف فإن استقباله والترحيب به، كان من العادات المفضلة لدى العرب، وكان مجالاً للتفاخر بين الأسر، وكان استقبال الضيوف يتم إما في مسكن الأسرة، أو في مكان خارج المسكن؛ كبيت الضيافة، فقد روي أنه كان لأحد رجال قريش في العصر الأموي دار ضيافة^٣، ولاشك أن ذلك يرتبط بالوضع الاقتصادي للأسرة.^٤

أما في البداية فتحرص الأسر الكريمة على بناء بيتها على الروابي، وقد ترفع عليه رايات يستدل عليها المسافرون فيقصدونهم لإضافتهم^٥، ويتضح كرم الضيافة فيما يقدم للضيف من طعام وشراب، وهو ما يسمى بالقرى والذي يتفاوت مستواه بالتفاوت الاجتماعي -أو الاقتصادي- للأسرة، وأبلغ دليل على إكرام الضيف نحر ناقة أو ذبح شاة له، وقد يحتفظ بعضهم بإبل خاصة للضياف.^٦

^١ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٨٤.

^٢ حركات: السياسة والمجتمع ص ٢٣٦.

^٣ الأصفهاني: الأغاني ج ٩ ص ٢٤١.

^٤ الزويد: (هدى) التطور التاريخي للأسرة في الحجاز في القرنين الأول والثاني الهجريين، الرياض، دار الملك عبد

العزیز، ١٤٢٦ هـ، ص ٣١٣.

^٥ الزويد: المرجع المتقدم ص ٣١٤.

^٦ المرجع نفسه ص ٣١٤.

وكان في أغلب الأحيان لا يسمح للضيف بالمغادرة قبل مرور ثلاثة أيام، سواء في الحاضرة أم في البادية، وروي أن عبد الله بن عمر كان إذا قدم مكة نزل على آل عبد الله بن خالد بن أسيد ثلاثاً في قراهم، ثم يُرسل إلى السوق من يشتري له حوائجه.^١

وليس من المستبعد أن يكون لكل قبيلة من القبائل، سواءً الحضرية منها أو البدوية عاداتها في الجود والكرم، واستقبال الضيف والمأكل والمشرب. وعلى العموم فقد وصف أهل الأخبار أهل مكة بترفعهم عن البخل والشح، ولم يعتريهم من بخل التجار قليل ولا كثير، فأعطوا الشعراء كما يعطي الملوك، وقرّوا الأضياف، ووصلوا الأرحام^٢، ولا شك أن هذه عادات عربية أصيلة كانت سائدة قبل الإسلام، واستمرت في الإسلام، بعد أن شجعها وأثنى عليها.

أما عن عاداتهم في الزفاف، فلقد أوردت بعض الروايات أن الناس في هذه المناسبات السعيدة، كانوا يتأنقون باللباس الجديد الحسن، إلى جانب الغناء فيها والمتراق بالنقر على الدفوف، فعندما زُقت ابنة عبد الله بن جعفر للحجاج، حضر المغنون وتصاحب ذلك الغناء بالنقر على الدفوف، بينما كانت الهوارج والرواحل قد هُيئت، وصُيّرت بنت ابن جعفر فيها مع جواربها والمشيعين لها^٣. ويتضح مما سلف أن الحجاج لم يكن في الموكب، وأن الاحتفال كان ينطلق بانطلاق الموكب، كما كان الغناء مترافقاً مع النقر على الدفوف.

كما وبرز دور المرأة جلياً على كافة الصعد، فها هي في بعض المشاهد تواجه ابن الزبير بجراً لا تخشى فيها لومة لائم، حيث شكت له إحداهن قائلة: "غررت سفهاءنا، وأخذت رباعنا، فأقل سفهاءنا، وأردد رباعنا"، فقال ابن الزبير: "ما تقول هذه الهرة الثراء"^٤. كما ولا يخفى على أحد قوة شخصية أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أمام جبروت الحجاج وسطوته.

وبالرغم من حفاظ الدولة الأموية على الطابع الاجتماعي من عادات وتقاليد، إلا أن ثمة أمور جديدة دخلت على الدولة لم تكن فيها من قبل، ولعل من أشهرها الأنواع المتعددة من الأطعمة

^١ ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٤ ص ١٥٨. الزويد: التطور التاريخي ص ٣١٩.

^٢ علي: المفصل ج ٧ ص ٥٨١.

^٣ الأصفهاني: الأغاني ج ٤ ص ٢٩٠.

^٤ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٦ ص ١٣.

والأشربة. فمع بداية العصر الأموي، بدأت تتحدث الأخبار عن وفور الأطعمة والأشربة، حيث دخلت في المأكول العربية أنواع فارسية ورومية ما كان العرب يعرفونها من قبل^١، أضيف إلى ذلك أنهم أكلوا وشربوا في أواني من الذهب والفضة^٢، ومن الممكن أنهم كانوا عند الطعام يجلسون على الكراسي حول الموائد، واستعملوا الملاعق من الخشب والمناشف إلى جانب السكاكين^٣، كضرب من ضروب حياة النعيم والبذخ.

ومن أشهر الأطعمة التي عرفوها الفالودج؛ وهو خليط السمن مع العسل، فأكلوه ولم يكونوا يعرفونه من قبل^٤، كما طعموا الألوان المختلفة عرفوا فيها كل ضروب النعيم والترف^٥، إلى جانب دخول اللحوم والخضار والفواكه في أطعمتهم. وفي ظروف وفور الخيرات وكثرة الأطعمة ظهر الشيع، وقيل إن الشيع بدعة ظهرت بعد القرن الأول الهجري، وتبارى الناس في إطعام الطعام، وصارت المناسبات -ولاسيما مواسم الحج والعمرة- مجالاً لإظهار الجود والكرم، وما بالناس من نعمة، وظهر آثار هذا الخير على أبدان الناس ولانت بشرتهم^٦.

أما فيما يتعلق بالطائف، فيبدو أنه كان ثمة وحدة حال في الطعام والشراب بين أهل مكة وأهل الطائف^٧، إلا أنه فيما يبدو فقد كان المجتمع المكي أكثر انفتاحاً على الأمم الأخرى وعاداتهم المختلفة من المجتمع الطائفي، وكان لهذه الوفود تأثير متبادل لا يخفى على المجتمع المكي، وذلك نتيجة قدومهم وعلى مدار أيام السنة لزيارة الكعبة المشرفة وتأدية الحج والعمرة.

أما فيما يتعلق باللباس فشأنه كشأن الطعام والشراب، متنوعاً إلى حد كبير في مادته وأنواعه من جهة، ومتأثراً بشكل مباشر بالحالة الاقتصادية للفرد سلباً كان ذلك أم إيجاباً من جهة أخرى.

^١ بطاينة: الحياة الاجتماعية ص ١٩٤. سالم: تاريخ الدولة العربية ص ٦٩١. السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٠.

^٢ الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٣٠.

^٣ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٠.

^٤ بطاينة: الحياة الاجتماعية ص ١٩٦.

^٥ الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٣٠.

^٦ ابن بكّار: الأخبار الموفقيات ص ٨٢-٨٣. بطاينة: الحياة الاجتماعية ص ١٩٦.

^٧ ابن الجاور: تاريخ المستبصر ص ٢٥.

ويبدو أن الريادة فيه كانت لأصحاب البلاط الأموي، وأشراف قريش^١، فلقد أتيح لهم أن يأخذوا بحظوظ وافرة من كل جانب من جوانب اللباس، فلبسوا الفاخر كالسندس^٢ والديباج^٣ والإستبرق^٤، ومقطعات الخز^٥ والحرير والحلل الموشاة^٦، وغالوا في ذلك^٧، وتعدى الأمر ذلك إلى دواهم، حيث كانوا يضعون فوقها القُطوع^٨ والديباج، وكانوا يضعون في أعناق دواهم وخيولهم أطواقاً من ذهب^٩.

أما الناس فقد اتخذوا ألبسة عديدة، منها ما هو خاص بالرجال كالقلنسوة^{١٠} والعِمامة^{١١} والجبّة^{١٢} والبُرْدَة^{١٣}، ومنها ما هو خاص بالنساء كالخِمار^{١٤} والدَّرْع^{١٥}، أضف إلى جانب ذلك

^١ النفوري: الأزياء العربية الإسلامية ص ١٥٨. الهادي: اتجاهات الشعر ص ٥٩.

^٢ كلمة فارسية معربة ومعناها المذهب، قماش حريري مطرز بالذهب. انظر: إبراهيم: (رجب عبد الجواد) المعجم العربي لأسماء الملابس، القاهرة، دار الأفاق العربية، ٢٠٠٢م، ط ١، ص ٢٤٥.

^٣ فارسية وتعني حرير ضرب من الثياب المتخذة من الإبريسم أو نسيج الجن، وقيل كل ضرب منسوج وملون.

انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ديج، ج ٢، ص ٢٦٢. إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس ص ١٨٢.

^٤ فارسية ومعناها الغليظ مطلقاً وخص بغليظ الديباج. انظر: إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس ص ٣٢.

^٥ فارسية وهي ضرب من ثياب الحرير. انظر: إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس ص ١٤٨.

^٦ رداء وقميص وقماتهما العمامة، والحلل برود اليمن. انظر: إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس ص ١٣٦.

^٧ الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٣٠. الهادي: اتجاهات الشعر ص ٥٩.

^٨ ثياب الموشاة، تكون تحت الرّحل على كتفي البعير. انظر: إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس ص ٣٩٤.

^٩ الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٣٠. السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٠.

^{١٠} قلنسوة كلمة لاتينية معناها قبة أو غطاء للرأس. انظر: إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس ص ٤٠٢.

^{١١} من لباس الرأس. انظر: إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس ص ٣٣٣.

^{١٢} الجبّة هي الخرقة المدورة وإن كانت طويلة فهي الطريدة، وهي ثوب للرجال مفتوح الأمام، تلبس في مكة فوق

البدن، وتحاك من قماش خفيف أو من الحرير. انظر: إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس ص ١٠٥-١٠٦.

^{١٣} قطعة من الصوف تتخذ عباءة في النهار غطاء في الليل. انظر: إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس ص ٥٢.

^{١٤} ما تغطي به المرأة رأسها. انظر: إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس ص ١٥٩.

^{١٥} درع المرأة قميصها، انظر: إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس ص ١٧٠.

الجلباب^١، ومنها ما كان يقطع فيفصل ويخاط، كالقميص والجبّة والسّرّوال^٢، ومنها مالا يقطع وكان يلبس قطعة واحدة، مثل الرداء والإزار، ومنها ما كان في عداد ألبسة الأغنياء والمترفين، مثل القباء^٣ المطرز بالوشى تحت الثياب الرقيقة المصبغة من الكتان أو القز^٤ والمطرف^٥، ومنها ما كان من ألبسة النساء مثل لباس البرنس^٦، ومنها ما كان في عداد ألبسة الأعراب مثل العباءة^٧. وكانت بعض النساء السافرات الوجوه تضرب الخلاخل في أرجلهن^٨، أما أفخر الملابس في تلك الحقبة فقد كانت تصنع باليمن، وعدّ البرنس والحلّة من الملابس الفاخرة بالنسبة للرجال^٩.

وكما شابه طعام مكة وشرابها طعام وشراب أهل الطائف، كذلك كان الزي متشابهاً إلى حد كبير^{١٠}، حيث كان زي ثقيف في الطائف الأقبية المصبغة بالورس والعصفر، ويجزّمون على أوساطهم ملاءات^{١١} القطن الرقاق وعليها البرود العجيبة^{١٢}.

وعلى العموم لم يتغير اللباس في العصر الأموي عن العصر الذي سبقه، إلا ضمن نطاق محدود، خاصة أن حقبة حكم الأمويين لم تكن طويلة، بحيث تسمح لهم بالتغيير، إضافة إلى أن اللباس

^١ ثوب تغطي به المرأة رأسها وصدرها. انظر: إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس ص ١١٤.

^٢ فارسية أصلها شلّوال، وهو لباس يستر العورة إلى أسفل الجسم. انظر: إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس ص ١٥٩.

^٣ فارسية أصلها قُبّاي ثوب مفتوح من الأمام. انظر: إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس ص ٣٧٨.

^٤ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٠.

^٥ ثوب مربع من خزّ له أعلام. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة طرف، ج ٩ ص ٢٢٠.

^٦ يونانية الأصل، وفي العربية قلنسوة طويلة كان العرب يلبسونها في صدر لإسلام. انظر: إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس ص ٦١.

^٧ بطاينة: الحياة الاجتماعية ص ١٤٨. السباعي: تاريخ مكة ص ١٢١.

^٨ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢١.

^٩ حركات: السياسية والمجتمع ص ٢٤٣.

^{١٠} ابن الجاور: تاريخ المستبصر ص ٢٥.

^{١١} وهي الملحفة. انظر: إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس ص ٤٧٦.

^{١٢} الحميري: الروض المعطار ص ٣٨٠.

يحتاج إلى زمن ليتعود عليه الناس وينتشر، فضلاً عن انشغال الناس بالفتوحات. وإذا ما حصل تغيير في اللباس فإنه اقتصر على البلاط، وأشراف مكة، بينما لم يشمل التغيير جميع فئات الشعب^١. على أنه وبالرغم من ذلك التفاوت المادي بين فئات الشعب، إلا أن العادة كانت قد جرت عند معظم الناس على الاحتفاظ بملابس زينة؛ لا تُرتدى إلا في المناسبات السارة فقط كأيام العيدين^٢، ولعل من المناسبات السعيدة أيضاً التي كان يتأنق فيها الناس حضور الزفاف^٣.

ثالثاً: الهجرة من وإلى مكة المكرمة:

كانت مكة ومازالت بوتقة يجتمع فيها المسلمون من جميع الجنسيات والأعراق والألوان، وتتوق نفس كل مؤمن لزيارتها والإقامة فيها، كيف لا وفيها الكعبة المشرفة والمسجد الحرام، أظهر بقعة على وجه الأرض. فما هي الأسباب التي دفعت البعض إلى الهجرة من مكة إلى سواها من الأمصار، وبالمقابل ما هي الأسباب التي كانت وراء توجه البعض إلى مكة، والاستقرار فيها أو اللجوء إليها؟ أما الشطر الأول من السؤال في أسباب الهجرة من مكة إلى غيرها، فيمكن الإجابة عليه بالاعتماد على السبب الرئيسي؛ ولعله السبب الديني الذي كان هدفه الجهاد في سبيل الله، فلقد رافق عملية الفتوحات الإسلامية هجرة المكيين على نطاق واسع، تلك الهجرة التي توجهت إلى معظم الجبهات، حيث كان الناس يخرجون من مكة، بل ومن الحجاز عامة إلى الجهاد في أرض الروم، فعندما أغزى عبد الملك بن مروان جيش القسطنطينية، أمر عليه مسلمة بن عبد الملك، وولى على رؤساء أهل الحجاز عبيد الله بن عبد الله بن عمر^٤. وثمة حالات شهدت اختفاء لبطون بأكملها من مكة، فعلى سبيل المثال فقد روي أن تيم الأدرم وقيس بن غالب درجوا، وكان آخر من بقي منهم هلك في زمن خالد بن عبد الله القسري، فبقى ميراثه لا يُدرى من يستحقه^٥.

^١ النفوري: الأزياء العربية الإسلامية ص ١٥٨.

^٢ الزويد: التطور التاريخي ص ٣٢٣.

^٣ الأصفهاني: الأغاني ج ٤ ص ٢٩٠.

^٤ الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٢٠.

^٥ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١ ص ٦٢٧. العلي: الحجاز ص ٥٦٢.

وإضافة لما سلف، لا يخلو الأمر من أسباب أخرى دفعت الناس إلى الهجرة من مكة، منها أسباب اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو علمية، لا تعدو في أهميتها السبب الديني ولا سيما في هذه الحقبة. أما فيما يتعلق بأسباب الهجرة إلى مكة فيمكن إدراجها ضمن الأسباب الآتية:

١. **سبب علمي:** حيث نزل بعض العلماء مكة وسكنوها بعد أن طاب لهم المقام فيها، وامتزجوا مع سكان مكة المقيمين ليكون رافداً يمدّهم بالعلم^١، ولعل من أشهر أولئك العلماء محمد بن مسلم، والذي كان له العناية الكبيرة بالعلم. أيضاً كان هناك عبد الله بن أبي نجيح، ومن التابعين الذين نزلوا مكة يوسف بن ماهك، الفارسي الأصل الذي كان مولى الحضرميين، وكان يوسف من خيار التابعين، مات عام ١٠٦هـ/ ٧٢٤م^٢. وسيعرض البحث للحديث عن الفقهاء في مكة في الفصل الأخير.

٢. **سبب سياسي:** يتعلق بلجوء الفارين والمطاردين من ولاية الأمصار الأخرى إليها، ولعل خير دليل على ذلك هرب بعض أهالي العراق إلى مكة والحجاز، من ظلم وعسف والي بني أمية على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان والي مكة والمدينة عمر بن عبد العزيز هو الذي فتح لهم الأبواب، رافضاً التضييق على الهاربين، مما دعا الوليد بن عبد الملك إلى عزله وتولية ولاية متشددين، فعين على مكة خالد بن عبد الله القسري، وعلى المدينة عثمان بن حيان المري^٣.

٣. **سبب اجتماعي:** حيث نزل قسم من ولد عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو، وقيل لهم خزاعة؛ لأنهم تخزعوا من ولد عمرو بن عامر في إقبالهم من اليمن، فنزلوا مكة المكرمة^٤. فالمرجل المكي كان دائم الغليان والحركة، تارة يستقطب الناس والقبائل، وتارة يودعهم ليبحثوا عن ما ينفعهم، من أمور دينهم أو دنياهم.

^١ زعزوع: (ليلي) مكة المكرمة التفاعل الحضاري في المكان المقدس، بيروت، الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٥م، ط ١، ص ٨٦.

^٢ ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص ١١٠.

^٣ الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٢٣.

^٤ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٣ ص ٣٢٤.

الفصل الخامس

الوضع الاقتصادي في ولاية مكة المكرمة في الدور المرواني

أولاً: الزراعة في ولاية مكة المكرمة:

١ - الزراعة في الطائف .

ثانياً: الصناعة في ولاية مكة المكرمة.

ثالثاً: التجارة في ولاية مكة المكرمة:

أ- الأسواق في ولاية مكة المكرمة: ١- سوق عُكاظ.

٢- سوق المَجَنَّة .

٣- سوق ذي المُجَاز .

٤- سوق حُبَاشَة .

ب- السكة العربية الإسلامية (النقد العربي).

رابعاً: موارد مالية أخرى: أ- تأجير وبيع البيوت في مكة المكرمة.

ب- الزكاة والغنائم .

ج- العطاء .

خامساً: أثر الحصار الاقتصادي في سقوط خلافة ابن الزبير.

أولاً: الزراعة في ولاية مكة المكرمة:

سلف الحديث عن موقع مكة المكرمة في واد غير ذي زرع, وأنها عوضت النقص بالمواد الزراعية من الطائف, لذا تجنباً للتكرار سيكون الحديث عن الزراعة في الطائف في الحقة المذكورة.

١ - الزراعة في الطائف:

عُدَّت الطائف مزرعة ولاية مكة بأسرها, ومصيفها, وسلّة غلالها, وداعمها الأساسي والرئيسي في معظم المحاصيل والخيرات كما سلف ذكره.

والسؤال هنا؛ ما هي أهمية الزراعة في الطائف خصوصاً, والحجاز عموماً؟ وما هي أشهر المزروعات التي كانت تزرع بها؟ ما هو وضع الثروة الحيوانية في مكة المكرمة كولاية؟ وهل ثمة أسواق للمنتجات في غير الطائف؟

في الواقع لقد كان للزراعة أهمية كبيرة في حياة الطائف أكثر من أي تجمع بشري في الجزيرة العربية بأسرها, فقد كانت الزراعة تشكل العمود الفقري للاقتصاد في الطائف, وكان للطائف ثلاثة مواسم زراعية هي الربيع والشتاء والصيف^١, وبناءً على هذا الأساس قامت العديد من الصناعات, حيث قدمت الزراعة المواد الأولية اللازمة للعديد من الصناعات الطائفية؛ والتي ذاع صيتها في الآفاق بجودتها وحسنها. ونشطت كذلك حركة التجارة الداخلية والخارجية. ومما عزز أهمية الزراعة في الطائف بالإضافة إلى توفير الغذاء لأهلها, هو تقديم العديد من فرص العمل عند الأسر الغنية المالكة للأراضي, مما كان له أكبر الأثر في التكامل الاقتصادي في الطائف, فيما كانت الأسر الفقيرة وتبعاً لوضعها الاقتصادي^٢ تمارس بنفسها الزراعة رجالاً ونساءً, فالجميع يعمل وكأن الطائف أشبه بخلية نحل لا وجود فيها إلا لمن يعمل.

أما المنتجات الزراعية التي تمتاز بها الطائف على مستوى الجزيرة العربية فهي كثيرة, ولعل أهمها الرمان والتين الشوكي (البرشومي) والتين والموز والخوخ والسفرجل والنخيل والدراق^٣, ومن أعجب

^١ العبيدي: الطائف ص ٥٢.

^٢ زويد: التطور التاريخي ص ٣٣١-٣٣٢.

^٣ حلاق: مكة المكرمة ص ٦٢-٦٣. العظم: المجتمع في العصر الأموي ص ١٢٤. العبيدي: الطائف ص ٥٠.

فواكهها البطيخ والسفرجل، وكل فواكهها عجب، ولكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة، وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها، ومذاقه أشبه بسكر مذاب، أو بجنى النحل اللباب^١، والأهم من تلك المحاصيل جميعاً زراعة الطائف لمحصول القمح، والذي كان يزرع في وادي القيثم، واشتهرت به الطائف فقد كانت حبه كبيرة، تشابه اللؤلؤ، وتمتاز بالمذاق الخاص^٢. وكانت قبيلة ثقيف في الطائف تمتاز بأنها تأكل الحبوب، بينما يكتفي سائر العرب بالحليب والتمر^٣، ولعل ممن يأكل القمح إلى جانب ثقيف أهل مكة؛ كونهم تجار أثرياء لديهم القدرة الشرائية من جهة، وأحياناً هم أنفسهم أصحاب معظم الأراضي في الطائف من جهة أخرى. ولم تقتصر زراعة الحبوب على الحنطة، بل كانت ثمة زراعة الشعير وأصناف متعددة من البقول كالذرة والسلت والزوان والأرز والسمسم والجلبان، وأنواع الحبوب التي تكال وتدخر مع العدس واللوبيا والحمص والدخن وغيرها^٤. ومن المحاصيل الزراعية التي اشتهرت بها الطائف أيضاً العنب العدي، حيث يوجد بها منه ما لا يوجد في شيء من البلاد، والذي اعتمد عليه أهل مكة المكرمة^٥. وأما زبيبها، فلا يقل شهرة عن قمحها، حيث يضرب بحسنه المثل^٦، ومن القصص التي تدل على غناها بالزبيب ما روي عن الخليفة سليمان بن عبد الملك، فبعد أن حج قصد الطائف فشاهد كرمًا لرهط عمرو بن العاص، وكان معروشاً على ألف ألف خشبة^٧، شري كل خشبة درهم، فلما رآه قال: "ما رأيت لأحد مثله لولا أن هذه الحرة في وسطه" فقالوا له: "ليست بحرة بل مسطح

^١ حلاق: مكة المكرمة ص ٦٢-٦٣.

^٢ ابن الجاور: تاريخ المستبصر ص ٢٥. علي: المفصل ج ٧ ص ١٦. القثامي: تاريخ الطائف ص ٣١-٣٢. العبيدي: الطائف ص ٥٠.

^٣ وات: (مونتجومري) محمد في مكة، تعريب: شعبان بركات، صيدا، المكتبة العصرية، د.ت، ص ٢١٩. ^٤ العبيدي: الطائف ص ٥٠.

^٥ القزويني: آثار البلاد ص ٩٨. الحِمَيري: الروض المعطار ص ٩٤. علي: المفصل ج ٤ ص ١٥١.

^٦ Lammens: La Cité Arabe de Taif, P.33.

زَكَار وخربوطلي: الجزيرة العربية ص ٢٣٣.

^٧ الحموي: معجم البلدان، مادة وهط، ج ٥ ص ٤٤٤. العبيدي: الطائف ص ٢٢.

الزبيب"، حيث كان زبيب الكرم جمع في وسطه ليجف، فرآه من بعيد فظنه حرة^١، فقال سليمان: "أحب أن أنظر إليه" فلما رآه قال: "هذا أكرم مال وأحسنه، ما رأيت لأحد مثله"^٢. وفي السياق نفسه يذكر بأن سليمان لما نزل الطائف أكل من خيراتها ما لذ وطاب من لحمها وفاكهتها وزبيبها المشهور، ما أسهبت بعض الروايات في الحديث عنه^٣. ويمكن الاستدلال من خلال الرواية السالفة -وبغض النظر عن الحديث عن شهية سليمان المثبتة في أخباره- على كثرة خيرات الطائف في تلك الحقبة، والمنتزجة بالمناخ المعتدل والجو اللطيف، فليس من الغرابة أن يأكل سليمان ما أكل. وأمام تلك المعطيات من خيرات وافرة ومناخ لطيف، لم يستطع تجار قريش المقاومة، فهرعوا لشراء الأراضي والبساتين والآبار في الطائف، فلماذا باع أهل الطائف أراضيهم لغيرهم، ولم يتداولوها فيما بينهم على أقل تقدير؟

لعل الجواب على السؤال السالف يتضح بتشجيع بعض الخلفاء مثل ابن الزبير لأصحاب الثروات الضخمة من قريش، وحثهم على إحياء الأرض في ضواحي مكة، ولا سيما في الطائف لتوفير الحبوب والخضروات لأهلها، فبلغت في عهده شأواً زراعياً لم تبلغه من قبل^٤، وليس من المستغرب أن يتابع الخلفاء الأمويون من بعد ابن الزبير سيرته -لمنافسته- في التشجيع على استصلاح الأراضي، عسى أن تسد محاصيلها ولو جزء من حاجة أهل مكة المقيمين، أو زوارها الكثر من الحجاج والمعتمرين.

أضف لذلك متانة العلاقات الاقتصادية بين مدينتي مكة المكرمة والطائف، علاقة قلما يرى المرء مثلها، علاقة ترعى مصالح كل طرف، فأهل مكة الأغنياء ولا سيما التجار كان لهم مصالحاً في أراضي الطائف الخصبة وما تنتجه من خيرات، وأهل الطائف من جهتهم ينتظرون قدوم التاجر المكي للعمل لديه في مزارعه وأراضيه، فالجميع سعداء ومصلحتهم متبادلة، ومن المعروف أن الزراعة يرافقها تربية الحيوان، فهل ثمة ثروة حيوانية في مكة وهي في وادٍ غير ذي زرع كما سلف؟ أم في

^١ القزويني: آثار ص ٩٨. علي: المفصل ج ٧ ص ١٦. السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٥. العبيدي: الطائف ص ٥١.

^٢ ابن الفقيه: البلدان ص ٧٩.

^٣ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٤٠٦-٤٠٧، ج ٦ ص ٣١١. ابن الجاور: تاريخ المستبصر ص ٢٢-٢٣.

^٤ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٥-١٢٦.

الطائف ذات الأرض الخصبة؟

يبدو للوهلة الأولى بأن مكة المكرمة وتبعاً لمناخها القاسي لا يوجد بها ثروة حيوانية من جهة، ومن جهة أخرى بأن الطائف تميزت عليها بتربية الحيوان كما تميزت عليها بالزراعة، إلا أن مكة المكرمة أثبتت وجودها في هذا الشأن.

لقد أشارت الروايات إلى وجود قطعان من الأغنام والإبل لدى أثرياء مكة المكرمة من رجال ونساء على حد سواء، ففي العصر الأموي كان لدى عبد الله بن صفوان بن أمية سيد قريش بمكة المكرمة ما يقارب من ألفي شاة، حتى أن الجبل في مكة المكرمة كان أبيضاً من غنمه، وفي بادرة منه تجسد ولاءه وخضوعه للدولة الأموية وخليفته، قام ووضعها جميعاً تحت تصرف معاوية بن أبي سفيان عندما جاء حاجاً إلى مكة المكرمة^١، ولا شك أن هذه القطعان زاد عددها عند ابن صفوان في حقبة ابن الزبير -والذي وقف ابن صفوان معه في نزاعه مع الأمويين، وقتل معه كما سلف- لتسد الحاجة الملحة والمتزايدة من مادة اللحم لقاطني وزائري ولاية مكة. لقد كانت سفوح جبال مكة المكرمة وشعابها، توفر المراعي الواسعة لهذه القطعان، إلا أنه يجب ألا يغيب عن البال، بأنه من الممكن أيضاً أن تكون تلك الأغنام سلعة تجارية، يتاجر بها أهل مكة المكرمة، أتوا بها من هنا أو هناك ليتاجروا بها في مواسم الحج، نظراً للحاجة الماسة لها من قبل الحجاج، والتي يُكمل بها الحاج مناسك حجه، بنحرها في حديث يطول شرحه، وليس البحث بصدد ذكره في هذا الموضوع. ويبدو أن هذا الحال استمر على هذه الشاكلة طيلة العصر الأموي، بالنظر إلى ازدياد عدد الحجاج عام بعد عام.

ولعل أهم موطن للثروة الحيوانية كانت الطائف، فزراعتها الناجحة تساعد على توفير الغذاء اللازم للأغنام، وجميع ما يلزم^٢، كما عُرفت الطائف بمراعيها الكثيرة، لوجود المياه الوفيرة فيها، والتي تمد هذه المراعي بمادة الحياة، لقد كانت بطون ثقيف الضاربة في قراه، والمخيمة في أطرافه، كلها تعيش في أوبار إبلها وحليب نوقها، وللماشية في هذه البلاد قيمة كبيرة، لأن ما تنتجه يعادل ما

^١ الذهبي: سير أعلام ج ٤ ص ١٥١. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٤٥. الزويد: التطور التاريخي ص ٣٤٥.

^٢ القشامي: تاريخ الطائف ص ٣١-٣٢.

تأتي به المزارع المخصصة والبقاع المنتبة، ومتى كثر العاملون في تربية المواشي، استفادت البلاد من خيراتها المختلفة؛ مثل ألبانها وجلودها وصوفها ووبرها.^١

ومن الثروات التي اشتهرت بها الطائف، ودلت بها على امتلاكها للثروة الحيوانية، تصديرها للعسل من خلال تربيتها للنحل، ولقد كانت جبال الطائف هي المأوى الرئيسي للنحل هناك، ولا ينافس عسل الطائف أي عسل بسبب جودته قبل وبعد الإسلام^٢، وهو ما تؤكد الرواية التي تحدثت عن طلب بعض الخلفاء الأمويين؛ كهشام بن عبد الملك من عامله على الطائف، بأن يرسل له من العسل هناك^٣، ولعل توافر معظم أنواع المحاصيل الزراعية والأزهار أمام النحل، كان السبب في إنتاج الطائف العسل اللذيذ المتنوع الألوان والطعم.

ثانياً: الصناعة في ولاية مكة المكرمة:

يبدو أن العامل الأهم في نجاح أي صناعة، وفي أي حقبة، هو توافر المواد الأولية لها، بالإضافة إلى توافر اليد الخيرة، كما أن وجود الأسواق لا يقل أهمية عن العاملين السالفي الذكر. ولا شك أن ثمة مراكز صناعية متعددة ومشهورة في ولاية مكة المكرمة، أهمها الطائف وجدة، وبالرغم من بروز الطائف الواضح في هذا المجال، إلا أنه من الممكن الحديث عن الصناعة بجدّة، فقد احترفت جدّة صناعة السفن وما يتعلق بها، ولا غرابة بذلك، كون معظم سكانها احترف صيد السمك، فأضحت جدّة من أشهر الموانئ التي كانت تتبع لولاية مكة المكرمة^٤، ولقد أمنت سفنها نقل بعض البضائع والناس القادمين لمكة المكرمة بغرض الحج أو التجارة، فجدة خزنة مكة، وإنما يؤتى به إلى مكة لا يخرج به منها.^٥

إلا أن الصناعة في جدّة لم تكن لتنافس صناعة الطائف أو تكون نداً لها، نظراً لأن العوامل السالفة في نجاح أي صناعة لم تتوفر كاملة، فلا أسواق للسفن في أسواق مكة لعدم الحاجة إليها،

^١ العبيدي: الطائف ص ٥٠.

^٢ الحميري: الروض المعطار ص ٣٨٠. حلاق: مكة المكرمة ص ٦٢. القثامي: تاريخ الطائف ص ٣٢.

^٣ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٠٤. العبيدي: الطائف ص ٥٣.

^٤ الحضراوي: الجواهر المعدة ص ١٣.

^٥ الحضراوي: المرجع المتقدم ص ٢٣.

مع العلم أن جدة حوت اليد العاملة الخبيرة والمواد الأولية، إلا أن ذلك لم يكن كافياً، فما هي العوامل التي كانت سبباً في بروز صناعة الطائف، بل وتألّفها في ولاية مكة المكرمة بأسرها؟ وما هي أهم الصناعات التي امتازت بها على من سواها؟ ومن أين اكتسب الطائفيون مهاراتهم في الصناعة؟ في الواقع لقد نجحت الصناعة في الطائف أيما نجاح، ولعل مرد ذلك إلى جملة من العوامل، والتي أفرزت صناعات رائدة، في مختلف الميادين والمجالات ومنها:

١. وجود الزراعة المتطورة التي أمنت لها المواد الأولية.
 ٢. وجود الثروة الحيوانية التي شكلت عصب صناعات متعددة على رأسها دباغة الجلود وغيرها.
 ٣. الجو المعتدل والمناخ الملائم والباعث على العمل والنشاط.
 ٤. توافر اليد العاملة الخبيرة المدربة، ويبدو أن عامة أهل الحرف والصنائع في المدن من الموالى وأهل الدمة، بينما لم يشارك العرب في هذه الحقبة في أكثر الفعاليات الاقتصادية، بسبب انصرافهم إلى الحكم والإدارة والجهاد^١، وسلف وناقش البحث هذه القضية.
 ٥. إمكانية تصريف المصنوعات عبر أسواق مكة المكرمة، والطائف وسائر شبه الجزيرة العربية.
 ٦. الموقع الجغرافي الممتاز للطائف بين مكة المكرمة واليمن ونجد، ساعدها على القيام ببعض الأعمال التجارية بما تنتجه من مصنوعات متعددة.
- وقبل الانتقال للحديث عن أهم الصناعات، ثمة سؤال لا بد من محاولة الإجابة عليه وهو: ممن تعلم أهل الطائف - وبشكل رئيسي - هذه الحرف والصناعات؟
- أوردت بعض الروايات أن أهل الطائف تعلموا مجمل حرفهم من أهل اليمن^٢، ويمكن القول بأنهم أضافوا عليها أسلوبهم المتحضر الخاص بهم، وهذا الثنائي عندما اتحد في شخص أهل الطائف، فليس من المستبعد أن تولد في الطائف صناعة لا مثيل لها، في كل أنحاء مكة المكرمة، ويمكن تقسيم أشهر الصناعات في الطائف وفق الآتي:
١. الصناعات الجلدية: وعلى رأسها دبغ الجلود الخاصة بالحيوانات^٣، ففيها مدابغ للأديم، حتى

^١ الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص ٤١ - ٤٣.

^٢ القنّامي: تاريخ الطائف ص ٣٦.

^٣ علي: المفصل ج ٤ ص ١٥٣. القنّامي: تاريخ الطائف ص ٣٨. العبيدي: الطائف ص ٥٤.

إن الطير تصرع إذا مرت بها من نتن رائحتها, وأديمها المليخ الثقيل يحمل إلى سائر البلدان ليصار إلى تصديره^١, وليس في شيء من البلدان مثله^٢, كما اشتهرت بصناعة السلع الجلدية^٣.

٢. الصناعات الغذائية: التي يمكن أن تصنع من الأنواع المتعددة من العسل الطائفي^٤ المشهور كالحلويات, ويمكن للبحث أن يشير هنا إلى أن غنى الطائف بالخضار والفواكه, دفع البعض من أهلها إلى إدخالها في صناعة بعض المواد الغذائية أثناء موسمها, وما زاد عن الحاجة يمكن تجفيفه تحت أشعة الشمس, ليصار إلى تخزينه واستعماله خلال أيام الشتاء, وسبق وأشار البحث إلى تجفيف الزبيب في الطائف.

٣. صناعة العطور: وهي من الصناعات الهامة التي شهدت تطوراً في الطائف, ولعل سبب ذلك هو توفر الزهور العطرية الجيدة لها في أراضي الطائف ومزارعها, وكان طيب الكعبة المشرفة يجلب أساساً من الطائف, واستمرت على هذه الحال طيلة العصر الأموي وحتى العصر المملوكي, وكذلك يخلط ماء الورد المستورد من الطائف بالماء لغسل الكعبة المشرفة^٥.

٤. صناعة الأسلحة: برزت في الطائف صناعة الأسلحة, مثل العرادات^٦ والدبابات^٧ والمنجنيقات^٨, وكان أهل الطائف يذهبون إلى مدينة جرش اليمنية ليتعلموا هذه الصنعة^٩.

^١ ابن الجاور: المستبصر ص ٢٥. القتامي: تاريخ الطائف ص ٣١-٣٢. عبد اللطيف: السيرة النبوية ص ٦٣.

^٢ القزويني: آثار البلاد ص ٩٨.

^٣ وات: محمد في مكة ص ٢٠.

^٤ العبيدي: الطائف ص ٥٣. حلاق: مكة المكرمة ص ٦٢.

^٥ القتامي: تاريخ الطائف ص ٣٨.

^٦ العرادات: شبه منجنيق, والعرد الشديد الصلب من كل شيء. انظر: الفراهيدي: العين, مادة عرد, ج ٢ ص ٣٢.

^٧ الدبابات: آلة تتخذ من جلود وخشب يدخل فيها الرجال ويقربونها من الحصن المحاصر لينقبوه وتقيهم مما يرمون به من فوقهم. انظر: ابن منظور: لسان العرب, مادة دبب, ج ١ ص ٣٦٩.

^٨ منجنيق: القذائف الذي ترمي بها الحجارة, دخيل أعجمي معرب وأصلها فارسي. انظر: ابن منظور: لسان العرب, مادة مجنق, ج ١ ص ٣٣٨.

^٩ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٤٧. العبيدي: الطائف ص ٥٥. علي: الفصل ج ٤ ص ١٥٢.

وهنا يتبادر إلى الذهن مباشرة حصار الحجاج بن يوسف الثقفي لمكة المكرمة أيام عبد الله ابن الزبير، حيث حاصرها وقذفها بالمنجنيقات، ويبدو أن الحجاج استفاد -وهو ابن الطائف- من إرث قومه في ميدان تصنيع الأسلحة، ولعل هذه الإفادة العظيمة مكنته فيما بعد من إحراز النصر على خصومه عامة، وابن الزبير بمكة المكرمة خاصة، وليس من المستبعد أن تتخذ الدولة الأموية من الطائف داراً لصناعة أسلحتها المختلفة، والتي استطاعت من خلالها تذليل الصعوبات التي ظهرت في وجهها عبر سنوات حكمها، سواء داخل الحجاز أو خارجه.

٥٠ صناعات حرفية: تعتمد على المهارة بالدرجة الأولى، وتوافر المواد الخام لها في الدرجة الثانية، كصناعة النجارة والحدادة والبناء.^١

ثالثاً: التجارة في ولاية مكة المكرمة:

- شغلت مكة المكرمة مركز الريادة في التجارة في الحجاز منذ ما قبل الاسلام، واستمر هذا الدور فيما بعد، وقد أسهمت عدة عوامل في تنشيط هذا الدور منها:
١. وجود الكعبة المشرفة والمسجد الحرام فيها، مما دفع الكثير من المسلمين لقصدها بغرض الحج أو العمرة والتجارة.
 ٢. الموقع الجغرافي الاستراتيجي المتميز على طريق التجارة بين اليمن والحبشة جنوباً، وبلاد الشام والعراق شمالاً، كما يمكن عدّها البوابة الداخلية أمام الموانئ ولا سيما ميناء جدة بالدرجة الأولى، والشعبية ثانياً.
 ٣. توافر الأسواق المتعددة وعلى مدار العام تقريباً، سواء كانت هذه الأسواق داخل مكة المكرمة وبشكل يومي مستمر، أو كانت خارجها وبشكل موسمي، وكان لها الأثر الكبير في تطور التجارة، ومما ساعد على ازدهارها، توفر الأمن والأمان، ولا سيما بعد القضاء على ابن الزبير في مكة المكرمة.

^١ القشامي: تاريخ الطائف ص ٣٨.

٤. قربها من مراكز زراعية وصناعية - ولا سيما الطائف - أمنت لها ما تحتاجه للاستهلاك الذاتي من الطعام من جهة، ولتجارها وأسواقها من جهة أخرى. ولعل عمل أهل مكة هذا دفع بعض الباحثين للقول بأن المكيون كانوا بالأصل وسطاء وبائعي مفرق، ولم يكونوا مستوردين أو متعهدين.^١

٥. النشاط والحرفية العالية لدى تجار مكة، حيث كان لها أكبر الأثر، فهامهم يقيمون الأسواق هنا وهناك، ويتبادلون البضائع مع القبائل، حيث يشترون منهم حيوانات الجزيرة من جمال وخيل وحمير ويبيعونها لمن يحتاج إليها، كما كانت تجارة الملابس والأطعمة والشراب رائجة في مكة وبخاصة في مواسم الحج^٢، فتجارة أهل مكة كانت واسعة متعددة السلع، ولقد كان لدى التاجر المكي أسلوب ذكي في طريق عرض بضاعته، وإقناع المشتري باقتنائها.

لقد درّت التجارة في مكة المكرمة على أصحابها أرباحاً طائلة؛ لا سيما القرشيين منهم، حيث كان يربح في تجارتهم الدينار ديناراً^٣، ولعل هذا الدخل المرتفع، هو ما مكنهم من شراء الأملاك من أراض وبساتين، هنا وهناك ولا سيما في الطائف، بيد أنه يجب الإشارة هنا إلى أن التجارة الواسعة في صفوف التجار، غالباً ما كانت محصورة في أيدي عدد محدود من الناس.^٤

ويبدو أن تجارة مكة في بداية حقبة الدور المرواني تعرضت لهزات عديدة، حيث امتد الخلاف السياسي بين عبد الله بن الزبير وبنو أمية إلى الوضع الاقتصادي، فأثر عليه ذلك تأثيراً كبيراً، فليس ثمة بائعاً كان أو مشترياً، لديه الاستعداد للمتاجرة مع الحجاج أو المعتمرين أو التجار أو حتى الزائرين من الناس العاديين، وسط جو سياسي مشحون افتقد أهم شرط من شروط التجارة الناجحة، ألا وهو الأمن والأمان للتاجر ولبضاعته على حدّ سواء. إلا أنه وبعد أن استقرت الأوضاع بمكة لصالح الأمويين، عادت الأمور إلى سيرتها الأولى، وعادت الأسواق التجارية نشاطها مدعومة بقوة الدولة الأموية السياسية والاقتصادية، والأعداد الغفيرة لقاصدي البيت الحرام. وقبل أن

^١ وات: محمد في مكة ص ١٩.

^٢ الشريف: مكة والمدينة ص ٢١١.

^٣ ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٣٧.

^٤ الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٣٢.

ينتقل البحث للحديث عن بعض أسواق مكة المكرمة، تجدر به الإشارة إلى نشاط الطائف في ميدان التجارة، فهل كان للطائف تجارة رابحة ومشهورة كما كان حال زراعتها وصناعتها؟ من الواضح أن ثمة محاولة من الطائف كانت هناك لمنافسة مكة المكرمة تجارياً، ولا سيما بعد أن حققت عليها الأولوية في ميداني الزراعة والصناعة، إلا أن مكة استطاعت في هذا المضمار أن تفرض هيمنتها التجارية ليس على ولايتها فحسب، بل على عموم أنحاء الجزيرة العربية، وهذا النصر الساحق لمكة المكرمة، سرعان ما كاد يتحول إلى صراع تجاري بين الطرفين، ولكن تم حله عبر تسوية عادلة يتعاون فيها الطرفان لمصلحة الجميع، فثمة قناعة رسخت لدى تجار الطائف فحواها؛ أن قريشاً لا تُنازع في ميدان التجارة، فما كان منها إلا أن اعترفت بالتفوق لمكة مالياً وتجارياً، وعزّت نفسها بتفوقها الزراعي والصناعي، وقامت فيها تجارة مصغرة عن تجارة مكة.

أ- الأسواق في ولاية مكة المكرمة:

السوق وجمعها أسواق، المحل الذي يتسوق منه، وهي على نوعين، إما ثابتة مع أيام السنة، يبيع فيها الباعة ويقصدها المشترون للشراء، وإما موسمية تُعقد في مواسم معينة، فإذا انتهى الموسم رفعت^١. ويبدو أن الأسواق الموسمية المتنقلة كانت منتشرة بشكل أكبر في حقبة قبل الإسلام وبدايته، أما الأسواق الثابتة الدائمة فقد انتشرت مع انتشار الإسلام، على حساب الأسواق الموسمية، ربما يتلخص السبب في أنه أصبح لكل مدينة إسلامية أو حتى أي تجمعات بشرية أسواقها الدائمة على مدار العام. ولم يكد ينقضي القرن الثاني من الهجرة حتى زالت الأسواق الموسمية، وترسخت أقدام التجار في المدن والغور، ولا يخفى على أحد دور الأسواق المهم والكبير في عملية التبادل التجاري للسلع، ولا سيما في بلد يقصده القاصي والداني كمكة.

^١الأفغاني: أسواق العرب ص ١٦٥. علي: المفصل ج ٧ ص ٣٦٥.

وخير دليل على استمرار النشاط التجاري لمكة بعد الإسلام، أن رسول الله ﷺ استعمل سعيد ابن سعيد بن العاص بن أمية على سوق مكة، كما استعمل ابن الزبير سعيد بن مينا عاملاً له على السوق في مكة^١، ويبدو أن ابن الزبير كان يدور في أسواق مكة يتشبه بعمر بن الخطاب رضي الله عنه^٢. ويبدو أن هذه السوق كانت من الأسواق الثابتة على مدار العام، حتى استعمل عليها رسول الله ﷺ، ومن بعده عبد الله بن الزبير عاملاً لهما عليها. وفي العصر الأموي، استمرت معظم أسواق مكة المكرمة الموسمية والدائمة، وزال معظمها بزوالها، وسيعود البحث لمناقشة هذه النقطة بعد أن يستعرض عدداً من الأسواق.

١- سوق عُكاظ:

بضم العين المهملة وتخفيف الكاف وفي آخره ظاء^٣، سوق بناحية مكة من جهة الجنوب إلى الشرق^٤، على طريق صنعاء في عمل الطائف^٥ على ليلة منها، وعلى ثلاث ليال من مكة^٦، وهو سوق لقيس بن عيلان^٧ وثقيف^٨، تعد عُكاظ السوق التجارية الكبرى لعامة أهل الجزيرة العربية، ومعرض لكثير من عادات العرب وخطبهم وأحوالهم الاجتماعية^٩، ولم يكن للعرب مجمع أحفل منها، فكانوا يضربون بكثرة أهلها المثل، وبقيت لها هذه الشهرة حتى ظهور الإسلام وبعده^{١٠}.

^١ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٢١٥. الخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ص ٣٠٧. العلي: الحجاز ص ٣٠٨.

^٢ ابن أعثم: الفتوح ج ٢ ص ٢٠٨.

^٣ الحموي: معجم البلدان، مادة عكاظ، ج ٤ ص ١٦٠. ابن عبد الحق: مرصد الاطلاع ج ٢ ص ٩٥٣.

^٤ الأفغاني: أسواق العرب ص ٢٤٤.

^٥ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٣١٠.

^٦ ابن عبد الحق: مرصد الاطلاع ج ٢ ص ٩٥٣. علي: المفصل ج ٧ ص ٣٧٨. العبيدي: الطائف ص ٦٦.

^٧ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ١٩٠. البخاري: صحيح البخاري ج ٢ ص ٦٢٨. الأفغاني: أسواق العرب ص ٢٥٠.

^٨ ابن حجر: فتح الباري ج ٣ ص ٥٩٤. الأفغاني: أسواق العرب ص ٢٥٠.

^٩ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ١٢٢. الشريف: مكة والمدينة ص ٧٦. العبيدي: الطائف ص ٦٦.

^{١٠} الأفغاني: أسواق العرب ص ٢٥٢.

أُخذت عُكاظ سوقاً بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة^١، وكان الناس يخرجون إليها في طريق خروجهم إلى موسم الحج، وكانت تبدأ يوم هلال ذي القعدة، فيقيمون به عشرين ليلة تقوم فيها أسواقهم^٢، فينصبون خيامهم ما بين نخيله، ويبيعون ويشتررون ويتبادلون ويتعاكضون فيما بينهم؛ أي يتفاحرون ويتناشدون^٣، ثم ينحازوا إلى منازلهم لتضبط كل قبيلة أشرفها وقادتها، ويدخل بعضهم في بعض كما حصل في اليوم الأول، وهكذا وعلى مدى عشرين يوماً، وبعدها ينصرفون إلى مجنة^٤. استمرت عُكاظ في الإسلام، وكان يُعَيَّن فيها من يقضي بين الناس لحل المشاكل المعقدة^٥، ففي الإسلام كان قاضيهما محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم، وكان أبوه قاضيهما في قبل الإسلام، فمات فصار ذلك ميراثاً لهم، وكان آخر من قضى منهم ووصل إلى الإسلام الأقرع بن حابس^٦. وتأثرت هذه السوق بالأحداث السياسية الخطيرة التي تعرضت لها الدولة الأموية في آخر أيامها، إثر خروج الحرورية بمكة المكرمة مع أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي الأباضي عام ١٢٩هـ/ ٧٤٦م، فخاف الناس أن يُنهبوا، وخافوا الفتنة، فتركوها واستغنوا عنها بالأسواق بمكة المكرمة وبمى وبعرفة^٧، ولم يكن فيها عشور ولا خفارة^٨. ولعل سبب شهرتها لم يكن كونها سوق تجارية فحسب، بل كونها ملتقى اقتصادي واجتماعي وثقافي بل وحتى رياضي، فهاهنا تجري مسابقة

^١ علي: المفصل ج ٧ ص ٣٨٠.

^٢ ابن الجوزي: المنتظم ج ٥ ص ٢٧٢. العبيدي: الطائف ص ٦٦.

^٣ الفراهيدي: العين، مادة عكظ، ج ١ ص ١٩٥. مسلم: صحيح مسلم ج ١ ص ٣٣١. الحموي: معجم البلدان، مادة عكاظ، ج ٤ ص ١٦٠. الرازي: (محمد بن أبي بكر) مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٥م، مادة عكظ، ص ٤٦٧. ابن منظور: لسان العرب، مادة عكظ، ج ٤ ص ٤٤٧.

^٤ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ١٨٨. ابن حبيب: المنق ص ٢٢٨. زيدان: (جرجي) تاريخ التمدن الإسلامي، مراجعة: حسين مؤنس، دار الهلال، د. ط ٢، ص ٣٧. الأفغاني: أسواق العرب ص ٢٥٢.

^٥ أبو النصر: الأيام الأخيرة ص ٣٠٧. العبيدي: الطائف ص ٦٧.

^٦ الأفغاني: أسواق العرب ص ٢٥٢.

^٧ ابن حجر: فتح الباري ج ٣ ص ٥٩٤. الفاسي: الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، تحقيق: علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠١م. ص ٣٤٧. الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٤٥١.

^٨ الأفغاني: أسواق العرب ص ٢٥٣. علي: المفصل ج ٧ ص ٣٧٧-٣٧٨.

للشعر بين الشعراء، وهناك يتسابق فرسان القبائل على خيولهم للمباهاة بنصر يذيع صيته في الجزيرة العربية بأسرها، وهناك أحد الحكماء يلقي خطبة بليغة تسلب ألباب الحاضرين، وما إلى ذلك من نشاطات.

٢- سوق المَجَنَّة:

بفتح الميم وكسر الجيم وتشديد النون^١، سوق بأسفل مكة المكرمة على بريد منها، وهي سوق لكنانة^٢، ينتقل إليها الناس بعد أن يفرغوا من سوق عُكاظ، ويقيمون بها أسواقهم لمدة عشرة أيام، حتى يروا هلال ذي الحجة، فينصرفوا حينئذ إلى سوق ذي المجاز^٣. وكانت سوق مجنة قائمة في الإسلام، شأنها كشأن سوق عُكاظ -السالفة الذكر- حتى بدأ عصر الضعف والانحدار للدولة الأموية، فخشي الناس على أنفسهم وممتلكاتهم من الفوضى التي سادت مكة، فتركوها^٤، وهي من المواطن التي لا ينساها أهل مكة لجمالها، ولأنها ذات مياه، وكانوا دائمي التذكر لها بعد أن تركوا مكة، وهاجروا إلى المدينة المنورة.^٥

٣- سوق ذي المجاز:

-
- ^١ ابن عبد الحق: مرصد الاطلاع ج٣ ص١٢٣١. ابن حجر: فتح الباري ج٣ ص٥٩٤.
- ^٢ ابن سعيد: نشوة الطرب ص٣٧٢. الأفغاني: أسواق العرب ص٢٩٧. العبيدي: الطائف ص٦٨.
- ^٣ الأزرق: أخبار مكة ج١ ص١٨٨. ابن حبيب: المنطق ص٢٢٨. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج١٥ ص١٠٢.
- ابن الجوزي: المنتظم ج٥ ص٢٧٢. ابن حجر: فتح الباري ج٣ ص٥٩٤. الفاسي: شفاء الغرام ج٢ ص٤٥٠.
- الأفغاني: أسواق العرب ص٢٩٧.
- ^٤ الأزرق: أخبار مكة ج١ ص١٩٠. ابن حجر: فتح الباري ج٣ ص٥٩٤.
- ^٥ الأفغاني: أسواق العرب ص٢٩٦. وهي التي ذكرها بلال الحبشي في شعره أثناء مرضه في المدينة المنورة وحينئذ لمكة المكرمة. للمزيد انظر: الأزرق: أخبار مكة ج١ ص١٩١. ابن سعيد: نشوة الطرب ص٣٧٢. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١ ص٣٥٤.

بضم الميم وتخفيف الجيم وفي آخره زاي^١، سوق لهذيل عن يمين الموقف على فرسخ من عرفة^٢، وكان الناس ينصرفوا إليها من سوق مجنة حالما يروا هلال ذي الحجة، فيقيموا فيها أسواقهم ثمان ليال^٣، وكانت مبايعة العرب فيها بإلقاء الحجارة^٤، ومع قدوم الإسلام بطلت جميع أنواع البيوع الفاسدة، في هذه السوق وغيرها. وبعد انقضائها يخرجون يوم التروية من ذي المجاز إلى عرفة، فيتروون ذلك اليوم من الماء بذوي المجاز لأنهم لا ماء بعرفة ولا مزدلفة آنذاك^٥، ضعفت سوق ذي المجاز شأنها كشأن غيرها مع بدء حركة الفتوحات الإسلامية، بيد أنها ظلت قائمة، وكان آخر العهد بها قبيل سقوط الدولة الأموية^٦.

وكان يوم التروية آخر أسواق العرب حول مكة، وكان يحضر هذه المواسم بعكاظ ومجنة وذوي المجاز من التجار من كان يريد التجارة، ومن كان لا يريد التجارة من أهل مكة، خرج من مكة يوم التروية^٧، وحالما يقف الجميع في صعيد عرفة، فإنهم لا يتبايعون؛ لا في أيام عرفة ولا أيام منى، فلما أن جاء الله بالإسلام، أحلّ الله لهم ذلك بقوله الله ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾^٨، وفي قراءة أبي بن كعب في مواسم الحج قال إن ذلك يعني عرفة ومنى وعكاظ ومجنة وذوي المجاز، فهذه مواسم الحج^٩، وكذلك كانت قراءة عبد الله بن عباس^{١٠}.

^١ ابن حجر: فتح الباري ج ٣ ص ٥٩٤.

^٢ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ١٩١. البخاري: صحيح البخاري ج ٢ ص ٦٢٨. ابن حجر: فتح الباري ج ٣ ص ٥٩٤. الأفغاني: أسواق العرب ص ٢٩٩. علي: المفصل ج ٧ ص ٣٨٠. العبيدي: الطائف ص ٦٨.

^٣ ابن حبيب: المنمق ص ٢٢٨. ابن الجوزي: المنتظم ج ٥ ص ٢٧٢.

^٤ إلقاء الحجارة: كانوا يجتمعون حول السلعة يسامون بها صاحبها، فأبهم أراد شراءها ألقى حجراً. انظر:

علي: المفصل ج ٧ ص ٣٧٥. الأفغاني: أسواق العرب ص ٣٤-٣٥.

^٥ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ١٨٨. الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٤٥٠.

^٦ أبو النصر: الأيام الأخيرة ص ٣٠٧.

^٧ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ١٨٨. ابن حجر: فتح الباري ج ٣ ص ٥٩٤.

^٨ سورة البقرة: الآية ١٩٨.

^٩ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ١٨٨-١٨٩. الفاسي: الزهور المقتطفة ص ٣٤٦.

^{١٠} البخاري: صحيح البخاري ج ٢ ص ٦٢٨. الأفغاني: أسواق العرب ص ١٧٥.

٤- سوق حُباشة:

بالضم والشين^١, سوق الأزْد بتهامة يتاجر فيها أهل الحجاز وأهل اليمن^٢, وهي من مكة المكرمة على ست ليال^٣, والحُباشة الجماعة من الناس^٤ ليسوا من جنس واحد, ولعلها سميت بذلك لكثرة ما يجتمع بها الناس من مختلف القبائل والأجناس للتجارة^٥, وهي آخر سوق خربت من أسواق الجاهلية^٦, وكان والي مكة يستعمل عليها رجالاً يُخرج معه جند -في إشارة واضحة إلى سيطرة ولاية مكة المكرمة, وفرض حمايتها على السوق, رغم بعدها النسي عن مكة المكرمة مقارنة بسواها- فيقيمون فيها ثلاثة أيام متوالية من أول رجب^٧, واستمرولة مكة في تقديم خدماتهم الأمنية لهذه السوق, مقابل بعض المكاسب التي حققوها, وبالرغم من قلاقل نهاية الدولة الأموية, وأحداث الفوضى التي ضربت الدولة الأموية, إلا أن هذه السوق استمرت؛ والسؤال هنا: ما هو السبب في استمرارها في حين ضعفت بل وزالت غيرها من الأسواق السالفة؟

ربما يعود السبب إلى أحد الأمرين الآتين أو كليهما معاً, فأما الأمر الأول فهو بُعد سوق حُباشة النسي عن مكة مقارنة بباقي الأسواق, وهذا ما نفعها في تجنبها للأحداث السياسية بشكل مباشر, مما أدنى لإطالة عمرها, أي أن المسألة مسألة المكان؛ وتعبير أدق الموقع الجغرافي. أما الأمر الثاني فيتعلق بالزمان, أي بتوقيت السوق في شهر رجب حيث لا توجد مناسبة دينية تضطر الناس للاجتماع؛ بخلاف الأسواق الأخرى والتي غالباً ما كانت تعقد قبل موسم الحج, وبالتالي فإنها بعيدة عن موطن تلاقي أخبار الأحداث الساخنة, ومشهد بعضها, أضف إلى ذلك قصر مدة السوق الزمنية الممتدة ثلاثة أيام من بداية شهر رجب, وتأمين الحماية لها من قبيلة الأزْد القائمة السوق في

^١ ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ج٣ ص٣٧٥. شراب: المعالم الأثرية ص٩٦.

^٢ الأزرقى: أخبار مكة ج١ ص١٩١. علي: المفصل ج٧ ص٣٧٦.

^٣ الأزرقى: أخبار مكة ج١ ص١٩١.

^٤ ابن منظور: لسان العرب, مادة حبش, ج٦ ص٢٧٩.

^٥ الأفغاني: أسواق العرب ص٢٢٢.

^٦ الأزرقى: أخبار مكة ج١ ص١٩٢.

^٧ الأزرقى: أخبار مكة ج١ ص١٩١. ابن حجر: فتح الباري ج٣ ص٥٩٤.

مضاربها، أو ولاية مكة المكرمة سواء في الحقبة الأموية أو بعدها. واستمرت حتى حصلت حادثة استدعت تخريبها، بعد أن قتلت الأزدي والياً كان عليها فيما بعد الحقبة الأموية عام ١٩٧هـ / ٨١٢م، فأشار فقهاء أهل مكة على والي مكة المكرمة آنذاك، داود بن عيسى بن موسى في عهد الأمين العباسي بتخريبها فخربت^١، ولم يكن لسوق حُباشة صيت وشهرة عُكاظ، أو ذي المجاز أو مجنة، وذلك بسبب أنها لم تكن في مواسم الحج، وإنما كانت في رجب^٢. وبالعودة إلى مناقشة قضية زوال الأسواق التي كانت في ولاية مكة المكرمة، فمن الممكن إرجاعها إلى الأسباب التالية:

١- الأحداث السياسية المتلاحقة، والتي شهدتها الحجاز عامة وولاية مكة المكرمة بشكل خاص، إثر سيطرة الخوارج على مكة المكرمة والمدينة المنورة معاً، حيث كان الأمن مفقود والاستقرار معدوم، فأحجم التجار عن الأسواق، متبعين مبدأ السلامة لهم ولبضائعهم.

٢- الفتوحات الإسلامية لعدد كبير من الأصقاع، مما دفع عدداً من القبائل العربية للهجرة إليها والاستيطان.

٣- انحسار الأسواق وانقراضها: كان لتحديد مواقيت الحج، وانتشار الإسلام، ومنع التعرض والتحرش بالناس طيلة أياں السنة، أكبر الأثر في جملة العوامل التي قلّلت من أهمية تلك الأسواق، فلم يعد الحجاج في حاجة إلى الذهاب في قوافل إليها، استغلالاً لحرمة الأشهر، بل صاروا يتجهون إلى المواقيت المعينة للحج رأساً، فيتجرون بمكة ويعودون إلى ديارهم، فقلّت بذلك أهمية تلك الأسواق حتى ماتت^٣.

ب- السكة العربية الإسلامية (النقد العربي):

^١ الأزرقى: أخبار مكة ج١ ص١٩٢. القلقشندي: مآثر الإنافة ص٩٣. ابن حجر: فتح الباري ج٣ ص٥٩٤. الأفغاني: أسواق العرب ص٢٢٣.

^٢ الأزرقى: أخبار مكة ج١ ص١٩٢. ابن حجر: فتح الباري ج٣ ص٥٩٤. الفاسي: شفاء الغرام ج٢ ص٤٥٢. الأفغاني: أسواق العرب ص٢٢٢.

^٣ علي: المفصل ج٧ ص٣٨٥.

لقد آثر البحث دراسة السكة الإسلامية وتاريخها، بسبب أهميتها الكبيرة في الوضع الاقتصادي لولاية مكة، فهل كان للعرب في العصر الراشدي أو ما قبل العصر الأموي عملة خاصة بهم؟ ما هي العملات التي تداولها العرب في هذه الحقبة؟ هل ثمة عملة بدأت مع قيام الدولة الأموية تعبر عن شخصيتها السياسية والاقتصادية؟ هل شهدت مكة كمركز ولاية ضرب عملة عربية إسلامية فيها؟ ومن هو الذي قام بذلك؟ وما إلى هناك من أسئلة في السياق نفسه.

لا خلاف بين المؤرخين أنه مع بداية قيام الدولة العربية الإسلامية، استخدم العرب عملة الدول المجاورة لهم، مثل الدرهم الفارسي والدينار البيزنطي، إذ لم تكن للعرب آنذاك عملة خاصة بهم، ففي عهد رسول الله ﷺ أقرت النقود في الإسلام على ما كانت عليه قبل الإسلام^١، ولعل سبب ذلك انشغاله ﷺ في عملية الفتوحات الإسلامية، فأجل المواضيع الإدارية والاقتصادية ريثما تستقر الأمور، فلما استخلف أبو بكر الصديق ﷺ عمل في ذلك بسنة رسول الله ﷺ ولم يغير منها شيئاً^٢، ويمكن تفسير ذلك بانشغاله ﷺ في حروب الردة، والتي عمت معظم أرجاء الجزيرة العربية - عدا الحجاز - من جهة، وقصر حقبته من ناحية أخرى.

حتى إذا جاء عهد عمر بن الخطاب ﷺ، وفتح الله على يديه مصر والشام والعراق، لم يعرض لشيء من النقود في بداية حكمه، بل أقرها على حالها^٣، ثم ضرب عمر ﷺ الدرهم العمري في المدينة، واستعمله الناس في مكة إلى جانب بعض القطع الفارسية، وبقي ذلك الدرهم أساس التداول في مكة حتى نهاية عهد ابن الزبير^٤، وكان ضرب عمر ﷺ على نقش الكسروية وشكلها، غير أنه زاد في بعضها (الحمد لله)، وفي بعضها (محمد رسول الله)، وفي بعضها (لا إله إلا الله

^١ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١٠. المقرئزي: (أحمد بن علي) شذور العقود في ذكر النقود، تحقيق: السيد محمد بحر العلوم، بيروت، دار الزهراء، ١٩٨٨م، ط ٦، ص ٥٩. الخضرى: (محمد) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة الأموية)، القاهرة، المكتبة التجارية، ١٩٦٩م، ج ٢ ص ١٦٤. حلاق: (محمد صبحي) الإيضاحات العصرية للمقاييس والمكايل والأوزان والنقود الشرعية، صنعاء، مكتبة الجيل الجديد، ٢٠٠٧م، ط ١، ص ٢٣٣.

^٢ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١٠. المقرئزي: شذور العقود ص ٦٠. حسيني: الإدارة العربية ص ١٧٢.

^٣ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١٠. حلاق: الإيضاحات العصرية ص ٢٣٣.

^٤ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٦.

وحده)^١، فلما بويع عثمان بن عفان ؓ قام بنشاط اقتصادي، حيث ضرب في خلافته دراهم نقشها (الله أكبر)^٢، هذا وقد وصفت بعض الروايات أن أقدم سكة في الإسلام ضربت في خلافة عثمان بن عفان ؓ عام ٢٨هـ/٦٤٨م في بلاد طبرستان، وكتب عليها بالخط الكوفي (بسم الله ربي).^٣ وفي خلافة علي بن أبي طالب ؓ، ضرب سكة عام ٣٧هـ/٦٥٧م وكتب فيها (ولي الله)، وفي عام ٣٨هـ/٦٥٨م وعام ٣٩هـ/٦٥٩م ضرب عليها (بسم الله ربي)، وفي درهم بالخط الكوفي في جانب منها (الله أحد الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد)، وفي دورته (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) وفي الجانب الآخر (لا إله إلا الله وحده لا شريك له)، وفي دورته (ضرب هذا الدرهم بالبصرة سنة أربعين).^٤ ويمكن القول بأن أشهر من اهتم بموضوع النقد في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ؓ، كان عمر بن الخطاب ؓ، وعثمان بن عفان ؓ، وربما كان السبب يعود لطول عهديهما —عمر وعثمان ؓ— إضافة لرغبتهم ببناء نواة اقتصادية للتحرر النقدي من سيطرة النقد الأجنبي، وكان للمسلمين ذلك في عصر الدولة الأموية.

فحالما اجتمع الأمر لمعاوية بن أبي سفيان بعد عام الجماعة ٤١هـ/٦٦١م، ضرب الدراهم السود الناقصة من ستة دوانيق^٥، فكانت تجري مجرى الدرهم^٦، وضرب معاوية أيضاً دنانير عليها تمثاله متقلداً سيفاً^٧، في سابقة من نوعها، ولعل هذا الأمر دفع أحد شيوخ الجند إلى الاعتراض

^١ المقرئزي: شذور العقود ص ٦٠. الكتاني: التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣٣٣. حلاق: الإيضاحات العصرية ص ٢٣٤. الخضري: محاضرات ج ٢ ص ٢١٩. حسيني: الإدارة العربية ص ١٧٢.

^٢ المقرئزي: شذور العقود ص ٦٠. حسيني: الإدارة العربية ص ١٧٢. حلاق: الإيضاحات العصرية ص ٢٣٤.

^٣ الكتاني: التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣٣٢.

^٤ الكتاني: المرجع المتقدم ج ١ ص ٣٣٢.

^٥ دوانيق جمع دائق، بفتح النون وكسرها، وهو سدس الدينار والدرهم، ويقدر وزنه بـ ٤٠٨٢، ٠، ٤ غرام. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة دنق، ج ١ ص ١٠٥. حلاق: الإيضاحات العصرية ص ١٩١.

^٦ المقرئزي: شذور العقود ص ٦٠. الخضري: محاضرات ج ٢ ص ٢١٩.

^٧ المقرئزي: شذور العقود ص ٦١. الكتاني: التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣٣٢. القيسي: (ناهض) موسوعة النقود العربية والإسلامية، عمان، دار أسامة، ٢٠٠١م، ط ١، ص ٢٧. حلاق: الإيضاحات العصرية ص ٢٣٤.

على ضربها بأنه شر ضرب، ورمها في وجه معاوية، فما كان من معاوية إلا أن حرمه منها.^١ فلما قام حكم عبد الله بن الزبير بمكة المكرمة -وبالإضافة إلى النقد المتداول من عهد عمر رضي الله عنه إلى عهد ابن الزبير كما سلف- ضرب دراهم مدورة، وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة، وكان ما ضرب منها قبل ذلك ممسوحاً غليظاً قصيراً، فدورها عبد الله ونقش على أحد وجهي الدرهم (محمد رسول الله) وعلى الآخر (أمر الله بالوفاء والعدل)، وضرب أخوه مصعب بن الزبير عام ٦٨٩هـ/٧٠م دراهم بالعراق^٢، وجعل ضربها على ضرب الأكاسرة، وعليها (بركة) وعليها (الله)^٣، وجعل كل عشرة منها سبعة مثاقيل^٤، وأعطاهما الناس في العطاء^٥، كما روي أن أول من ضرب وزن سبعة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي أيام ابن الزبير^٦، وكان على دراهم مصعب مكتوب بالخط الكوفي عام ٧١هـ/٦٩٠م على الوجه الأول (بسم الله)، وعلى الوجه الثاني بالخط الفهلوي الفارسي (عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين أورشنكان)^٧، وقيل أن مصعب ضرب مع الدراهم دنانير أيضاً.^٨

ويبدو جلياً أن قصد ابن الزبير من سك عملة خاصة به رغبته بالاستقلال الاقتصادي، بعد أن نال -وحسب اعتقاده- الاستقلال السياسي عبر إصدار هذه العملة، ويبدو أن القسم الأكبر

^١ وللمزيد عن القصة انظر: المقرئ: شذور العقود ص ٦١. حلاق: الإيضاحات العصرية ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

^٢ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٥٤. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ١٥. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٥٨.

^٣ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١٣. الماوردي: (أبو الحسن علي بن محمد) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة، دار الحديث، د.ت، ص ٢٣٨. القلقشندي: مآثر الإنافة ج ٢ ص ٢٣٠. الخزاعي: تخريج الدلالات السمعية ص ٦٢٧. حلاق: الإيضاحات العصرية ص ٢٢٨.

^٤ عن المثقال انظر في الملاحق.

^٥ المقرئ: شذور العقود ص ٦٢. الخضري: محاضرات ج ٢ ص ٢١٩. معطي: (علي) تاريخ النقود العربية والإسلامية، بيروت، دار المنهل اللبناني، ٢٠٠٨م، ط ١، ص ٣٧. سالم: تاريخ الدولة العربية ص ٢٨.

^٦ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١٢.

^٧ الكتاني: التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣٣٢. قيسي: موسوعة النقود ص ٢٨. معطي: تاريخ النقود العربية ص ٣٨.

^٨ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١٣.

من نقده كان قد ضرب خارج مكة المكرمة؛ ولا سيما في ولاية العراق حيث الخيرات أكثر، والأموال أوفر، وذلك على يد أخيه مصعب بن الزبير.

كما يمكن الاستنتاج من الروايات السالفة، عدم إجابة صناعة ضرب العملة في العهود السابقة لعهد ابن الزبير، ويؤيد ذلك الرواية التي أورد ملخصها البحث بين أحد شيوخ الجند ومعاوية بن أبي سفيان، وبالتالي لا يمكن لأحد أن يُنكر بأن محاولات الخلفاء عمر وعثمان رضي الله عنهما ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن الزبير، كانت تجسد الخطوات الأولى لحدوث التغيير الأهم في تاريخ السكة العربية الإسلامية، والذي أነع ثمره في عهد عبد الملك بن مروان.

فحالما استوثق الأمر لعبد الملك بن مروان، إثر مقتل عبد الله ومصعب ابني الزبير، فحصى عن النقود والأوزان والمكاييل، ف ضرب الدينارين والدراهم في عام الجماعة ٧٤هـ/٦٩٣م^١، وقيل عام ٧٥هـ/٦٩٤م، ووزعها على الأمصار عام ٧٦هـ/٦٩٥م^٢، وكان وزن الدرهم الواحد يعادل بما يتراوح بين ٢,٧٠ غرام و ٢,٩٤ غرام، أما وزن الدينار فيتراوح بين ٤,٢٢ غرام و ٤,٦٤ غرام^٣. وثمة روايتان تتحدثان عن أسباب قيام عبد الملك بن مروان بهذا العمل البالغ الأهمية، والذي به أثبت وجود للدولة الإسلامية اقتصادياً؟

الرواية الأولى تقول بأن الكتب التي كان يوجهها عبد الملك إلى الروم، كان يكتب في صدرها (قل هو الله أحد) وكان يذكر النبي ﷺ مع التاريخ، فكتب إليه ملك الروم: "إنكم قد أحدثتم كذا وكذا فاتركوه، وإلا أتاكم في دنائركم من ذكر نبيكم ما تكرهون"، فعظم ذلك على عبد الملك، فأحضر خالد بن يزيد بن معاوية، فاستشاره فيه، فقال له: "حرم دنائيرهم، واضرب للناس سكة فيها

^١ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١٢.

^٢ الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٢٣٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٥٢. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ١٤-١٥. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ٣٢٣. الكتاني: التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣٣٢. الخصري: محاضرات ج ٢ ص ٢٢١. حلاق: الإيضاحات العصرية ص ٢٢٨.

^٣ الخصري: محاضرات ج ٢ ص ٢٢١.

ذكر الله تعالى، "فضرب عبد الملك الدرهم والدينار^١. أما الرواية الأخرى، فتقول أن سبب ضرب عبد الملك للدرهم والدينار، الخبر الذي أخبره إياه خالد بن يزيد، وهو بأن العلماء من أهل الكتاب الأول يذكرون أنهم يجدون في كتبهم، أن أطول الخلفاء عمراً من قدس الله تعالى في الدرهم، فعزم عبد الملك على ذلك، ووضع السكة الإسلامية^٢.

ولعل الرواية السالفة فيها شيء من المبالغة، كونها أفرغت عمل عبد الملك من فحواه، وانتقصت من شأنه، ولكي يكون البحث موضوعياً أمام الروائتين، فلا بأس بعد الرواية الأولى السبب القريب أو المباشر، فرغبة عبد الملك بإكمال الخطوات التي بدأها من سبقه من الخلفاء على طريق بناء اقتصاد قوي لدولة عربية إسلامية قوية، قهرت أشرس عدوين له - وهما الفرس والروم - هي الأساس، وكان لابد لهذه الدولة من عملة تنسخ ما كان قبلها من العملات، سواء العربية ولاسيما عملة ابن الزبير في مكة المكرمة، أو غير عربية من رومية وفارسية وما سواها.

أما الرواية الثانية فحسبها أن تكون سبباً ثانوياً، بل وهامشياً لأن معظم الحكام فيهم هذا الطبع، وهو الرغبة في البقاء بالمنصب حيث السلطان والجاه، إلا أن المبدأ القائل: لو دامت لغيرك لما وصلت لك، لطالما كان أقوى من رغبة الجميع.

وعلى الفور كتب عبد الملك إلى الحجاج وهو بالعراق أن اضرب الدراهم، فضربها وطرحها للتداول، وكان درهمه مستدير الشكل، ونقش وفق رواية (بسم الله الحجاج)^٣، ثم كتب عليها بعد سنة (الله أحد الله الصمد)، فكره ذلك الفقهاء فسميت مكروهة^٤، في حين قالت رواية أخرى أن الحجاج كتب (بسم الله) في جانب، و(الحجاج) في جانب آخر^٥، وقيل نُقش على أحد جانبيه (قل هو الله أحد)، وعلى الجانب الآخر (لا إله إلا الله)، وكان للجانبين طوقان جميلان نقش على

^١ العسكري: الأوائل ص ٢٥٤. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٥٣. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٥٧. حلاق: الإيضاحات العصرية ص ٢٣٠.

^٢ المقرئ: شذور العقود ص ٦٣. حلاق: الإيضاحات العصرية ص ٢٣٦.

^٣ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١٣. القلقشندي: مآثر الإنافة ج ٢ ص ٢٣٠.

^٤ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١٣.

^٥ الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٢٣٨.

أحدهما(ضرب هذا الدرهم في مدينة كذا وكذا), وفي الطوق الآخر (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله).^١

وعندما أرسل عبد الملك بالسكة إلى الحجاج ليضرب النقود إلى كافة الأمصار, طلب الحجاج من الأمصار أن تكتب إليه في كل شهر بما يجتمع قبلهم من المال كي يحصيه عندهم, كما طلب أن تضرب الدراهم في الأفاق على السكة الإسلامية, وتحمل إليه أولاً فأول, وقدر في كل مائة درهم أجر الخطب وأجر الضرب.^٢

وكان الناس قبل عبد الملك يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار والصغار, فلما اجتمعوا مع عبد الملك عمد إلى درهم واف فوزنه فإذا هو ثمانية دنانيق, وإلى درهم من الصغار فإذا هو أربعة دنانيق, فجمعها وكمّل زيادة الأكبر على نقص الأصغر, وجعلها درهمن متساويين, زنة كل منها ستة دنانيق.^٣ وبالإجمال يمكن تقسيم نقود الخليفة عبد الملك بن مروان إلى ثلاثة أنواع:

١. النوع الأول: النقود قبل التعريب والتي كانت سائدة بين ٦٥-٦٧هـ/٦٨٤-٦٨٦م.

٢. النوع الثاني: النقود في مرحلة التعريب وكانت سائدة بين ٦٧-٧٧هـ/٦٨٦-٦٩٦م.

٣. النوع الثالث: النقود العربية بعد تخليصها من التبعية الأجنبية بعد عام ٧٧هـ/٦٩٦م.^٤

وهكذا شهد عهد عبد الملك الثورة الحقيقية للاقتصاد العربي الإسلامي, بتخليه الكامل عن النقد الأجنبي, وتهديدات الدول الأجنبية, ونشر النقد العربي في كافة أنحاء الدولة العربية الإسلامية, بما فيها ولاية مكة ومدنها.

بقي الأمر على حاله بعد وفاة عبد الملك, وتولي الوليد بن عبد الملك الخلافة, وكان المسؤول عن سلامة الموازين والمقاييس رجال الشرطة, ودأب الوليد بن عبد الملك على الطواف بالأسواق

^١ العسكري: الأوائل ص ٢٥٤. الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٢٣٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ

ج ٣ ص ٤٥٣. حسيني: الإدارة العربية ص ١٧٥. حلاق: الإيضاحات العصرية ص ٢٣٠.

^٢ الخضري: محاضرات ج ٢ ص ٢٢٠.

^٣ الخضري: المرجع المتقدم ج ٢ ص ٢٢٠-٢٢١.

^٤ القيسي: موسوعة النقود العربية والإسلامية ص ٢٨.

وتخفيض أسعار المواد أحياناً^١, ثم جاء عهد سليمان ثم عمر بن عبد العزيز إلى أن استُخلف يزيد ابن عبد الملك, فضرب الهبيرة بالعراق عمر بن هبيرة على عيار ستة دوانق^٢, وكان عمر بن هبيرة أول من شدد في أمر الوزن وخلّص الفضة, وجوّد الدرهم, وخلّص العيار واشتد فيه^٣, فلما قام هشام بن عبد الملك -وكان جموعاً للمال- أمر خالد بن عبد الله القسري عام ١٠٦هـ/٧٢٤م بإعادة العيار إلى وزن سبعة, وأن يبطل السك في كل بلدة إلا واسط, فضرب الدراهم بواسطة, فاشتد أكثر من ابن هبيرة^٤, وكبّر السكة, فضرب الدراهم على السكة الخالدية^٥ حتى عزل خالد في عام ١٢٠هـ/٧٣٧م, وتولى من بعده يوسف بن عمر الثقفي, فأفرط في الشدة, فامتحن يوماً العيار فوجد درهماً ينقص حبة^٦, فضرب كل صانع ألف سوط, وكانوا مائة صانع, فضرب في حبة مائة ألف سوط^٧, وصعّر السكة وأجراها على وزن سبعة, وضربها بواسطة حتى قتل الوليد بن يزيد عام ١٢٦هـ/٧٤٣م^٨, وعندما استخلف مروان بن محمد ضرب الدرهم بالجزيرة على السكة بجران إلى أن قُتل^٩, وكانت الهبيرة والخالدية واليوسفية أجود نقود بنو أمية, حتى أن الخليفة العباسي المنصور فيما بعد, لم يقبل في الخراج غيرها^{١٠}.

^١ حسيني: الإدارة العربية ص ١٧٦.

^٢ المقرئزي: شذور العقود ص ٦٨.

^٣ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١٣. الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٢٣٧-٢٣٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٥٣. حلاق: الإيضاحات العصرية ص ٢٣١.

^٤ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١٣. الإيضاحات العصرية ص ٢٣١.

^٥ الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٢٣٨. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ١٥.

^٦ عن الحبة وما تعادل انظر في الملاحق.

^٧ العسكري: الأوائل ص ٢٥٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٥٣. حلاق: الإيضاحات العصرية ص ٢٣١.

^٨ المقرئزي: شذور العقود ص ٦٨. الخضري: محاضرات ج ٢ ص ٢٢١. حسيني: الإدارة العربية ص ١٧٥.

^٩ المقرئزي: شذور العقود ص ٦٩. الخضري: محاضرات ج ٢ ص ٢٢٠-٢٢١.

^{١٠} البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥١٤. الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٢٣٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٥٣. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٥٧. حلاق: الإيضاحات العصرية ص ٢٣١.

وبالنتيجة فقد سادت في مكة المكرمة خلال حقبة العصر الأموي، بفرعيه السفلي والمرواني العديد من أشكال النقد العربي، وتنوع في شكله ومضمونه، إلا أن الهدف المنشود كان واحداً وهو تحقيق الاستقلال الاقتصادي، بنقد وسكة عربية إسلامية خالصة من حيث الصنع والتداول. لقد نجحت الدولة الأموية في فرض سكتها حتى على أعدائها، ونسخت كل النقود العربية التي كانت متداولة، ففي مكة مثلاً كانت تسود العملة الزبيرية، وأي عملة تدخل مكة لا بد من أن تنتشر إلى مختلف أصقاع العالم، فيبدو أن الأمويين جمعوها وصهروها، وأخرجوا عملة تابعة لهم.

رابعاً: موارد مالية أخرى:

وثمة موارد مالية أخرى إلى جانب الزراعة والصناعة والتجارة، كانت تنتفع بها ولاية مكة المكرمة في العصر الأموي لعل أهمها:

أ- تأجير وبيع البيوت في مكة المكرمة:

كانت بيوت مكة المكرمة تدعى السوائب، لم تبع رباعها في زمن رسول الله ﷺ، ولا في أيام أبي بكر ولا عمر رضي الله عنهما، من احتاج سكن ومن استغنى أسكن^١، كما وردت العديد من الأحاديث التي تؤكد على حرمة بيع أو تأجير رباع مكة وبيوتها من جهة، وأحاديث ترى لا ضير في ذلك وأجازت بيع من باع ولم ترده، ويبدو أنه لا بد للبحث من ذكر مجملها كبدائية ضرورية، ومقدمة للحديث عن هذا الموضوع.

^١ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٤٤. ابن ماجه: (أبو عبد الله محمد بن يزيد) سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الفكر، د.ت، ج ٢ ص ١٠٣٧. الطحاوي: (أبو جعفر أحمد بن محمد) شرح معاني الآثار، تحقيق: محمد زهري النجار، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٩هـ، ط ١، ج ٤ ص ٤٨. الطبراني: (أبو القاسم سليمان بن محمد) المعجم الكبير، تحقيق: حمدي السلفي، الموصل، مكتبة العلوم والحكمة، ١٩٨٣م، ط ٢، ج ١٨ ص ٨. الدار قطني: سنن الدار قطني ج ٣ ص ٥٨. البيهقي: سنن البيهقي الكبرى ج ٦ ص ٣٥. ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ج ٣ ص ٣٨١.

أما الأحاديث التي تؤكد على حرمة البيع والتأجير، فهي قول رسول الله ﷺ: "إن الذي يأكل كراء بيوت مكة إنما يأكل في بطنه ناراً"^١، وقال أيضاً: "مكة مَنَاح لا يباع رباها ولا تؤاجر بيوتها"^٢، وفي لفظ آخر: "مكة حرام وحرام بيع رباها وأجرها بيوتها"^٣. وبهذا المعنى فإن عائدات البيع والإجار من بيوت أهل مكة كانت معدومة، ولكن ما هي الأحاديث والوقائع التي أشارت إلى جواز ذلك؟

عندما دخل رسول الله ﷺ مكة المكرمة بعد الفتح، وقيل له: "هلاً نزلت في دورك" فقال: "وهل ترك لنا عقيل من رُبْعٍ"^٤، فلولا جواز بيعها ما أمضى بيع عقيل، وجعل مشتريها من عقيل أحق به منه. وقد اشترى عمر بن الخطاب رضي الله عنه داراً بمكة بأربعة آلاف درهم، فلم ينكر شراءه أحد، فصار كالإجماع، وما جاز بيعه جاز إجارته كسائر البلاد.^٥

ولعل سبب تعدد الأقوال فيما يتعلق بإيجار أو بيع بيوت مكة أو عدمها، يعود إلى الطريقة التي فتحت بها مكة، فإذا كانت قد فتحت صلحاً فلاهلها الحق التام للتصرف في شؤونهم من بيع وشراء وغير ذلك، وإذا كان الفتح عنوة فتكون مكة بهذا المعنى غنيمة للمسلمين.

وكحل وسط بين هذا وذاك ذهب بعض الفقهاء لكراهتها، فقد روي عن عطاء بن رباح وهو فقيه أهل مكة في العصر الأموي أنه كان يكره أجور بيوت مكة^٦، كما روي أن طاووس ومجاهد أيضاً كانوا يكرهون ذلك^٧، وروي أن مجاهداً قال: "لا أرى بكراء بيوت مكة بأساً إلا أن يتكاري

^١ الأزرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٣. الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٤٦. الدار قطني: سنن الدار قطني

ج ٣ ص ٥٨. البيهقي: سنن البيهقي الكبرى ج ٦ ص ٣٥. ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ج ٣ ص ٣٨١.

^٢ البيهقي: سنن البيهقي الكبرى ج ٦ ص ٣٥.

^٣ الدار قطني: سنن الدار قطني ج ٣ ص ٥٧. البيهقي: سنن البيهقي الكبرى ج ٦ ص ٣٥.

^٤ عقيل بن أبي طالب ورث أبيه هو وطالب، ولم يرثه جعفر وعلي لأخهما كانا مسلمين، وكان عقيل وطالب كافرين. انظر: الطحاوي: شرح معاني الآثار ج ٤ ص ٤٩.

^٥ الماوردي: الحاوي الكبير، بيروت، دار الفكر، د. ت، ج ٧ ص ١١٠٣.

^٦ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٤٩. الطحاوي: شرح معاني الآثار ج ٤ ص ٤٩.

^٧ ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ج ٣ ص ٣٨١.

رجل يتربح فيه " ^١، أما الخليفة عمر بن عبد العزيز، فقد حدّد موقفه من هذه القضية بالكتاب الذي أرسله إلى أمير مكة -وكما سلف في الوضع الإداري- نّاه فيه عن إجارة بيوت مكة ^٢، فتكاري الناس سرّاً ^٣.

وبهذا المعنى، فمن كان مضطراً للإيجار أو البيع نتيجة الفقر أو الفاقة أو حالة معينة، فلا إثم عليه، ويجوز له ذلك، ومن لم يكن بحاجة وكان غنياً موسراً فلا مسوغ لعمله هذا. ولا يستطيع أحد أن ينكر مدى الوفر الاقتصادي الذي كانت ستحققه مكة من جراء تأجير بيوتها أو بيعها للحجاج الوافدين إليها من شتى أنحاء المعمورة، ولعل عدم وجود أراضي زراعية واسعة في مكة، وعدم وجود صناعة متطورة فيها، لم يترك مجالاً لأهلها إلا الإيجار أو البيع والشراء، وتطوروا رويداً رويداً للعمل في التجارة، فعوضتها التجارة عن كل ما سلف.

ب- الزكاة والغنائم:

كانت الزكاة من الموارد المالية المهمة، والتي يتم توزيعها على المسلمين، ففي العصر الراشدي كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعماله على مكة المكرمة والطائف: "إن في خلايا العسل صدقة فخذوا منها"، وجعل في العسل العشر، ولعل الأمور سارت على هذا الشكل في العصر الأموي، فمكة المكرمة كانت السوق الأبرز لعسل الطائف المشهور، المتعدد الأصناف، والزكاة أو الصدقة المفروضة عليه، لا شك أنها ستوزع على المحتاجين في مكة المكرمة والطائف، وبذلك يحصل بها النفع للجميع.

أما الغنائم فقد كانت لصالح أسر المهاجرين في البداية، وزاد هذا المورد مع فتوحات المسلمين خارج الجزيرة العربية ^٥. ولا شك أن ثمة أعداد كبيرة من أبناء ولاية مكة المكرمة، كانوا مع جيوش

^١ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٥١.

^٢ الأزرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٤. البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥٠. الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٥٠. ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ج ٣ ص ٣٨١.

^٣ الأزرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٤. الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٢٥٠. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٨٣.

^٤ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٦٥.

^٥ زويد: التطور التاريخي ص ٣٣٧.

الفتوحات الإسلامية, وأن أخذهم الغنائم, وإرسالها لمن يهمهم أمرهم في مكة المكرمة وما حولها, أفاد مكة المكرمة من هذا المورد المالي.

ج- العطاء:

يمثل العطاء المورد المالي السنوي للأسرة الحجازية في العصر الراشدي والأموي, بل لقد كان العطاء أكبر مورد مالي لأهل الحجاز عامة, ولأبناء مكة المكرمة خاصة, وبالرغم من أنه كان يختلف باختلاف الخلفاء^١, إلا أن بني أمية كانوا يصدقون العطاء على شخصيات لها مكانتها في الإسلام أمثال الحسين بن علي, عبد الله بن جعفر, عبد الله بن الزبير, عبد الله بن عباس وغيرهم.^٢ ومن صور العطاء في مكة زمن خلافة عبد الله بن الزبير ما كان يصل إليها من الأمصار التابعة لها, فعندما قدم مصعب بن الزبير عام ٧٠هـ/٦٨٩م من العراق, جاء ومعه أموال عظيمة^٣, فقسمها في قومه وغيرهم, كما قدم بدواب كثيرة محملة بالأثقال, فأرسل مصعب بن الزبير إلى عبد الله بن صفوان وجبير بن شيبه وعبد الله بن مطيع مالا كثيرا, ونحر بدنأ كثيرة^٤. ويبدو أن هذا الفعل جاء كرد فعل لما يقوم به الأمويون تجاه أتباعهم؛ من إغداق للأعطيات والجوائز الثمينة عليهم. ومن الروايات التي تدلل على أهمية العطاء بالنسبة لأهل مكة ما روي عن خطبة الحجاج في بعض قدماته مكة وهو والي الحج, حيث قال: "يا أهل مكة إنا قد أرملنا^٥, ولكني سأبعث إليكم إن شاء الله, فأنظرونا", فقام رجل فقال: " لا أنظر الله من أنظرك, ولا عذر من عذرك, أمير

^١ ابن حبيب: المنطق ص ٣١٤.

^٢ الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٣٢.

^٣ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٧٠. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ١٠١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣٦٣. وقد كان لمصعب أياد بيضاء مع أهل البصرة, حيث أغدق عليهم العطاء في الصيف والشتاء, للمزيد انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٥٨ ص ٢٣٩.

^٤ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٧٠. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ١٠١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣٦٣. الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٥٣.

^٥ بمعنى نفد طعام القوم وزادهم. انظر: ابن منظور: لسان العرب, مادة نفذ, ج ٧ ص ٢٤٠.

العراقيين وابن عظيم القرينين^١ ويقول أنظروني"، قال فقال الحجاج: "صدقت لا عذر الله من عذرني، ولا أنظر من أنظري"، ثم نزل فتسلف ألف ألف درهم من وجوه أهل العراق ممن وافى الحج، فقسمه على أهل مكة^٢. كما روي عن الوليد بن عبد الملك، أنه لما قدم إلى مكة وهو خليفة، دخل عليه أحدهم ويقال له الفضل بن العباس اللهي، فشكا إليه كثرة العيال، وسأله العطاء، فأعطاه مالا وإبلا ورقيقا، ولما مات الوليد وحج سليمان أتاه فسأله فلم يعطه^٣، بينما أعطى غيره من الناس^٤. ويبدو من خلال الرواية السالفة، أن بعض الناس كانوا يعولون كثيراً على العطاء نتيجة كثرة عيالهم والتزاماتهم، وكانوا قد اعتادوا على سؤال الخلفاء حالما يسمعون أنهم قدموا إلى مكة، صحيح أنهم قد يكونوا جاؤوا من خارجها، إلا أن العطاء على كل حال كان له أهمية في الحياة المعيشية لهم. وقد مرت حقبة على مكة قطع فيها عنها العطاء، نتيجة الأحداث السياسية التي كانت تدور على أراضيها، ولا سيما في عهد عبد الله بن الزبير، حيث رفع الأمويون أيديهم عن إعطاء المال، محملين أهل مكة وزر تأييد ابن الزبير كما يُعتقد.

إلا أن الأمويين ذهبوا إلى أبعد من ذلك، عندما قطعوا العطاء عن أهل الحجاز عامة، حتى اشتد الأمر عليهم، حتى بعد زوال وانتفاء خلافة ابن الزبير، والظاهر أن بعض الخلفاء كان يقطع العطاء أحيانا تأديباً وعقوبة للمقطوع عنه، حيث روي أن هشام بن عبد الملك قطع العطاء عن أهل مكة والمدينة بعد ثورة يزيد بن علي بن الحسين^٥، وتم حل ذلك بعد أن توسط لهم أحد الفقهاء، ففي لقاء جمع بين الفقيه عطاء بن أبي رباح والخليفة هشام بن عبد الملك، سأل عطاء الخليفة الأعطيات والأرزاق لأهل الحرمين، فأجابه هشام لطلبه، وأمر بعطاءين وأرزاقهم لسنة^٦.

^١ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٣٧-١٣٨. ابن حمدون: التذكرة الحمدونية ج ٧ ص ٢٤٦. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤.

^٢ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٣٧-١٣٨. ابن حمدون: التذكرة الحمدونية ج ٧ ص ٢٤٦.

^٣ الأصفهاني: الأغاني ج ١٦ ص ١٧٨. الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٣٨.

^٤ وقصته مع الشاعر أبي دهل معروفة. انظر: الأصفهاني: الأغاني ج ٧ ص ١٥٠-١٥١.

^٥ الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٣٤.

^٦ ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٦٧.

خامساً: أثر الحصار الاقتصادي في سقوط خلافة ابن الزبير:

يبدو أن الحصار العسكري الذي كان فرضه الأمويون على ابن الزبير، ما كان ليعطي أكله بهذه السرعة لو لم يترافق مع حصار اقتصادي خانق، امتد إلى أمس حاجات الإنسان من طعام وشراب. لقد نجح عبد الملك بن مروان بفرض حصار اقتصادي، كان من أول إجراءاته قطع الميرة والطعام عن ابن الزبير ومن معه من أهل مكة^١، وكان لذلك أكبر الأثر في الحط من شأن عزيمة جنوده وأنصاره، مما دفع بعضهم إلى التخلي عنه - كما أسلف البحث - بعد أن عاشوا أصعب اللحظات، وأشد الأوقات، حيث قل مخزون الطعام بشكل عام، وارتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعاً فاحشاً، وسط جو عانى فيه الناس من الشدة والفقر.^٢

وتشير الروايات إلى أنه نتيجة هذا الغلاء وانعدام الأشياء، فقد اضطر ابن الزبير إلى ذبح فرسه، وقسمها على من معه من الجماعة، بعد أن فرّ غالبهم من الجوع، وبيع مدّ الذرة بعشرين درهماً، والدجاجة بعشرة دراهم كما اضطر بعض أصحاب ابن الزبير لأن يأكلوا البراذين، ولعل مما يثير الدهشة - والحال على هذه الشاكلة - أن بيوت ابن الزبير كانت تقصف تمرّاً وشعيراً وذرة وقمحاً، لا ينفق منها إلا ما يمسك الرمق يقوي بها نفوس أصحابه^٣، ومما زاد الطين بلة إلى جانب الفقر والشدة، وجود الاحتكار والمحتكرين، فقد روي أنه قدم تاجر من جدة، ودخل من أسفل مكة بأحمرّة تحمل قمحاً، فكان يبيع الصاع بما احتكم.^٤

ولعل ابن الزبير كان يعتقد بأن الحصار من الممكن أن يطول مدة أكثر، وأن الظروف الأشدّ سوءاً لم تأت بعد، فتراه لذلك اقتصد بالإنفاق على أصحابه، وأعرب عن ذلك بقوله: "أنفس

^١ ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٢٤٤. ابن عساکر: تاريخ دمشق ج ٥٩ ص ٣٠٨.

^٢ الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٣٦. عاقل: خلافة بني أمية ص ١٥٧.

^٣ عن المدّ انظر في ملاحق البحث.

^٤ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٧٠. ابن حمدون: التذكرة الحمدونية ج ٢ ص ٣٤١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٠١. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٤٩.

^٥ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٧١.

أصحابي قوية ما لم يفنى"^١, إلا أن هذا الإجراء—على أرض الواقع—كان له رد فعل عكسي, فتركه بعض أصحابه من جهة, وحسم الحجاج بن يوسف الحصار لصالحه من جهة ثانية, واستبد الاحتكار بالقلّة القليلة المتبقية بأيدي الناس من جهة ثالثة, فباعت خطة ابن الزبير وتدبيره بالفشل الذريع جملةً وتفصيلاً.

الفصل السادس

الوضع الديني في ولاية مكة المكرمة في الدور المرواني

^١ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٠١.

أولاً: التنظيم الديني لدى الأمويين.

ثانياً: موسم الحج.

ثالثاً: الشروط الواجب توافرها في أمير الحج.

رابعاً: أمراء مواسم الحج.

أولاً: التنظيم الديني لدى الأمويين:

يبدو أن الوضع الديني لولاية مكة المكرمة في العصر الأموي، استمر على حاله كما كان في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، فلم يكن هناك ثمة تغييرات يمكن للمرء أن يلاحظها، فأركان الإسلام الخمسة ولاسيما الصلاة والزكاة والحج كانت محط أنظار الأمويين واهتمامهم، فإمامة الصلاة -والصلاة عماد الدين- ينبغي أن تُسند لرجال مشهود لهم بالورع والعلم الغزير، وبعد أن تم

تأمين الإمام المناسب ذي الكفاءة -حتى ولو كان من الموالي كما سيوضح البحث لاحقاً- النف الأمويون لتأمين ما يلزم المصلين, فأقاموا المساجد واعتنوا بها عناية فريدة, ووسعوها بين الفينة والفينة, لتستوعب أعداد المصلين المتزايدة, وخصّوا بعنايتهم الفائقة المسجد الحرام, ليصبح في عهدهم آية من آيات الفن المعماري الأموي, بعد أن وسعوه وزينوه واستقدموا له المواد والفنيين من شتى الأصقاع^١. وفيما يتعلق بالزكاة, فقد تم اختيار المشرف على جمع الزكاة والصدقات رجال توافرت فيهم شروط إمام الصلاة نفسها, فحساب الزكاة وتوزيعها في أبوابها الشرعية يحتاج إلى رجل عالم ورع, ومن الممكن أن تُسند هذه المهمة أحياناً للقاضي في الولاية.

ويصل المطاف بالبحث إلى الركن الخامس, وهو الحج والذي هو محور الفصل الحالي, فقد شهد أسوة بغيره من أركان الإسلام اهتماماً واضحاً وجلياً لدى الأمويين, لما له من أهمية وحساسية في ذلك العصر, بل وفي كل العصور, ونجح الأمويون في إعادة فرض سيطرتهم على هذا الموسم بعد القضاء على دولة ابن الزبير.

ثانياً: موسم الحج:

مهما قيل في موسم الحج, فإن المراد أكثر مما قيل, بل أكثر مما سيقال, موسمٌ فريدٌ من نوعه في التاريخ البشري, كونه يصهر جميع المسلمين من مختلف الأصول والعروق والأجناس, في بوتقة واحدة, في صعيد واحد, وحناجرهم تلهب بتلبية واحدة, ودعاء واحد, يسألون الله وَعَلَى الرَّحْمَةِ والمغفرة, ويسألونه العفو والعافية والرزق الحلال الطيب, وأمام هذا كله, فمن الطبيعي أن تنهافت القلوب وترنو الأبصار, وتُحَث الخُطى إلى ذلك الموسم المبارك.

وأمام هذه التظاهرة الدينية الاجتماعية السياسية الاقتصادية, حرصت الدولة الأموية على إرسال أمير من لدنها يقوم بمهام إمارة موسم الحج, لتثبت بذلك على أنها الراعية لبلاد الإسلام والمسلمين, وسلطتها عليهم لا تُنازع ولا يُشق لها غبار. ولأمير موسم الحج مكانة متميزة ومرموقة بين جموع الحجاج, فثمة المئات من أئمة الصلاة, ومثلهم جامعي الزكاة والصدقات, إلا أن ثمة أمير واحد لموسم الحج, يثبت وحدة الإسلام والمسلمين, ونادراً ما يحصل^٢ أن ثمة أكثر من أمير حضر

^١ للاستزادة خصص البحث فصلاً كاملاً عن الوضع العمراني في مكة.

^٢ سيورد البحث حالة من هذا القبيل بعد قليل.

موسم الحج, ولعل ذلك يعطي مؤشراً واضحاً على التشرذم السياسي, وتعدد الزعامات, والانصياع لأكثر من سلطة أو خليفة. والسؤال المطروح هنا: ما هي الشروط الأموية الواجب توافرها في أمير موسم الحج؟ هل كان للخلفاء الأمويين جميعاً رأيٌ واحد أو وجهة نظر, حيال هذه القضية؟ أم تغيّرت الشروط بتغيّر الخليفة؟

ثالثاً: الشروط الواجب توافرها في أمير الحج:

من خلال ما تم الرجوع له من المصادر المختلفة, يمكن ملاحظة بأن أمير الحج, وبشكل عام وغالب كان يتم اختياره من سادة البيت الأموي, وبشكل أكثر تحديداً من ولاية مكة أو المدينة أو كليهما, وفي القليل النادر كان يتولى الخلفاء الأمويون بأنفسهم هذه المهمة, في ظروف سياسية معينة تستوجب ذلك. ولعل من المفارقات الغريبة في هذا الشأن, أن يكون أمير الحج في بداية سني الدور المرواني هو من ألد أعداء الدولة الأموية لا من مؤيديها المخلصين, والمقصود بهذا العدو عبد الله بن الزبير كما سيوضح هذا الفصل لاحقاً. وبناءً عليه فإن الشرط الأساسي في أمير الحج أن يكون من البيت الأموي, أو عاملاً لبني أمية ومحباً لهم, ومن الشروط الأخرى, أن يكون أمير الحج مطاع ذا رأي وشجاعة وهيبة, عالماً بمناسك الحج وأحكامه, عارفاً بمواقيته وأيامه, أما فيما يتعلق بمدة ولايته, فتكون مقدرة بسبعة أيام, أولها من صلاة الظهر في اليوم السابع من ذي الحجة, وآخرها يوم النفر الثاني وهو الثالث عشر من ذي الحجة, وهو فيما قبلها وبعدها أحد الرعايا وليس من الولاة على الحجيج, فإذا كان مطلق الولاية على إقامة الحج فله إقامته في كل عام, ما لم يُصرف عنه, وإن عقدت له ولاية خاصة على عام, لم يتعداه إلى غيره إلا عن ولاية.^١

ولا يفوت البحث هنا أن يذكر أن إمارة الحج قبل العصر الأموي كانت تستند إلى شخصية كبيرة, فتولاها رسول الله ﷺ قبل وفاته, وأدار بنفسه شعائر الحج في حجة الوداع, ثم تولى إمارة الحج الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم, وفي خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه, وقع الاتفاق مع معاوية على إسنادها إلى سادن الكعبة^٢, كحل وسط يرضي الطرفين كما يبدو.

^١ أبو يعلى: الأحكام السلطانية ص ١١٢.

^٢ حركات: السياسة والمجتمع ص ٢٧٢.

رابعاً: أمراء مواسم الحج:

نجح عبد الله بن الزبير في فرض هيمنته على إمارة الحج في السنوات الأولى من عمر الدور المرواني، فكان سيد مكة المطاع طول مدة قيام حكمه، فحج بالناس بدءاً من بداية الدور المرواني حتى سقوط حكمه، ومصرعه أمام جحافل الحصار الأموي الثاني.

وفي عودة سريعة لآخر مواسم الحج في عهد يزيد بن معاوية، فقد أوردت بعض الروايات أنه أقام الحج بالناس عام ٦٣هـ/٦٨٢م عبد الله بن الزبير^١، بينما ذكرت بعض الروايات أنه حج بالناس ذلك العام يحيى بن حكيم بن صفوان الجمحي، والي مكة ليزيد بن معاوية، وكان أهل مكة قد رضوا به واستعملوه عليهم^٢، وقيل لم يحج أمير^٣، ولعل الرواية الثانية أقرب للحقيقة، كون ابن الزبير لم ينادِ بنفسه خليفة إلا بعد وفاة يزيد عام ٦٤هـ/٦٨٣م، وكون يحيى بن حكيم كان له أيادٍ بيضاء مع جميع أهل مكة بما فيهم ابن الزبير نفسه^٤، فسمحوا له بأن يحج بهم في ذلك العام.

ومع دخول موسم حج عام ٦٤هـ/٦٨٣م، أوردت بعض الروايات أن عبد الله بن الزبير قد حج بالناس^٥، بينما اتفقت روايات على وصول أكثر من لواء للحج، إلا أنها سرعان ما اختلفت في تحديد عام ذلك التعدد، فثمة من قال أنه في عام ٦٤هـ/٦٨٣م، حج بالناس عبد الله بن الزبير، ووقف بعرفة أربعة ألوية، لواء لابن الزبير على الجماعة، ولواء محمد بن الحنفية على الشيعة، ولواء نجدة بن عامر على الخوارج، ولواء لأهل الشام مع بني أمية^٦، ثم كان أول لواء انفض لواء ابن الحنفية، تبعه نجدة ثم لواء بني أمية، ثم لواء ابن الزبير^٧. وذهبت بعض المصادر للقول بأن حادثة

^١ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ٢٤٦. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٨.

^٢ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ١١ ص ٤١٦.

^٣ ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٥٨.

^٤ انظر عن يحيى بن حكيم في الوضع الإداري.

^٥ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ٢١٢. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٣١. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٧٧.

^٦ ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٧٧.

^٧ الخصري: محاضرات ج ٢ ص ١٦٤.

تعدد الأولوية كانت في موسم حج عام ٦٦هـ/٦٨٥م^١، وأن لواء ابن الزبير -وعلى الرغم من تعدد الأولوية- كان هو من أقام الحج بالألوية كافة^٢، وقال آخرون إن ذلك حدث في موسم حج ٦٨هـ/٦٨٧م^٣. وبغض النظر عن أيّ عام، فإن إقامة ابن الزبير للحج بالألوية عامة، دلالة تفصح عن مدى قوته في ملاذه الآمن مكة، حتى أن المصادر لم تذكر أن أحداً من قادة هذه الأولوية حاول أن ينافس ابن الزبير في إقامة الحج بالناس، مع العلم أن فيهم شخصيات لها تاريخها ووزنها العلمي والفقهية، مثل ابن الحنفية، إنما لكل مقام مقال، فابن الزبير في بيته والباقي ضيوف، أدوا مناسكهم، وانصرفوا عائدين إلى ديارهم.

واستمر ابن الزبير أميراً لمواسم الحج في عام ٦٥هـ/٦٨٤م^٤، وعام ٦٧هـ/٦٨٦م^٥، وعام ٦٨هـ/٦٨٧م^٦، وعام ٦٩هـ/٦٨٨م^٧، وعام ٧٠هـ/٦٨٩م^٨، وعام ٧١هـ/٦٩٠م^٩، دون أن ينازعه أحد، حتى إذا ما جاء عام ٧٢هـ/٦٩١م، حج ابن الزبير بالناس ولم يقفوا الموقف، وحج الحجاج بأهل الشام ولم يطوفوا بالبيت^{١٠}، وحسمت بعض الروايات حج عام ٧٢هـ/٦٩١م، لصالح الحجاج بن يوسف الثقفي^{١١}، وبالنسبة فقد حج ابن الزبير بالناس تسع حجج ولاء، أولها عام

^١ الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٣٤٠.

^٢ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٤٣. ابن حبيب: المحبر، تصحيح: إيلزة ليختن شتير، بيروت، منشورات المكتب التجاري، ١٣٦١هـ، ص ٢٤. الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٣٤٠.

^٣ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٦٤. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٧٠-٧١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٣٥٤. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ١٢٠. الخضري: محاضرات ج ٢ ص ١٦٤.

^٤ ابن حبيب: المحبر ص ٢٤. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٤١.

^٥ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٤٣. ابن حبيب: المحبر ص ٢٤. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٥٠.

^٦ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٤٣. ابن حبيب: المحبر ص ٢٤. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٧١.

^٧ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٤٣. ابن حبيب: المحبر ص ٢٤. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٧٠.

^٨ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٤٣. ابن حبيب: المحبر ص ٢٤. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ١٠١.

^٩ ابن حبيب: المحبر ص ٢٤. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٨٠. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ١١٣.

^{١٠} ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٤٣. ابن حبيب: المحبر ص ٢٤. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٨٠.

^{١١} ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٤٣. ابن حبيب: المحبر ص ٢٤. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٨٧.

٦٣هـ/٦٨٢م, وآخرها عام ٧١هـ/٦٩٠م^١, وقيل ثمانى حجج أولها عام ٦٤هـ/٦٨٣م, وآخرها عام ٧١هـ/٦٩٠م^٢.

لقد كان عام ٧٢هـ/٦٩١م نقطة تحول مهمة في تاريخ إمارة الحج, فكان بمثابة بداية النهاية لحكم أرهق الأمويين على مدى عقد من الزمن تقريباً, والتي نجح خلالها ابن الزبير نجاحاً باهراً في استغلال مواسم الحج, وتسخيرها لمصلحته وتأليب جموع الحجيج على حكم الأمويين من خلال خطبه البليغة, والتي استمالت عدداً كبيراً من أهل الشام أنفسهم, فما هو موقف عبد الملك من هذا الأمر؟

يبدو أن عبد الملك امتنع من تصرف ابن الزبير هذا, فلم يقف مكتوف اليدين, بل عمل على صرف الشاميين عن حج مكة, فبنى قبة الصخرة بالقدس ليطوفوا حولها^٣, كما شاد المسجد الأقصى بجانبها محل المسجد الحرام^٤, وإن صحَّ هذا الكلام, فإن المرء يدرك مدى الخطورة التي كان يشكلها ابن الزبير على الدولة الأموية من جهة, وحيرة الأمويين أمام تلك الخطورة من جهة أخرى. ولعل هذا الأمر يفسر قسوة الرد الأموي, من خلال الحصار الثاني لابن الزبير في عقر داره, تحت قيادة القائد الأموي المشهور الحجاج بن يوسف الثقفي.

وتنفس الأمويون الصعداء, بعد أن آلت إليهم إمارة موسم الحج, ولكن بقي تحفظهم موجوداً وكذلك حذرهم, فمن الصعب عليهم القضاء على أعوان ابن الزبير فرداً فرداً كما قضوا على ابن الزبير, فماذا عساهم أن يفعلوا في أول موسم حج يغيب عنه ابن الزبير؟ أيرز الخليفة عبد الملك لتعزيز سلطة دولته في هذا الموسم, أم ثمة خيار آخر أمامهم؟

^١ الفاسي: شفاء الغرام ج٢ ص٣٤٠. الحضري: محاضرات ج٢ ص١٦٤.

^٢ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٢٨ ص٢١٢.

^٣ ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٢٨٠. القلقشندي: مآثر الإنافة ج١ ص١٢٩.

^٤ ابن كثير: البداية والنهاية ج٨ ص٢٨٠. حركات: السياسة والمجتمع ص٢٧٣.

صدر الأمر الأموي بتولية الحجاج أميراً للموسم في حج عام ٦٩٢هـ/٧٣م^١، ربما لما له من هبة عسكرية في نفوس أهل مكة، ولغاية في نفس عبد الملك، وتأتي رواية أخرى لتعزز رغبة الأمويين بالتهدة، فيما يشبه التناقض بين الروایتين، ولكن كيف؟

صادف وأنه كان في حج ذلك الموسم ٦٩٢هـ/٧٣م عبد الله بن عمر، وحالما علم بذلك عبد الملك كتب إلى الحجاج أن يأتهم بآبن عمر في مناسك الحج^٢، ويمكن أن يكون ذلك بادرة حسن نية أموية تجاه أهل مكة، بعد أن فجعوا بمقتل ابن الزبير، إذأ كان لابد من مرحلة انتقالية بين إمارة ابن الزبير، والإمارة الخالصة لبني أمية على مواسم الحج فيما بعد، وهذا ليس إلا من دهاء عبد الملك.

وفي عام ٧٤هـ/٦٩٣م كان أمير الموسم الحجاج بن يوسف الثقفي^٣، وأوردت بعض الروايات أن أمير الموسم كان عبد الملك بن مروان الخليفة نفسه^٤، وكان ممن حج في هذا العام أيضاً الوليد بن عبد الملك وهو ولي عهد^٥، وثمة تفاصيل لقصة حج الوليد، ويبدو أن الاختلاف بين الروايتين السالفتين مسوغ، فالجميع كانوا يتوقعون قدوم الخليفة أميراً للموسم كنوع من صفاء الملك للأمويين في الحجاز، بعد أن تم القضاء على ابن الزبير في مكة.

وإن اختلفت الروايات في عام ٧٤هـ/٦٩٣م، فهي تتحد في تسمية أمير موسم حج عام ٧٥هـ/٦٩٤م، حيث شهد هذا العام قيام الخليفة عبد الملك بالحج في الناس^٦، حتى إن بعض المصادر أسهبت في الحديث عن حيثيات الزيارة، وخطبته المشهورة بالناس وتوعده لهم بالسيف، ومن جملة ما قال: "أما بعد فإنه كان من قبلي الخلفاء يأكلون المال ويؤكلون، وإني والله لا أداوي

^١ أبو حنيفة: الأخبار ص ٤٦٠. ابن خياط: تاريخ ابن خياط ص ٣٩٤. وكيع: أخبار القضاة ج ١ ص ١٢٤.

الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٩٧. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ١٣٠. الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٣٤٠.

^٢ الزبير: نسب قريش ص ٣٥١. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٢٩.

^٣ ابن خياط: تاريخ ابن خياط ص ٣٩٤.

^٤ ابن حبيب: المحبر ص ٢٤.

^٥ ابن بكار: الأخبار الموقفيات ص ٣٢٣.

^٦ ابن خياط: تاريخ ابن خياط ص ٣٩٤-٣٤٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٣٤. اليافعي: مرآة الجنان

ص ١٢٥. الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٣٤٠. السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٠٠.

هذه الأمة إلا بالسيف، ولست بالخليفة المستضعف، يعني عثمان، ولا الخليفة المدهن، يعني معاوية، أيها الناس، إنما نختل لكم كل العون، ما لم يكن عقد راية، أو وثوب على منبر".^١ لقد وضع عبد الملك في خطبته هذه النقاط على الحروف في تعامله مع أهل مكة، فلوح بالسيف بيد، وصافحهم باليد الأخرى، ولكن هذا لم يمنع بعض خصومه السياسيين من قتله، وكاد أن يتعرض في عامه هذا للقتل، ولكن الأمر أُحبط^٢. ولابد للبحث من أن يذكر أن ثمة رواية أشارت إلى أن أبان بن عثمان أو الحجاج قد حج بالناس^٣، ولكن من الواضح والثابت أن الخليفة عبد الملك هو من قاد موسم الحج ذاك، ولا يمنع وجود الحجاج معه أو أبان بن عثمان؛ كمرافقين له في محاولة للتقريب بين الروايات.

وفي عام ٧٦هـ/٦٩٥م أقام الحج بالناس أبان بن عثمان أمير المدينة^٤، حسبما أوردت معظم المصادر والروايات. وتكررت إمارة أبان بن عثمان لموسم الحج في عام ٧٧هـ/٦٩٦م^٥، وبدون اختلاف أو منافس. حتى إذا ما جاء عام ٧٨هـ/٦٩٧م، كثرت الروايات عن شخص من حج بالناس في هذا العام، فذهب بعضهم للقول بأن الخليفة عبد الملك حج بالناس^٦، وذكر آخرون بأن الوليد بن عبد الملك هو من حج بالناس^٧، وهو رأي الأغلبية عندما كان ولي عهد. وفي عام

^١ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٣٧ ص ١٣٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٣٤. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٩ ص ١٤١. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٦٤. المنجد: (صلاح الدين) معجم بني أمية، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠م، ص ١١٥.

^٢ ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ١٦٦. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ١٠.

^٣ ابن حبيب: المحبر ص ٢٥.

^٤ ابن خياط: تاريخ ابن خياط ص ٣٩٤. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٢٣٦. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٦ ص ١٥٦. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٥٤. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٦٣.

^٥ ابن خياط: تاريخ ابن خياط ص ٣٥٥. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٢٧٤. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ١٩٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٧٥. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٦٣.

^٦ الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٣٤٠.

^٧ ابن خياط: تاريخ ابن خياط ص ٣٥٧. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٢٧٦. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٦ ص ١٧٠. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٢٠١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٧٦.

٧٩هـ/٦٩٨م عاد إلى إمارة موسم الحج أبان بن عثمان^١، واستمر أبان بن عثمان في إمارة موسم حج ٨٠هـ/٦٩٩م^٢، وأوردت رواية أخرى بأن من حج بالناس في ذلك الموسم سليمان بن عبد الملك^٣؛ في أول ذكر له في مواسم الحج.

ويبدو أن الرواية الأخيرة كان فيها لبس فاستبقت الأمور، حيث أشارت جُل الروايات أن سليمان بن عبد الملك هو من أقام للناس الحج في عام ٨١هـ/٧٠٠م^٤، وليس في عام ٨٠هـ/٦٩٩م، ولكن هذا لم يمنع رواية أخرى من القول أن من أقام الحج في عام ٨١هـ/٧٠٠م، هو الخليفة عبد الملك بن مروان^٥، على أنه من المرجح إمارة سليمان لموسم الحج، لأنه لو كان الخليفة هو أمير الموسم، لأسهبت في ذلك الروايات، ووصل خبرها الآفاق.

وفي موسم عام ٨٢هـ/٧٠١م، أقام الحج للناس أبان بن عثمان^٦ في آخر ظهور له في إمارة مواسم الحج، وبالنتيجة فقد حج أبان بالناس عدة سنوات^٧، ويمكن ردّ سبب تكرار إمارته لأسباب عدة منها على سبيل المثال: انتسابه للبيت الأموي من جهة، ومكانته الإدارية كوالي للمدينة من جهة ثانية، أضف إلى ذلك مكانته الفقهية والدينية.

^١ ابن خياط: تاريخ ابن خياط ص ٣٥٩. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٦ ص ١٥٦. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٢٠٤. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٧٩. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٠٨.

^٢ ابن خياط: تاريخ ابن خياط ص ٣٦٠. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٢٨١. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٦ ص ١٥٦. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٨٣. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١١٠.

^٣ ابن حبيب: المحرر ص ٢٥. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٢١٢.

^٤ ابن خياط: تاريخ ابن خياط ص ٣٦٣. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٦ ص ١٥٦. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٩٢. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ١٧٨. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١١٠.

^٥ ابن بكّار: الأخبار الموفقيات ص ٥٠.

^٦ ابن خياط: تاريخ ابن خياط ص ٣٧٤. ابن حبيب: المحرر ص ٢٥. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٢٩٨. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٢٣٤. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١١١.

^٧ عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٦٣.

وتولى إمارة موسم الحج في عام ٨٣هـ/٧٠٢م، هشام بن إسماعيل المخزومي^١، أخو زوجة عبد الملك، واستمر في منصبه عام ٨٤هـ/٧٠٣م^٢، وكذلك في عام ٨٥هـ/٧٠٤م^٣، وكذلك في عام ٨٦هـ/٧٠٥م^٤، ومع أن ثمة روايات أشارت إلى أن -هشام بن إسماعيل- شغل منصب أمير الحج عام ٨٧هـ/٧٠٦م^٥، إلا أن جُلَّ الروايات أشارت إلى أن من حج بالناس في ذلك الموسم، هو عمر ابن عبد العزيز أمير المدينة^٦.

وفي عام ٨٨هـ/٧٠٧م استمر عمر بن عبد العزيز بالحج بالناس^٧، في حين أشارت رواية أخرى إلى أن من حج بالناس هو عمر بن الوليد بن عبد الملك^٨ في أول ذكر له في أمراء مواسم الحج. وكان عمر بن عبد العزيز أميراً على الحج دون منازع في عام ٨٩هـ/٧٠٨م^٩، وكذلك الأمر

^١ ابن خياط: تاريخ ابن خياط ص ٣٧٦. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٣١٥. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٢٥٠. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١١١. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٦٨.

^٢ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٧٧. ابن حبيب: المحبر ص ٢٥. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٣١٧. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٢٥٧. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١١٢. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٦٨.

^٣ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٨٠. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٦. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٥٢٩. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١١٢. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٦٨.

^٤ ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٢٧٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٧. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١١٣.

^٥ ابن حبيب: المحبر ص ٢٥.

^٦ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٤١٧. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٥. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٢٧٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٢. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١١٣.

^٧ ابن حبيب: المحبر ص ٢٥. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٢٨٨. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١١٤.

^٨ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٤٠٠. ابن حبيب: المحبر ص ٢٥. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٨. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٤٥ ص ٣٥٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٥.

^٩ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٤٠٠. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٢٨٩. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ١٩٤. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ١١٧. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١١٤. الوكيل: الأمويون ج ١ ص ٤٨٩-٤٩٠.

في عام ٩٠هـ/٧٠٩م^١. وفي موسم حج عام ٩١هـ/٧٠٩م، حج بالناس الوليد بن عبد الملك^٢، وقدم معه كسوة للكعبة فنشرت وعلقت على حبال المسجد، من ديباج حسن لم ير مثله قط، فنشرها يوماً ثم طويت ورفعت^٣، ويبدو أن ثمة لقاء تم بين الوليد والشاعر عمر بن أبي ربيعة، أنشد من خلاله ابن أبي ربيعة ما سرّ نفس الوليد، فبّره الوليد^٤، ولعل ذلك يعطي دلالة واضحة على تأييد ابن أبي ربيعة للحكم الأموي، وخطب ودّ خلفائه بقصائد المدح.

وحج بالناس عام ٩٢هـ/٧١٠م عمر بن عبد العزيز^٥ وفق معظم الروايات، إلا أن ثمة رواية ذكرت أن من حج بالناس الوليد بن عبد الملك، وقيل عبد العزيز بن الوليد^٦، أما في عام ٩٣هـ/٧١١م حج بالناس عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك^٧، ويبدو أنها محاولة من الخليفة لكسب تعاطف جموع الناس مع ولده، تمهيداً لتوليته الخلافة، لكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث.

وحج بالناس في عام ٩٤هـ/٧١٢م -ولأول مرة- فارس بن مروان وقائدهم المظفر، مسلمة بن عبد الملك^٨. وأقام الحج عام ٩٥هـ/٧١٣م بشر بن الوليد بن عبد الملك^٩، أما في عام

-
- ^١ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٤٠٣. ابن حبيب: المحبر ص ٢٦. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٤٥ ص ١٣٩. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٢٩٦. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٢. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١١٥.
- ^٢ ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ١٩٤. الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٣٤٠. أبو النصر: الأيام الأخيرة ص ٦٧.
- ^٣ ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١١٦.
- ^٤ البلاذري: أنساب الإشراف ج ٧ ص ٣٣.
- ^٥ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٣٥. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٤٥ ص ١٣٩. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٣٠٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٤٥. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ١٩٤.
- ^٦ ابن حبيب: المحبر ص ٢٦.
- ^٧ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٤٠٦. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٤٤. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٦ ص ٤٤٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٥٣. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٢٧.
- ^٨ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٤٠٨. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٥٨ ص ٣٢. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٢٧.
- ^٩ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٤١٢. ابن حبيب: المحبر ص ٢٦. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٥٠. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٣٣٦. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٦٥. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٢٨.

٩٦هـ/٧١٤م فقد حج بالناس أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم أمير المدينة^١. وحج بالناس عام ٩٧هـ/٧١٥م سليمان بن عبد الملك^٢, بعد أن آلت إليه مقاليد الخلافة.

وأسهبت المصادر في ذكر تفاصيل تلك الحادثة، فطاف سليمان بالبيت ومعه عمر بن عبد العزيز ومحمد بن كعب القرظي، واستفسر الخليفة عن بناء ابن الزبير للكعبة، وأبدى رغبته فيما لو ظل البناء كما عمله ابن الزبير، واجتمع مع الشاعر عمر بن أبي ربيعة، حيث قرر نفيه إلى الطائف بسبب تعرضه للحاجات، ولكنه وافق على توبته وحلّاه^٣، وقد ورد أن سليمان ذهل من كثرة أعداد الناس بالحج، فقال له عمر بن عبد العزيز: "هؤلاء اليوم رعيتك وغداً خصماؤك"، فبكى بكاءً شديداً، ثم قال: "الله المستعان"، وذكرت الروايات أن ملابس جسمه حملت في هذه الحجة على سبعمائة بعير وقيل تسعمائة، كما وردت أحاديث عن حب الخليفة وشرهه للطعام في تلك الحجة؛ ولاسيما بعد قدومه الطائف^٤.

وفي موسم حج عام ٩٨هـ/٧١٦م حج بالناس عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد وهو أمير مكة^٥، وقيل أبو بكر محمد بن حزم^٦. وحج سليمان بالناس عام ٩٩هـ/٧١٧م^٧، وقيل أبو بكر محمد بن حزم^٨، ولعل الأصح قيام سليمان بإمارة موسم الحج في هذا العام، ومما يؤكد ذلك لقاءه مع الفقيه طاووس، وذلك عندما طلب سليمان فقيهاً ليسأله عن بعض المناسك، حيث قيل

^١ ابن حبيب: المحرر ص ٢٦. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٩. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٦٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٧٩. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٢٩.

^٢ ابن حبيب: المحرر ص ٢٦. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٧٢. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٢٥. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ١٧٤. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٢٩. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٨١.

^٣ ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٢٩-١٣٠. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٨١.

^٤ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٤٠٦. المنجد: معجم بني أمية ص ٦٨. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٨١.

^٥ ابن حبيب: المحرر ص ٢٦. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٢٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٩٣. المزي: تهذيب الكمال ج ١٨ ص ١٥١. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٣٣. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٨٢.

^٦ ابن حبيب: المحرر ص ٢٦.

^٧ الأصفهاني: الأغاني ج ٩ ص ٨٣. الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٣٤٠.

^٨ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٤٦٨. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٤٦. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٣٤.

لطاووس: "حدث أمير المؤمنين", فقال طاووس مخاطباً سليمان: "إن رسول الله ﷺ قال: أشد الناس عذاباً يوم القيامة من أشركه الله في سلطانه فجار في حكمه", فتغير وجه سليمان.^١

وعاد أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم ليحج بالناس عام ١٠٠هـ/٧١٨م^٢ دون منازع. وفي عام ١٠١هـ/٧١٩م, حج بالناس عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري, وكان عامل المدينة^٣, واستمر عبد الرحمن في منصبه كأمر للحج في العام التالي ١٠٢هـ/٧٢٠م^٤, والعام الذي يليه ١٠٣هـ/٧٢١م^٥, حتى إذا ما جاء عام ١٠٤هـ/٧٢٢م كان في إمارة الحج عبد الواحد بن عبد الله النصري^٦. وفي عام ١٠٥هـ/٧٢٣م حج بالناس إبراهيم بن هشام المخزومي, وهو ابن خال هشام ابن عبد الملك^٧.

أما في عام ١٠٦هـ/٧٢٤م فقد حج بالناس الخليفة نفسه هشام بن عبد الملك^٨, وكتب له الفقيه العالم أبو الزناد سنن الحج, وكان معه حين لقيه سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان, وسأل هشام لعن أبي تراب (يعني علي رضي الله عنه), فشق ذلك على هشام وثقل عليه كلامه ثم

^١ ابن بكار: الأخبار الموفقيات ص ٨٢. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٤٢. عطوان: الفقهاء والخلافة ص ٦١.

^٢ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٤٦٨. ابن حبيب: المحبر ص ٢٧. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٥٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٠٩. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٣٤.

^٣ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٤٧٠. ابن حبيب: المحبر ص ٢٨. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٠٨. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٦٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٢٩. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٢٠.

^٤ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٤٧٣. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٨١. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٣٦.

^٥ ابن حبيب: المحبر ص ٢٨. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٨٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٥٠.

^٦ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٤٧٩. ابن حبيب: المحبر ص ٢٨. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٣٧ ص ٢٥٠. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٣٧. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٩٠.

^٧ ابن حبيب: المحبر ص ٢٩. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٣٩. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٧ ص ٢٥٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٦٧. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٣٨. الزركلي: الأعلام ج ١ ص ٧٨.

^٨ ابن حبيب: المحبر ص ٢٩. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١١٢. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٤٩. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٣٩. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٩٢.

قال: "ما قدمنا لشتم أحد ولا للعهه، قدمنا حجاجاً"^١، ثم قطع كلامه وأقبل على أبي الزناد يسأله عن الحج ومناسكه^٢، كما قابل هشام في موسم الحج طاووس بن كيسان، حيث كانت مكة تذخر بالناس، وطلب هشام أن يجدوا له صحابياً من صحابة رسول الله ﷺ، فإن لم يكن فرجل من التابعين يجتمع إليه ويأنس به، ونقض أعوانه الوادي حجراً فوق حجر، فلا يعثرون على صحابي، وإنما يقعون على طاووس، وسألوه زيارة أمير المؤمنين فمشى معهم إليه، وحالما اجتماعاً دار بينهما حديثاً مطولاً أنجاه هشام قائلاً له: "يا أبا عبد الرحمن عظمي"^٣ فوعظه، توفي طاووس بن كيسان بمكة، وصلى عليه هشام قبل أن يروح إلى منى^٤، وسيسلط البحث الضوء على طاووس وغيره لاحقاً، وعندما دخل هشام الكعبة وجد فيها سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، فألح هشام عليه ليحقق له حوائجه، إلا أن سالماً قد أبي^٥، وكان الناس يلتقون هشام في مكة أثناء موسم الحج، ويستغلون هذه الفرصة، ليعرضوا قضاياهم عليه.^٦

وفي عام ١٠٧هـ/٧٢٥م، حج بالناس إبراهيم بن هشام المخزومي أمير مكة^٧، وبقي في إمارة موسم الحج في عام ١٠٨هـ/٧٢٦م أيضاً^٨، وكذلك الأمر كان عليه في موسم حج عام

^١ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٨ ص١٤٦. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٤ ص١٧٢. ابن كثير: البداية والنهاية ج٩ ص٢٣٤. أبو النصر: الأيام الأخيرة ص١٥٦-١٥٧. الحضري: محاضرات ج٢ ص١٩٨.

^٢ ابن فهد: إتحاف الوري ج٢ ص١٣٩. ابن الجوزي: المنتظم ج٧ ص١١٣.

^٣ ابن حمدون: التذكرة الحمدونية ج٣ ص١٨٦. أبو النصر: الأيام الأخيرة ص١٥٤.

^٤ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢ ص٥٠٩. المزي: تهذيب الكمال ج١٣ ص٣٧٣. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٥ ص٤٥. ابن كثير: البداية والنهاية ج٩ ص٢٣٥. ابن فهد: إتحاف الوري ج٢ ص١٤٥.

^٥ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٢٠ ص٦٤. ابن فهد: إتحاف الوري ج٢ ص١٣٩. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص١٩٢.

^٦ ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص٢٧٢. ابن فهد: إتحاف الوري ج٢ ص١٤٠-١٤١.

^٧ ابن خياط: تاريخ خليفة ص٤٩٣. ابن حبيب: المحبر ص٢٩. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٧ ص٢٥٩. ابن الجوزي: المنتظم ج٧ ص١١٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٤ ص١٧٨. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص١٩٢.

^٨ ابن خياط: تاريخ خليفة ص٤٩٤. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٨ ص١٥١. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٧ ص٢٥٩. ابن فهد: إتحاف الوري ج٢ ص١٤٥. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص١٩٢.

١٠٩هـ/٧٢٧م^١، وعام ١١٠هـ/٧٢٨م، حيث خطب بالناس بمكة، وكان يتباهى بعلمه وفقهه وهو يقول: "سلوني فأنا ابن الوحيد لا تسألون أحداً أعلم مني"، فقام إليه رجل من العراق فسأله عن الأضحية أواجبة أم لا؟ فما درى أي شيء يقول له فنزل^٢. واستمر إبراهيم بن هشام بإمارة موسم الحج لعام ١١١هـ/٧٢٩م^٣، وعام ١١٢هـ/٧٣٠م، وقيل سليمان بن هشام بن عبد الملك^٤، وتكرر الأمر في حج ١١٣هـ/٧٣١م فورد أن سليمان بن هشام بن عبد الملك هو من حج بالناس^٥، وقيل إبراهيم ابن هشام المخزومي^٦، وقيل هشام أمير المؤمنين^٧. أما في عام ١١٤هـ/٧٣٢م فقد حج بالناس خالد ابن عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص^٨، وقيل محمد بن هشام المخزومي أمير مكة والطائف^٩. ويبدو أن محمد بن هشام المخزومي أمير مكة والطائف قد حج بالناس في عام

-
- ^١ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٤٩٦. ابن حبيب: المحبر ص ٢٩. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٣٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٨٧. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٤٦. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٩٢.
- ^٢ ابن حبيب: المحبر ص ٢٩. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٥٦، ١٦٥. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٣٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٩٤. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٤٦. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٩٢.
- ^٣ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥٠١. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٧ ص ٢٦٠. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٤٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٩٧. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٤٦. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٩٢.
- ^٤ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥٠٤. ابن حبيب: المحبر ص ٢٩. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٧٧. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٥٤. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٤٧. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ١٩٢.
- ^٥ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٢ ص ٣٩٩.
- ^٦ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥٠٦. ابن حبيب: المحبر ص ٢٩. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٧٨. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٥٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢١٢. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٤٨.
- ^٧ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ١٦ ص ١٧٠.
- ^٨ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥٠٨. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٥٩. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٦.
- ^٩ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٧٨. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٦٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢١٥. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٦. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٤٨.

١١٥هـ/٧٣٣م^١، كما حج بالناس في عام ١١٦هـ/٧٣٤م الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان ولي عهد لهشام عمه، ويقال إن من حج بالناس هو عيسى بن مُقسّم؛ مولى وحاجب الوليد بأمر الوليد^٢، إلا أن الرواية الأكثر صحة لعلها قيام الوليد بن يزيد بالحج بالناس ذلك العام، وذلك لغاية أو لسبب في نفس الخليفة هشام، ولكن ما السبب؟

لما تولى هشام الخلافة، كان ولياً لعهد ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فأكرمه هشام حتى ظهر عليه أمر الشراب، وخلطاء السوء، ومجالس اللهو، فأراد هشام أن يقطع ذلك عنه فأمره على الحج في هذا العام ١١٦هـ/٧٣٤م، إلا أن الوليد أخذ معه كلاب الصيد خفية من عمه، حتى يقال إنه جعلها في صناديق، وحمل معه خمراً، واصطنع قبة من حديد على قدر الكعبة؛ لتركب على أركان الكعبة، ويجلس هو وأصحابه هنالك، واستصحب معه الخمر والآلات الملاحية وغيرها من المنكرات، فلما وصل إلى مكة هاب أن يفعل ما كان قد عزم عليه في الجلوس فوق ظهر الكعبة خوفاً من الناس، ومن إنكارهم عليه ذلك، فجمع المغنين بمكة وتشاغل باللهو، ويقال أنه أبقى إلا أن تركب القبة، فقام الناس في ذلك وغضبوا وتكلموا، وقالوا لا يكون هذا^٣، وعلم عمه هشام بالأمر، فنهاء عن أعماله القبيحة وأفعاله الرديئة، إلا أنه لم ينته، واستمر على ذلك، فعزم عمه هشام على خلعه من الخلافة وتولية ابنه مسلمة بن هشام بعده، وأجابه إلى ذلك جماعة من الأمراء، ولكن لم يفعل ذلك خوف الفضيحة من الناس، ولئلا تنتكر قلوب الأجناد من أجل ذلك، فأرسل له هشام قائلاً: "ما أدري أعلى الإسلام أنت أم لا، فإنك لم تدع شيئاً من المنكرات إلا أتيت به غير متحاش ولا مستتر"، فكتب إليه الوليد: (من بحر الرجز)

يَا أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ دِينِنَا نَحْنُ عَلَى دِينِ أَبِي شَاكِرٍ

^١ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥١٠. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٧٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ

ج ٤ ص ٢١٧. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٩. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٤٩.

^٢ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥١٢. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٨٣. ابن عساكر: تاريخ دمشق

ج ٦٣ ص ٣٢٦. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٢٠. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٣١٣.

^٣ ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٥٠.

نَشْرُهَا صِرْفًا وَمُزَوَّجَةً بِالسُّخْنِ أَحْيَانًا وَبِالْفَاتِرِ^١

فغضب هشام على ابنه مسلمة، وكان يسمى أبا شاكِر، وقال له: "تشبه الوليد بن يزيد، وأنا أريد أن أرقبك إلى الخلافة"، فما كان منه إلا أن بعثه على موسم الحج عام ١١٩هـ/٧٣٧م^٢ - كما سيرد بعد قليل - وفي عام ١١٧هـ/٧٣٥م حج بالناس خالد بن عبد الملك^٣، مع العلم أن العامل فيها على المدينة ومكة والطائف كان محمد بن هشام بن إسماعيل^٤، وعاد محمد بن هشام المخزومي أمير المدينة ومكة والطائف، ليقم الحج بالناس في عام ١١٨هـ/٧٣٦م^٥. أما في عام ١١٩هـ/٧٣٧م فقد ورد قبل قليل أن من أقام الحج بالناس فيه هو أبو شاكِر مسلمة بن هشام ابن عبد الملك، فأظهر النسك والوقار والدين، وقسم بمكة والمدينة أموالاً^٦، فقال مولى لأهل المدينة: (من بحر الرجز)

يَا أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ دِينِنَا نَحْنُ عَلَى دِينِ أَبِي شَاكِرٍ

الْوَاهِبِ الْجُرْدِ بِأَرْسَانِهَا لَيْسَ بِزَنْدِيقٍ وَلَا كَافِرٍ^٧

وحج مع مسلمة بن هشام الفقيه ابن شهاب الزهري^٨.

وفي عام ١٢٠هـ/٧٣٧م حج بالناس وفق رواية أبو شاكِر مسلمة بن هشام^٩، وقيل محمد ابن هشام ابن إسماعيل المخزومي^{١٠}، وقيل سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقيل أخوه يزيد بن

^١ الأصفهاني: الأغاني ج ٧ ص ٨. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٢٣٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٨٥.

^٢ ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٩٦، ص ٢٣٩. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣.

^٣ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٢١٤. ابن حبيب: المحبر ص ٣٠. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٨٩. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٧٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٢٧. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٥١.

^٤ ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٧٥.

^٥ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥١٥. ابن حبيب: المحبر ص ٣٠. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٩١. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٨٧. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٢٠. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٥٢.

^٦ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥١٧. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٥٣. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٥٨ ص ٦٧. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٩٦. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٥٣.

^٧ الأصفهاني: الأغاني ج ٧ ص ٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٢٧. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣.

^٨ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٠٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٤٣.

^٩ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٠٧.

هشام^٢, واستمر محمد بن هشام المخزومي أميراً لموسم الحج عام ١٢١هـ/٧٣٨م^٣, وكان عاملاً
للأمويين على مكة والمدينة والطائف, وكذلك حج بالناس محمد بن هشام عام ١٢٢هـ/٧٣٩م^٤,
وشهد عام ١٢٣هـ/٧٤٠م قيام يزيد بن هشام بن عبد الملك بالحج بالناس^٥, وكان يقال له
الأفقم^٦, وقيل إن من حج في هذا العام محمد بن هشام^٧, وعاد محمد بن هشام بن إسماعيل في
آخر ظهور له في إمارة الحج, ليقود موسم حج ١٢٤هـ/٧٤١م^٨, وفي العام ١٢٥هـ/٧٤٢م حج
بالناس يوسف بن محمد ابن يوسف الثقفي^٩, وقيل يوسف بن عمر^{١٠}, وربما ثمة التباس بين
الأسماء.

وحج بالناس عام ١٢٦هـ/٧٤٣م, أبو محمد عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز^{١١}, وقيل عمر
ابن عبد الله بن عبد الملك بن مروان^{١٢}, واستمر أبو محمد عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز عامل

^١ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥١٩. ابن حبيب: المحبر ص ٣٠. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٢٠١.

^٢ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٥٤. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٥٣.

^٣ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥٢٤. ابن حبيب: المحبر ص ٣٠. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٣٤. ابن
الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٢١٥. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٦٥. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٥٤.

^٤ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥٢٧. ابن حبيب: المحبر ص ٣٠. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٤٢. ابن
الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٢٢٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٧١. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٥٤.

^٥ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٤٦. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٢٢٥.

^٦ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥٢٨.

^٧ ابن حبيب: المحبر ص ٣٠. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٥٤.

^٨ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥٣٢. ابن حبيب: المحبر ص ٣٠. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٤٧. ابن
عساكر: تاريخ دمشق ج ٧٠ ص ٢٤١. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٢٢٩. ابن الأثير: الكامل في التاريخ
ج ٤ ص ٢٨١.

^٩ ابن حبيب: المحبر ص ٣١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٩٤. ابن فهد: إتحاف الوري ص ١٥٦.

^{١٠} ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥٤٦.

^{١١} ابن حبيب: المحبر ص ٣٢. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٣١٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ
ج ٤ ص ٣٢٩.

^{١٢} ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٥٧. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٢٥٣.

مروان بن محمد على مكة والمدينة والطائف، أميراً لموسم الحج عام ١٢٧هـ/٧٤٤م^١، وكذلك الأمر عام ١٢٨هـ/٧٤٥م^٢. وفي عام ١٢٩هـ/٧٤٦م، حج بالناس عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وهو عامل الأمويين على مكة والمدينة والطائف^٣، وكان أميراً لموسم الحج عام ١٣٠هـ/٧٤٧م محمد بن عبد الملك بن مروان أمير مكة والمدينة والطائف^٤ وفق أغلب المصادر، وقال بعضها بأن من حج بالناس في عام ١٣٠هـ/٧٤٧م هو محمد بن عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي^٥، وجاء موسم حج عام ١٣١هـ/٧٤٨م والتي كان لها خصوصيتها، باعتبارها آخر حجة في سلطان بني أمية، حيث حج بالناس فيها الوليد بن عروة بن محمد بن عطية السعدي، وكان والي مكة والطائف والمدينة^٦، وتم الأمر لبني العباس في عام ١٣٢هـ/٧٤٩م، حيث أقام الحج لهم داود بن علي بن عبد الله بن عباس^٧.

-
- ^١ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥٧١. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٢٣. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٣٦ ص ٣٢٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٣٤٥. عبد الغني: تاريخ أمراء ص ١٩٨.
- ^٢ ابن حبيب: المحبر ص ٣٢. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٣٥. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٢٦٧. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٥٨. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٢٥١.
- ^٣ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥٨٨. ابن حبيب: المحبر ص ٣٣. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٥٤. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٢٧٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٣٧٤. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٥٩.
- ^٤ ابن حبيب: المحبر ص ٣٣. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ٧٠. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٢٧٩. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٦٤. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٢٥٢. عبد الغني: تاريخ أمراء مكة ص ٢١٠.
- ^٥ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٥٩٧. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٥٤ ص ١٤٤.
- ^٦ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٦٠٣. ابن حبيب: المحبر ص ٣٣. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٢٦٥. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٦٣ ص ٢١٧. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٢٨٨. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٦٥.
- ^٧ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٦١٢. الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٣٨. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٩ ص ١٠٧. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٣١٥. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ٥٥.

الفصل السابع

الوضع العمراني في ولاية مكة المكرمة في الدور المرواني

• مقدمة.

أولاً: هدم وبناء الكعبة المشرفة.

ثانياً: التوسعة والإصلاحات في المسجد الحرام.

ثالثاً: الجهود والإصلاحات تجاه السيول في مكة المكرمة.

رابعاً: الإصلاحات في الطرقات والسكك.

خامساً: الجهود العمرانية في جر المياه وإقامة السدود.

• مقدمة:

شغل الوضع العمراني مكانة مرموقة لدى خلفاء الدولة الأموية عموماً، وعبد الملك بن مروان وأولاده خصوصاً، ولعل مما ساعد على ازدهار هذا الوضع الهدوء السياسي، والازدهار الاقتصادي وتوافر الأموال اللازمة لهذا النشاط. وسيخصص البحث هذا الفصل لتتبع منجزات الأمويين العمرانية في ولاية مكة المكرمة، والتي تعددت وجوهاً، لتشمل مختلف مجالات الحياة، من توسعة وبناء للكعبة والمسجد الحرام، إلى جهود الأمويين في إقامة البرك والعيون، وشق الطرق والسكك وجر المياه وإقامة السدود، وكل ما يتعلق بهذا الوضع في تلك الحقبة التاريخية من عمر ولاية مكة المكرمة.

أولاً: هدم وبناء الكعبة المشرفة:

الكعبة المشرفة أول بيت وضع في الأرض لعبادة الله عزّ وجلّ، وإلى الكعبة المشرفة تنزو الأنظار وتحفو القلوب، فهي مقصد كل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لأداء فريضة الحج؛ الركن الخامس من أركان الإسلام الخمسة. وتبعاً لقداسة الكعبة، وإظهاراً لعظمتها وعزّها وجلالتها شرفها الله، فقد دأب الخلفاء الأمويون على إظهارها بأحلى صورة وأجمل طلل، فكسوها بأجمل كسوة، وطبّوها بأحسن طب، وخدموها بأفضل خدمة، وحراروا واحتراروا فيما يقدمون لها من الخدمات، علّهم يتشرفون بخدمتها أعزها الله، بعد أن مكثت في يد ألد أعدائهم السياسيين لمدة تقارب العقد من الزمن، وذلك أثناء خضوعها لسلطان عبد الله بن الزبير. فما تلك الجهود التي قام بها الخلفاء الأمويون، بالإضافة إلى حكم دولة ابن الزبير لمكة، والذي تزامن مع عهد الدور المرواني الأموي، تجاه الكعبة من هدم وبناء وكسوة؟

سبق وأسلف البحث إلى تفاصيل الحصار الأول لابن الزبير، والذي كان من نتائجه تعرض الكعبة المشرفة لحجارة المنجنيق، مما أثر في بنيتها وحجارتها، فتصدعت تصدعاً بالغاً، حتى كادت أن تھوي على الأرض من شدة ما أصابها.

ولعل ما يثير الدهشة أن ابن الزبير لم يحاول -أدنى محاولة- إصلاح الكعبة أو ترميمها، ويمكن ردّ ذلك إلى أحد أمرين؛ الأمر الأول محاولة منه للتفرغ من الحصار وإنهائه، وتحقيق النصر في الحرب التي مازالت قائمة مع الأمويين، ومن ثم يتفرغ للكعبة فيرى فيها رأيه. والأمر الثاني يعود إلى رغبة ابن الزبير بترك الكعبة مهدمة أمام عيون أنصاره وعيون أهل مكة، لتشهد على مدى استخفاف الجيش الأموي بأقدس المقدسات الإسلامية، فيكون مرآها عاملاً محرضاً لهم على قتال أهل الشام، ومحفزاً لهم على إدراك النصر وهزم خصومهم.

وعلى العموم، وبعد أن وضع الحصار الأول أوزاره، وثبت ابن الزبير ومن معه بمكة المكرمة، وحقق النصر المؤزر، تفرغ لمسألة هدم وبناء الكعبة، حيث أخذ يشاور ويسأل من حوله فيما يصنع بالبيت الحرام، أيرمه ويصلح ما تهدم منه، أم ينقضه ويهدمه ويعيد بناءه؟

ويبدو أن الآراء -كما كان متوقعاً- كانت متباينة، بين من رأى بضرورة الترميم والإصلاح وتجنب الهدم، وبين من رأى بضرورة الهدم وإعادة البناء، فكيف حسم ابن الزبير موقفه؟

أشار عبد الله بن عباس بضرورة ترميم الكعبة وإصلاح ما تهدم منها فحسب، معلناً معارضته الشديدة لهدم الكعبة بالكامل^١، ربما تبعاً لقدسيته حسب رأيهم، إلا أن ابن الزبير لم يقتنع بذلك، حيث كان له رأي آخر، فقد قرر -وهو صاحب القرار- هدم الكعبة قائلاً: "لو أن أحدكم احترق بيته، ما رضي حتى يجدده، فكيف بيت ربكم"^٢، كما روي أنه قال: "والله ما يرضى أحدكم أن يرفع بيت أبيه وأمه، فكيف أرفع بيت الله"^٣. ويبدو أن الكلام السالف كان موجهاً بشكل رئيسي إلى ابن عباس ومن معه في الرأي. وخلص ابن الزبير إلى هدم الكعبة وتوسعتها وضم الحجر إليها^٤، ودعم رأيه بحديث سمعه من خالته عائشة رضي الله عنها، حيث قال لها رسول الله ﷺ: "لولا أن الناس -وقيل قومك- حديثو عهد بجاهلية -وقيل كفر- لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألقت به بالأرض، وجعلت به بابين باباً شرقياً وباباً غربياً فبلغت على أساس إبراهيم"^٥. وقال ﷺ أيضاً: "لو كان عندي من النفقة ما يقوى على بنائه، لكنت أدخلت فيه من الحجر - وقيل الجدر - خمسة أذرع^٦، وقيل سبعة أذرع^٧، وقيل ستة أذرع وشبر"^٨، وأضاف ﷺ: "هل تدرين لم كان قومك يرفعوا بابها؟ قالت: قلت: لا، قال: تعزراً لئلا يدخلها أحد إلا من أرادوا، فكان الرجل إذا كرهوا أن

^١ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢٠٤. مسلم: صحيح مسلم ج ٢ ص ٩٧. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٦٨. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٨٢.

^٢ مسلم: صحيح مسلم ج ٢ ص ٩٧.

^٣ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢٠٤. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٨٢.

^٤ الفاسي: الزهور المقتطفة ص ٦٠-٦١. السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٧-١٢٨. الخربوطلي: تاريخ مكة ص ١٦٢-١٦٣. عثمان والجميعي: الاعتداءات على الحرمين ص ٣٨. راوه: جداول ص ٣٧.

^٥ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢٠٦. البخاري: صحيح البخاري ج ٢ ص ٥٧٣-٥٧٤ ج ٤ ص ١٦٣٠. مسلم: صحيح مسلم ج ٢ ص ٩٧٠. ابن الجوزي: المنتظم ج ٢ ص ٣٢٧. الطحاوي: شرح معاني الآثار ج ٢ ص ١٨٤. الهندي: كنز العمال ج ١٢ ص ٢٠٢. خربوطلي: تاريخ الكعبة ص ٦٦. السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٧-١٢٨.

^٦ مسلم: صحيح مسلم ج ٢ ص ٩٧٠. الهندي: كنز العمال ج ١٢ ص ٢٠٢.

^٧ ابن الجوزي: المنتظم ج ٢ ص ٣٢٧. المزني: تهذيب الكمال ج ٣١ ص ٥٢.

^٨ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢٠٦.

يدخلها، يدعونه يرتقي حتى إذا كاد يدخلها دفعوه فسقط"^١. ويبدو أن هذا الحديث الشامل والمفصل كان حجة ابن الزبير الدامغة، التي لا تضاهيها حجة، ولا يخالفها رأي في هدم الكعبة وتوسعتها وإخراجها بحلة جديدة يرضاها رسول الله ﷺ وفق الحديث السالف.

وبعد أن أصبح موقف ابن عباس ومؤيديه ضعيفاً، لم يجد من مخرج إلا أن ينصح ابن الزبير بضرورة أن يجعل حول الكعبة أثناء هدمها الستور، حتى يطوف الناس من ورائها ويصلوا إليها، حيث قال له: "لا تدع الناس بغير قبلة، انصب لهم حول الكعبة الخشب، واجعل عليه الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلون إليها"، ففعل ذلك ابن الزبير.^٢

وقبل استكمال الحديث لابد من الإجابة عن سؤال مُلح وهو: قد يتفهم المرء عدم امتلاك النبي ﷺ للنفقة اللازمة لهدم وبناء الكعبة، كما ورد في الحديث الشريف السالف نتيجة انشغاله بتأسيس دولة الإسلام، ووجود حاجات ضرورية أكثر إلحاحاً، ولكن قبل النبي ﷺ، لماذا استقصرت قريش بالنفقة على بناء الكعبة، وهي صاحبة التجارة الواسعة ذات الغنى الذائع الصيت؟

ولعل الجواب على ذلك يعود إلى أن قريشاً لم تكن تُدخل في بناء الكعبة من كسبها إلا طيباً، فلم يدخلوا فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس، فلهذا قصرت وعجزت بهم النفقة، عن بناء الكعبة على قواعد إبراهيم^٣. ويبدو أنه توفرت لابن الزبير من النفقة الحلال اللازمة، والوقت المناسب ما لم يتوفر لأحد ممن سبقه، حيث قال: "فأنا اليوم أجد ما أنفق، ولست أخاف الناس"^٤، أي أنه ليس به عجز عن النفقة، فبناها على مقتضى حديث عائشة رضي الله عنها.^٥

وبدأ ابن الزبير بالإعداد لعملية الهدم، فاستودع ما كان في الكعبة من حلّي وغيرها عند الحجة في دار شيبه بن عثمان، وجعل الحجر الأسود في تابوت في سرقة من حرير وقيل دياحة، وأقفل عليه

^١ مسلم: صحيح مسلم ج ٢ ص ٩٧١. ابن الجوزي: المنتظم ج ٢ ص ٣٢٧. المحب الطبري: القري ص ٥٠٦-٥٠٧.

ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٠٧. الهندي: كنز العمال ج ١٢ ص ٢٢٢. خربوطلي: تاريخ الكعبة ص ٦٦.

^٢ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٢٠٦. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٧٠. أبو النصر: سيوف أمية ص ٣٢٦.

^٣ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٦ ص ٢٦٧. الطحاوي: شرح معاني الآثار ج ٢ ص ١٨٤.

^٤ مسلم: صحيح مسلم ج ٢ ص ٩٧١.

^٥ خربوطلي: تاريخ الكعبة ص ١٦٣.

ووضعه عنده في دار الندوة^١، وقيل استودعه الحجة مع جميع ما كان في الكعبة^٢. وبعد أن فرغ ابن الزبير من المرحلة الأولى، والتأمين على ما في الكعبة، انتقل إلى المرحلة الثانية، وهي تأمين المواد الأولية اللازمة لعملية التوسعة من حجارة وسواها، حيث سأل رجالاً من أهل العلم من أهل مكة، من أين كانت قريش قد أخذت حجارة الكعبة حين بنتها؟ فأخبروه أنهم بنوها من جبل حراء وثبير ومن المقطع^٣. كما أنه أراد أن يبنيتها بالورس، ويرسل إلى اليمن في ورس يُشترى، فقبل له إن الورس يرفث ويذهب، ولا يقيم ولا يستمسك البنيان به كالجص، ولكن ابنها بالقصة، فسأل عن القصة فأخبر أن قصة صنعاء هي أجود القصة، فأرسل إلى صنعاء بأربعمئة دينار يُشترى له بها قصة، ويكتري عليها، وأمر بتنجيح ذلك^٤. ومن صنعاء نفسها أحضر ثلاثة أساطين من قليسها^٥، كما أرسل إليها فأُتي برخام يقال له البلق، فجعله في الروازن التي في سقفها للضوء^٦. وكما كان لليمن الدور الرئيسي في تأمين معظم المواد الأولية، كان له قدم السبق في تأمين العمال والمهرة أيضاً، فقد روي أن بناء الكعبة تم بمساعدة المعماريين والحرفيين الذين استخدموا التقنية اليمنية في البناء^٧.

أما لماذا استخدم ابن الزبير التقنية اليمنية بالتحديد في بناء الكعبة؟ فيمكن الإجابة عليه انطلاقاً من أكثر من سبب منها: أولاً الخبرة التاريخية والحضارية لأبناء اليمن والمدرسة المعمارية اليمنية في البناء، فمن المعلوم أن أقدم حضارة أشادت البيوت الطابقية والقصور الفخمة كانت في

^١ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢٠٦.

^٢ أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص ٤٢٤. المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ١٠٠. الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م، ط ٢، ج ١ ص ٥٦. الفاسي: شفاء الغرام ج ١ ص ١٥٧-١٥٨. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٦٩. الحضري: محاضرات ج ٢ ص ١٦١.

^٣ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢٢٢. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٠٦.

^٤ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢٠٥. ابن الضياء: تاريخ مكة ص ١٠٦. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٦٨.

^٥ المقدسي: البدء والتاريخ ج ٤ ص ٨٤.

^٦ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٣٠٧. العاقولي: (محمد بن محمد) عرف الطيب في أخبار مكة والمدينة، تحقيق: محمد زينهم محمد عرب، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٩م، ص ٦٥. ابن الضياء: تاريخ مكة ص ١٢٦.

^٧ Nomachi (Ali kazuoshi): Mecca the Blessed Medina the Radiant the Holiest cities of Islam, Aperture Founding, Second Edition, P.28.

اليمن. ثانياً: عدم معرفة العرب بهذا الشأن كونهم أبناء بادية، تعالوا بمعظمهم عن العمل في البناء، وتفرغوا لأموار تجارتهم، ومن ثم الفتوحات بعد ظهور الإسلام. ثالثاً: إن اعتماد ابن الزبير على اليمن بخاصة كان نتيجة خضوعها لسلطانه، وتأمين الطرق بينهما، ولعله كان من الممكن أن يستحضر الخبراء من بلاد الشام أو مصر، إلا أنها لم تكن تحت سلطانه، صحيح أن العراق خضعت لسلطته، إلا أن اليمن كانت المرشح الأقوى لدى ابن الزبير لإحضار ما يلزمه من مواد وعمال.

كانت الكعبة يوم هدمها ابن الزبير متناسبة الشكل بين الارتفاع والطول والعرض، فذرعها في السماء ثمانية عشر ذراعاً، فلما أن بلغ ابن الزبير بالبناء ثمانية عشر ذراعاً، قصرت مجال الزيادة التي زاد من الحجر فيها، واستسمح ذلك إذ صارت عريضة لا طول لها، فقال: "قد كانت الكعبة قبل قريش تسعة أذرع حتى زادت قريش فيها تسعة أذرع طولاً في السماء، فأنا أزيد تسعة أذرع أخرى"، فبناها سبعة وعشرين ذراعاً في السماء^١، وذرع طول وجه الكعبة^٢ من الركن الأسود إلى الركن الشامي خمسة وعشرون ذراعاً، وذرع دبرها من الركن اليماني إلى الركن الغربي خمسة وعشرون ذراعاً، وذرع شقها اليماني من الركن الأسود إلى الركن اليماني عشرون ذراعاً، وذرع شقها الذي فيه الحجر من الركن الشامي إلى الركن الغربي واحد وعشرون ذراعاً^٣، وذرع جميع الكعبة مكسراً أربعمئة ذراعاً وثمانية عشر ذراعاً، وذرع نفذ جدار الكعبة ذراعان، وجعل في داخلها ثلاث أساطين -السالفة الذكر- وكانت قريش قبل الإسلام جعلت فيها ست دعائم، وكان للكعبة سقفان، سقف دون سقف وبينهما فرجة^٤، وفيهما أربع روازن^٥، منها روزنة حيال الركن الغربي، والثانية حيال الركن

^١ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢٠٩. ابن رسته: (أحمد بن عمر) الأعلام النفيسة، بيروت، دار إحياء التراث الإسلامي، ١٩٨٨م، ط ١، ص ٣٥. ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٦ ص ٢٦٧. الفاسي: الزهور المقتطفة ص ٦١. الفاسي: العقد الثمين ج ١ ص ٥٤. العاقولي: عرف الطيب ص ٦٥. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٧٤-٧٥.

^٢ وردت أبعاد مختلفة لدى بعض المصادر، انظر مثلاً: الفاسي: الزهور المقتطفة ص ٦٨. ولعل ذلك يعود إلى الفرق بين الذراع المقصورة بالمسافات، حول قياس الذراع انظر جدول المسافات والموازين في الملاحق.

^٣ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٥٨٩-٢٩٠. ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٦ ص ٢٦٧.

^٤ ابن عبد ربه: المصدر المتقدم ج ٦ ص ٢٦٨. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٢٦.

^٥ روازن جمع روزنة وهي الكوة النافذة، وهي معربة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة رزن، ج ١٣ ص ١٧٩.

اليمني، والثالثة حيال الركن الأسود، والرابعة في الجدار بين الركن الأسود الركن اليمني، والروان
مربعة في أعلاها رخام البلق، يدخل منها الضوء إلى بطن الكعبة^١. كما نقش سقف الكعبة بالذهب
والزخرف، ويدور تحت السقف إفريز منقوش بالذهب والزخرف، وتحت الإفريز طوق من
الفسيفساء^٢. أما باب الكعبة فقد كان قبل بناء ابن الزبير مصراعاً واحداً، فجعل له ابن الزبير
مصراعين طولهما أحد عشر ذراعاً من الأرض إلى منتهى أعلاهما، وقيل ستة أذرع وعشر أصابع،
وعرضه ثلاثة أذرع وثمانية عشرة إصباعاً^٣، كما جعل الباب الآخر الذي في ظهرها بإزائه على
الشاذروان^٤، والشاذروان هو ما أنقصته قريش من عرض أساس جدار البيت حين ظهر على
الأرض^٥، وعدد حجارتها التي حول الكعبة ثمانية وستون حجراً في ثلاث وجوه من ذلك^٦، وطول
الشاذروان في السماء ست عشرة إصباعاً وعرضه ذراع^٧. وبالعودة إلى بابي الكعبة فقد صنعا من
الساج^٨، وغلظ كل باب ثلاث أصابع، ظاهرهما ملمس بالذهب وباطنهما بالفضة^٩.

وجعل ابن الزبير ميزاب الكعبة يسكب في وسط الجدار الذي يلي الحجر بين الركن الشامي
والركن الغربي، وذرع طول الميزاب أربعة أذرع وسعته ثمانية أصابع في ارتفاع مثلها، ولئس الميزاب بعد

^١ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٢٩٣. ابن رسته: الأعلاق النفيسة ص ٣٧-٣٨. ابن عبد ربه: العقد الفريد
ج ٦ ص ٢٦٨. العاقولي: عرف الطيب ص ٥٩. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٢٦.

^٢ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٢٩٢.

^٣ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٣٠٧. العاقولي: عرف الطيب ص ٦٥.

^٤ الشاذروان: بفتح الشين والذال وسكون الراء لفظ معرب بمعنى إزاء، الإفريز أسفل جدار الكعبة، وقد اختلف
الفقهاء فيه هل هو من الكعبة كالحطيم أو ليس من الكعبة. انظر: قلعجي وقنيبي: معجم لغة الفقهاء ص ٢٥٥.

^٥ الفاسي: الزهور المقتطفة ص ٦٩. الفاسي: العقد الثمين ج ١ ص ٥٥.

^٦ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٣٠٩.

^٧ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٣١٠. ابن رسته: الأعلاق النفيسة ص ٤٢. الفاسي: الزهور المقتطفة ص ٧٠.

^٨ الساج خشب يجلب من الهند واحده ساجه انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة سوج، ج ٢ ص ٣٠٣.

^٩ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٦ ص ٢٦٧-٢٦٨.

ابن الزبير بصفائح الذهب من داخله وخارجه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك^١، كما جعل ابن الزبير للكعبة درجة في بطنها في الركن الشامي من خشب يصعد فيها إلى ظهرها^٢.
أما الحجر فهو القسم الذي شهد أكبر تغيير على يد ابن الزبير، حيث عدّ ابن الزبير الحجر وبناءً على حديث رسول الله ﷺ جزءاً من الكعبة، وقطعة منها ولكن قريش - كما أسلف البحث - استقصرت حين بنت الكعبة، فأخرجته من البيت^٣.

وحالما فرغ ابن الزبير من بناء الكعبة على النحو الذي أشار عليه رسول الله ﷺ، قام وخلّقها من داخلها وخارجها من أعلاها إلى أسفلها^٤، فكان أول من خلّق جوف الكعبة^٥، وكذلك كساها الديباج، واعتمر مستلماً - لأول مرة - الأركان الأربعة^٦ بعد أن طاف بالكعبة، فلم يزل البيت على بناء ابن الزبير، إذا طاف به الطائف استلم الأركان جميعاً، ويدخل البيت من هذا الباب، ويخرج من الباب الغربي، وأبوابه لاصقة بالأرض حتى قتل ابن الزبير^٧.

وبهذا المعنى فقد كان لدولة عبد الله بن الزبير، سابقة عمرانية فريدة لم يذكرها التاريخ لأحد من قبله، كما أنها لم تدم من بعده، فالعهد الإسلامي الوحيد الذي تغيّر فيه الشكل الهندسي العمراني للكعبة كان في عهد ابن الزبير، فالكعبة لها بابان، وأذرع من الحجر داخل البيت، وأصبح دخول البيت متاحاً للجميع. ولكن ماذا حدث بعد مقتل ابن الزبير، وانقضاء دولته بمكة المكرمة؟ هل بقيت إنجازاته ماثلة وقائمة، أم زالت بزوال صاحبها؟ ما هو موقف الحجاج ومن ورائه عبد الملك من إصلاحات ابن الزبير العمرانية بعد أن نجحوا في الحصار الثاني؟

^١ ابن رسته: الأعلام النفيسة ص ٣٦. ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٦ ص ٢٦٩. العاقولي: عرف الطيب ص ٦٠.

ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٧٥. خربوطلي: تاريخ الكعبة ص ١٦٢-١٦٣.

^٢ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٢٠٩. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ٧٥. خربوطلي: تاريخ الكعبة ص ١٦٢-١٦٣.

^٣ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٣١٢. المحب الطبري: القرى ص ٥٠٧.

^٤ العاقولي: عرف الطيب ص ٥٥. القلقشندي: مآثر الإنافة ص ٥٦. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ١٠٣.

^٥ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٢٥٣. المقدسي: البدء والتاريخ ج ٤ ص ٨٤.

^٦ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٣١١. المحب الطبري: القرى ص ٥١٠. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٠٩.

^٧ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٣١١. المحب الطبري: القرى ص ٥١٠. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٠٩.

حالما دخل الحجاج مكة منتصراً ظافراً، كتب إلى عبد الملك أن ابن الزبير زاد في البيت على ما كان عليه قبل الإسلام، ولعلها في صيغة تنبئ بالبدعة التي جاء بها ابن الزبير، والتي لم يعهدها أحدٌ من قبل، فما كان من عبد الملك - كما كان متوقعاً - إلا أن كتب إلى الحجاج: "إننا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء، أما ما زاد فيه من الحجر فردّه إلى بنائه، وسد الباب الذي فتحه"^١، فسدّ بابها الغربي، وهدم ما كان زاد فيه من الحجر، وكبس بالهدم أرض الكعبة فعلت، وكان مقدار ما هدم الحجاج منها مما يلي الحجر ستة أذرع وشبراً، وأعاد بناءها على أساس قريش الذي كانت استقصرت عليه، وترك سائرهما لم يحرك منها شيئاً.^٢

لقد كان الرد الأموي عاصفاً وواضحاً وجلياً، لم يكن هناك أدنى تهاون في ترك ما اجتهد ابن الزبير في فعله تجاه الكعبة، لقد حرص الأمويون على طمس معالم ابن الزبير في الكعبة، وكأنهم أرادوا بذلك إلغاء وجود هذه الدولة من تاريخ مكة خاصة، والتاريخ الأموي عامة، ولعل ما يؤيد ذلك عدم تكليف الخلفاء الأمويين أنفسهم - ولا سيما عبد الملك - مشقة البحث والتقصي عن الأساس الذي استند فيه ابن الزبير في القيام بإصلاحاته العمرانية على هندسة شكل الكعبة، نعم لقد أعمت السياسة عيونهم، وأوقفت عقولهم عن التفكير، فضلّ بهم السبيل وندموا أشد الندم، ولكن كيف؟ يروى أن عبد الملك بن مروان - وهو المعني الأساسي بعملية الهدم - وبعد أن تأكد من صحة الحديث الذي دار بين رسول الله ﷺ وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حول رغبته بتوسعة الكعبة وفق هذا البناء، ندم على ما أمر به الحجاج من هدم عمل ابن الزبير، حيث قال: "لوددت أني تركته

^١ مسلم: صحيح مسلم ج ٢ ص ٩٧٠. ابن حجر: فتح الباري ج ٣ ص ٤٤٦.

^٢ ابن خياط: تاريخ خليفة ص ٣٤٦. ابن رسته: الأعلام النفيسة ص ٣٥. أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص ٤٢٤. الفاسي: الزهور المقتطفة ص ٦١. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ٨٨. السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٨. عثمان والجميعي: الاعتداءات على الحرمين ص ٤٢. حسيني: الإدارة العربية ص ٢٣٨. عبد اللطيف: مكة المكرمة ص ٩.

وما تحمل"^١, فهل الندم يشفع له على ما قام به من عمل, ولماذا لم يحاول إعادة كل شيء على ما كان عليه بعد أن أقرّ بندمه؟

الجواب بسيط للغاية, لأنه لا يريد لمنجزات ابن الزبير أن تعيش في عهد الدولة الأموية, وأمام عيون القاصي والداني من الحجاج والمعتمرين القادمين من جميع أنحاء المعمورة, فالدافع لذلك العمل كان سياسياً^٢. ولكن وبعد انقضاء عهد عبد الملك, هل قام أولاده من بعده بإجراء ما, أم تركوا الكعبة كما تركها عبد الملك من قبلهم؟

ما أن استلم الوليد الخلافة مشى على خطى أبيه, فترك بناء الكعبة, وزاد من زينتها شرفها الله, حيث أرسل إلى واليه على مكة خالد بن عبد الله القسري بستة وثلاثين ألف دينار, فضرب منها على مصراعي باب الكعبة صفائح الذهب, وعلى ميزاب الكعبة, وعلى الأساطين التي في بطنها, وعلى الأركان في جوفها, فكل ما في الكعبة من الذهب هو من عمل الوليد بن عبد الملك, وهو أول من ذهب البيت في الإسلام^٣, كما عمل الوليد الرخام الأحمر والأخضر والأبيض الذي في بطنها مؤزراً به جدرانها, وفرشها بالرخام الذي أرسل من الشام ليأتوه به, فجميع ما في الكعبة من الرخام فهو من عمل الوليد, وهو أول من فرشها بالرخام وأزّر به جدرانها^٤.

لقد كان اهتمام الوليد بالكعبة كبيراً لولعه الشديد بالبناء والفنون الهندسية, صحيح أنه لم يغير ساكناً من حجارها وأساسها وجدرانها وحجرها, إلا أنه اكتفى بتدويقها, وتذهيبها, وترخيمها بالرخام الشامي, في رسالة واضحة إلى سلطان الشام, بعد أن استغنى عن الرخام اليمني والذي

^١ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٣١١. البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥٥. المحب الطبري: القري ص ٥١٠. المزي: تهذيب الكمال ج ٣١ ص ٥٢. ابن حجر: فتح الباري ج ٣ ص ٤٤٦. السنجاري: منائح الكرم ج ٢ ص ٢٧. خربوطلي: تاريخ الكعبة ص ١٦٦. أبو النصر: سيوف أمية ص ٣٢٦. السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٨.

^٢ عبد اللطيف: مكة المكرمة ص ١٠.

^٣ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢١١-٢١٢. القلقشندي: مآثر الإنافة ج ١ ص ٦٢. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١١٩-١٢١. باسلامة: (حسين) تاريخ الكعبة المشرفة, تحقيق: يوسف بن علي الثقفي, الإحساء, مركز الترجمة والتأليف والنشر, ١٤٢٧هـ, ص ٢٤٦. خربوطلي: تاريخ الكعبة ص ١٧١.

^٤ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢١٣. باسلامة: تاريخ الكعبة ص ٢٦٢.

اعتمد عليه وجاء به عبد الله بن الزبير. ويبدو أن سليمان بن عبد الملك حالما استلم الخلافة، وبعد أن أدى فريضة الحج، وشاهد الكعبة المشرفة برفقة عمر بن عبد العزيز، تملكته رغبة شديدة بردها على ما بناها عليه ابن الزبير، بعد أن أخبره عمر بن عبد العزيز بذلك، ولم يمنع سليمان من ذلك، إلا كون كل من أبيه وأخيه أقروها على ذلك فأقرها^١، كما وأقر الحليّ الموجودة في داخلها، كما أقرها الخلفاء من قبله في مكانها^٢. وسارت الأمور على هذه الشاكلة حتى نهاية حقبة عهد الدولة الأموية، ولم يطرأ تغيير يذكر على هندسة الكعبة وشكلها، وإنما تركزت معظم الجهود على كسوتها. في بداية الدور المرواني من العصر الأموي قام ابن الزبير - كما سلف القول - بكسوة الكعبة بالديباج^٣، وقيل أنه أول من فعل ذلك^٤، بينما قال بعضهم أن أول من أعطى الأوامر بكسوة الكعبة بالديباج هو الخليفة عبد الملك بن مروان^٥، ويبدو أنه تم ذلك على يد واليه الحجاج بن يوسف الثقفي^٦، كما كانت كسوة هشام من الديباج الثخين^٧. هذا ويروى أن بني أمية كسوا الكعبة في بعض أيامهم الخلل التي كان أهل نجران يؤدونها، وفوقها الديباج^٨.

ثانياً: التوسعة والإصلاحات في المسجد الحرام:

شهد المسجد الحرام في عهد الدولة الأموية توسعاً عمرانياً ملحوظاً، ويمكن ردّ ذلك التوسع إلى سببين أساسيين، الأول قداسة المسجد في قلوب جميع الخلفاء، وإحساسهم الدائم بالتقصير

^١ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢٢١. باسلامة: تاريخ الكعبة ص ٢٦٨.

^٢ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢٢٤. المحب الطبري: القري ص ٥٢١-٥٢٢. الفاسي: الزهور المقتطفة ص ٧٠.

ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ١٠٤. السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٩-١٣٠. باسلامة: تاريخ الكعبة ص ٢٤٦.

^٣ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢٥٣. البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥٥. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ١٠٠.

^٤ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ٢١٤. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٣٧٤.

^٥ السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٠٤.

^٦ الأزرقي: أخبار مكة ج ١ ص ٢٥٣. المقدسي: البدء والتاريخ ج ٤ ص ٨٤. المحب الطبري: القري ص ٥١٦.

العاقولي: عرف الطيب ص ٥٥. ابن ظهيرة: الجامع اللطيف ص ١٠٠. الوكيل: الأمويين ص ٣٩٨.

^٧ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٢٢٠. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٢٦٣.

^٨ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥٥.

تجاهه, وهذا الإحساس دفعهم للاهتمام المتزايد به, وتقديم كل ما هو متاح لترميمه وتوسعته وإظهاره بأحسن صورة تليق به, أضف إلى ذلك الشوق الأموي للمسجد الحرام بعد أن خرج من سلطانهم في عهد دولة ابن الزبير قرابة عقد من الزمن. والسبب الثاني لعله يعود إلى تزايد رقعة الدولة الإسلامية جراء الفتوحات في الشرق والغرب, وبالتالي ازدياد أعداد المسلمين الوافدين لمكة؛ سواءً لأداء فريضة الحج أو للعمرة أو لأسباب أخرى, ولا يخفى على أحد ضيق المكان في حال عدم قيام أصحاب الشأن بأعمال التوسعة والإصلاحات المناسبة.

بدأت عملية التوسعة في الدور المرواني على يد عبد الله بن الزبير آنذاك, حيث اشترى دوراً وسَّع بها المسجد توسعة كبيرة إلى جانبيه الشرقي والجنوبي, حتى انتهى بالمسجد وأشرعه على الوادي مما يلي الصفا وناحية بني مخزوم^١, وقد بلغت مساحة المسجد في توسعته نحو ٣٢٤٠٠ ذراعاً مربعاً, واتخذ له رواقاً مسقوفاً على أعمدة مرمية, وهو أول من جلبها له^٢.

وبعد أن استتب الأمر لعبد الملك في مكة, وقضى على منافسيه, بدأ اهتمامه بالمسجد الحرام, حيث أمر عبد الملك بعمارة المسجد, فرفع جداره, وسقفه بالساج, كما جلب إليه السواري^٣ من سفن كانت في ميناء جدة بالبحر الأحمر^٤, وجعل من هذه السواري الخشبية اسطوانات في المسجد زينها بالذهب, حيث جعل على رأس كل واحدة منها خمسين مثقالاً من الذهب^٥, ووجد مكتوباً على بعض أسطواناته: "بسم الله, أمر عبد الله أمير المؤمنين بعمل هذه الأساطين على يدي ابن أبي الأزهر سنة ثمانين"^٦, كما أمر عامله خالد القسري بإضاءة ما بين الصفا والمروة^٧, وقيل إن خالداً

^١ الأزرقي: أخبار مكة ج٢ ص٧٠. الفاكهي: أخبار مكة ج٢ ص١٢٩. ابن الجوزي: منير الغرام ص٢٥٣.

^٢ السباعي: تاريخ مكة ص١٢٧. راوه: جداول ص٣٨.

^٣ السواري: جمع سارية وهي الاسطوانة, وقيل اسطوانة من حجارة أو آجر, انظر:

ابن منظور: لسان العرب, مادة سري, ج١٤ ص٣٨٣.

^٤ ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص١٥٢. الخربوطلي: تاريخ الكعبة ص١٧٠.

^٥ الفاكهي: أخبار مكة ج٢ ص١٦١. السباعي: تاريخ مكة ص١٢٩.

^٦ الفاكهي: أخبار مكة ج٢ ص١٦١.

^٧ السباعي: تاريخ مكة ص١٢٨.

أول من استصبح بين الصفا والمروة في خلافة سليمان في الحج^١، كما أمره باتخاذ مصباح كبير مقابل الركن الأسود^٢، ثم أنشأ للمصباح عموداً طويلاً بقي حتى قدوم العباسيين^٣، وكان أول مصباح اتخذ في المسجد رسمياً، حيث كان بعض جيران المسجد قبله، يضع على طرف داره مصباحاً يضئ لأهل الطواف حتى كان خالد القسري^٤، ولم يوسع عبد الملك في المسجد شيئاً^٥.

وبهذا المعنى فقد كانت إصلاحات عبد الملك الأساسية تتعلق بتجميل المسجد، وتزيينه وتذهيبه، وإنارته حتى يتسنى للناس الطواف أثناء الليل، وكذلك السعي بين الصفا والمروة، ولعل هذا يؤكد -الفكرة السالفة- تزايد أعداد المسلمين الوافدين إلى مكة من جهة، وليتوزع الناس على السعي والطواف في الليل تحت أضواء المصاييح هرباً من الحر الشديد نهاراً من جهة ثانية، وتوقف الحرب في أرض الحجاز، وعودة الأمان والاستقرار لها من جهة ثالثة.

ولما تولّى الوليد بن عبد الملك الخلافة نقض أعمال أبيه وعمل عملاً محكماً، وقد ابتدأ عمله في بداية سنة ٨٨هـ/٧٠٧م^٦، وبعد الوليد أول من نقل إلى المسجد الحرام أساطين الرخام، كما سقّف المسجد بالساج المزخرف^٧، وجعل على رؤوس الأساطين الذهب؛ في كل أسطوانة ثلاثة وثلاثون مثقالاً^٨، وأزّر المسجد بالرخام من داخله^٩، والذي جاء به على العجل من الشام ومصر^{١٠}،

^١ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٤٥.

^٢ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٢٨٧-٢٨٨. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٢٣.

^٣ الأزرقى: أخبار مكة ج ١ ص ٢٨٧-٢٨٨. الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٦٩.

^٤ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٩. راوه: جداول ص ٤١.

^٥ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦١. السباعي: أخبار مكة ص ١٢٩.

^٦ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٧١-٧٢. الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٢. السباعي: تاريخ مكة ص ١٣٠.

^٧ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٧١-٧٢. الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٢. ابن الجوزي: مثير الغرام ص ٢٥٣.

^٨ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٧١-٧٢. الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٢.

^٩ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٧١-٧٢. الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٢. السباعي: تاريخ مكة ص ١٣٠.

^{١٠} السباعي: تاريخ مكة ص ١٣٠. راوه: جداول ص ٤٢.

كما أقام بناءً محكماً من العقود المزخرفة بالفسيفساء في أعلى وجوه الطيقان، وهو أول من عمله في المسجد الحرام^١، كما وسّع المسجد^٢، وجعل له شرفات^٣.

لقد كان عهد الوليد ذاكراً بالإنجازات العمرانية، حيث احتل العمران قسماً كبيراً من اهتماماته، حيث إن معظم الروايات لم تذكر أية أعمال توسعة للمسجد الحرام بعد حقبة الوليد، ربما لأن توسعة الوليد للمسجد استوعبت الأعداد الهائلة من المسلمين حتى نهاية العصر الأموي، حتى إذا ما جاء العصر العباسي طرأت زيادات وتوسعات على المسجد الحرام، أضف إلى ذلك تدهور الأوضاع السياسية، وضعف الخلفاء الأمويين، وانشغالهم بالصراعات الداخلية.

وفي نهاية الحديث عن تلك الجهود لا بدّ من ذكر جهود عمر بن عبد العزيز، حيث كتب إلى عامله عبد العزيز بن عبد الله كتاباً، يأمر فيه أهل مكة بأن يوقدوا النار في فجاج مكة ثلاثاً، ويجرسوا الحاج، ويضعوا المصابيح للمعتمرين مخافة السرقة^٤.

ثالثاً: الجهود والإصلاحات تجاه السيول في مكة المكرمة:

كانت مكة -وما زالت- معرضة بين الحين والحين لخطر السيول الجارفة الناجمة عن هطول الأمطار الغزيرة، كونها في وادٍ غير ذي زرع، وجهد الخلفاء عموماً، والأمويون خصوصاً، على بناء التحصينات والأعمال العمرانية اللازمة للحيلولة دون حدوث أضرار بالأنفس أو الأموال، فسعوا لحماية البيوت والأماكن العامة، ومن باب أولى حماية المسجد الحرام والكعبة المشرفة. ولعل أول سيل مشهور كان في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، فماذا حدث آنذاك؟

في عام ٨٠هـ/٧٠٠م، صبّح الحُجاج سيل يوم الاثنين، حيث أحاط بالكعبة^٥، وذهب بهم وبأمتعتهم واخترق جدران بعض الدور المحيطة بالمسجد^٦، وبلغ الماء الركن وجاوز^٧، كما خرب دوراً كثيرة مشرفة على الوادي، فهلك فيها أناس كثيرون^٨، وسمي ذلك السيل بسيل الجِحفاف، وسمي

^١ الأزرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ٧١-٧٢. الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٢. السباعي: تاريخ مكة ص ١٣٠.

^٢ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٥٥. راوه: جداول ص ٤٢.

^٣ ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ١٥٢.

^٤ الأزرقي: أخبار مكة ج ٢ ص ١٧٢. الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١١٦.

^٥ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٠٥. البلاذري: البلدان ص ٦١. العلي: الحجاز ص ١٥٠.

ذلك العام بعام الجحاف؛ لأن ذلك السيل جَحَف كل شيء^٤، وذكرت رواية أخرى إن تلك السنة سميت سنة الجحفة وكان اسمها مهيعة^٥، وعلى وجه السرعة، أرسل عبد الملك مالا كثيرا لعامله على مكة عبد الله بن سفيان المخزومي^٦، يأمره بعمل ضفائر للمسجد وللدور المشرفة على الوادي، كما أمره باستحضار المهندسين -أصحاب الاختصاص- لعمل ذلك الردم وتلك الضفائر على أفواه السكك، وبالفعل فقد حضر لهذه الغاية رجلا نصرانيا^٧، وليس من المستبعد أن يكون هذا النصراني من الروم، إلا أنه كما يبدو كان من أصحاب الخبرة في مجال الردم والسيول، كون العرب لم يعتادوا على ذلك في بلادهم، ولا مانع من الاستعانة بأصحاب الخبرات؛ بغض النظر عن عرقهم ودينهم طالما يؤدون خدماتهم المتميزة للمسلمين.

ونفذت أوامر عبد الملك، حيث تم نقل الصخر العظيم، وتم الحفر دون دور الناس لبنائها بالصخر، وإحكامها بما يلزمها من المال الذي كان قد بعثه، وكانت الإبل والثيران تجر ذلك، حتى ربما أنفق في المسكن الصغير لبعض الناس مثل ثمنه مرات^٨، ويبدو أن التحصينات السالفة، وعلى الرغم من ضخامتها، إلا أنها فيما يبدو، لم تستطع أن تقف في وجه السيل العظيم الذي دهم مكة عام ٨٤هـ/٧٠٤م، والذي سمي بسيل المخبل، حيث أصاب الناس في أيامه مرض في أجسادهم،

^١ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٩. العلي: الحجاز ص ١٥٠.

^٢ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٨. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٢٧٨.

^٣ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٠٥. الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ١٦. الفاسي: الزهور المقتطفة ص ٣٣٥.

^٤ ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٢١١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٤٨١.

^٥ ابن قتيبة: المعارف ص ٣٥٧. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٢٢. الحميري: الروض المعطار ص ١٥٦.

^٦ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٩. الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١١٣. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٠٩.

السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٩. العلي: الحجاز ص ١٥٠.

^٧ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٩. الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١١٤. البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٦١.

الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٤١٦. هورخرونيه: صفحات من تاريخ مكة ج ١ ص ٩٤. العلي: الحجاز ص ١٥١.

^٨ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ١٦٩. الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١١٤. الفاسي: شفاء الغرام ج ٢ ص ٤١٨.

ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٠٨-١٠٩. العلي: الحجاز ص ١٥٠.

وخبل في ألسنتهم فسمي المخبل, وكان عظيماً بحيث دخل المسجد وأحاط بالكعبة^١. وبعد عامين من سيل المخبل في عام ٨٦هـ/٧٠٦م, أغرقت السيول مجدداً أجزاءً معينة من مكة, وسببت أضراراً جسيمة, فشيد عبد الملك بن مروان جدراناً وجسوراً حول المناطق المعرضة للخطر, حتى لا تنجم أضرارٌ عن السيول فيما بعد^٢, وفي عام ٨٨هـ/٧٠٩م, جاء سيل الوادي, فخافه أهل مكة, ومُطِرت مِني فما كانت إلا عُبراً, وكانت مكة تلك السنة مخصبة^٣. وفي خلافة هشام بن عبد الملك, أتى سيل على مكة عام ١٢٠هـ/٧٤٠م, سُمي بسيل أبي شاكِر, ونُسب لمسلمة بن عبد الملك؛ لأنه كان على الموسم ذلك العام^٤, وقيل نسبة إلى أبي شاكِر مسلمة بن هشام بن عبد الملك^٥.

لقد شهدت الحقبة الأموية سيولاً لا يُستهان بها وبتأثيرها على العباد والبلاد, ولعل تجهيزات الخلفاء الدورية, حدّت بشكل كبير من أضرارها, أو تكرارها بشكل كارثي.

رابعاً: الإصلاحات في الطرقات والسكك:

جسدت الطرقات والسكك على مدى التاريخ الشرايين التي تربط أجزاء الدولة ببعضها ببعض, كما دلّت على مدى تطور الدولة وقوتها؛ كون هذه الطرقات تسهّل وصول البريد الحامل لأخبار الأمصار للخلفاء والولاة من جهة, وكونها سبباً من أسباب ازدهار الأنشطة والفعاليات الاقتصادية المختلفة, من زراعة وتجارة وصناعة من جهة أخرى, فما هي جهود ولاة مكة وعمالها في توسيع طرقاتها وسككها, وتنشيط دور البريد منها وإليها؟

^١ الأزرقي: أخبار مكة ج٢ ص ١٧٠. البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٦١. الفاسي: شفاء الغرام ج٢ ص ٤١٨.

^٢ حسيني: الإدارة العربية ص ٢٣٨.

^٣ ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص ٢٨٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٤ ص ١٥. ابن كثير: البداية والنهاية ج٩ ص ٧٥. الفاسي: شفاء الغرام ج٢ ص ٤٢٠-٤٢١. الفاسي: الزهور المقتطفة ص ٣٣٦.

^٤ البلاذري: البلدان وفتوحها ص ٦٢.

^٥ الفاكهي: أخبار مكة ج٣ ص ١٠٨. الفاسي: شفاء الغرام ج٢ ص ٤٢١. الفاسي: الزهور المقتطفة ص ٣٣٦.

عني ابن الزبير أثناء حكمه لمكة بتخطيط الدروب والشوارع^١, ويبدو أنه اضطر في بعض الأحيان إلى إزالة كافة العوائق التي تقف في وجه إنشاء تلك الشوارع مهما كانت, فقد ورد عنه أنه أمر بهدم بعض الدور لإنفاذ الشوارع بين الأحياء, وأنفذ طريق الفلق ليختصر المسافة بين الدور والبساتين^٢, ومما يدل على مدى المجهود والمال المبذول في إنجاز هذه الطريق, ما روي من أن التلال في موضع الطريق الفلق, لا تزال آثار النحت فيها باقية لعهد قريب^٣, كما وردت روايات أخرى حول شق هذا الطريق^٤. وبالإضافة إلى اهتمام ابن الزبير بشق الطرقات, فإنه اهتم أيضاً بشؤون البريد, فشكل إدارة له في مكة, وجعل لها الدواب السريعة لتتنقل له أخبار المدن والقرى المجاورة^٥. وسار الأمويون على خطى ابن الزبير في الاهتمام بالسكك والبريد, حيث يروى أن الوليد كتب إلى واليه على المدينة عام ٨٨هـ/٧٠٩م في تسهيل الثنايا وحفر الآبار^٦, ومن مظاهر عناية الخلفاء بالطرق أيضاً وضع الأميال في الطريق, فأول من بنى الأميال في الطرقات الوليد^٧, وإن اهتمام الخلفاء بالبريد قديم, ولكن عبد الملك أدخل تحسينات هامة على نظام البريد, حتى أصبح جزءاً هاماً في إدارة الدولة^٨, وربطت السكك والطرقات الأمصار بعاصمة الشام مركز الخلافة الأموية^٩. ولعل مكة المكرمة كانت على قائمة أولويات الخلفاء الأمويين, في تأمين ما يلزمها من الطرقات والسكك, ليس من أجل أهلها فحسب, بل من أجل آلاف المسلمين, فلم يخلوا بالإنفاق عليها, واستحضار المختصين لتنفيذها, والإشراف عليها مهما كلف الأمر من مال أو جهد, كما كان شأنهم في توسعة المسجد أو مواجهة السيول والتي سلف ذكرها.

^١ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٥. راوه: جداول ص ٣٨.

^٢ راوه: جداول ص ٣٨.

^٣ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٥.

^٤ الأزرق: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٨٥. الفاكهي: أخبار مكة ج ٤ ص ١٧٦.

^٥ راوه: جداول ص ٣٨.

^٦ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٧. القلقشندي: مآثر الإنافة ج ١ ص ٦٢. العلي: الحجاز ص ٢٠٥.

^٧ القلقشندي: مآثر الإنافة ج ١ ص ٦٢. العلي: الحجاز ص ٢٠٥.

^٨ الصيحي: الحكم والإدارة ص ٦٨.

^٩ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٦.

خامساً: الجهود العمرانية في جر المياه وإقامة السدود:

قد يبدو من المستغرب وللوهلة الأولى، سعي بعض الخلفاء إلى استخراج وجر المياه العذبة في الحرم أو إليه، كون ماء زمزم المبارك كان مخصصاً لسقاية المسلمين المتواجدين في هذه البقعة المباركة، وتأمين احتياجاتهم منه وعلى مدار العام، إلا أن هذا الاستغراب من الممكن أن يزول تبعاً لعاملين أساسيين، أما العامل الأول -وقد أورده البحث أكثر من مرة- فهو تنامي أعداد القاطنين في مكة والوافدين إليها، من مقيمين وزائرين حجاج ومعتمرين، وبالتالي تنامي الطلب المتزايد على الماء العذب بشكل عام. والعامل الثاني يعود لرغبة بعض الخلفاء بحفر الآبار أو جر العيون لغايات الري والزراعة، والتي لا يمكن لزمن أن يقوم بها، لاقتصاره على خدمة الشرب وتوابعه.

وانطلاقاً من العامل الثاني فقد خدّم الخلفاء الأمويين الحرم بالعديد من العيون، حيث أجرى معاوية -كما سلف- في الحرم عشرة عيون، واتخذ لها حوايط (حوائط) أو بساتين، وزرع فيها النخيل والزرع ومنها حايط الحمام وكان بالمعلاة^١. وجاء فيما بعد عبد الله بن الزبير، فعمل بئر السقيا عند مأزمي عرفة^٢، كما عمل بمكة من السقايات حياض المزدلفة^٣، ويبدو أن جهوده كانت لاستيعاب الأعداد المتزايدة من المسلمين الوافدين على مكة، وفق العامل الأول السالف الذكر. كما حاول ابن الزبير إجراء المزيد من الإصلاحات في مجال المياه، حيث روي أنه كان موضع حوض زمزم عند موضع مصباح زمزم، وكان النازع يقوم فينزع من البئر فيصب فيها، فواحد يشرب منه، والآخر يتوضأ منه، فأخرج ابن الزبير الوضوء إلى الوادي -ربما درءاً للآزدحام الشديد- إلى جنب المسجد، وأخر الحوض الذي يشرب منه إلى جانب السقاية، فغضب ابن عباس من فعل الزبير لما حوِّله عن موضعه وأخره^٤، ولعل غضبه هذا كان لإحداث ابن الزبير أموراً، لم يحدثها من هو أتقى وأعلم منه بها ممن كانوا قبله؛ لاسيما في عهد رسول الله ﷺ أو عصر الخلفاء الراشدين

^١ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٢٧. ابن الضياء: تاريخ مكة المشرفة ص ٢١٠. العلي: الحجاز ص ١٥٤.

^٢ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٢٧. السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٥.

^٣ الفاكهي: أخبار مكة ج ٤ ص ١٢٠.

^٤ الفاكهي: المصدر المتقدم ج ٢ ص ٧٢.

وبالانتقال للسدود يبدو أن اهتمام الحجاج بن يوسف أثناء ولايته على مكة، كان منصباً على إقامة وعمل السدود أو ما أطلق عليه السداد، فما تلك السداد؟ وما الغاية من بنائها؟ أما الغاية من بنائها فكانت احتجاز مياه الأمطار، والاستفادة منها في فصل انعدام المطر^١، ولعل أشهرها ما قام الحجاج ببنائه، حيث عمل سد ثبير النصب، بصدر شعب عمرو بن عبد الله ابن خالد لحبس الماء، كما عمل سد أثال في صدر شعب عمرو، حيث جعله حبساً على وادي مكة، وجعل مفيضه يسكب في سدة خالد^٢، وهو على يسار من أقبل من شعب عمرو، وثمة سدان آخران عن يمين من أقبل من شعب عمرو، وهما يسكبان بسدة خالد أيضاً، ومن شقها وإِ يقال له الأفيعة، ويسكب في وادي مكة أيضاً^٣.

أما سداد أبي جراب^٤ فتقع في أسفل عَقَبَة منى دون القبور، على يمين الذهاب إلى منى، وعمله أبو جراب في ولاية إبراهيم بن هشام على مكة والمدينة في عهد هشام بن عبد الملك، بغير إذن إبراهيم بن هشام، فكتب إبراهيم إلى عامله أن يقف أبو جراب في الشمس حتى يدفن بثره، ففعل ذلك، فاستعان أبو جراب بأهل مكة، حتى غَوَّروا تلك البئر، ودفنوا ذلك السد^٥، ولعل ردة الفعل العنيفة تجاه بئر أبي جراب توضح مدى حساسية أمر المياه في تلك الحقبة، وحرصاً على المخزون منه، ولعل أشهر من ترك أثراً في هذا المجال ممن تولى ولاية مكة كان خالد القسري، فقد أسهبت الروايات وتمايزت في الحديث عن إنجازاته العمرانية عامة، وفي مجال البرك والآبار والعيون خاصة. فالرواية الأولى تحدثت عن حفر خالد بئر في عهد الوليد بن عبد الملك بين الثنيتين؛ ثنية ذي

^١ العبيدي: الطائف ص ٢٧.

^٢ نسبة إلى خالد بن عبد الله بن أسيد ومنها يأتي سيل مكة، وهي صدر وادي مكة أسفل منى، وهي على أميال من مكة على طريق الذهاب إلى العراق. الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٨١. الفاكهي: أخبار مكة ج ٤ ص ١٧٠.

^٣ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٨١. الفاكهي: أخبار مكة ج ٤ ص ١٧٠. العلي: الحجاز ص ٦٦٩-٦٧٠.

^٤ هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر قتله داود بن علي. انظر: الزبيري: نسب قريش ص ١٥١. الفاكهي: أخبار مكة ج ٤ ص ١٢٠. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٥٣ ص ٤٠٦. وقيل أبو جراب من ولاة مكة في زمن عطاء بن أبي رباح انظر: الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٧٦.

^٥ الفاكهي: أخبار مكة ج ٤ ص ١٢٠. ابن عبد الحق: مرصد الاطلاع ج ٢ ص ٦٩٨.

طوى، وثنية الحجون، وكان مأوها يُنقل فيوضع في حوض من آدم، ليعلم فضله على زمزم، وكان لخالد خطبة عظيمة بأهل مكة^١ فيما يبدو، حيث كان يؤنبهم فيها على ترك ذلك الحوض، ثم غارت تلك البئر فذهبت، ولا يُدرى أين هي^٢. ويمكن أن يكون عمل خالد هذا منطلقاً من تنفيذه لأوامر الخليفة الوليد، الذي أصدر أوامر لولاته بحفر الآبار في البلدان^٣، ولعل ولاية مكة ذات الاكتظاظ السكاني أولى البلدان بتنفيذ وحفر هذه الآبار.

أما الرواية الثانية فقد أوردت أن سليمان بن عبد الملك كتب إلى خالد بن عبد الله القسري أن : "أجر لي عيناً تخرج تجري بالماء العذب الزلال، حتى تظهر بين زمزم والركن الأسود، ويضاهي بها رغم ماء زمزم"^٤، فعمل خالد البركة بحجارة منقوشة طوال وأحكمها، ثم شق لها عيناً تسكب فيها الثقبه، وبني سد الثقبه وأحكمه، والثقبه شعب يفرع فيه وجه ثبير، ثم شق من هذه البركة عيناً تجري إلى المسجد الحرام، فأجراها في قصب من رصاص، حتى أظهرها في فوارة تسكب في فسقية من رخام، بين زمزم والركن والمقام، فلما أن جرت وظهر مأوها، أمر القسري بجزر فنحرت بمكة، وقسمت بين الناس، وعمل طعاماً فدعا عليه الناس، وقال: "أيها الناس أحمداوا الله تبارك وتعالى، وادعوا لأمير المؤمنين الذي سقاكم الماء العذب الزلال النقا، بعد الماء المالح الأجاج، الذي لا يُشرب إلا صبراً"^٥، وللوضوء كانت تفرغ تلك الفسقية في سرب من رصاص يخرج إلى وضوء كان عند باب الصفا في بركة كانت في السوق، قال فكان الناس لا يقفون على تلك الفسقية، ولا يكاد أحد يأتينها، وكانوا على شرب ماء زمزم أرغب، فلما رأى ذلك القسري أنبهم، ولكن دون جدوى حتى جاء العباسيون وأزلوها^٦.

^١ صفوت: جمهرة خطب العرب ج٢ ص٣٢٢.

^٢ الفاكهي: أخبار مكة ج٣ ص٦٠. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٤ ص١٨. ابن كثير: البداية والنهاية ج٩ ص٧٦.

^٣ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٨ ص١٧. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٤ ص١٥.

^٤ الأزرقي: أخبار مكة ج٢ ص١٠٧. السباعي: تاريخ مكة ص١٢٥. العلي: الحجاز ص٦٨٠.

^٥ الأزرقي: أخبار مكة ج٢ ص١٠٨. الفاكهي: أخبار مكة ج٣ ص١٥٠.

^٦ الأزرقي: أخبار مكة ج٢ ص١٠٨. ابن فهد: إتحاف الوري ج٢ ص١٢٣-١٢٤. العلي: الحجاز ص٦٨٠.

وعلى العموم نجح خالد في سحب المياه العذبة, بواسطة أنابيب من الرصاص من منطقة منى على بعد ساعتين شرقي المسجد^١, وزودت هذه القناة مهد الإسلام بكميات كبيرة من المياه^٢. أما هشام بن عبد الملك فقد أمر ببناء عدة أحواض وخزانات, على الطريق إلى مكة لراحة الحجاج^٣. لقد شكل الماء في مكة هاجساً كبيراً لدى الخلفاء, فقد سعوا لتأمينه بشتى السبل والوسائل, كونه يعين أهل مكة وزائريها على الحر الشديد, ولعل ما ورد في الروايات السالفة عن رغبة الولاة, ومن خلفهم الخلفاء, بفرض سلطتهم على الناس لينصرفوا عن ماء زمزم بما حفروه وأوصلوه للحرم, قول غير موضوعي ونابع من غايات مذهبية وسياسية, بعيدة كل البعد عن جوهر العقل الحقيقي, فالهدف الأول والأخير, كان تأمين الراحة للحجاج, واستيعاب ازديادهم السنوي بشكل جيد, وإن لخالد القسري خاصة, والأمويين عامة, أعمال جليلة مبتكرة في مكة, ما لا تتفق مع هذه الجراءة على الدين.

الفصل الثامن

الوضع العلمي والثقافي في ولاية مكة المكرمة في الدور المرواني

أولاً: الوضع العلمي والتعليمي الفقهي في ولاية مكة المكرمة:

^١ هورخرونيه: صفحات من تاريخ مكة ج ١ ص ٧٦.

^٢ حسيني: الإدارة العربية ص ٢٤٥.

^٣ حسيني: المرجع المتقدم ص ٢٤١.

• مقدمة.

أ- مدرسة مكة المكرمة.

ب- فقهاء مكة المكرمة:

- ١) عبد الله بن عباس رضي الله عنه (ت ٦٨هـ/٦٨٧م).
- ٢) سعيد بن جبير (ت ٩٥هـ/٧١٤م).
- ٣) مجاهد بن جبر (ت ١٠٤هـ/٧٢٢م).
- ٤) عكرمة مولى ابن عباس (ت ١٠٧هـ/٧٢٥م).
- ٥) عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ/٧٣٢م، وقيل عام ١١٥هـ/٧٣٣م).
- ٦) عبد الله بن أبي مليكة (ت ١١٧هـ/٧٣٥م).
- ٧) عمرو بن دينار (ت ١٢٦هـ/٧٤٣م).
- ٨) محمد بن مسلم تدرّس (ت ١٢٦هـ/٧٤٣م وقيل عام ١٢٨هـ/٧٤٥م).
- ٩) ابن أبي نجيح (ت ١٣١هـ/٧٤٩م وقيل عام ١٣٢هـ/٧٥٠م).
- ١٠) ابن جريج (ت ١٥٠هـ/٧٦٨م).
- ١١) سفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ/٨١٤م).

ج- أثر الحج في تطور الوضع العلمي والتعليمي بمكة المكرمة:

(١) أثر الفقهاء أثناء تأدية فريضة الحج.

(٢) أثر مجالس الذكر والوعظ.

(٣) أثر مجالس القصاص.

أولاً: الوضع العلمي والتعليمي في ولاية مكة المكرمة:

• مقدمة:

انطلاقاً من الخلفية الثقافية لمكة المكرمة قبل الإسلام, وحضّ الدين الإسلامي في معظم آياته القرآنية وأحاديث رسول الله ﷺ على طلب العلم, سمت مكة المكرمة وأصبحت مركزاً مهماً في الدور

المرواني من مراكز العلم في الدولة العربية الإسلامية, حيث كثرت رحلة العلماء إليها, ولعل سبب ذلك مكانة المسجد الحرام الدينية المقدسة, وبعدها عن الفتن السياسية^١, كان المسجد هو مكان اجتماع الناس للتباحث في الأمور العامة من جهة, وبالتالي فهو أنسب مكان لعقد حلقات التعليم, والتي كانت منتشرة في مكة والطائف^٢.

وبناءً على ما سلف, ستم الإجابة عن التساؤلات التالية: ما أشهر المؤسسات التعليمية والمدارس في ولاية مكة؟ أكان في ذلك الوقت مؤسسات ومدارس أم حلقات علم؟ وما أهم المواضيع والمقررات التي كان يدرسها الطلاب؟ ومن أشهر الفقهاء والعلماء المكيين, والذين تواجدوا في تلك الحقبة؟ أما السؤال الأخير والأبرز فلعله: ما أثر موسم الحج في تطور الوضع العلمي والتعليمي لمكة آنذاك؟

ولعل أشهر المؤسسات التعليمية والمدارس في ولاية مكة مدرسة مكة المكرمة, وهنا لابد من التنويه أن استعمال لفظ مدرسة هنا بشكل مجازي, والمقصود بها واقعياً حلقات العلم التي كانت تُعقد في المساجد, لأن لفظ مدرسة كمؤسسة تعليمية لم يكن قد تبلور آنذاك.

أ - مدرسة مكة المكرمة:

مكة المكرمة مركز استقطاب للعرب, لما تمثله من أهمية في وجود البيت العتيق فيها والحجر الأسود, وظلت هذه الأهمية عندما أصبحت قبلة المسلمين الكعبة المشرفة, قلب العالم الإسلامي ومهوى الأفئدة^٣.

^١ عبد الله: (عبد الرحمن بن صالح) تاريخ التعليم في مكة المكرمة, عمان, دار البشير, ٢٠٠١م, ط ٣, ص ٢٦.

^٢ أقاري (لطف الله): نشأة العلوم الطبيعية عند المسلمين في العصر الأموي, الرياض, دار الرفاعي, ١٩٨٦م, ص ٢١.

^٣ زعزوع: مكة المكرمة التفاعل الحضاري في المكان المقدس ص ٧٨.

ويبدو أن بداية العهد الإسلامي لمدرسة مكة بدأ مع بداية الدعوة الإسلامية، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة عام ٨هـ/٦٣٠م، خلف فيها معاذ بن جبل رضي الله عنه يفقه أهلها^١، ثم لما كان الخلاف بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير، ذهب عبد الله بن عباس رضي الله عنه إلى مكة وعلم فيها^٢. ولعل قدوم عبد الله بن عباس رضي الله عنه إلى مكة، لم يكن في صالحه فحسب، بل كان في صالح الأمة الإسلامية جمعاء، فهو المؤسس الفعلي لمدرسة مكة المكرمة، ليس في علوم الدين فحسب، بل حتى في علوم أخرى، كما سيشير البحث لاحقاً.

لقد غصّت مكة في العصر الأموي بجمهرة كبيرة من العلماء، ومهاجري الآفاق، الذين عصفت بهم الفتن، فهرعوا إلى مهبط دينهم ينشدون الاطمئنان بعيداً عن القلاقل فكثرت سوادهم، وامتألت برجال العلم منهم حلقات الدروس في المسجد^٣. ومما سلف يبدو أن شروط قيام المدرسة أصبحت قاب قوسين أو أدنى، فالمعلم عبد الله بن عباس رضي الله عنه موجود، والطلاب من كل حذب وصب قد جاؤوا، فلم يبق إلا اختيار المكان للبدء بفعاليات هذه المدرسة.

قرر ابن عباس رضي الله عنه أن يتخذ من المسجد الحرام مركزاً لمدرسته، فاتخذ مقعده لنشر علومه ومعارفه في دار زمزم على يسار الداخل إليها^٤، لقد كان علم ابن عباس مقصداً لطلبة العلم الذين كانوا يقدمون إلى مكة حاجين معتمرين جماعات وفرداً^٥، فالتسعت حلقاته في المسجد الحرام، وهرع الظامئون إلى مناهل العلم يرتوون منها، فكانت حركة قوية تركت أثرها في جموع المتدارسين الموزعين في أفناء المسجد، وأنتجت ضجة علمية اتصل صداها ببيوت مكة من أطرافها إلى أطرافها^٦، كما دارت فيها اللقاءات والتفاعلات بين شخصيات الخوارج وأفكارهم، وكان ابن عباس

^١ أمين: (أحمد) فجر الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٧٩م، ط ١١، ص ١٧٣.

^٢ أمين: المرجع المتقدم ص ١٧٣.

^٣ السباعي: تاريخ مكة ص ١١٥.

^٤ السباعي: المرجع المتقدم ص ١١٥.

^٥ الجميح (إبراهيم): النشاط العلمي في مكة والمدينة خلال مواسم الحج في العصر الأموي، الرياض، دار الملك عبد العزيز، ١٤٢٧هـ، ص ٢٢.

^٦ السباعي: تاريخ مكة ص ١١٦.

يدير ويوجّه تلك المناقشات شخصياً^١، وهكذا يبدو أن الشهرة الواسعة التي اكتسبتها مدرسة مكة، ترجع بالدرجة الأولى إلى ابن عباس من جهة، ومن جهة أخرى لتلاميذه^٢. ولإيضاح دور كل من أسهم في تطور هذه المدرسة، سيقدم البحث لاحقاً ترجمة لعلماء وفقهاء مكة، علّها تساعد على إيضاح الوضع العلمي والتعليمي آنذاك.

أما فيما يتعلق بالموضوعات التي درّسها ابن عباس في مدرسته، فلم تقتصر على أمور الدين فحسب، بل تعدّتها إلى غير ذلك من الاهتمامات. حيث يروى إن ابن عباس وضع جدولاً أسبوعياً لدروسه، ووّزعه على خمسة أيام، فمحور البحث في اليوم الأول فقه، واليوم الثاني تفسير، واليوم الثالث تاريخ الإسلام، واليوم الرابع الأدب، واليوم الخامس تاريخ ما قبل الإسلام^٣. وعلى العموم، يبدو أن اتجاه الحركة العلمية والتعليمية في مكة وسواها في عصر الدولة الأموية، توزع في ثلاث حركات:

- حركة دينية، وتبحث في الشؤون الدينية من تفسير وحديث وتشريع، وما إلى ذلك.
- حركة في التاريخ والقصص والسير ونحوها، باعتبارها علوماً مساعدة للمواد الدينية.
- حركة فلسفية من منطق وكيمياء وطب، ولم يكن لها شأن يذكر ولم تصبح بعد شائعة، وكانت الحركة الدينية أكبر تلك الحركات وأوسعها نطاقاً^٤. حيث أقبل الناس على القرآن الكريم يفهمون معانيه ويفسرون آياته، ويستنبطون منه الأحكام، وكذلك فعلوا بالحديث الشريف، فدرسوا روايته، واستنبطوا الأحكام الفقهية والتشريعية منه^٥. أضف إلى ذلك أن من أهم العلوم الدينية علم القراءات، والذي يعد أساس علوم التفسير^٦.

^١ عيسى: الحزبية السياسية ص ١٢٤.

^٢ حتي: تاريخ العرب ص ٣٠٠. الشريف: دور الحجاز ص ٤٦٠. أمين: فجر الإسلام ص ١٧٣.

^٣ الذهبي: (محمد السيد حسين) التفسير والمفسرون، القاهرة، مكتبة وهبة، د.ت، ج ١ ص ٥١. عبد الله: تاريخ التعليم في مكة المكرمة ص ٢٧. أمين: فجر الإسلام ص ١٧٣.

^٤ قاري: نشأة العلوم الطبيعية ص ٢٢. سالم: تاريخ الدولة العربية ص ٦٩١. حسني: الإدارة العربية ص ٢٤١.

^٥ أمين: فجر الإسلام ص ١٤٥. الهادي: اتجاهات الشعر في ص ٧٤.

^٦ سالم: تاريخ الدولة العربية ص ٦٩٢.

أما علوم العربية؛ فلم يكن لها شأن سواءً في المدينة أو مكة، فلم يذكر اسم عالم واحد أو إمام في العربية في المدينة، أما مكة فكان بها رجل من الموالي يقال له ابن قسطنطين، شدا شيئاً من النحو، ووضع كتاباً لا يساوي شيئاً^١، ويبدو أن من أسباب غلبة الاتجاه إلى علوم الشريعة على حساب اللغة العربية بُعد الحجاز عن بلاد العجم، فالإحساس بالخطر على العربية الفصحى، كان أقل بكثير مما هو عليه الحال في العراق^٢، وبعبارة أخرى، لم يشكل العجم خطراً على اللغة العربية في عصر الدولة الأموية، بقدر ما كان لهم الأثر ذاته في عصر الدولة العباسية، حيث كثر عدد المسلمين منهم، وكثر اللحن على ألسنتهم، أضف إلى ذلك ظهور حركات الشعوبية المعادية للعرب والعربية. فيما أوردت بعض الروايات أنه ما إن أتى العصر الأموي على نهايته، حتى كانت علوم اللغة العربية قد وُضعت قواعدها، وضُبِطت أصولها، فنشأ علم العروض، وضُبط علم النحو، وانتشرت الكتب ولو بشكل محدود، بسبب ندرة الورق وغلاء ثمنها.^٣

كما كان ثمة حركة ترجمة نوعية لبعض المواضيع والكتب، بيد أنها بمجملها كانت كما يبدو خارج ولاية مكة، ولعل أهمها قيام أبو العلاء سالم بن عبد الرحمن كاتب هشام بن عبد الملك بترجمة كتاب في الفلسفة لأرسطو، وكتاب الطبيب السرياني أهرن بن أعين الذي ترجمه للعربية الطبيب اليهودي المستعرب ماسرجويه، ويروى أن عمر بن عبد العزيز عثر على هذا الكتاب في مكتبة القصر، فاستخار الله في إخراجه للناس.^٤

وفيما يتعلق بنظام التعليم في مدرسة مكة المكرمة، فقد كان المجال في طلب العلم مفتوحاً للجميع، فهناك حرية في الحضور، سواءً لطلاب العلم أو لعامة الناس، دون قيد أو شرط من سن،

^١ الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٨٨. ويبدو أن الكلام السالف عن الموالي فيه نوع من القساوة أو التحامل، فلطالما كان غالب الكتاب في العصر الأموي من الموالي، حتى بعد تعريب الدواوين فإن كتاب الخراج كانوا من الموالي. للمزيد انظر: الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص ٤٣.

^٢ الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٨٩.

^٣ قاري: نشأة العلوم الطبيعية ص ٢٢.

^٤ قاري: المرجع المتقدم ص ٢٤-٢٥.

أو من مستوى, فإلى جانب طالب العلم اليافع هناك الكهل والمسن, كما أن للمدرسين الحرية التامة في اختيار تدريس مادة أو مواد, يُحكمها المدرس في إجادته وتفوقه فيها.^١

ولاشك أن هذه المثالية في التعامل, وإتباع الرفق والبعد كل البعد عن الشدة والتذمر والفظاظة, كان له الأثر الإيجابي والفعال في تطور حركة التعليم في مدرسة مكة, أضف إلى ذلك القدر الجليل والعلم الغزير لعلماء ومدرسي هذه المدرسة, والفقرة التالية ستقدم ترجمة يسيرة من دون إطالة, لأهم الفقهاء الذين كان لهم دور في تطور مدرسة مكة خصوصاً, وتطور الوضع العلمي والتعليمي في مكة بشكل عام.

ب- فقهاء مكة المكرمة:

١) عبد الله بن عباس رضي الله عنه (ت ٦٨هـ/٦٨٧م):

أبو العباس حبر الأمة^٢, وفقه العصر, وإليه انتهت الرياسة في الفتوى والتفسير^٣ حتى عُرف بإمام التفسير^٤, دعا رسول الله ﷺ له بالعلم والحكمة^٥, فكان من أجلاء الصحابة ومن أوسعهم علماً, وأكثرهم اطلاعاً وأفضلهم عقلاً, ببركة دعاء رسول الله ﷺ له, وإن عودته إلى مكة ليضطلع بالتدريس فيها, كان كسباً علمياً كبيراً ظفرت مكة به.^١

^١ زعزوع: مكة المكرمة التفاعل الحضاري في المكان المقدس ص ٨٥.

^٢ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٣٣١. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٧ ص ١٢١. اليافعي: مرآة الجنان ص ٣٣. الحجوي: (محمد بن الحسن) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي, بيروت, دار الكتب العلمية, ١٩٩٥م, ط ١, ج ١ ص ٣٣٥. الكتاني: التراتيب الإدارية ج ٢ ص ٢٧٣. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ٩٥.

^٣ الحجوي: الفكر السامي ج ١ ص ٣٣٣. الذهبي: التفسير والمفسرون ج ١ ص ٥٠.

^٤ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٣٣١. الأدنوي: (أحمد بن محمد) طبقات المفسرين, تحقيق: سليمان بن صالح الحزري, المدينة المنورة, مكتبة العلوم والحكم, ١٩٩٧م, ط ١, ص ٣.

^٥ البخاري: صحيح البخاري ج ١ ص ٤١-٦٦. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٦٢. المزي: تهذيب الكمال ج ١٥ ص ١١٥. اليافعي: مرآة الجنان ص ٣٣. ابن حجر: فتح الباري ج ٧ ص ١٠٠. ابن حجر: الإصابة

كان ابن عباس من أكثر الصحابة فتياً (إفتاءً) في مكة^٢ في أمور الدين، من تأويل وتفسير وحلال وحرام وفرائض، وكان من ضمن اهتماماته أيضاً الشعر والأنساب والكلام^٣، حتى إن الناس قالوا في فتواه: "كأنه رسول الله ﷺ إلا أنه لم يُبعث"^٤، واعتمد ابن عباس في فتواه إذا سئل على القرآن الكريم، ثم السنة النبوية، ثم قول أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وإذا لم يكن فيهم جواب السائل اجتهد برأيه^٥، حتى أنه قيل عنه: "نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس"^٦، وبالرغم من علم عبد الله بن عباس وفقهه، إلا أنه كان يتحرى الدقة في فتواه، فيتحرز عن الفتيا في كل سؤال يسأل عنه^٧. ولعل هذا الأمر يدل على مدى صحة رأي ابن عباس لدى عامة الناس، ومعرفته الكاملة بأن على عاتقه مسؤولية كبيرة، وأن كلامه وتفسيره وفتواه، ستصبح حجة لدى الفقهاء يحتاجون بها، لذلك كان مصراً على التحري والدقة، وهما من سمات العالم الورع الفقيه.

وخلال موسم الحج كان ابن عباس يخطب بالحجاج، ويقرأ عليهم القرآن الكريم ويفسره، حتى أصبح مقصداً للحجاج خلال موسم الحج، ليسأله عن تفسير آيات عديدة من القرآن، تتعلق بالحج، وأحكامه وشرائعه^٨، كما كان ابن عباس أيضاً مقصداً لعلماء المسلمين من العراق واليمن وغيرها من الأقاليم والأمصار الإسلامية، حيث يقدمون إلى مكة حاجين، ويستفيدون من علمه

ج٤ ص١٤١. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج٥ ص٢٤٣. الهندي: كنز العمال ج١٣ ص٤٥٩. الحجوي: الفكر السامي ج١ ص٣٣٣. الكتاني: التراتيب الإدارية ج٢ ص٢٧٣. الذهبي: التفسير والمفسرون ج١ ص٥٢.

^١ السباعي: تاريخ مكة ص١١٥. الجميع: النشاط العلمي ص١٦.

^٢ الكتاني: التراتيب الإدارية ج٢ ص٢٧٣. الحجوي: الفكر السامي ج١ ص٣٣٣.

^٣ ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص٧٥. الزركلي: الأعلام ج٤ ص٩٥.

^٤ الجميع: النشاط العلمي ص٩٤-٩٥.

^٥ البيهقي: سنن البيهقي الكبرى ج١٠ ص١١٥. الجميع: النشاط العلمي ص٩٤-٩٥.

^٦ البغدادي: تاريخ بغداد ج١ ص١٨٥. الشيرازي: طبقات الفقهاء ص٤٩. الأدنوي: طبقات المفسرين ص٣.

العمرى: عصر الخلافة الراشدة ص١٤٤. الذهبي: التفسير والمفسرون ج١ ص٥١.

^٧ المزي: تهذيب الكمال ج١٥ ص١١٥. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج٥ ص٢٤٣.

^٨ الجميع: النشاط العلمي ص١٧-١٨.

بالسمع والمجاورة^١، وإن قدوم العلماء وطلبة العلم إليه، وأخذهم منه التفسير، كان له دور في تطوير الدراسات القرآنية، حيث نقلوا إلى الأمصار الإسلامية، الفهم الصحيح للتفسير^٢.

ويبدو أن لقاء ابن عباس مع جموع الحجاج كان له دور كبير في تنشيط حركة العلم والتعليم في داخل مكة وخارجها، أيام موسم الحج وغيرها، فلا غرابة إذاً أن يكون هدف بعض الحجاج أو العلماء من بعد تأدية فريضة الحج، أن تكون لهم نية مبيتة للقاء حبر الأمة ابن عباس والإفادة من حكمته وعلمه. إن إقامة ابن عباس ربع قرن في مكة (٤٠ - ٦٥ هـ / ٦٦٠ - ٦٨٥ م)، وضع بلا شك حجر الأساس للتعليم المكي، من خلال نشاطه التعليمي في ميدان الدين والفقه، ولا سيما مسائل تفسير القرآن الكريم^٣، وتثبيت التطبيق الحياتي المناسب مع الإسلام^٤.

توفي ابن عباس بالطائف عام ٦٨ هـ / ٦٨٧ م، وصلى عليه محمد بن الحنفية^٥، والذي كان قد ترك مكة معه أيضاً، لموقفه الرافض لخلافة ابن الزبير بمكة. ويبدو أن الكثير من الناس قد تأثر بوفاته فقيل: "مات أعلم الناس وأحكم الناس، مات رباني هذه الأمة"، كما قال محمد بن الحنفية^٦ أو عمرو بن دينار^٧. ولعل إقامة ابن عباس بالطائف - على الرغم من قصرها زمنياً - كان له الأثر الإيجابي على تطور حركة التعليم بها، وإفادة عدد يسير من أهلها، إلا أن ذلك الأثر لا يمكن أن يقاس بأي حال من الأحوال بمدى تأثيره وأثره بمدرسة مكة المكرمة.

^١ الجُميحي: المرجع المتقدم ص ٢٤.

^٢ المرجع نفسه ص ٢٥.

^٣ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٣٤٤.

^٤ موتسكي (هرلد): بدايات الفقه الإسلامي وتطوره في مكة، تعريب: خير الدين عبد الهادي، مراجعة: جورج تامر، بيروت، دار البشائر، ٢٠١٠ م، ط ١، ص ٥٢٥.

^٥ ابن حبان: ثقات ابن حبان ج ٣ ص ٢٠٧. المزي: تهذيب الكمال ج ١٥ ص ١٦٢. الأذنوي: طبقات المفسرين ص ٣. ابن حجر: الإصابة ج ٤ ص ١٥١. الشريف: دور الحجاز ص ٤٦٠.

^٦ ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٧٢. المزي: تهذيب الكمال ج ١٥ ص ١٦٢. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٢٤٤. الأذنوي: طبقات المفسرين ص ٣. الذهبي: التفسير والمفسرون ج ١ ص ٥٠.

^٧ موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص ٥٢٤.

لقد كانت حياة ابن عباس وبحق حياة علمية حافلة بالعطاءات، يتعلم ويُعَلِّم، ولم يشغل بالإمارة إلا قليلاً لما استعمله علي رضي الله عنه على البصرة، والحق يقال إن ابن عباس ظهر فيه النبوغ العربي بأكمله معانيه، علماً وفصاحة، وسعة اطلاع في نواح علمية مختلفة، ولا سيما فهمه لكتاب الله تعالى، وخير وصف له ما قاله عنه ابن عمر: "ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد"، بل وكان معلماً حقاً لطائفة من العلماء المشهورين والذين أثروا في مكة، من أمثال عطاء بن أبي رباح، ومجاهد بن جبر، وابن أبي مليكة وغيرهم.^٢

٢) سعيد بن جبير (ت ٩٥هـ/٧١٤م) :

أبو عبد الله^٣، من موالي والبة بن الحارث من بني أسد^٤، حبشي الأصل، من عبّاد المكيين وفقهاء التابعين، أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر^٥، كان سعيد من أعلم التابعين بتفسير القرآن ومناسك الحج والحلال والحرام^٦، وكان يقص على أصحابه بعد الفجر وبعد العصر، ويختتم القرآن كل ليلتين، وإذا وقف في الصلاة كأنه وتد^٧. ويبدو أن سعيد انخرط في العمل السياسي، فكان في جملة القراء الذين خرجوا مع عبد الرحمن بن الأشعث على عبد الملك بن مروان، وعندما هزم ابن الأشعث هرب سعيد إلى مكة وبقي فيها زماناً طويلاً، ثم قبض عليه والي مكة آنذاك خالد

^١ الذهبي: التفسير والمفسرون ج ١ ص ٥٢.

^٢ ابن حجر: الإصابة ج ٤ ص ١٥١. الذهبي: التفسير والمفسرون ج ١ ص ٧٧.

^٣ وكيع: أخبار القضاة ج ٢ ص ٤١١. الذهبي: التفسير والمفسرون ج ١ ص ٧٨.

^٤ الشيرازي: طبقات الفقهاء ص ٨٢. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٦. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٧١. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٩٧. الزركلي: الأعلام ج ٣ ص ٩٣. الذهبي: التفسير والمفسرون ج ١ ص ٧٨.

^٥ ابن خياط: طبقات خليفة ص ٤٩١. ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص ١٠٦. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٧١. الأذنوي: طبقات المفسرين ص ١٠. الزركلي: الأعلام ج ٣ ص ٩٣.

^٦ الفسوي: (أبو يوسف يعقوب بن سفيان) المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم العمري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م، ط ١، ج ٢ ص ١٦. الأذنوي: طبقات المفسرين ص ١٠. الذهبي: التفسير والمفسرون ج ١ ص ٧٨.

^٧ ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٦.

القسري، وأرسله إلى الحجاج^١، والذي اتهمه بالنكوص عن بيعته لعبد الملك من جهة، ومبايعته لابن الأشعث عدو الأمويين اللدود من جهة أخرى، وانتهى الحديث بينهما بإقدام الحجاج -ولبئس ما فعل- على قتل سعيد بواسط عام ٩٥هـ/٧١٤م^٢، وله من العمر تسعة وأربعون سنة^٣.

٣) مجاهد بن جبر (ت ١٠٤هـ/٧٢٢م):

أبو الحجاج، المكّي الأسود، كان مولى لبني مخزوم^٤، كان مولده عام ٢١هـ/٦٤٢م، كان من العُباد والمتجربين في الزهد مع الفقه والورع^٥، كرس مجاهد حياته للعلم والتفسير، وهو من أكثر رواة

^١ المقدسي: البدء والتاريخ ج٦ ص٣٩. ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص٣١٨. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢ ص٣٧٢. الصفدي: الوافي بالوفيات ج١٨ ص١٣٤. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج٣ ص٨٢. عطوان: الفقهاء والخلافة ص٥٩.

^٢ وكيع: أخبار القضاة ج٢ ص٤١٢. الشيرازي: طبقات الفقهاء ص٨٢. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج١٢ ص١٩٤. المزي: تهذيب الكمال ج١٠ ص٣٧٣. ابن كثير: البداية والنهاية ج٩ ص٩٦. القلقشندي: مآثر الإنافة ج١ ص٦٣. الذهبي: التفسير والمفسرون ج١ ص٧٨. الزركلي: الأعلام ج٣ ص٩٣.

^٣ ابن خياط: طبقات خليفة ص٤٩١. ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص١٠٦. ابن حبان: الثقات ج٤ ص٢٧٥. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج٤ ص١٢. ابن حجر: تقريب التهذيب، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م، ط٢، ج١ ص٢٣٤. الحجوي: الفكر السامي ج١ ص٣٦٣.

^٤ ابن خياط: طبقات خليفة ص٤٩١. الأصبهاني: (أحمد بن عبد الله) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ، ط٤، ج٣ ص٢٧٩. الشيرازي: طبقات الفقهاء ص٦٩. المزي: تهذيب الكمال ج٢٧ ص٢٢٨. ابن حجر: الإصابة ج٦ ص٢٧٧. ابن حجر: تقريب التهذيب ج١ ص٥٢٠. الأذنوي: طبقات

المفسرين ص١١. الشريف: دور الحجاز ص٤٦٠. الذهبي: التفسير والمفسرون ج١ ص٧٩.

^٥ ابن حبان: الثقات ج٥ ص٤١٩. ابن الجوزي: صفة الصفوة ج٢ ص٢٠٩.

التفسير عن ابن عباس^١, وكان ثقة وممن بلغ مبلغاً عظيماً في القرآن وعلومه^٢, حتى قيل أنهم من أجل المفسرين في زمانه والمقرئين^٣, وأعلم التابعين بالتفسير^٤.
 كان مجاهد كثير الأسفار والتنقل^٥, لكن مكة هي كوكبه الذي يدور حوله, فما يبتعد إلا ويأتي به الحنين إليها^٦, ولعل تنقله هذا, أسهم بنشر العلم في الأمصار التي كان يزورها, كما نشر من خلالها تعاليم أستاذه ابن عباس, وتفسيره للقرآن الكريم, وما عودته إلى مكة إلا وليتم رسالته, فيلقى الحجاج في الموسم فيستفيدون من فهمه للقرآن وتفسيره^٧, كانت وفاته بمكة عام ١٠٢هـ/٧٢٠م^٨, وقيل ١٠٣هـ/٧٢١م^٩, وقيل ١٠٤هـ/٧٢٢م^{١٠} وهو الأرجح, كونه عمراً ثلاثاً وثمانين سنة^{١١}.

٤) عكرمة مولى ابن عباس (ت ١٠٧هـ/٧٢٥م):

-
- ^١ ابن خياط: طبقات خليفة ص ٤٩١. أمين: فجر الإسلام ص ١٥٣. الهاشمي: (عبد المنعم) فقهاء مكة, دمشق, دار ابن كثير, ١٩٩٣م, ط ١, ص ٨٧. الزركلي: الأعلام ج ٥ ص ٢٧٨. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٤٥٧.
^٢ الهاشمي: فقهاء مكة ص ٨٨-٩٠. الجميح: النشاط العلمي ص ٤٠.
^٣ الحجوي: الفكر السامي ج ١ ص ٣٦٢.
^٤ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٧٢. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٣٩. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ١ ص ٥٢٠. الأذنوي: طبقات المفسرين ص ١١. الذهبي: التفسير والمفسرون ج ١ ص ٧٩.
^٥ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٤٥٦.
^٦ الهاشمي: فقهاء مكة ص ٩٥-٩٦.
^٧ الجميح: النشاط العلمي ص ٤١.
^٨ ابن حبان: الثقات ج ٥ ص ٤١٩. ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ٢ ص ٢١١.
^٩ الحجوي: الفكر السامي ج ١ ص ٣٦٢.
^{١٠} الشيرازي: طبقات الفقهاء ص ٦٩. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٤٥٦. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ١ ص ٤٠. الزركلي: الأعلام ج ٥ ص ٢٧٨. الذهبي: التفسير والمفسرون ج ١ ص ٧٩.
^{١١} ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص ١٠٦. الهاشمي: فقهاء مكة ص ٩٧.

أبو عبد الله عكرمة بن عبد الله مولى ابن عباس، أصله من البربر من أهل المغرب^١، كان عند الحصين بن الحر العبدي، فوهبه لابن عباس^٢، وقيل اشتراه^٣، واجتهد ابن عباس في تعليمه القرآن والسنن، وسماه بأسماء العرب^٤. يعد عكرمة من الطالعين بالتفسير من التابعين، ولا غرابة في ذلك، فقد أخذ التفسير عن ابن عباس، يقول عكرمة: "كان ابن عباس يجعل في رجلي الكبل، يعلمني القرآن ويعلمني السنة"^٥، وكان مرجعاً للناس في علم القرآن والتفسير والفقه والمناسك^٦.
برز عكرمة بمكة كأحد فقهاءها، إلا أنه كان كثير الأسفار والتنقل من بلد إلى بلد، فسافر إلى البصرة، واجتمع عنده الناس ليسألوه، وهو يجيب عن أسئلتهم^٧، حيث سمح له ابن عباس بإفتاء الناس^٨. وبذلك أصبح عكرمة مقصداً للعلماء والفقهاء الذين كانوا يقدمون إلى مكة حاجين،

-
- ^١ الشيرازي: طبقات الفقهاء ص ٧٠. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٤١ ص ٨٠. اليافعي: مرآة الجنان ص ١٧٨.
عيسى: الحزبية السياسية ص ١٣٧. الحجوي: الفكر السامي ج ١ ص ٣٦٢.
^٢ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ١٣. اليافعي: مرآة الجنان ص ١٧٨. عيسى: الحزبية السياسية ص ١٣٧.
^٣ عيسى: الحزبية السياسية ص ١٣٧.
^٤ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٦٥. اليافعي: مرآة الجنان ص ١٧٨.
^٥ الفسوي: المعرفة والتاريخ ج ٢ ص ٥٥. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ١٣. ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ٢ ص ١٠٣. ابن حجر: فتح الباري ج ٥ ص ٧٥. الذهبي: التفسير والمفسرون ج ١ ص ٨٤.
^٦ ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص ١٠٧. الأذنوي: طبقات المفسرين ص ١٢. أمين: فجر الإسلام ص ١٥٣. الجميع: النشاط العلمي ص ٤٢-٤٣. عيسى: الحزبية السياسية ص ١٣٧.
^٧ الأصبهاني: حلية الأولياء ج ٣ ص ٣٢٨. المزي: تهذيب الكمال ج ٢٠ ص ٢٧٤. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ٢٤٤.
^٨ الأصبهاني: حلية الأولياء ج ٣ ص ٣٢٧. الشيرازي: طبقات الفقهاء ص ٧٠. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٥٦. اليافعي: مرآة الجنان ص ١٧٨. الحجوي: الفكر السامي ج ١ ص ٣٦٢.

فتفاخروا بعلمه قائلين: "هذا مولى ابن عباس, هذا البحر فسلوه"^١, كما قالوا عنه: "هذا أعلم الناس بسيرة النبي ﷺ", وأعلم الناس في زمانه بالقرآن"^٢.

مات مولاه ابن عباس وعكرمة على الرق ولم يعتقه, فباعه ولده علي بن عبد الله بن عباس لخالد بن يزيد بن معاوية بأربعة آلاف دينار, فقال له عكرمة: "بعت علم أبيك بأربعة آلاف دينار", فاستقال علي خالداً فأقاله, وأعتق عكرمة.^٤

ويبدو أن علياً كان مقدراً لعلم عكرمة حتى تراجع عن قرار البيع, كما أن خالد بن يزيد عرف علم عكرمة حق المعرفة فدفع فيه مبلغاً لا يُستهان به, وبما أن علياً لم يحز علم أبيه, وحازه عكرمة بدرجة كبيرة, فلم يجد أمامه من سبيل لخدمة علم أبيه خاصة, والعلم الشرعي عامة إلا أن يعتق عكرمة لوجه الله, فيكون شريكاً بنشر علم أبيه. مات عكرمة عام ١٠٥هـ/٧٢٣م, وقيل عام

^١ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٤١ ص ٨٥. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ١٦. المزني: تهذيب الكمال ج ٢٠ ص ٢٧١. الجميح: النشاط العلمي ص ٤٤. الذهبي: التفسير والمفسرون ج ١ ص ٨٤.

^٢ الفسوي: المعرفة والتاريخ ج ٢ ص ١٦. الأصبهاني: حلية الأولياء ج ٣ ص ٣٢٦. ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ٢ ص ١٠٤. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٤٥. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ٢٤٤.

^٣ ابن حبان: الثقات ج ٥ ص ٢٢٩.

^٤ الطبري: المنتخب من كتاب ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين, تقديم ومراجعة: صدقي جميل العطار, بيروت, دار الفكر, ٢٠٠٢م, ط ٢, ص ٣٨٧. الأدنوي: طبقات المفسرين ص ١٢. ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ٢ ص ١٠٣. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ١٦. الحجوي: الفكر السامي ج ١ ص ٣٦٣. الذهبي: التفسير والمفسرون ج ١ ص ٨٢.

^٥ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٤١ ص ١٢٢. الحجوي: الفكر السامي ج ١ ص ٣٦٢. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ٢٤٤.

١٠٧هـ/٧٢٥م^١, هو والشاعر كثير عزة في يوم واحد^٢, فقال الناس: "مات أفقه الناس وأشعر الناس"^٣, وكان لعكرمة يوم مات أربع وثمانون سنة.^٤

٥) عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ/٧٣٢م, وقيل عام ١١٥هـ/٧٣٣م) :

أبو محمد, واسم أبي رباح أسلم^٥, كان أسلم نوبياً يكسب قوته من خلال صناعة المكاتل^٦ والسالل^٧, وكان أسلم مولى لبني جمح ويقال لبني فهر من مولدي الجند, نشأ بمكة, كما كانت أم عطاء سوداء وتدعى بركة^٨, وفي وصف لعطاء فقد كان أسود أعور أشل أعرج أفطس, ثم

عمي بعد ذلك^١, وصفاته السالفة تطابق أن والديه كليهما قد كانا زنجيين.^٢

-
- ^١ الطبري: المنتخب ص ٣٨٨. ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص ١٠٧. الشيرازي: طبقات الفقهاء ص ٧٠.
ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ٢ ص ١٠٥. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٦٦.
^٢ ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ٢ ص ١٠٥. المزني: تهذيب الكمال ج ٢٠ ص ٢٩٠. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٣١. اليافعي: مرآة الجنان ص ١٧٩. الذهبي: التفسير والمفسرون ج ١ ص ٨٢.
^٣ الفسوي: المعرفة والتاريخ ج ٢ ص ٦. الأصبهاني: حلية الأولياء ج ٣ ص ٣٢٧. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٦٦. اليافعي: مرآة الجنان ص ١٧٩. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ٢٤٤.
^٤ ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص ١٠٧. الشيرازي: طبقات الفقهاء ص ٧٠.
^٥ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٤٠ ص ٣٦٩.
^٦ عن المكتل انظر في الملاحق.
^٧ ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ٧ ص ١٨٠. موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص ٤٤٩.
^٨ ابن خياط: طبقات خليفة ص ٢٨٠. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٦١. المزني: تهذيب الكمال ج ٢٠ ص ٧٦. أمين: فجر الإسلام ص ١٥٣. الحجوي: الفكر السامي ج ١ ص ٣٦٣.

يعد عطاء من كبار التابعين الثقات الرفعاء، يقال أنه أدرك مائتي صحابي، وكان ثقة فقيهاً عالماً، كثير الحديث، أعلم الناس بالمناسك^٢، حتى أن منادي بني أمية في أيام منى، كان ينادي ويصيح: "لا يفتي الناس في الحج إلا عطاء بن أبي رباح"^٤، وإياه عنى الشاعر بقوله:

سَلِ الْمُفْتِيَّ الْمَكِّيَّ هَلْ فِي تَزَاوِرٍ وَضْمَةٍ مُشْتَاقِ الْفَوَادِ جَنَاحُ
فَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُذْهَبَ التُّقَى تَلَاصِقَ أَكْبَادٍ بِهَنْ جِرَاحُ

فلما بلغ البيتان عطاء قال: "والله ما قلت شيئاً من هذا"^٥.

وكان عطاء من أحسن الناس صلاة^٦، وحج سبعين حجة، وعمّر قرابة مائة سنة، وكان في آخر عمره يفطر في رمضان من الكبر، ويفدي إفطاره^٧. ولعل كثرة عدد حجرات عطاء تدل على تقواه وورعه من جهة، والصفة الرسمية كمفتي لبني أمية من جهة أخرى، وفي كلتا الحالتين أسهم مساهمة كبيرة بنشاط مكة العلمي والتعليمي أيام الحج، ولا سيما كونه من أشهر تلاميذ عبد الله بن

^١ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٣ ص ١١٠. ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص ١٠٦. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٦٢. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ٧ ص ١٨٠. الأذنوي: طبقات المفسرين ص ١٤. أمين: فجر الإسلام ص ١٥٣. الحجوي: الفكر السامي ج ١ ص ٣٦٣. الذهبي: التفسير والمفسرون ج ١ ص ٨٥.

^٢ موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص ٤٥١.

^٣ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٤٣. الفسوي: المعرفة والتاريخ ج ٢ ص ١٦. الطبري: المنتخب ص ٣٩٠. المزني: تهذيب الكمال ج ٢٠ ص ٧٨. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٦١. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ٧ ص ١٨١. الجميح: النشاط العلمي ص ٤٥. الحجوي: الفكر السامي ج ١ ص ٣٦٣. الذهبي: التفسير والمفسرون ج ١ ص ٨٦.

^٤ الشيرازي: طبقات الفقهاء ص ٦٩. المزني: تهذيب الكمال ج ٢٠ ص ٧٨. اليافعي: مرآة الجنان ص ١٩٢. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ٧ ص ١٨١. الحجوي: الفكر السامي ج ١ ص ٣٦٣. الجميح: النشاط العلمي ص ١١٥.

^٥ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٦١.

^٦ المزني: تهذيب الكمال ج ١٨ ص ٣٤٧. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ٧ ص ١٨١.

^٧ ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٦. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ٧ ص ١٨١. أمين: فجر الإسلام ص ١٧٤.

عباس، وخريجي مدرسة مكة المكرمة. وكانت جلسات عطاء التي علّم فيها وأجاب على الأسئلة تعقد في الحرم، والذي اتخذ أيضاً مكاناً للمبيت في العقدين الآخرين من حياته.^١ وعن عطاء سئل أهل مكة؛ كيف كان عطاء فيكم؟ قالوا: "كان مثل العافية التي لا يعرف فضلها حتى تُفقد"^٢، حتى قيل أنه لما مات العبادلة^٣، صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالي، فكان فقيه مكة عطاء^٤. والسؤال هنا، هل كان لعطاء موقف سياسي معين تجاه الأحداث السياسية التي شهدتها مكة في تلك الحقبة، أم نأى بنفسه عن الأحداث؟

كان موقف عطاء مع عبد الله بن الزبير، فلما قُتل ابن الزبير، أمّته عبد الملك بن مروان فبايعه عطاء^٥، لقد كان إخلاص عطاء لابن الزبير شديداً، وكان من أشد المدافعين عن خلافته، حتى أن يده الشلاء قيل بأنها ضربت أيام إخفاق ابن الزبير^٦، ومن المرجح أن رغبة عطاء بالبقاء بمكة التي نشأ بها وأحبها من جهة، وخوفه من مطاردة الأمويين له من جهة أخرى، دفعاه إلى اتخاذ قراره الذي لم يجد بداً منه، وهو التراجع عن موقفه السياسي المناوئ للأمويين، وطلب الأمان لنفسه، فكان له ما طلب، فهل هناك سر أو سبب وراء صفح الأمويين هذا؟

لعل علم عطاء ومكانته العلمية الرفيعة، كان السبب في هذا الصفح، فعلم عطاء شهد به القاصي والداني، كيف لا وهو تلميذ ابن عباس حبر هذه الأمة، وذهب الأمويون أبعد من ذلك عندما نصّبوا عطاءً -وكما أسلف البحث- مفتياً رسمياً لهم بمكة، ولا سيما أيام الحج.

ويبدو أن دور عطاء العلمي في مدرسة مكة برز بشكل أساسي بعد وفاة معلمه ابن عباس، حيث تابع تلاميذه وهو على رأسهم، تقليده العلمي في مكة، ولعطاء مستوى متطور نسبياً للتأمل الفقهي، وسعة الموضوعات المُعالجة التي تمتد إلى مجالات كثيرة، والشيء المميز لدرس عطاء،

^١ موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص ٤٥٣-٤٥٤.

^٢ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٣ ص ١١٠.

^٣ عبد الله بن العباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو.

^٤ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٤٢. الشيرازي: طبقات الفقهاء ص ٥٨. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٢١.

^٥ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٦ ص ٤٢٤-٤٢٥.

^٦ المزني: تهذيب الكمال ج ٢٠ ص ٧٦. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ٧ ص ١٨١.

ولتلاميذ ابن عباس الآخرين، هو أنهم يُدلون في الغالب بأرائهم الذاتية، وأنهم يعتمدون في مدى محدد فقط على المرجعيات لهذا الأمر^١. ومن بين مصادر عطاء الفقهية يأتي القرآن الكريم والحديث الشريف وأحكام الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وروايات عدد من صحابة آخرين وفقه ابن عباس^٢. إدارياً كان لعطاء مواقف مع ولاية مكة، ولاسيما خالد القسري، الذي أمر بفقهاء مكة وعلى رأسهم عطاء، أن يلقوا في السجن، وكُلّم في عطاء أن يخرج ليفتي الناس أيام الموسم^٣، وعندما أدار خالد بن عبد الله القسري صفوف المصلين حول الكعبة، لم يعترض عطاء على ذلك^٤، وكأنه أراد القول أنه يقبل بالإيجابيات والمنجزات الجيدة حتى لو كانت من ألد خصومه. وعن طباع عطاء وحسن خلقه، كتبت الكثير من الروايات لعل أهمها، أنه ذات مرة اتّهمه شخص بسرقة أمواله، فأعطاه عطاء إياها، وفيما بعد ثبتت براءته، فلم يقبل برد ماله له^٥. توفي عطاء عام ١١٤هـ/٧٣٢م^٦، وقيل عام ١١٥هـ/٧٣٣م^٧.

٦) عبد الله بن أبي مليكة (ت ١١٧هـ/٧٣٥م):

واسم أبي مليكة زهير بن عبد الله بن جدعان، ويكنى عبد الله بأبي بكر وأبي محمد القرشي

^١ موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص ٥٢٦.

^٢ موتسكي: المرجع المتقدم ص ٥٢٦.

^٣ التميمي: المحن ص ٣٤٣-٣٤٤.

^٤ الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٦٦. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٢١.

^٥ التميمي: المحن ص ٣٣٠.

^٦ ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص ١٠٦. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٦٨. ابن الأثير: الكامل في التاريخ

ج ٤ ص ٢١٥. المزي: تهذيب الكمال ج ٢٠ ص ٨٤. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٦. ابن حجر: تهذيب

التهذيب ج ٧ ص ١٨٢. الحجوي: الفكر السامي ج ١ ص ٣٦٣. الذهبي: التفسير والمفسرون ج ١ ص ٨٥.

^٧ ابن حبان: ثقات ابن حبان ج ٥ ص ٢٣١. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٤٠ ص ٤٠٦. ابن خلكان: وفيات

الأعيان ج ٣ ص ٢٦٢. المزي: تهذيب الكمال ج ٢٠ ص ٨٤. الأذنوي: طبقات المفسرين ص ١٤.

التيامي المكي، القاضي الأحول المؤذن^١، ولد عبد الله في خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان من الصالحين والفقهاء، صاحب حديث وإتقان، يقال أنه رأى ثمانين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ولي قضاء الطائف والأذان لابن الزبير^٢، أي أنه كان زبيري الهوى كشأن عطاء.

راسل ابن عباس ليسأله في أكثر من مسألة اعترضت عمله في القضاء، فأجابه ابن عباس عنها، ورحابة صدر ابن عباس العالم التقي الورع لا تخفى على أحد، حتى مع خصومه في السياسة - كونه طرد من مكة ولجأ إلى الطائف لعدم مبايعته ابن الزبير بالخلافة - يجده السائل ناصحاً أميناً يحسب أجره عند الله وَعَلَى، كما أن سماحة الإسلام، أبعد ما تكون عن التأثير بالخصومات السياسية الزائلة بزوال حقبة ما. توفي عبد الله عام ١١٧هـ/٧٣٥م.^٤

٧) عمرو بن دينار (ت ١٢٦هـ/٧٤٣م):

أبو محمد عمرو بن دينار المكي، الأثرم^٥، وكان مولى لبني جمح وقيل لبني مخزوم^٦. ولد عام ٤٥هـ/٦٦٦م، وقيل عام ٤٦هـ/٦٦٧م^٧، نشأ وتلقى التعليم على يد ابن عباس، وأقام في دائرة مكة والطائف، اشتهر باعتباره فقيه مكة، فعلى مدى ثلاثين سنة أفتى عمرو بمكة فكان حديث

^١ ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص ١٠٧. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٨٨-٩٠.

^٢ ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص ١٠٧. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٨٨-٩٠.

^٣ وكيع: أخبار القضاة ج ١ ص ٢٦٢. الشيرازي: طبقات الفقهاء ص ٦٩. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ١٠٢.

^٤ ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص ١٠٧. الذهبي: سير أعلام ج ٥ ص ٩٠. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ١٠٢.

^٥ الأثرم: مصدر ثرم، سقوط الثنية من الأسنان، وقيل أن تقلع السن من أصلها، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ثرم، ج ١٢ ص ٧٦.

^٦ ابن خياط: طبقات خليفة ص ٤٩٤. ابن حبان: الثقات ج ٥ ص ١٦٧. المزي: تهذيب الكمال ج ٢٢ ص ٥-٦.

الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٣٠٠. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٢٦. ابن حجر: تقريب التهذيب

ج ١ ص ٧٣٤. الهاشمي: فقهاء مكة ص ٧٤. موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص ٤٧٧.

^٧ ابن حبان: الثقات ج ٥ ص ١٦٧. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٣٠٠. الهاشمي: فقهاء مكة ص ٧٤.

موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص ٤٧٧. الزركلي: الأعلام ج ٥ ص ٧٧.

أهلها، وجليس علمائها^١. ولعل تحول ابن دينار في كل من مكة والطائف، أسهم وبشكل كبير في تطور المستوى العلمي، ولاسيما في الطائف والتي كانت تدور في فلك ولاية مكة.

كان مجلس عمرو العلمي عامراً بالتلاميذ العظماء، فقد أصغى إليه من هو أكبر منه سناً وهو ابن أبي مليكة^٢، وكان طاووس بن كيسان قد أوصى ابنه بالدراسة عنده، كما أن عطاء أوصى ابنه بالدراسة عنده بعد موته، وهو ما فعله ابن جريج أيضاً، وأثنى عليه أيضاً أقرانه المقاربون له سناً، مثل ابن أبي نجيح والزهري جميل الثناء، ويصنفه بعض التلاميذ والمستمعين مثل سفيان بن عيينة على أنه فقيه فائق البراعة، وراوي جدير بالتصديق، ومقدم على معاصريه^٣.

ومما يؤثر عن عمرو أنه كان يكره أن يدون تلاميذه تعاليمه، ولعل خير دليل على هذا الكلام، الرواية التي فحواها أن رجلاً من أهل مكة قدم إلى ابن دينار وقال له: "إن سفيان بن عيينة إذا ذهب إلى البيت يكتب عنك"، فاستلقى عمرو على فراشه في المسجد فبكى، وقال: "أخرج بالله على كل مسلم يكتب عني شيئاً"، وقال: "يكتبون عني خطايا"، وأشار إلى أنه عندما كان بعمرهم لا ينسى شيئاً سمعه^٤. ولعل الرواية السالفة تؤكد للبحث أن عملية التعلم والتعليم، كانت بمجملها شفوية تعتمد على الذاكرة في التلقي بشكل أساسي، في حين يبدو أن الكتابة عن المدرسين لم تكن شائعة بعد، حتى قدوم ابن جريج - كما سيورد البحث لاحقاً - وإن وجدت فيبدو أنها كانت على نطاق ضيق. وعن سبب معارضة عمرو للكتابة عنه وكرهه لها، فيبدو أن حجته كان فحواها أنه من الممكن أن يدي بريء فيه خطأ ويتراجع عن هذا الرأي في اليوم التالي، ولا تصحح آراؤه تلك، ومن الجائز أنه أراد بمنع تدوين الملاحظات عنه أو نشرها كتابياً، أن يجلب التلاميذ للدراسة عنده، وسماع الروايات منه شخصياً^٥.

^١ الهاشمي: فقهاء مكة ص ٧٥. موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص ٤٧٩.

^٢ الهاشمي: فقهاء مكة ص ٧٦.

^٣ موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص ٤٨٣.

^٤ الفسوي: المعرفة والتاريخ ج ٢ ص ١٩.

^٥ موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص ٤٨٠.

ويمكن أن يكون الرأي السالف فيه وجهة نظر شرط أن يتم أخذه بالمعنى لا بالحرفية، فعمر بن دينار التقي الورع، لا يمكن أن يرضى بفرض رأيه على تلاميذه، أو أن يمارس الأنانية ويجلب التلاميذ للدراسة عنده دون سواه، ويبدو أنه كان يريد من تلاميذه كما كان أساتذته يريدون منه، أن تكون لديهم ذاكرة متقدة وذهن حاضر، يغنيهم عن الكتابة والتدوين من جهة، ولارتفاع ثمن الورق وعدم توافر مواد الكتابة من جهة أخرى. إلا أن الأمر خرج عن سيطرته على ما يبدو.

نظم عمرو وقته بشكل دقيق، حيث خصص ثلث الليل للدروس والعلم والتحدث، وثلثاً للنوم، وثلثاً للصلاة، وكان منهجه العلمي صادقاً ومستقيماً^١. سياسياً كان لعمر مواقف مع والي مكة خالد القسري، والذي أمر بحبسه مع بعض فقهاء مكة - كما أسلف البحث - وعلى رأسهم عطاء الذي أخرج عمرو بعد أن خرج قبله^٢، وأيضاً لم يكن لعمر أي تعليق - شأنه كشأن عطاء أيضاً - على إدارة خالد القسري للصفوف حول الكعبة^٣.

عاش عمرو على بعد مسافة غير قصيرة من المسجد الحرام، الذي عقد فيه جلساته، وقد جاء إليها ممتطياً الحمار بشكل منتظم، ومع أنه لا يُروى أنه كان ذا عاهة جسمية، إلا أنه تحتم على تلاميذه حمله من المسجد وإليه، وكان يستمر في الدرس والصلاة إلى آخر الليل، ويبدو أن سني حياته الأخيرة لم تشهد هذا الأمر^٤.

ولعل بُعد المسجد عن بيته، هو من دفعه أحياناً إلى اتخاذ فراش في المسجد نفسه، حيث كان يلقي دروسه، فيرتاح من مشقة الذهاب والعودة، أما حمل طلابه وتلاميذه له فيمكن أن يندرج تحت اسم الاحترام والتبجيل لعلمه وورعه وتقواه، وكبر سنه ونحالة جسمه، وهذه الصورة يمكن أن تتكرر في أي حقبة من الحقب، لتدل على أهمية العالم وعلمه.

^١ الأصبهاني: حلية الأولياء ج ٣ ص ٣٤٨. الهاشمي: فقهاء مكة ص ٧٨.

^٢ التميمي: الحن ص ٣٤٣-٣٤٤.

^٣ الأزرق: أخبار مكة ج ٢ ص ٦٦. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٢١.

^٤ موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص ٤٧٩.

وانطلاقاً من ورع عمرو وعلمه وتقواه، عرض عليه الأمويون بعد وفاة عطاء منصب مفتي مكة، وهو منصب بمرتبة مدفوع من بيت المال، ولكن عمرو رفض^١، ولعل سبب رفضه يعود إلى السبب نفسه الذي كان يدفعه لمنع طلابه من الكتابة عنه، خشية أن يقع في الزلل والخطأ من خلال فتاويه. الممكن أن يكون سبب الرفض خشيته من أن يصبح مطية للأمويين يجبرونه على الإفتاء لصالحهم، وأياً كان سبب الرفض، يبدو أنه لم يستمر لمدة طويلة، فعندما توفي بعد سنوات قليلة خليفة عطاء، مفتي مكة قيس بن سعد^٢، وافق عمرو على تولي منصب الإفتاء بأهل مكة، واحتفظ به حتى وفاته^٣، والتي كانت عام ١٢٦هـ/٧٤٣م^٤، بعد أن وصف بأنه أعلم أهل مكة^٥.

٨) محمد بن مسلم تدرّس (ت ١٢٦هـ/٧٤٣م وقيل عام ١٢٨هـ/٧٤٥م):

الإمام الحافظ الصدوق، أبو الزبير القرشي الأسدي المكي، مولى حكيم بن حزام^٦، كان أكمل الناس عقلاً وأحفظهم، عالماً بالحديث من أهل مكة^٧، ومع أن أهميته العلمية لا تضاهي من سلف ذكره من العلماء والفقهاء، إلا أن كونه عالماً بالحديث من جهة، ومن أهل مكة من جهة ثانية، ومن موالي ابن حزام من جهة ثالثة، هذه الأمور وغيرها كانت كفيلة بأن تهيئ له دوراً في عملية التعليم بمكة خلال تلك الحقبة، أضف إلى ذلك ما وصف به من الكمال في العقل، ومقدرته في

^١ الفسوي: المعرفة والتاريخ ج ٢ ص ١٩. الأصبهاني: حلية الأولياء ج ٣ ص ٣٤٨.

^٢ أبو عبد الله قيس بن سعد من موالي أهل مكة، مات عام ١١٩هـ. انظر: ابن خياط: طبقات خليفة ص ١٦٧.

^٣ ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٢٧. موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص ٤٨٠.

^٤ ابن حبان: الثقات ج ٥ ص ١٦٧. الشيرازي: طبقات الفقهاء ص ٧٠. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ١ ص ٧٣٤.

^٥ وكيع: أخبار القضاة ج ١ ص ٣٧١. الأصبهاني: حلية الأولياء ج ٣ ص ٣٤٨. المزني: تهذيب الكمال ج ٢٢ ص ١٠.

^٦ ابن خياط: طبقات خليفة ص ٤٩٤. الأصبهاني: حلية الأولياء ج ٧ ص ٢٢٦. المزني: تهذيب الكمال ج ٢٦ ص ٤٠٢. أمين: فجر الإسلام ص ١٥٣. الزركلي: الأعلام ج ٧ ص ٩٧.

^٧ ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٣٩١. الزركلي: الأعلام ج ٧ ص ٩٧. أمين: فجر الإسلام ص ١٥٣.

الحفظ. توفي ابن مسلم عام ١٢٦هـ/٧٤٣م^١، وقيل ١٢٨هـ/٧٤٥م^٢، وذلك خلال خلافة آخر خليفة أموي مروان بن محمد.^٣

٩) ابن أبي نجيح (ت ١٣١هـ/٧٤٩م وقيل عام ١٣٢هـ/٧٥٠م):

عبد الله بن أبي نجيح الثقفي المكي، مولى لآل الأحنس، كنيته أبو يسار، واسم أبي نجيح يسار، كان ابن أبي نجيح عالماً بالقرآن وتفسيره^٤، كما كان ممن يسكن المدينة مدة، ومكة زماناً^٥، ولعل ترحاله وزيادة اطلاعه واجتماعه مع العلماء والفقهاء هذا، أسهم في علو مقامه العلمي، مما أهله لتولي مهام لها أهميتها الدينية كالإفتاء، حيث تولى الفتوى في مواسم الحج، بعد عطاء بن أبي رباح في زمان بني أمية^٦، كما كان فقيهاً لأهل مكة بعد عمرو بن دينار^٧، ولعل شغله منصب عطاء وعمرو يدل على مبلغ علمه وفقهه، ولا سيما أمام أسئلة جموع الحجيج واستفساراتهم. توفي ابن أبي نجيح عام ١٣١هـ/٧٤٩م^٨، وقيل عام ١٣٢هـ/٧٥٠م^٩، فتوافق أفول نجمه مع أفول نجم الدولة الأموية، الذي كان أحد مفتيها في مكة.

١٠) ابن جريح (ت ١٥٠هـ/٧٦٨م):

-
- ^١ المزني: تهذيب الكمال ج ٢٦ ص ٤١٠. الزركلي: الأعلام ج ٧ ص ٩٧.
 - ^٢ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٣٥٤. اليافعي: مرآة الجنان ص ٢١٣.
 - ^٣ ابن خياط: طبقات خليفة ص ٤٩٤. ابن حجر: تقريب التهذيب ج ٢ ص ١٣٢.
 - ^٤ ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص ١٧٤. الأذنوي: طبقات المفسرين ص ١٦.
 - ^٥ ابن خياط: طبقات خليفة ص ٤٩٥. الشيرازي: طبقات الفقهاء ص ٧٠. الذهبي: سير أعلام ج ٦ ص ١٢٥.
 - ^٦ ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص ١٧٤. الجميح: النشاط العلمي ص ١١٠.
 - ^٧ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٤٦. الطبري: المنتخب ص ٣٨٧. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٦ ص ١٢٥.
 - ^٨ ابن خياط: طبقات خليفة ص ٤٩٥. البغدادي: تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٧٣. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٦ ص ١٢٦. الأذنوي: طبقات المفسرين ص ١٦.
 - ^٩ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٣٥. الشيرازي: طبقات الفقهاء ص ٧١. الجميح: النشاط العلمي ص ١١٠.

عُرف باسم الشهرة هذا عبد الملك بن عبد العزيز بن جريح، أي في الواقع ابن ابن جريح، كان جده جريح (جورج) عبداً ذا أصل بيزنطي (رومي)، لدى امرأة اسمها أم حبيب بنت جبير^١، وهي زوجة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية^٢، وكان نسل جريح منتمياً إلى موالي هذا البطن الأموي، ويُذكر أن والد ابن جريح عبد العزيز كان فقيهاً في مكة، لكن لا يعرف الكثير عنه، وكان ابن جريح يكنى بأبي الوليد^٣، وقيل أبو خالد^٤.

ولد ابن جريح في مكة عام ٨٠هـ/٦٩٩م، ويقوم هذا التاريخ على رواية أنه قد ولد في العام الذي نُكبت فيه مكة بكارثة طبيعية، حيث مُنيت بسيل جارف منبعث عن انحمار غزير للمطر، أحدث أضراراً كبيرة فيما عرف بسيل الجحاف -السالف الذكر في الوضع العمراني- وعلى الأغلب كانت وفاته عام ١٥٠هـ/٧٦٨م^٥، وتبعاً لذلك فقد عاش ابن جريح ٧٠ عاماً^٦.

تلقى تعليمه في مكة، وقد اهتم كثيراً في سن مبكرة بالشعر والأنساب، وقُبل في حلقة عطاء ابن أبي رباح بعد أن استطاع تلاوة القرآن وتعلم الفريضة وإتقان قواعد الإِثْر^٧، وها هو ذا يقول: "لم يغلبني على يسار عطاء عشرين سنة أحد"، فقليل له: "فما معك عن يمينه"، قال: "كانت قريش تغلبني عليه"^٨، وبعد أن ترك حلقة عطاء، يبدو بأنه التحق بحلقة عمرو بن دينار، حيث قال:

-
- ^١ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٦ ص٣٢٦. موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص٨٨.
- ^٢ البغدادي: تاريخ بغداد ج١٠ ص٤٠٠. الشيرازي: طبقات الفقهاء ص٧١. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٦ ص٣٢٦.
- ^٣ البغدادي: تاريخ بغداد ج١٠ ص٤٠٠. الشيرازي: طبقات الفقهاء ص٧١. ابن الجوزي: المنتظم ج٨ ص١٢٤.
- ^٤ المزي: تهذيب الكمال ج١٨ ص٣٤٧. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٦ ص٣٢٥.
- ^٥ ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص١٧٥. البغدادي: تاريخ بغداد ج١٠ ص٣٩٩. ابن الجوزي: المنتظم ج٨ ص١٢٤. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٦ ص٣٢٥. موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص٤٨٩-٤٩٠.
- ^٥ ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص١٧٥. الشيرازي: طبقات الفقهاء ص٧١. المزي: تهذيب الكمال ج١٨ ص٣٥٢. عبد الله: تاريخ التعليم في مكة المكرمة ص٢٧. الحجوي: الفكر السامي ج١ ص٤٨٨.
- ^٦ موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص٤٩٢.
- ^٧ الجميح: النشاط العلمي ص١١٠-١١١. موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص٤٩٤-٤٩٧.
- ^٨ الشيرازي: طبقات الفقهاء ص٧١. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٦ ص٣٣٤.

"جالست عمرو بن دينار بعدما فرغت من عطاء سبع سنين"^١, كما استمع إلى علماء آخرين مثل ابن أبي مليكة وطاووس ومجاهد^٢. ولعل تنقل ابن جريج بين أكثر من حلقة فقيه أو مدرس, إنما يدل على رغبته الشديدة بالتعلم, والحصول على العلم من أكثر من جهة, وسماع آراء متعددة في قضايا متشابهة, ودليل كل رأي وحجته لإثبات صحة رأيه.

لقد أصبح ابن جريج -نتيجة لاجتهاده- من أجلّ فقهاء أهل مكة وقرائها, فكان ممن جمع وصنف وحفظ وذاكر, حتى قيل: "ابن جريج أول من صنف الكتب"^٣, وحمل عنه الناس واحتذوا بحذوه, كيف لا وهو القائل: "ما دون العلم تدويني أحد"^٤, وعّد مصنفه أول عمل شاق في النصف الأول من القرن الهجري الثاني^٥, وبهذا المعنى فقد أحدث ابن جريج ثورة معرفية كبيرة بانتقاله إلى مرحلة التدوين والتصنيف بدلاً من التعليم الذي يعتمد على الحفظ فحسب.

تولى ابن جريج الإفتاء بمكة, وكان شيخ الحرم المكي بعد عطاء ومجاهد وقيس بن سعد^٦, وكان يسأله الناس في المواسم^٧, وفي حسن صلاته قال أهل مكة: "أخذ ابن جريج الصلاة من عطاء, وأخذها عطاء من ابن الزبير, وأخذها ابن الزبير من أبي بكر رضي الله عنه, وأخذها أبو بكر رضي الله عنه من النبي ﷺ, فما كان أحد أحسن صلاة من ابن جريج"^٨.

^١ الشيرازي: طبقات الفقهاء ص ٧١. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٣٥٨.

^٢ الجميح: النشاط العلمي ص ١١٠-١١١. موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص ٤٩٤-٤٩٧.

^٣ البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٤٠٠. ابن الجوزي: المنتظم ج ٨ ص ١٢٤. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ١٦٠. الرافعي: (مصطفى صادق) تاريخ آداب العرب, القاهرة, دار الكتاب العربي, د. ت, ج ١ ص ١٨٦.

^٤ الفسوي: المعرفة والتاريخ ج ٢ ص ٢٥. الشيرازي: طبقات الفقهاء ص ٧١. البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٤٠٢. المزي: تهذيب الكمال ج ١٨ ص ٣٤٧. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٣٥٨.

^٥ موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص ٤٩٧-٥٠٢.

^٦ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٦ ص ٣٣٢. الجميح: النشاط العلمي ص ١١٠-١١١.

^٧ الجميح: المرجع المتقدم ص ١١٠-١١١.

^٨ البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٤٠٣. المزي: تهذيب الكمال ج ١٨ ص ٣٥٢. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٦ ص ٣٣٠. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٣٥٩. موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص ٥٠٣.

لقد كان ابن جريج -وبحق- أحد علماء المسلمين الأوائل للقرن الثاني الهجري، ممن رتب جانباً من المعلومات المجموعة منه في ضوء وجهات نظر فقهية، ووضعها في هيئة كتاب جعله أساساً لدروسه، ويرجع الفضل لنشاطه العلمي في إمداد الفقه المكي بمجموعة من المصادر، فقد جمع الكثير من مادة ابن عباس وتلاميذه وغيرهم^١، فليس مستغرباً بعد هذا كله، أن يُعد ابن جريج من "أوعية العلم"، وأن تسمى مصنفاته وكتبه باسم "كتب الأمانة"^٢. ويبدو من خلال عام وفاة ابن جريج عام ١٥٠هـ/٧٦٨م^٣، أن نشاطه العلمي والتعليمي لم يقتصر على العصر الأموي فحسب، بل تعداه إلى سنوات يسيرة من العصر العباسي، واستفادت مكة وسواها من علمه وفقهه في كلا العصرين والحقبين.

(١١) سفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ/٨١٤م):

سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، أبو محمد، الكوفي ثم المكي^٤، جالس الزهري في مكة وهو ابن ستِّ عشرة سنة^٥، ولد سفيان عام ١٠٧هـ/٧٢٥م^٦، كان مفسراً ومحدثاً وفقياً ثقة، واسع العلم كبير القدر، وله كتاب في التفسير^٧، وإلى جانب عنايته بكتاب الله وتلاوته، عني أيضاً بعلم السنن، وواظب على جمعها والتفقه فيها إلى أن مات^٨، وقد شهد له العلماء بالكفاءة في

^١ موتسكي: بدايات الفقه الإسلامي ص ٥٣٠.

^٢ البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٢٠٤-٤٠٥. المزي: تهذيب الكمال ج ١٨ ص ٣٤٨-٢٤٩.

^٣ البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٤٠٦. الشيرازي: طبقات الفقهاء ص ٧١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٥ ص ١٦٥. الرافعي: تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٨٦.

^٤ ابن حبان: الثقات ج ٦ ص ٤٠٣. ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ٢ ص ٢٣١. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٩١. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٨ ص ٤٥٥. الحجوي: الفكر السامي ج ١ ص ٤٦٣.

^٥ ابن حبان: الثقات ج ٦ ص ٤٠٣.

^٦ البغدادي: تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٧٤. ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ٢ ص ٢٣١. المزي: تهذيب الكمال ج ١١ ص ١٨٨.

^٧ الأدنوي: طبقات المفسرين ص ٢٣. الزركلي: الأعلام ج ٣ ص ١٠٥.

^٨ ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص ١٧٩.

الفتاوي^١, ويبدو أن دوره العلمي في مكة كان يتجلى بأهمى صورة, عندما كان يزدحم عليه طلاب العلم في المواسم ازدحاماً عظيماً^٢, ولعل في غير المواسم كانت دروسه داخل المسجد الحرام بمن حضر من طلابه.

ويبدو أن رغبته الشديدة بالعلم واكتساب المزيد منه, كان السبب وراء كثرة أسفاره, حيث قصد كل مكان رأى فيه علماً^٣, كما كان سفيان يسأل عن العلماء بمكة -سواء المقيمين منهم أو القادمين للحج- بهدف الاستفادة من علمهم والتشاور معهم^٤, ويروى أنه أدرك ستة وثمانين^٥; وقيل سبعين^٦ من أعلام التابعين, أما عن عدد حجاته فقد حج سبعين حجة^٧, وقيل اثنتين وسبعين حجة^٨. توفي سفيان عام ١٩٨هـ/٨١٤م^٩, ويبدو أن نشاطه العلمي استمر في عهد الدولة العباسية مقدماً لمكة خدماته الجليلة, والتي لم تتوقف بسقوط الدولة الأموية.

ج- أثر الحج في تطور الوضع العلمي والتعليمي بمكة المكرمة:

كانت مكة -وما زالت- ملتقى المسلمين من مختلف بلدانهم, ومركزاً للثقافة الإسلامية, وكان لموسم الحج أثر كبير على الحياة العلمية, ليس في الحقبة الأموية المعنية بالبحث فحسب, وإنما في جميع حقب التاريخ, ففي موسم الحج يجتمع الفقهاء والعلماء والطلاب وأناس عاديون, من أقصى

^١ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص٣٩٢.

^٢ ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار ص١٧٩. الجميع: النشاط العلمي ص٤٦-٤٧.

^٣ الهاشمي: فقهاء مكة ص٤٠.

^٤ الجميع: النشاط العلمي ص٤٧.

^٥ البغدادي: تاريخ بغداد ج٩ ص١٧٤. ابن الجوزي: صفة الصفوة ج٢ ص٣٦٢.

^٦ الحجوي: الفكر السامي ج١ ص٤٦٣.

^٧ ابن الجوزي: صفة الصفوة ج٢ ص٢٣٧. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢ ص٣٩١.

^٨ البغدادي: تاريخ بغداد ج٩ ص١٨٢.

^٩ الفسوي: المعرفة والتاريخ ج١ ص١٨٧. ابن حبان: الثقات ج٦ ص٤٠٣. البغدادي: تاريخ بغداد ج٩ ص١٨٣.

ابن الجوزي: صفة الصفوة ج٢ ص٢٣٧. ابن الجوزي: المنتظم ج١٠ ص٦٩. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣ ص٣٩٣. المزي: تهذيب الكمال ج١١ ص١٩٦. الأذنوي: طبقات المفسرين ص٢٣. الحجوي: الفكر السامي ج١ ص٤٦٣.

الشرق والغرب, وينتج من هذا الالتقاء تقارب وتفاهم وتبادل رأي وخبرة واستزادة علم, وذكريات تبقى عالقة في ذهن الحجيج, وتعاليم اكتسبوها نتيجة اختلاطهم مع جموع المسلمين, فالحج ليس تظاهرة دينية فحسب, إنما تظاهرة اجتماعية ثقافية سياسية اقتصادية منذ قديم الزمان, ومع أن الدافع الأساسي لجموع المسلمين المتوجهين إلى مكة هو تأدية فريضة الحج, إلا أن شغف بعضهم للقاء بعض العلماء والفقهاء, كان يزيدهم رغبة في تأدية هذه الفريضة.

وأسلف البحث بذكر مقتضب لأشهر الفقهاء القاطنين في مكة وما حولها تم ذكرهم في فقرة سالفة, لذا ستخصص هذه الفقرة من البحث للحديث عن الفقهاء والعلماء من خارج مكة, والذين أتوا لأداء فريضة الحج, وتوضيح الدور العلمي لهم, والذي ترك أثره على الحياة العلمية والتعليمية في مكة خلال تلك الحقبة من عمر الدولة الأموية.

(١) أثر الفقهاء أثناء تأدية فريضة الحج:

ولعل أشهر من كان له مساهمات في مواسم الحج, وكان له دور سياسي وديني معاً, عبد الله ابن الزبير (ت ٧٣هـ/٦٩٢م), والذي قطن مكة قرابة عقد من الزمن, وسبق للبحث أن تحدث عنه بما فيه الكفاية, إلا أن الحديث هنا سيقصر على جهوده العلمية في مواسم للحج, فكيف تجلت؟ كان عبد الله بن الزبير حافظاً قارئاً للقرآن, وعندما سيطر على مكة كان يحج بالمسلمين, ويقيم لهم المواسم عدة سنين, وعليه فقد أسهم ابن الزبير في النشاط العلمي, وتجلّى ذلك بتعليمه للناس مناسك الحج, حيث يقول عبد الله بن أبي مليكة: "كان ابن الزبير يصلي الظهر, ثم يضع المنبر فيجلس عليه في العشر -أي عشر ذي الحجة- كلها فيما بين الظهر والعصر, فيعلم الناس الحج",^١ حتى قيل فيه: "ما كان أحد أعلم بالمناسك من ابن الزبير".^٢

وفي خطبة المواسم كان ابن الزبير يفسر للناس القرآن الكريم^٣, حيث كان عالماً بالقرآن

^١ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ٦٠. الجميح: النشاط العلمي ص ٢٦.

^٢ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ١٦٨.

^٣ الجميح: النشاط العلمي ص ٢٧.

ومعانيه^١ ولم يكتف بتفسير القرآن الكريم، بل كان يدعو الحجاج لسؤاله عن أسباب نزول القرآن الكريم، وتأويل آياته، وفي ذلك يقول ابن الزبير: "يا معشر الحجاج سلوني فعلينا كان التنزيل ونحن حضرنا التأويل"^٢، ومما لاشك فيه أن ابن الزبير كان من أقدر الناس على التفسير لمعرفته الكبيرة به، كيف لا وهو ابن الزبير بن العوام - حواري رسول الله ﷺ - وأسماء ذات النطاقين رضي الله عنهما، وجده أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وشهد له العدو قبل الصديق بالورع والفقه والعلم.

ومن العلماء الذين كان لهم دورٌ علميٌّ بارزٌ في مواسم الحج خلال هذه الحقبة أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب (ت ٧٣هـ/٦٩٢م) من أعز بيوت قريش، أفتى الناس في الإسلام ستين سنة، كف بصره في آخر حياته، وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة^٣، والذي وصف بالعالم الزاهد المتورع، والكامل في معاني القرآن^٤. كان ابن عمر يحج كثيراً، وخلال تواجده في مكة أثناء الموسم كان يداوم على قراءة القرآن الكريم، ويقوم بتدريسه للطلاب بفهم وعمق وتأن، وكان في مداومته على الحج، مناسبة للحجاج لكي يسألوه ويستفيدوا من علمه وفهمه للقرآن الكريم^٥، وأصبح ابن عمر من أعلم الصحابة بمناسك الحج، ومن المشهورين بالفتوى في مواسم الحج، ومن المداومين على ذلك^٦.

سياسياً كان لابن عمر مواقف واضحة تجاه الدولة الأموية وولاتها، فلم يعتد ابن عمر على السكوت عن الخطأ أو الكذب والنفاق، فهو لا يخشى في الله لومة لائم، ولعل خير مثال على تلك الجرأة أنه لما دخل الحجاج بن يوسف الثقفي مكة بعد مقتل ابن الزبير، وقف خطيباً بالناس فقال: "إن ابن الزبير غير كتاب الله"، فتصدى له ابن عمر غير مبالي ببطشه وجبروته، وقال له: "ما

^١ الأذنوي: طبقات المفسرين ص ٥.

^٢ البخاري: الكنى، تحقيق: السيد هاشم الندوي، بيروت، دار الفكر، د.ت، ص ٣٥. الجميع: النشاط العلمي ص ٢٩.

^٣ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٧-٢٨. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ١٠٨.

^٤ الأذنوي: طبقات المفسرين ص ٤.

^٥ الجميع: النشاط العلمي ص ٣٠.

^٦ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٧-٢٨. الجميع: النشاط العلمي ص ٩٩.

سلّطه الله على ذلك ولا أنت معه, ولو شئت أن أقول : كذبت لفعلت" ^١. وبعد هذه الحادثة, ما موقف الأمويين منه, أعاقبوه؟ أم أكرموه؟

في الواقع لقد كان علم عبد الله وفهمه بأمور الدين وأحكام مناسك الحج, محل تقدير لدى الخلفاء الأمويين, حتى أنهم كانوا يأمرّون ولائهم في مكة, بأن يتقيدوا بعبد الله بن عمر, ويتبعوه في مناسك الحج وسننه, فقد كتب الخليفة عبد الملك بن مروان إلى عامله على مكة الحجاج عام ٧٣هـ/٦٩٣م, يأمره بأن لا يخالف ابن عمر في شيء من أمر الحج, ويقتدي به ويأخذ عنه. ^٢ ومن خلال ما سلف يتضح الأثر الكبير لابن عمر على الوضع التعليمي في مكة, فكان دائم الحضور في مواسم الحج, دليل الحجاج في إبانة مناسك حجهم, وفق رغبة الدولة الأموية نفسها. وبما أن الولد سر أبيه, فليس من الغرابة أن يشابه سالم بن عبد الله (ت ١٠٦هـ/٧٢٥م) أباه في التقى والهدى والسمت ^٣, لقد كان سالم أشبه أولاد أبيه به, وهو أحد فقهاء المدينة, ومن سادات التابعين وعلمائهم وثقاتهم ^٤, ويبدو أن جرأته لم تقل عن جرأة أبيه, فقد اعتاد سالم على الحج, وكان يقابل هناك الخلفاء الأمويين, وأشهر من قابله هشام بن عبد الملك, والذي سأله عن حوائجه لكي يلبسها له, لكن سالماً رفض إجابة طلبه ^٥, ولم يكثرث لغضبه أو رضاه.

ومما لاشك فيه أن وجود شخصية دينية كبيرة في مكة, كشخصية سالم بن عبد الله, كان لها الأثر الإيجابي الكبير في إغناء حركة التعليم في مكة خلال مواسم الحج, وكان الناس يقصدونه - كما كانوا يقصدون والده- لكي يفتيهم في أمرهم, ويبين لهم مناسك الحج, ويوضح لهم ما التبس عليهم من أمر, في شؤون دينهم أو دنياهم. ومن الفقهاء غير المكيين, والذين كانوا معتادين على السفر

^١ ابن كثير: البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٣٢, ج ٩ ص ١٢١. الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٢٧.

^٢ الجميح: النشاط العلمي ص ٦٧.

^٣ ابن حبان: ثقات ابن حبان ج ٤ ص ٣٠٥. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٠ ص ٧٠. ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٠. المزي: تهذيب الكمال ج ١٠ ص ١٥٣. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٤٥٩.

^٤ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٤٩. الزركلي: الأعلام ج ٣ ص ٧١.

^٥ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٠ ص ٦٤. ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ٢ ص ٩١. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٥٠. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٣٥. الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٢٨.

ملكاً لأداء فريضة الحج، والجلوس في مساجدها، وإلقاء دروسه على طلابها، الفقيه اليمني المشهور طاووس بن كيسان، فمن طاووس؟ وما أثره التعليمي في مواسم الحج بمكة؟
طاووس بن كيسان الخولاني اليمني (ت ١٠٦هـ/٧٢٤م)، مولى بحير الحميري^١، وقيل اسمه ذكوان، وطاووس لقب غلب عليه، لأنه كان طاووس القراء^٢. كما كان أحد الأئمة الأعلام ومن سادات التابعين، وصاحب حظوة عند الخلفاء الأمويين، فهو فقيه جليل القدر نبه الذكر^٣، حج أربعين حجة^٤.

وقد جمع طاووس العبادة والزهادة والعلم النافع والعمل الصالح، وقد أدرك خمسين أو سبعين من الصحابة^٥، وأكثر الرواية عن ابن عباس، كما روى عنه خلق من التابعين وأعلامهم، منهم مجاهد وعطاء وعمرو بن دينار وغيرهم^٦. ولعل الفضل في علم طاووس يعود إلى معلمه ابن عباس، الذي استمع إليه في مواسم الحج، ولازمه وسمع منه تفسير القرآن الكريم^٧، فكان من خاصة تلاميذه، ومن المعروف أن تلاميذ ابن عباس كانوا امتداداً لمدرسة مكة التعليمية، وكانوا سفراء أينما ذهبوا، وعلى رأسهم طاووس فقيه اليمن.

وكونه كان يكثر من الحج، فقد التقى بعدد من الخلفاء الأمويين، وكان له معهم مواقف مشهورة، فعندما حج الخليفة سليمان بن عبد الملك، خرج حاجبه يبغي له فقيهاً حسب أوامر سليمان ليسأله عن بعض المناسك، ولم يجد أنسب من طاووس لهذه المهمة، واصطحبه الحاجب معه

^١ الفسوي: المعرفة والتاريخ ج ٣ ص ٢١٤. الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٤١. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٠٩. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٣٥. الذهبي: التفسير والمفسرون ج ١ ص ٨٥.

^٢ المزي: تهذيب الكمال ج ٣٥ ص ٤٩. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ١٢ ص ٣١٠.

^٣ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٠٩.

^٤ ابن حبان: الثقات ج ٤ ص ٣٨١. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١١٥. ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ٢ ص ٢٩٠. المزي: تهذيب الكمال ج ١٣ ص ٣٧٣. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٣٥.

^٥ الطبري: المنتخب ج ٣ ص ٣٨٩. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١١٥. ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ٢ ص ٢٩٠. ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٣٥. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٤٧. الأذنوي: طبقات المفسرين ص ١٢.

^٦ ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٣٥.

^٧ أمين: فجر الإسلام ص ١٧٤. الجميح: النشاط العلمي ص ٢٤-٢٥.

بعد أن جهد في إقناعه بذلك، لأن طاووس كما يبدو من الذين يتجنبون الاجتماع مع الخلفاء أو الملوك، وحالما اجتمع طاووس بسليمان، بدأ بوعظه وتذكيره بكلام بليغ عظيم، عن جزاء من أشركه الله في حكمه فجار.^١

وفي عهد هشام بن عبد الملك، وأثناء أدائه لفريضة الحج، طلب أن يُحضروا له صحابياً من صحابة رسول الله ﷺ، فإن لم يكن فرجل من التابعين يجتمع إليه ويأنس به، وبعد أن طال البحث في مكة، وجدوا طاووس الذي كان يحج في ذلك الموسم، وطلبوا منه السير للقاء الخليفة هشام بن عبد الملك، فمشى معهم إليه، وتصرف تصرفاً أغضب الخليفة ومن حوله من الصحابة، حيث ظن الحاضرون أن طاووس قصد ازدراء الخليفة ومن حوله، وبعد أن بين لهم طاووس تفسير ما فعل، في بلاغة وعلم واضحين، تغير وجه هشام، وعادت الابتسامة إلى وجهه، وقال لطاووس: "يا أبا عبد الرحمن عظمي".^٢

ولعل هاتين الحادثتين تؤكدان على مدى جرأة طاووس المعهودة في وعظ الملوك والخلفاء من جهة، واحترام هشام وقبلة سليمان لعلمه ومكانته، وقدره الجليل، واهتمام الخلفاء الأمويين عموماً، بالاجتماع مع العلماء أوقات مواسم الحج، ليسألوهم عن مناسك الحج من جهة أخرى. وقد يتبادر لذهن المرء أن حياة طاووس كانت حافلة بعطايا الخلفاء، إلا أن الواقع كان عكس ذلك، فقد عاش طاووس متقشفاً، رافضاً لعطايا الخلفاء، أو حتى الإجابة عن سؤلهم بقوله: "ما لي إليه حاجة".^٣ لقد كان لوجود طاووس في مواسم الحج المتعددة التي حضرها منافع علمية جليلة، للخلفاء والعلماء والفقهاء والحجاج على حدٍ سواء، فلطالما سئل طاووس فيها عن تفسير آيات الحج، وعن مسائل الحلال والحرام، وكان من أعلم الناس بالعربية وأحسنهم خلقاً، ولعل ما يميز طاووس أنه لا

^١ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٤٢.

^٢ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥١٠. أبو النصر: الأيام الأخيرة ص ١٥٢-١٥٤.

^٣ الأصبهاني: حلية الأولياء ج ٤ ص ٣. ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ٢ ص ٢٨٧. الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٢٧.

^٤ الجميح: النشاط العلمي ص ٤٢.

^٥ الشيرازي: طبقات الفقهاء ص ٨٢.

^٦ اليافعي: مرآة الجنان ص ٢١٧.

يتكلم إلا إذا سئل^١, أي أن مفتاح العلم عنده سؤاله, يمتلكه من يمتلك الجرأة والإخلاص والصبر من طلبة العلم. توفي طاووس حاجاً بمكة عام ١٠٦هـ/٧٢٤م, وصلى عليه هشام بن عبد الملك - كما أسلف البحث- ودفن بمكة وسط زحام شديد من الناس نظراً لعلمه وفضله^٢.

٢) أثر مجالس الذكر والوعظ:

ومن آثار الحج العلمية على مكة, اكتظاظ الناس لحضور مجالس الذكر والوعظ, ولاسيما للفقهاء الذين كانوا يقدمون للحج من الأمصار الأخرى, فترى الناس تزدهم في مجالسهم ليتزودوا من علمهم, ويتحلوا بأدبهم وأخلاقهم. وقبل إكمال الحديث عن هذه النقطة, لا بد من وقفة لتعريف مجالس الذكر, ولعل خير من يجيب على هذا السؤال, مفتي مكة وعميد الفقه المكي في عصره عطاء بن أبي رباح, فبماذا عرّف مجالس الذكر؟

قال عطاء: "مجلس الحلال والحرام, وكيف تصلي, وكيف تصوم, وكيف تنكح, وكيف تطلق وتبيع وتشتري"^٣, وباختصار مجلس مجمل شؤون الدنيا والآخرة معاً.

ومن أشهر الفقهاء الذي قصدوا مكة للحج في تلك الحقبة الحسن بن يسار البصري (٢١-١١٠هـ/٦٤٢-٧٢٨م) أبو سعيد, إمام أهل البصرة, وخبير الأمة في زمانه, كثير العلم ثقة فصيح ناسك جامع, قيل إن كلامه أشبه بكلام الأنبياء^٤, وكان من أشهر المذكرين من أهل البصرة, ويحدث الحجاج في مواسم الحج^٥, وكان أهل مكة يجلبونه, فكان إذا قدم إلى مكة حاجاً أجلسوه

^١ الفسوي: المعرفة والتاريخ ج١ ص٧١١.

^٢ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٨ ص١٤١. الطبري: المنتخب ص٣٨٩. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢ ص٥٠٩. الأذنوي: طبقات المفسرين ص١٣. الزركلي: الأعلام ج٣ ص٢٢٤.

^٣ الأصبهاني: حلية الأولياء ج٣ ص٣١٣. ابن كثير: البداية والنهاية ج٩ ص٣٠٧. الجميح: النشاط العلمي ص١٣٢.

^٤ المزي: تهذيب الكمال ج٦ ص١١٨. الذهبي: التفسير والمفسرون ج١ ص٩٣. ضيف: العصر الإسلامي ص٤٤٧.

^٥ الجميح: النشاط العلمي ص١٣٣.

على سرير، واجتمع العلماء والناس إليه فيحدثهم، وكان فيمن أتاه المقرئ والمفسر مجاهد بن جبر، ومفتي مكة عطاء، ومفتي أهل اليمن طاووس، والتابعي المحدث عمرو بن شعيب^١، حيث كان يأسرهم بحديثه، حتى قال بعضهم: "لم نر مثل هذا قط"^٢، وعدّوه من كان من كبار وعظّاء العصر^٣. ولعل إعجاب فقهاء مكة به وبحديثه، يؤشر على مدى بلاغته وحجته وعلمه وسلبه لألباب الحضور، كيف لا وقد قيل عن كلامه - كما سلف - بأنه أشبه بكلام الأنبياء. ويبدو أن حضور الحسن البصري للحج كان ذا منافع عديدة، فلم يقتصر وجوده على مجالس الذكر والوعظ، وإعجاب الجميع بحديثه وأسلوبه الخطابي البليغ، بل تعداه إلى المواسم، حيث كان يُسأل من قبل الحجاج، وشهد له بالصدق مفتي مكة عطاء بن أبي رباح، على الرغم من إثارة إجاباته لبعض المناقشات بين فقهاء مكة^٤، مما حفّز بعضهم للتفقه والبحث والتمحيص، لإثبات إجابات الحسن أو حتى نفيها، في جوٍّ لا يخلو من المنافسة ذات الأبعاد المتعددة.

ومن الفقهاء أيضاً ممن كان له نصيب في مجالس الذكر، علي بن عبد الله بن عباس (ت ١١٨هـ/٧٣٦م)، والذي كان يوافي المواسم، ويحدث عن أبيه عبد الله بن عباس^٥، وكان بحديثه هذا يلقي الترحيب والتبجيل من أهالي مكة، فكان إذا قدم مكة حاجاً أو معتمراً؛ عطّلت قريش مجالسها في المسجد الحرام، وهجرت مواضيع حلقاتها، ولزمت مجلس علي، حتى أنه كان لا يرى لقرشي في المسجد الحرام مجلس ذكر يجتمع إليه الناس، حتى يخرج علي من الحرم^٦.

(٣) أثر مجالس القصاص:

^١ عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي القرشي. السمعاني: الأنساب ج ٣ ص ٣٤٣.

^٢ المزني: تهذيب الكمال ج ٦ ص ١٢٥. الجميح: النشاط العلمي ص ١٣٤.

^٣ ضيف: العصر الإسلامي ص ٤٣٧.

^٤ ابن حزم: المحلى بالآثار، بيروت، دار الفكر، د.ت، ج ٥ ص ٩٢.

^٥ الجميح: النشاط العلمي ص ١٣٤.

^٦ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٤٣ ص ٥١. الجميح: النشاط العلمي ص ١٣٥.

القصاص وهم الذين يقصون على الناس، ويكون من علمهم التفسير والأثر والخبر عن الأمم البائدة، ينقلون ذلك تعليماً وموعظة^١، وبرزت في مكة أثناء مواسم الحج مجالس القصاص، حيث كان القاص يقوم في المسجد الحرام بعد صلاة الصبح وذلك خلف المقام بعد تسليم الإمام^٢. ويعد عبيد بن عمير بن قتادة الليثي المؤذن (ت ٩٤هـ/ ٧١٢م)^٣ أبو عاصم المكي، والذي ولد على عهد النبي ﷺ، من أوائل القاصين والواعظين والمفسرين من أهل مكة^٤، فهو أول من قص في مكة^٥ على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذات مرة أوصته عائشة رضي الله عنها بقولها: "اقصص يوماً ودع يوماً، لا تمل الناس"^٦، كما ورد أنها قالت: "خفف فإن الذكر يقتل"^٧، وقيل قالت: "خفف فإن الذكر ثقل"^٨، ويبدو أن المعنى واحد بين جميع الأقوال. كما يروى أن ابن عباس دخل المسجد فسمع عبيد يقص، فحضته على ذكر الله^٩، ولعل ذلك الحضر يحمل في جانبه الثناء على عبيد من جهة، وضرورة تنبيهه إلى عدم الشطط والاسترسال في القصة التي يتحدث عنها من جهة أخرى، أي أن ثمة احتمال لخروج مجالس القصاص عن هدفها الأساسي وهو ذكر الله.

^١ الرافعي: تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٤٦.

^٢ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٣٨.

^٣ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤٠ ص ١٥٧-١٥٨.

^٤ ابن خياط: طبقات خليفة ص ٤٨٩. الأصبهاني: حلية الأولياء ج ٣ ص ٢٦٦. ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ٢ ص ٢٠٧. المزني: تهذيب الكمال ج ١٩ ص ٢٢٣. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ١٥٧-١٥٨.

^٥ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٣٨. الرافعي: تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٤٦.

^٦ ابن الجوزي: القصاص والمذكرين، تحقيق: محمد الصباغ، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٨م، ط ٢، ص ١٧٨. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ١٥٧-١٥٨. الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٨١.

^٧ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٣٩.

^٨ السيوطي: تحذير الخواص من أكاذيب القصاص، تحقيق: محمد الصباغ، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٧٤م، ط ٢، ص ١٩٣.

^٩ الرافعي: تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٤٦.

^{١٠} الأصبهاني: حلية الأولياء ج ٣ ص ٢٦٧.

وذاعت شهرة عبيد بمكة، حتى أن أهالي مكة كانوا يتفاخرون بقاصهم عبيد بن عمير، فهذا هو مجاهد بن جبر يقول: "كنا نفخر بفتيها ونفخر بقاصنا، فأما فتيها فابن عباس، وأما قاصنا فعبيد بن عمير"^١، ولا غرابة في ذلك، فقد كانت قصص عبيد بن عمير من القصص البليغ والمليء بالمواعظ والتذكير، الذي كان له أثر كبير فيمن جلس إليه مستمعاً في مواسم الحج^٢، وقد استمع إليه عبد الله بن عمر، الذي كان يكثر من الحج والعمرة، وتأثر بقصصه حتى أن عينيه كانتا تحرقان بالدموع^٣، وكان لإقبال ابن عمر عليه، أثر في إقبال الناس عليه، ورغبتهم في استماع القصص، لمكانة ابن عمر من الدين والورع^٤، ولم تقتصر شهرة عبيد على مكة، بل وصلت إلى العراق، فقد جاء قوم من أهل البصرة - حاجين أو معتمرين - إلى عبيد يسألونه ويستمعون إليه^٥. ومن قصاص أهل مكة أيضاً يبرز اسم عبد الرحمن بن القاسم القاص وكان يقص بمكة^٦، وكذلك عبد الله بن كثير الداري المكي (ت ١٢٠هـ/٧٣٧م)^٧ أبو معبد، مولى عمر بن علقمة الكناني، من أبناء فارس، كان عطاراً بمكة، وأهل مكة يقولون للعطار الداري^٨، كان عبد الله فصيحاً مفوهاً واعظاً كبير الشأن، وكان قاص الجماعة في مكة، ومن أئمة القراء في مكة^٩.

^١ ابن الجوزي: القصص والمذكرين ص ٢٢٩. ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ٢ ص ٢٠٧.

^٢ الجميح: النشاط العلمي ص ١٢٩.

^٣ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٣٨. ابن الجوزي: القصص والمذكرين ص ١٩٦.

^٤ الرافعي: تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٤٦.

^٥ الجميح: النشاط العلمي ص ١٢٩. ضيف: العصر الإسلامي ص ٤٣٥.

^٦ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٣٨.

^٧ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٢٣٩. سالم: تاريخ الدولة العربية ص ٦٩٢. الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٨١.

^٨ المزني: تهذيب الكمال ج ١٥ ص ٤٦٨. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٣١٨.

العمرى: مسالك الأبصار ج ٥ ص ٢١١. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٣٢٢.

^٩ البخاري: التاريخ الصغير، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، بيروت، دار المعرفة، ١٩٨٦م، ط ١، ج ١ ص ٣٤١. سالم:

تاريخ الدولة العربية ص ٦٩٢. الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٨١.

ثانياً: الوضع الثقافي والأدبي في ولاية مكة المكرمة

• مقدمة.

(١) الشعر السياسي:

أ - شعراء حزب الأمويين السياسي:

١. عبد الله بن الزبير الأسدي (ت ٧٥هـ/٦٩٥م).
٢. الحارث بن خالد المخزومي (ت ٨٠هـ/٧٠٠م).
٣. أبو صخر الهذلي (ت ٨٠هـ/٧٠٠م).
٤. الراعي النميري (ت ٩٠هـ/٧٠٩م).
٥. الأخطل (ت ٩٠هـ/٧٠٨م).
٦. عدي بن الرقاع (ت ٩٥هـ/٧١٤م).

٧. أعشى بني ربيعة (ت ١٠٠هـ/٧١٨م).
٨. كثير بن عبد الرحمن (ت ١٠٥هـ/٧٢٣م).
٩. جرير (ت ١١٠هـ/٧٢٨م).
١٠. الفرزدق (ت ١١٠هـ/٧٢٨م).
١١. يزيد بن ضبة (ت ١٣٠هـ/٧٤٧م):
١٢. السائب بن فروخ (ت ١٤٠هـ/٧٥٧م).
١٣. شعراء آخرون.

ب - شعراء حزب الزبيريين السياسي:

١. أبو دهبيل الجمحي (ت ٦٣هـ/٦٨٢م).
٢. عبيد الله بن قيس الرقيات (ت ٨٥هـ/٧٠٤م).

٢) الشعر الغزلي:

١. النميري (ت ٩٠هـ/٨٠٧م).
٢. عمر بن أبي ربيعة (ت ٩٣هـ/٧١٢م).
٣. العرجي (ت ١٢٠هـ/٧٣٨م).

ثانياً: الوضع الثقافي والأدبي في ولاية مكة المكرمة:

• مقدمة:

يبدو أنه كان لتسارع الأحداث السياسية على ولاية مكة المكرمة -في الحقبة المدروسة- أثر كبير على وضعها الثقافي والأدبي، حيث ترك هذا التسارع بصماته الواضحة على نتاج الشعراء على اختلاف مشاربهم، وبما أن الشعر ديوان العرب كما شاع في المصادر الأدبية والتاريخية، فإنه من الممكن أن ترسم أبيات الشعر، ملامح الوضع بكل أبعاده في تلك الحقبة.

لقد سلك الشعراء طريقاً خصوصاً بشعرهم فيه أحد الأحزاب السياسية المتصارعة، فمنهم من مال نحو حزب الأمويين؛ وهم الأكثرية الساحقة، ومنهم من دافع عن ابن الزبير وخلافته في مكة، فيما سمي حزب الشعراء الزبيريين، وهم القلة القليلة، وبعد أن سقطت دولة ابن الزبير، أخذوا يتجهون نحو شعراء الحزب الأموي الغالب، لطلب الصفح والرضا والعطاء من الخلفاء الأمويين؛ كما هو شأن عبيد الله بن قيس الرقيات أبرز الشعراء الزبيريين، فتراه يمدح اليوم من كان يهجو بالأمس. وبمقابل الشعر السياسي، فإن ثمة شعراء ابتعدوا في قصائدهم عموماً عن السياسة وتقلباتها، لينغمسوا في الحياة وملذاتها، من هو ولعب ومجون، ولينتجوا شعراً جميلاً جذب إليه الكثير من

الناس، كونه يحاكي القلب والمشاعر، وهو ما عرف بشعر الغزل، والذي مثّل حال الأشراف والفقراء معاً، بيد أن شعر الغزل في البادية الخشنة تقدم على مثيله في المدن، فغزل البادية طاهر عفيف؛ لأنه يمثل الطباع النقية التي لم تفسدها الحضارة، فليس غريباً أن تجد الحب العذري قد ذاع في البادية وارتقى، وأثر في القبائل العربية والشعراء.^١

وسيسلط البحث الضوء في الصفحات القادمة على الشعر السياسي، وأبرز شعرائه حسب أحزابهم وميولهم، كما سيورد دراسة مقتضبة عن شعر الغزل، الذي كان منتشراً في مكة والطائف إبان تلك الحقبة، بالإضافة إلى شعراء عاشوا هناك ولم يكن لهم شأن كبير كسواهم.

(١) الشعر السياسي:

يبدو أن هذا النوع من الشعر كان له ازدهار متواصل عبر تاريخ العرب، بغض النظر عن حقبة معينة، ولعل مما ساهم في هذا الازدهار اهتمام الخلفاء والولاة به شخصياً، وإغداقهم الأموال والعطايا على قائله، كيف لا وهذا الشعر يضفي العظمة والفخامة والجلالة، وقبل كل شيء الشرعية للسلطة الحاكمة، وبالتالي عُدّ كل مخالف فيها ومعارضيتها من المارقين الضالين المضللين، إنه مصدر إعلامي يفوق كل المصادر في تلك الحقبة.

كان للدولة الأموية شعراء يتغنون بأمجادها، ويمدحون أولي أمرها، ويزدرون أعداءها، وظهر الشعر السياسي نتيجة للسياسة الحزبية، فاتخذه الأمويون وسيلة للدعاية، حيث مثّل الشعراء السياسة الأموية أروع تمثيل^٢، وبالمقابل فإنه كان لحزب الزبيريين السياسي شعراؤهم أيضاً، إلا أن تأثيره كان محدوداً سريع التوهج والانطفاء، ما إن بدأ حتى انتهى، فلم يحتل هذا الحزب في التاريخ الأدبي والسياسي -وفق رأي- إلا حيزاً ضيقاً يمكن إغفاله دون خطر كبير.^٣

^١ أبو النصر: الأيام الأخيرة ص ٣٥٤.

^٢ سالم: تاريخ الدولة العربية ص ٧٠٠-٧٠١. طهوب: العصر الأموي ص ١٩٢-١٩٥.

^٣ الهادي: اتجاهات الشعر ص ٥١.

ويبدو أن الرأي السالف كان متشدداً إلى حدٍ كبير تجاه نتائج حزب الزبيريين، ولعله بنى وجهة نظره على قلة شعراء هذا الحزب مقارنة بسواهم، وانقضائهم مع انقضاء حكم ابن الزبير في مكة. إلا أنه وبالرغم من قلة نتاجه وشعرائه، فإن أهميته في الوضع الثقافي والأدبي لمكة لا يمكن إنكاره بأي حال من الأحوال، فوجود هذا الحزب السياسي، حقّز الأطراف الأخرى المنافسة؛ وعلى رأسهم حزب شعراء الأمويين السياسي، على إنتاج وضخ مجموعة كبيرة من القصائد الشعرية مجّدت الأمويين وخلافتهم، وسيطرق البحث لكلا الحزبين مبرزاً أهم الشعراء، وما يخدم البحث من مسيرة حياتهم، ومختارات من نتاجهم.

أ - شعراء حزب الأمويين السياسي:

كان الشعراء المواليون لبني أمية، والقائلون فيهم وفي دولتهم ما يرضيهم ويمجّدهم أكثر، كما كانوا أبرز شخصية من شخصيات من سواهم للفرق الأخرى، ولعل ذلك مرده إلى المال الكثير في خزائن الأمويين، والذي تصرفوا فيه كما يحلو لهم، غير متآثرين أو متحرجين أو مراعين لقواعد الإسلام في الإنفاق من بيت مال المسلمين، فسخوا على كل ناعق لفضلهم ومؤيد لدولتهم.^١ لقد أغرى المال والجاه كثيراً من شعراء العصر، فأقبلوا على الأمويين يستجدونهم ويمدحونهم طالبين عطاءهم، فأقبلوا عليهم مخلصين أو متملقين، ليحظوا بمالهم وجاههم^٢، فلا غرابة إذن - والحال كذلك - في كثرة عددهم، كون الإنسان حريص على ما ينفعه، ولعل أهم وأشهر شعراء حزب الأمويين السياسي:

١. عبد الله بن الزبير الأسدي (ت ٧٥هـ/٦٩٥م):

^١ الهادي: اتجاهات الشعر ص ١٣٠.

^٢ الخلف: مجتمع الحجاز ص ١٤٦. الهادي: اتجاهات الشعر ص ١٣١.

عبد الله بن الزبير بن الأشيم بن الأعشى الأسدي^١، أبو كثير^٢ ويقال أبو سعيد^٣، وهو شاعر كوفي المنشأ والمنزل من شعراء الدولة الأموية، وكان من شيعة بني أمية وذوي الهوى فيهم والتعصب والنصرة على عدوهم، فلما غلب مصعب بن الزبير على الكوفة، أُتي به أسيراً فمنّ عليه ووصله، وأحسن إليه فمدحه وأكثر، وانقطع إليه فلم يزل معه حتى قتل مصعب، ثم عمي بعد ذلك، ومات في خلافة عبد الملك بن مروان.^٤

ما إن بلغ ابن الزبير الأسدي أن عبد الله بن الزبير قتل بعض شيعة بني أمية، كانوا يتجسسون لعبد الملك بن مروان بمكة، هجاه، وسخر من ادعائه بأن العائد ببيت الله الحامي لحماه، وهو يسفك الدماء في الحرم، ولا يرعى له حرمة، فقال: (من بحر الرمل)

أَيُّهَا الْعَائِدُ فِي مَكَّةَ كَمْ
مِنْ دَمٍ أَهْرَفْتَهُ فِي غَيْرِ دَمٍ
أَيَّدَ عَائِدَةً مُعَصِّمَةً
وَيَدُّ تَقْتُلُ مِنْ حَلِّ الْحَرَمِ؟^٥

وهو يبطل حجة الزبيرية القائمة على الاعتزاز بالحرم فيقول: (من بحر الطويل)

أَيَا رَاكِباً أَمَّا عَرَضَتْ فَبَلَّغَتْ
كَبِيرَ بَنِي الْعَوَامِ إِنْ قِيلَ مَنْ تَعْنِي
تُحَدِّثُ مِنْ لَاقِيَتِ أَنَّكَ عَائِدٌ
وَصَرَّعْتَ قَتْلَى بَيْنَ زَمَرٍ وَالرَّكْنِ^٦

وهذه النغمة الساخرة من لقب ابن الزبير بارزة، كثيرة التردد في الشعر الأموي الذي هُجّي به، وغني عن البيان أن هذا الشعر إنما قصده إثارة غضب المسلمين على هذا الذي ينتهك حرمة الحرم، ويتجاهل حكم الله فيه، بأن من دخله كان آمناً، وقد أجاد شعراء بني أمية -ولاسيما عبد الله بن

^١ ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٨١. السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٩٩. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ٨٧.

^٢ الأصفهاني: الأغاني ج ١٤ ص ٢١٥.

^٣ ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٨١. السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٩٩.

^٤ الأصفهاني: الأغاني ج ١٤ ص ٢١٥. البغدادي: خزنة الأدب ج ٢ ص ٢٦٤. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ٨٧.

^٥ الأصفهاني: الأغاني ج ١٤ ص ٢٤٣. ضيف: العصر الإسلامي ص ٣٤٣.

^٦ الأصفهاني: الأغاني ج ١٤ ص ٣٣٢-٣٣٤.

الزبير الأسدي- في الضرب على هذا الوتر الحساس للتأثير على ضمائر المسلمين لينفروا من ابن الزبير, ويصدوا الناس عن إتياعه والانتصار له.^١
ويبدو أن حقد الشاعر على ابن الزبير لم ينقض بانقضاء حياة ابن الزبير, بل تعداه إلى ما بعد مقتله, فعندما قتل ابن الزبير وصلب جثمانه بمكة, قال يتشفى في مقتله, ويصف أتباعه بالإلحاد, وينذره بسوء المصير: (من بحر الطويل)

كأنِّي بَعْدِ اللَّهِ يَرْكَبُ دَرَعَهُ وفيه سِنَانٌ زَاغِبٌ مُحَرَّبٌ
وقد فَرَّ عَنْهُ المَلْحَدُونَ وَحَلَقْتُ بِهِ وَبِمَنْ آسَاهُ عَنَقَاءُ مُغْرَبٌ
تَوَلَّوْا فِخْلَوْهُ فَشَالَ شِلْوِهِ طَوِيلٌ مِنَ الْأَجْدَاعِ عَارٍ مُشَدَّبٌ^٢
حقاً لقد كان ابن الزبير الأسدي من أشد المتعصبين لبني أمية, ومثل ما يعتقدونه, وأضاف عليه من وصف شعره الخاص, ما لاحق به أعداءهم في الحياة, بل وبعد الممات.

٢. الحارث بن خالد المخزومي: (ت نحو ٨٠ هـ/نحو ٧٠٠ م)

الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي^٣, وكان ذا خطر وقدر ومنظر في قريش^٤, ولّاه يزيد بن معاوية مكة, فظهرت دعوة عبد الله بن الزبير, فاستتر الحارث خوفاً^٥, وبالرغم من أن كل بني مخزوم كانت زبيرية, إلا أن الحارث كان مروانياً, فولّاه عبد الملك بن مروان ولاية مكة^٦, وعدّ الحارث من أشهر شعراء قريش.^٧

٣. أبو صخر الهذلي (ت نحو ٨٠ هـ/نحو ٧٠٠ م):

-
- ١ الهادي: اتجاهات الشعر ص ١٥٢. ضيف: العصر الإسلامي ص ٣٤٣.
٢ الهادي: اتجاهات الشعر ص ١٥٢. ضيف: العصر الإسلامي ص ٣٤٣.
٣ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ١١ ص ٤١٥. الزركلي: الأعلام ج ٢ ص ١٥٤.
٤ الزركلي: الأعلام ج ٢ ص ١٥٤.
٥ ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ١ ص ٢٩٥. الزركلي: الأعلام ج ٢ ص ١٥٤.
٦ الأصفهاني: الأغاني ج ٣ ص ٣١٤.
٧ الأصفهاني: المصدر المتقدم ج ٣ ص ٣١٠.

عبد الله بن سلمة السهمي، من بني هذيل بن مدركة^١، شاعر من الفصحاء، كان في العصر الأموي موالياً لبني أمية، متعصباً لهم، وله في عبد الملك وعبد العزيز ابني مروان مدائح ومراثي^٢، وكان قد حبسه عبد الله بن الزبير بعد أن دار بينهما مشادة كلامية، طلب فيها أبو صخر العطاء، فرفض ابن الزبير منحه ذلك، فقرر أبو صخر التوجه إلى بني أمية^٣، فحبسه ابن الزبير عاماً، وأطلقه بشفاعة رجال من قريش^٤، ولما ولي عبد الملك وحج لقيه، فقربه وأدناه، وأمر له بالعطاء بعد أن مدحه^٥.

٤. الراعي النميري (ت ٩٠هـ / ٧٠٩م):

عُبَيد بن حصين^٦، وفد على عبد الملك بن مروان يشكو إليه بعض عماله، وكانت قيس - عموماً - زبيرية، وكان عبد الملك ثقیل النفس عليها، فأتاه عبید يعتذر من تزير قومه^٧، ويتقرب إليه يقسم عظيم صادق، ويتبرأ من الخوارج والزبيريين جميعاً، مؤكداً بذلك وفاءه وولاءه للأُمويين، يعادي من يعادونه، ويعتقد في أعدائهم ما يعتقدونه فيقول: (من بحر الكامل)

إِنِّي حَلَفْتُ عَلَى بَيْمِنِ بَرَّةٍ لَا أَكْذِبُ الْيَوْمَ الْخَلِيفَةَ قِيلاً
مَا إِنْ أَتَيْتُ أَبَا حُبَيْبٍ وَافِداً يَوْمًا أُرِيدُ لِبَيْعَتِي تَبْدِيلًا

^١ الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ٩٠.

^٢ المزني: تهذيب الكمال ج ١٨ ص ١٥١.

^٣ البغدادي: خزنة الأدب ج ٣ ص ٢٦٢. صفوت: جمهرة خطب العرب ج ٢ ص ١٧٣.

^٤ الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٧ ص ٣٣٠. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ٩١.

^٥ الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٧ ص ٣٣٠-٣٣١.

^٦ ابن سَلَام: (محمد بن سَلَام الجمحي) طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، جدة، دار المدني، د.ت، ج ٢ ص ٢٩٨. الأزدي: (أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد) الاشتقاق، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ١٩٩١م، ط ١، ص ٢٩٥. الأمدى: (أبو القاسم الحسن بن بشر) المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم، تحقيق: ف. كرنكو، بيروت، دار الجيل، ١٩٩١م، ط ١، ص ١٥٥.

^٧ ابن سَلَام: طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٥٠٦.

ولا أتيتُ نُجَيْدة بن عُومر أبغي الهُدَى فيزيديني تضليلاً^١
ويبدو أنه كسب رضا عبد الملك عليه، بعد أن تبرأ عبيد من جميع خصوم بني أمية، ونعت بعضهم وهو نجدة بن عامر الخارجي بالضلال والتضليل، بعد أن صَغَّر اسمه على سبيل الاحتقار.

٥. الأخطل (ت ١٩٠هـ/٧٠٨م):

اسمه غياث بن غوث، ويكنى بأبي مالك، ويعد من أشهر شعراء بني أمية، نَعِمَ بالخطوة والإكرام لدى عبد الملك بن مروان، ومدحه، فلقبه عبد الملك بشاعر بني أمية وشاعر أمير المؤمنين^٢، كما مدح الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز، ثم شاد بذكر عثمان بن عفان رضي الله عنه وهجا أعداء بني أمية^٣، وله صحبة طويلة معهم لا مجال لذكرها هنا، وسيقتصر البحث على ذكر الأحداث والروايات، التي برز فيها الأخطل غيوراً على الدولة الأموية، شديداً على أعدائها ولاسيما الزبيريين. ومن هذه الروايات أنه ذات مرة دخل الأخطل على عبد الملك بن مروان، فوجد عنده زفر ابن الحارث الكلابي^٤، فقال له: "يا أمير المؤمنين أتدني هذا منك وهو أعدى الناس لك، وأوثبهم عليك، وهو الذي يقول:

^١ الهادي: اتجاهات الشعر ص ١٥١.

^٢ الأخطل: ديوان الأخطل، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م، ط ٢، ص ٣. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، القاهرة، دار الحديث، ١٤٢٣هـ، ج ١ ص ٤٧٣. شيخو: (رزق الله) شعراء النصرانية، بيروت، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، ١٨٩٠م، ج ٨ ص ١٧١. السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م، ط ١، ج ٢ ص ٣٦٢.

^٣ فاخوري: (حنا) تاريخ الأدب العربي، بيروت، المكتبة البولسية، د.ت، ط ٨، ص ٢٧١.

^٤ رأس القبائل القيسية في الجزيرة والشام الشمالي، واغتتم فرصة خلو الخلافة فطرد سعيد بن مالك بن بحدل من الجزيرة وكان ابن بحدل قد ولاه يزيد الجزيرة، وكانت قبائل قيس قد شرعت بالميل نحو الاعتراف بشرعية ابن الزبير. انظر: عيسى: الحزبية السياسية ص ٢٧٩.

فلإني زبيرِي الحَيَاةَ فَإِنْ أُمْتُ فإلني لَمُوصٍ هَامَتِي بِالتَّزِيرِ^١

قال: فجلس عبد الملك بن مروان واحمرت عيناه، وخافة زفر، فخاطبه قائلاً: "يا أمير المؤمنين، إن هذا ابن النصرانية -يقصد الأخطل- إنما ربي لحمه على شرب الخمر، ولحم الخنزير، وأنا أطوع الناس لك، وأساعهم في مرضاتك"، ومازال به حتى هدأ^٢. ومنذ تلك الحادثة أصبح زفر يحقد على شاعر تغلب الذي ظل يؤجج نار العداوة^٣. ولطالما سعى الأخطل لهجاء أعدائه من خلال هجائه لأعداء بني أمية، أي أنه يحقق غايتين معاً، فتراه يهجو الزبيريين -أعداء الدولة الأموية- مع قيس عيلان وأشباعهم -أعدائه- حيث قال: (من بحر البسيط)

فَاللَّهُ لَمْ يَرْضَ عَنْ آلِ الزُّبَيْرِ وَلَا عَنْ قَيْسِ عَيْلَانَ حَيًّا طَالَمَا خَرَبُوا
يُعَاضِمُونَ أَبَا الْعَاصِي وَهُمْ نَفَرٌ فِي هَامَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ دُوَّهَا شَدْبٌ^٤

٦. عدي بن الرقاع (ت نحو ٩٥هـ/نحو ٧١٤م):

أبو داود^٥، عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع العاملي^١، من أهل دمشق، نسبه الناس إلى الرقاع جد جده لشهرته، وقيل كان أبرص وكان محسنًا، وهو آية في الشعر^٢، مقدماً عند بني أمية، مداحاً لهم خاصة الوليد^٣، ومن أبياته في مدح الوليد: (من بحر الكامل)

^١ وتجدر الإشارة هنا إلى أن البيت نفسه قاله والي خراسان لعبد الله بن الزبير وهو عبد الله بن خازم الأسلمي، بعد أن بعث إليه برأس ابن الزبير مع كتاب عبد الملك بوعده إذا ما بايعه أن يترك له خراسان له طعمة سبعة سنين، إلا أنه رفض ذلك وقال هذا البيت، للمزيد: انظر: المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ٢٣. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٧٤. وليس من المستبعد في أن يكون ابن خازم قد استذكر هذا البيت ليدل في رسالة واضحة إلى عبد الملك على رفض طلبه، ومحبته لابن الزبير.

^٢ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ١٩ ص ٣٧. عيسى: الحزبية السياسية ص ٢٨٢-٢٨٣.

^٣ شيخو: شعراء النصرانية ج ٨ ص ١٧٧. عيسى: الحزبية السياسية ص ٢٨٣. هذا مع العلم أن الأخطل مدح زفر قبل ذلك. انظر: الأخطل: ديوانه ص ١٨٦.

^٤ فاخوري: تاريخ الأدب العربي ص ٢٧٧.

^٥ وقيل أبو داود: السيوطي: المزهري ج ٢ ص ٣٦٣.

عَلَبَ المساميحَ الوليدُ سماحةً
وإذا نشرتَ لَهُ الثَّنَاءَ وجدتهُ
كما قال يذكر قتل مصعب:
ونحن قتلنا ابن الحواريِّ مُصعباً
وكفى قُريشَ المُعضلاتِ وسادها
جَمَعَ المكارمَ طُرفها وتِلادها^٤
أخا أسدٍ و المذحجيِّ اليماني^٥

٧. أعشى بني ربيعة (ت نحو ١٠٠هـ/٧١٨م):

عبد الله بن خارجة^٦، ويكنى بأبي عبد الله^٧ وقيل أبو المغيرة^٨، وينتمي الأعشى إلى بني شيبان، الذين ثبتوا مدةً على نصرانيتهم بعد الإسلام^٩، اشتهر في أيام مروان بالشام، وكان شديد التعصب لبني أمية^{١٠}، حتى غدا من أشهر الشعراء الأمويين^١، مدح بشر^٢ وعبد الملك^٣ ولدي

-
- ^١ ابن الرقاع: (عدي) ديوان عدي بن الرقاع العاملي، تحقيق: حسن محمد نور الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م، ط١، ص ١١.
- ^٢ عدي بن الرقاع: ديوانه ص ١١. ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٠٣. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ١١٠.
- ^٣ عدي بن الرقاع: ديوانه ص ١١. ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٦٨١، ص ٦٩٩. الجاحظ: (عمرو ابن بحر) الحيوان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ، ط ٢، ج ٧ ص ٤٦٩. الأزدي: الاشتقاق ج ١ ص ٣٧٥. الأصفهاني: الأغاني ج ٨ ص ٨٤. الأمدي: المؤلف والمختلف ص ١٤٦. ضيف: العصر الإسلامي ص ٣٤٤.
- ^٤ عدي بن الرقاع: ديوانه ص ٤٠. ابن منظور: لسان العرب، مادة قرش، ج ٦ ص ٣٣٥. ضيف: العصر الإسلامي ص ٣٤٥. وقيل قالها جرير، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة سمح، ج ٢ ص ٤٨٩.
- ^٥ ابن بكار: الأخبار الموفقيات ص ٢٣٧.
- ^٦ الأصفهاني: الأغاني ج ١٨ ص ١٣٦. الأمدي: المؤلف والمختلف ص ١٤. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ٣. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٥١. شيخو: شعراء النصرانية ج ٨ ص ١٢٩.
- ^٧ الأصفهاني: الأغاني ج ١٨ ص ١٣٨. شيخو: شعراء النصرانية ج ٨ ص ١٢٩.
- ^٨ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ٣.
- ^٩ شيخو: شعراء النصرانية ج ٨ ص ١٢٩.
- ^{١٠} الأصفهاني: الأغاني ج ١٨ ص ١٣٦. الهادي: اتجاهات الشعر ص ١٣١. شيخو: شعراء النصرانية ج ٨ ص ١٢٩.

مروان بن الحكم، كما مدح سليمان بن عبد الملك^٤، ولعل أهم موقف كان له، وسجله له التاريخ شاهداً على إخلاصه لبني أمية؛ هو شحذه لهمة عبد الملك على قتال ابن الزبير بمكة، حيث دخل أعشى بني ربيعة مرة على عبد الملك، فرآه متردداً في الخروج لمحاربة ابن الزبير، فحضّه بكلام بليغ في أن يحزم أمره، وينقاد لبصيرته، ويمضي في رأيه، ويواجه عدوه، فأصحاب ابن الزبير له ماقتون وكلمتهم متفرقة، بينما أصحاب الخليفة عبد الملك له محبون مطيعون وكلمتهم عليه مجمعة، وختم حديثه بشعر قال فيه: (من بحر الكامل)

عَجَلَ الْبَتَّاجُ بِحَمْلِهَا فَأَحَالَهَا	أَلَّ الزُّبَيْرُ فِي الْخِلَافَةِ كَالْتِي
مَا لَا تَطِيقُ فَضِيْعَتُ أَحْمَالَهَا ^٥	أَوْ كَالضَّعَافِ مِنَ الْحُمُولَةِ حَمَلَتْ
كَمْ لِلْغَوَاةِ أَطْلَمُوا إِمَهَا	قَوْمُوا إِلَيْهِمْ لَا تَنَامُوا عَنْهُمْ
مَا زِلْتُمْ أَرْكَانَهَا وَثِمَالَهَا	إِنَّ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ لَا فِيهِمْ
فَاخْضُ بِيَمِينِكَ فَافْتَحْ أَقْفَالَهَا ^٦	أُمْسُوا عَلَى الْخَيْرَاتِ قَفْلاً مَغْلَقاً

فضحك عبد الملك وقال: "صدقت إن أبا خبيب لقفل دون كل خير، ولم تتأخر عن مناجزته"، وأمر له عبد الملك بصلة سنية.^٧

٨. كثير بن عبد الرحمن (ت ١٠٥هـ/٧٢٣م):

^١ الهادي: اتجاهات الشعر ص ١٣١-١٣٢.

^٢ الأمدي: المؤلف والمختلف ص ١٤.

^٣ وله شعر في مدح عبد الملك، للمزيد انظر: الأصفهاني: الأغاني ج ١٨ ص ١٣٦. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٥١.

^٤ الأصفهاني: الأغاني ج ١٨ ص ١٣٦. الأمدي: المؤلف والمختلف ص ١٤. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ٨٤.

^٥ الأصفهاني: الأغاني ج ١٨ ص ١٣٧-١٣٨. وبلغظ آخر: ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ٣.

^٦ الأصفهاني: الأغاني ج ١٨ ص ١٣٨. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ٦. شيخو: شعراء النصرانية ج ٨ ص ١٣٠.

^٧ الأصفهاني: الأغاني ج ١٨ ص ١٣٨. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٢٨ ص ٦.

كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر^١، شاعر متيم من شعراء أهل الحجاز^٢، كان من أشهر أهل الإسلام في الشعر، وكانت له منزلة عند قريش، قصد عبد الملك في الشام، فأنشده المديح، ولاسيما حين أزمع بالمسير إلى مصعب بن الزبير بالعراق، كما قدم على يزيد بن عبد الملك، ومدحه بقصائد جياذ ومشهورة، فأكرمه يزيد^٣.

ومن قبل كان لكثير موقف من ابن الزبير عندما دعا إلى نفسه بالخلافة، فعده الشيعة غاصباً مثل الأمويين، وزاد من هذا الغضب معاملته السيئة مع بني هاشم، فانطلقت ألسنة الشعراء الشيعة - ومنهم كثير - في ابن الزبير وأنصاره، تصفه بإدعاء ما ليس له وتتهكم به، وتسخر من إدعائه، ومما يخلعه على نفسه من ألقاب^٤، ثم إنه حاصر محمد بن الحنفية - كما سلف - داخل الحرم في موسم ٦٦هـ/٦٨٥م، ومعه رجال من بني هاشم، وأراد حملهم على البيعة له، وهذّدهم بالتحريق إن لم يفعلوا، فقال كثير متوعداً ساخراً: (من بحر الطويل)

لَكَ الْوَيْلُ مِنْ عَيْنِي حُبَيْبٍ وَثَابِتٍ	وَحِمَزَةٌ أَشْبَاهُ الْهَدَاءِ التَّوَائِمِ
تُحَيِّرُ مِنْ لَاقَيْتَ أَنَّكَ عَائِدٌ	بَلِ الْعَائِدُ الْمَظْلُومُ فِي سَجْنِ عَارِمِ
وَمَنْ يَرِ هَذَا الشَّيْخُ بِالْحَيْفِ مِنْ مَنِي	مَنْ النَّاسِ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرِ ظَالِمِ
سَمِّيَ نَبِيَّ اللَّهِ وَابْنِ وَصِيهِ	وَفَكَكَ أَغْلَالِ وَقَاضِي مَغَارِمِ

ولعل تهكم كثير بابن الزبير لم يكن حباً ببني أمية، بقدر ما كان حباً بآل البيت وعلى رأسهم محمد بن الحنفية المقصود بالبيت الثاني، وعلى هذا فإن المصالح التقت بين كثير وبني أمية، وهم بالأساس على خلاف، وعكس أدب هذا الشاعر تلك الحالة بشكل بيّن وواضح.

^١ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٩٤. السيوطي: المزهري ج ٢ ص ٣٦٣. الزركلي: الأعلام ج ٥ ص ٢١٩.

^٢ الأصفهاني: الأغاني ج ٩ ص ٨.

^٣ الجحامي: طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٥٤٠-٥٤٣. الزركلي: الأعلام ج ٥ ص ٢١٩.

^٤ الهادي: اتجاهات الشعر ص ١١٨.

^٥ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٣٨٩-٣٩٠. الهادي: اتجاهات الشعر ص ١١٨-١١٩.

٩. جرير (ت ١١٠هـ/٧٢٨م):

جرير بن عطية بن الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي^١، من تميم ويكنى بأبي حَزْرَة^٢، من فحول شعراء الإسلام، عاش عمره كله يناضل الشعراء ويساجلهم، وفاقهم في أبواب الشعر الأربعة من فخر ومديح وهجاء ونسيب^٣.

كان عبد الملك بن مروان -بشكل عام- لا يسمع لشعراء مضر، ولا يأذن لهم لأنهم كانوا

^١ جرير: ديوان جرير، تحقيق: كرم البستاني، بيروت، دار بيروت، ١٩٨٦م، ص ٥. ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٥٦. ابن سَلام: طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٢٩٧. الأصفهاني: الأغاني ج ٨ ص ٥. ابن ماكولا: (علي ابن هبة الله) الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، بيروت، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ، ط ١، ج ٢ ص ٤٦١. فاخوري: تاريخ الأدب العربي ص ٢٩٤.

^٢ جرير: ديوانه ص ٥. ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٥٦. الأصفهاني: الأغاني ج ٨ ص ٥. الدار قطني: المؤلف والمختلف ج ٢ ص ٧٥٠. ابن ماكولا: إكمال الكمال ج ٢ ص ٤٦١. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٢. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٥٩٠. السيوطي: المزهج ج ٢ ص ٣٦٣. فاخوري: تاريخ الأدب العربي ص ٢٩٤.

^٣ جرير: ديوانه ص ٦. الأصفهاني: الأغاني ج ٨ ص ٥. الدار قطني: المؤلف والمختلف ج ٢ ص ٧٥٠. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٤٤. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٢. الزركلي: الأعلام ج ٢ ص ١١٩.

زبيرية، فوفد إليه الحجاج وفادته^١ فأهدى إليه جريراً -وقيل وفد به محمد بن الحجاج^٢ - فدخل عليه فأذن له في النشيد فقام وأنشد مديح الحجاج واحدة بعد واحدة، فأومأ إليه الحجاج أن ينشد مديح عبد الملك، فأنشده بقصيدة يقول فيها:

(من بحر الوافر)

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا وَأَنْذَى الْعَالَمِينَ بِطَوْنٍ رَاحٍ^٣

فتبسم عبد الملك وقال: "كذلك نحن ما زلنا"، ثم عرض بابن الزبير فقال:

دَعَوْتُ الْمُلْحِدِينَ أَبَا حُبَيْبٍ جَمَاحاً هَلْ شَفِيتَ مِنَ الْجَمَاحِ

وقد وجدوا الخليفة هُزْزِياً أَلَفَّ الْعِيصَ لَيْسَ مِنَ النَّوَاحِي

وما شجراتُ عَيْصِكَ فِي قَرِيْشَ بَعَثَاتِ الْفُرُوعِ وَلَا ضَوَاحِي^٤

ويبدو أن أسارى وجه عبد الملك انفرجت، بعد قصيدة جرير الشهيرة، والتي بوأ صاحبها أسمى المراتب فأصبح شاعر الدولة الأموية المقدم. ولم يكن جرير مادحاً فحسب، بل كان محام عن عبد الملك وحكمه، يدافع عن حقه في الخلافة، ويهاجم خصومه هجوماً عنيفاً ولا سيما ابن الزبير، فكان شاعراً سياسياً بالمعنى التام.^٥

كما اتصل جرير بالوليد ولقي لديه الحظوة، إلا أنه احتدم التهاجي بينه وبين عدي بن الرقاع شاعر الوليد الخاص، وسبب ذلك تقدم عدي عند الوليد، ثم ما كان من مصرية جرير وقحطانية

^١ جرير: ديوانه ص ٥. ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٥٩. ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٤١٨ -

٤٢٠. ضيف: العصر الإسلامي ص ٢٨١. فاخوري: تاريخ الأدب العربي ص ٢٩٥.

^٢ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٥٢ ص ٢٦٢. ضيف: العصر الإسلامي ص ٢٨١.

^٣ جرير: ديوانه ص ٧٧. ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٥٩. ابن سلام: طبقات فحول الشعراء

ج ٢ ص ٤١٨. الأصفهاني: الأغاني ج ٨ ص ٧١-٧٣. فاخوري: تاريخ الأدب العربي ص ٢٩٥.

^٤ جرير: ديوانه ص ٧٦-٧٨. ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٤٢٠. الأصفهاني: الأغاني ج ٨ ص ٧١ -

٧٣. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٥. ضيف: العصر الإسلامي ص ٢٨٢.

^٥ ضيف: العصر الإسلامي ص ٢٨٢.

عدي^١. ومدح جرير عمر بن عبد العزيز فلم يصله, ولما تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك مدحه جرير, كما قصد هشاماً أخاه إلى الرصافة ومدحه.^٢

١٠. الفرزدق (ت ١١٠هـ/٧٢٨م):

أبو فراس همام بن غالب^٣, وكان يكنى في شبابه أبا مليكة^٤, ويبدو أنه لم يكن له شأن الأخطل أو جرير في الدولة, بل ولم يكن له موقف سياسي واضح تجاه الخلاف الزيري - المرواني, فتارة تراه يهجو عمال بني أمية على مكة, بل والخليفة أحياناً, ومدح آل الزبير ويسمي عبد الله خليفة^٥, وتارة تراه يمدح الخلفاء الأمويين مثل سليمان بن عبد الملك, ويسميه بالمهدي^٦, ويتذمر من حكم ابن الزبير وقضائه الذي لم ينصفه مع زوجته النوار, فما الذي حصل؟

أما قصته في استقصائه ابن الزبير, فيروى أن الفرزدق سار من البصرة إلى مكة, هو وزوجته النوار ليختصما لدى عبد الله بن الزبير, فأقام الفرزدق عند حمزة بن عبد الله بن الزبير, بينما نزلت النوار عند زوجة عبد الله, وشفع كل واحد منهما لنزله, فقضى عبد الله للنوار وترك الفرزدق, فقال الفرزدق: (من بحر البسيط)

لَيْسَ الشَّفِيعُ الَّذِي يَأْتِيكَ مُؤْتَرّاً مِثْلَ الشَّفِيعِ الَّذِي يَأْتِيكَ عُريَاناً^٧

^١ فاخوري: تاريخ الأدب العربي ص ٢٩٥.

^٢ فاخوري: تاريخ الأدب العربي ص ٢٩٥.

^٣ الفرزدق: ديوانه ص ٥. ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٦٢. ابن سلاّم: طبقات فحول الشعراء ج ٢ ص ٢٩٨. السيوطي: المزهج ج ٢ ص ٣٦١. فاخوري: تاريخ الأدب العربي ص ٢٨٣.

^٤ السيوطي: المزهج ج ٢ ص ٣٦٣.

^٥ فاخوري: تاريخ الأدب العربي ص ٢٨٣.

^٦ فاخوري: المرجع المتقدم ص ٢٨٣.

^٧ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٦٧. الخوارزمي: (محمد بن العباس) الأمثال المولدة, أبو ظبي, المجمع الثقافي, ١٤٢٤هـ, ص ٣٣٣. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٩٤-٢٩٥. ضيف: العصر الإسلامي ص ٢٧٠.

وهذا البيت من جملة أبيات قالها الفرزدق في عبد الله بن الزبير لما طلب الخلافة لنفسه^١، ويبدو من الرواية السالفة أن الفرزدق لم يرق له ما قضى به ابن الزبير، حتى قال هذا البيت، فذهب مثلاً بين الناس لكل من لا تقبل شفاعته^٢.

وبالمقابل، فقد تربص الفرزدق لعمال بني أمية على مكة، ولم يسكت عن ظلمهم وجورهم بحق الرعية، وهجاهم فأوجعهم بذلك الهجاء، كما أوجعوا رعيتهم بالسوط، فها هو ذا يهجو والي مكة خالد القسري في بلاط سليمان بن عبد الملك، بعد أن قام خالد بضرب رأس الحجة من آل شيبة مائة سوط^٣ -لماذا- لرفضه أمر خالد في فتح باب الكعبة، حيث قال:

سَلُوا خَالِدًا لَا أَكْرَمَ اللَّهَ خَالِدًا مَتَى وَلَيْتَ قَسَرَ قُرَيْشًا تَدِينُهَا
أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ أَمْ ذَاكَ بَعْدَهُ فَتَلَكَ قُرَيْشٌ قَدْ أَغَثَّ سَمِينُهَا^٤
كما أن للفرزدق أبيات في هجاء خالد وقبح أفعاله^٥.

وحصل أن أغضب الفرزدق هشام بن عبد الملك عندما كان في موسم الحج قبل ولايته الخلافة^٦، وكان الازدحام شديداً على الحجر، مما منع هشام الوصول إليه، وعندما قام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، تنحى الناس حتى يستلم الحجر، فسأل أهل الشام هشام في ذاك الرجل فأجاب: "لا أعرفه"، مخافة أن يرغب فيه أهل الشام، وكان الفرزدق حاضراً، فقال قصيدته المشهورة والتي مطلعها: (من بحر البسيط)

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَأَّتُهُ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحُلُّ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَاهِرُ الْعَلَمُ

^١ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٩٥.

^٢ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٩٥.

^٣ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٦٩-١٧٠. الأصفهاني: الأغاني ج ٢٢ ص ٢٥.

^٤ الفرزدق: ديوانه ص ٦٣٢. الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٧٠-١٧١. الأصفهاني: الأغاني ج ٢٢ ص ٢٥.

^٥ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٤٢٧. ضيف: العصر الإسلامي ص ٢٧٣.

^٦ ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ١٠٨. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٣٩٨.

إِذَا رَأَتْهُ قَرِيشٌ قَالَ قَائِلُهَا

إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكَرْمُ^١

فغضب هشام منه، وأمر بحبسه بعسفان بين مكة والمدينة، وبلغ ذلك علي بن الحسين فبعث إلى الفرزدق بالمال، إلا أن الفرزدق قال له: "يا ابن رسول الله، ما قلت الذي قلت إلا غضباً لله عز وجل ورسوله"^٢. كما روي أن الفرزدق قال هذه الأبيات في الحسين بن علي بن أبي طالب وفي أبيه وأخيه وجده ﷺ^٣. لقد كانت مادة الفرزدق الشعرية غزيرة، حتى قيل فيه: "لولا شعره لذهب نصف أخبار الناس"^٤.

١١. يزيد بن ضبة (ت ١٣٠هـ/٧٤٧م):

مولى لثقيف واسم أبيه مقسم، وضبة أمه غلبت على نسبه، لأن أباه توفي وخلفه صغيراً^٥، وكان أحد الشعراء المشهورين المذكورين الكثيرين، وعمر حتى أدركه الأصمعي، وقال بعض أهل الطائف أن يزيد بن ضبة ألف قصيدة فاقسمتها شعراء العرب وانتحلها^٦، وكان يعتمد الإتيان بغريب اللغة بشعره. بالنسبة لعلاقته مع الأمويين، فقد انقطع إلى الوليد بن يزيد بالشام فكان لا يفارقه، ولما أفضت الخلافة إلى هشام، أبعد ابن ضبة، لاتصاله بالوليد، فخرج إلى الطائف، فأقام إلى أن ولي

^١ الفرزدق: ديوانه ص ٥١١. الأصبهاني: حلية الأولياء ج ٣ ص ١٣٩. المزي: تهذيب الكمال ج ٢٠ ص ٤٠١. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٣٩٨. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٤٢. فاخوري: تاريخ الأدب العربي ص ٢٨٧.

^٢ المزي: تهذيب الكمال ج ٢٠ ص ٤٠٢. ابن فهد: إتحاف الوري ج ٢ ص ١٤٣.

^٣ ابن أعثم: (أحمد بن محمد) الفتوح، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار الأضواء، ١٩٩١م، ط ١، ج ٥ ص ٧٢.

^٤ ضيف: العصر الإسلامي ص ٢٧٦.

^٥ الأصفهاني: الأغاني ج ٧ ص ١٠٩.

^٦ الأصفهاني: المصدر المتقدم ج ٧ ص ١١٧. المزي: تهذيب الكمال ج ٣٢ ص ٢٥٠.

الوليد، فوفد عليه، فأدناه وضمه إليه وأكرمه، وأعطاه بكل بيت من الشعر الذي مدحه به ألف درهم^١، مات بالطائف^٢.

١٢. السائب بن فروخ (ت ١٤٠هـ/٧٥٧م):

السائب بن فروخ المكي، يكنى بأبي العباس، شاعر أعمى هجاء، من أهل مكة^٣، من أنصار بني أمية وهوامهم، أكثر شعره في هجاء آل الزبير غير مصعب؛ لأنه كان يحسن إليه^٤. والسؤال هنا: لو أن ابن الزبير أحسن له وأجزل له العطاء، أكان له من المادحين أم الهجائين؟ ويبدو أن الإجابة يمكن أن تتضح بعد الرواية الآتية، وكيف عرفت بنو أمية من أين تؤكل الكتف، في تعاملهم مع السائب، فأرسلوا له العطايا والأموال، ما منعه منها ابن الزبير.

تقول الرواية إن عبد الله بن الزبير كسا بني أسد بن عبد العزى -قومه- وأحلافهم، ولم يكس أبا العباس وكان بمكة، ومن الساكنين فيها في تلك المناسبة، فقال فيه:

كَسَتْ أَسَدٌ إِخْوَانَهَا وَلَوْ أَنَّنِي بِلِدَةٍ إِخْوَانِي إِذَا لَكُسِيْتُ

فلم ترعيني مثل حيٍّ تحمّلوا إلى الشامِ مظلومينَ منذُ بريْتُ^٥

فهو يعرض بطلبه العطاء من بني أمية، إخوانه بالشام، وما إن سمع عبد الملك بن مروان بذلك حتى أوحى إلى الناس أن يخلعوا عليه، ففعلوا، واجتمع له قدر ضخم، ثم أمر له بمال عظيم^٦. وعندما

^١ الأصفهاني: الأغاني ج٧ ص١١٤.

^٢ المزني: تهذيب الكمال ج٣٢ ص٢٥٠-٢٥١. الزركلي: الأعلام ج٨ ص١٨٩-١٩٠.

^٣ ابن حبان: الثقات ج٤ ص٣٢٦. ابن حجر: تهذيب التهذيب ج٣ ص٣٩٠. الزركلي: الأعلام ج٣ ص٦٨.

^٤ الزركلي: الأعلام ج٣ ص٦٨.

^٥ الفاكهي: أخبار مكة ج٢ ص٣١٤. الهادي: اتجاهات الشعر ص١٣٣. ضيف: العصر الإسلامي ص٣٣٨.

^٦ الفاكهي: أخبار مكة ج٢ ص٣١٤. الهادي: اتجاهات الشعر ص١٣٣.

بلغ ابن الزبير نبذ من كلامه، وأنه يمدح عبد الملك ويرسل له بجوائزه وصلاته، نفاه إلى الطائف^١، كما كان ابنه القاسم بن السائب أيضاً شاعراً^٢.

١٣. شعراء آخرون:

كان لشعراء آخرين شعرٌ في هجاء عبد الله بن الزبير، وبالمقابل في مدح بني أمية، ومنهم فضالة بن شريك الأسدي^٣، وقيل ابنه عبد الله بن فضالة^٤، والذي هجا ابن الزبير بعد موقف حصل بينهما، حيث طلب من ابن الزبير في مكة العطاء، بعد أن نفدت نفقته، وأصبح وضعه سيئاً للغاية، وبعد طول جدال ونقاش بينهما، رفض إعطاءه ما سأل، فهجاه قائلاً: (من بحر الوافر)

أقولُ لِعَلْمِي شُدُّوا رِكَابِي	أَجَاوِزُ بَطْنَ مَكَّةَ فِي سَوَادِ
فَمَا لِي حِينَ أَقْطَعَ ذَاتَ عَرْقٍ	إِلَى ابْنِ الْكَاهِلِيَّةِ مِنْ مَعَادِ
سُبَيْعُ بَيْنَنَا نَصُّ الْمَطَايَا	وَتَعْلِيْقُ الْأَذَاوِي وَالْمِزَادِ
أَرَى الْحَاجَاتِ عِنْدَ أَبِي حُبَيْبٍ	تُكِدْنَ وَلَا أُمِيَّةً بِالْبِلَادِ ^٥

ويبدو أن الشاعر هجا ابن الزبير وبخله في أبياته الأولى، وبحث عن بديل لابن الزبير في طلب العطاء، فوجد ضالته المنشودة في بني أمية، فامتدحهم في آخر الأبيات، مستجدياً عطفهم وعطاءهم، وكأن موازين الأمور تقول بأن كل من هجا ابن الزبير وقطع منه الأمل، لا بد أن يمدح

^١ ضيف: العصر الإسلامي ص ٣٣٩.

^٢ السمعاني: الأنساب ج ٣ ص ٣٧٧.

^٣ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٦ ص ١٧. الأصفهاني: الأغاني ج ١٢ ص ٩٦. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٢٤ ص ١٤. البغدادي: خزانة الأدب ج ٥ ص ٣٨٨. الزركلي: الأعلام ج ٥ ص ١٤٦.

^٤ الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ١٨، ج ١٢ ص ٨٩. البغدادي: خزانة الأدب ج ٤ ص ٦٥.

^٥ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٦ ص ١٧. الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ١٩-٢٠، ج ١٢ ص ٩٠. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٤٨ ص ٢٨٥. البغدادي: خزانة الأدب ج ٤ ص ٦٥. ومنهم من نسب هذا الشعر لعبد الله بن الزبير الأسدي السالف الذكر، للمزيد انظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٩٩. البغدادي: خزانة الأدب ج ٤ ص ٦٢.

بني أمية ويعقد عليهم الآمال، ولعل خير مثال على هذا الكلام، أنه لما ولي عبد الملك بن مروان الخلافة، سأل عن فضالة، فقليل له مات، فأمر لورثته مائة ناقة برأً وتمراً.^١

ومن شعراء الدولة الأموية أيضاً الشاعر البدوي نابغة بني شيبان، عبد الله بن المخارق^٢، قيل إنه كان نصرانياً^٣، وكان يمدح خلفاء بني أمية؛ ولا سيما عبد الملك^٤، فأجزلوا له العطايا، ولما همَّ عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز، وولاية العهد لابنه الوليد شجعه الشاعر على ذلك، وأنشده قائلاً:

(من بحر المنسرح)

أَزَحَتْ عَنَّا آلَ الزُّبَيْرِ وَلَوْ كَانُوا هُمُ الْمَالِكِينَ مَا صَلَّحُوا
إِنْ تَلَقَّ بَلَوَى أَنْتَ مُصْطَبِرٌ وَإِنْ تُلَاقِ النُّعْمَى فَلَا فَرْخُ
مَنَاقِبِ الْخَيْرِ أَنْتَ وَارِثُهَا وَالْحَمْدُ ذُخْرٌ تُغْلَى بِهِ الرِّبْحُ
لَا بُنْكَ أَوْلَى بِمُلْكٍ وَالِدِهِ وَعَمِهِ إِنْ عَصَاكَ مُطَّرَحُ^٥

فالبداية كما هو واضح، ثناء الشاعر على عمل عبد الملك، بالتخلص من حكم ابن الزبير، وهو بحسب رأي الشاعر أجلّ وأهم أعمال عبد الملك في تلك الحقبة، نظراً للخطر الذي شكله.

ب - شعراء حزب الزبيريين السياسي:

لا بد من القول في بداية الحديث عن هذا الحزب وشعرائه، إن ثمة فرق كبير بينه وبين خصمه السالف الذكر، فعدد الشعراء أقل من حيث العدد والشهرة، كما أن نتاج هذا الحزب هزيل إذا ما قورن بنتاج خصمه اللدود.

^١ الأصفهاني: الأغاني ج ١٢ ص ٩٧. الصفدي: الواقي بالوفيات ج ٢٤ ص ١٤. البغدادي: خزنة الأدب ج ٤ ص ٦٦.

^٢ الأصفهاني: الأغاني ج ٧ ص ١٢١. الصفدي: الواقي بالوفيات ج ١٧ ص ٢٢٦. شيخو: شعراء النصرانية ج ٨ ص ١٣٧.

^٣ الأصفهاني: الأغاني ج ٧ ص ١٢١. الصفدي: الواقي بالوفيات ج ١٧ ص ٢٢٦. شيخو: شعراء النصرانية ج ٨ ص ١٣٧.

^٤ الأصفهاني: الأغاني ج ٧ ص ١٢١. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٣٣ ص ٢٦.

^٥ وللقصيدة تنمة، انظر: الأصفهاني: الأغاني ج ٧ ص ١٢٢. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٣٣ ص ٢٧. الصفدي: الواقي بالوفيات ج ١٧ ص ٢٢٧. شيخو: شعراء النصرانية ج ٨ ص ١٣٨.

وعلى العموم، لا بد من رصد أبرز شعراء الحزب الزيريين، على الرغم من قلتهم، ورب سائل يسأل عن السبب؛ مع أن الشرعية التي كانت بحوزة ابن الزبير أكبر بكثير من شرعية بني أمية في الوصول للسلطة والخلافة، إلا أن الشعراء مالوا إلى من عنده عطاء ومال، وقابل ذلك العطاء تضيق ابن الزبير وبخله على الشعراء. ولعل من أشهر شعراء حزب الزيريين السياسي:

٤. أبو دهب الجمحي (٦٣٠هـ/٦٨٢م):

وهب بن زمعة بن أسيد بن أحيدة بن وهب بن حذافة بن جمح^١، أحد الشعراء الإسلاميين المجيدين، من أهل مكة، يعرف بكنيته أبي دهب، وفي شعره رقة وجزالة^٢، ولّاه ابن الزبير بعض أعمال اليمن وعزله عنها^٣، وبعد أن انقضى حكم ابن الزبير بمكة، لم يجد أبو دهب من مخرج سوى الاعتذار والتوسل للأمويين حتى يعفو عنه، وينال رضاهم وعطاياهم، ولطالما تغيرت مواقف الشعراء في ساحات توزيع العطايا والمال، فكيف حصل على ذلك العفو؟

بدأت القصة عندما قدم سليمان بن عبد الملك مكة -حاجاً- في حرٍّ شديد، فكان يُنقل سريره بفناء الكعبة، ويعطي الناس العطايا، فلما بلغ بني جمح، نودي بأبي دهب، فقال سليمان:

^١ ابن قتيبة: الشعر الشعراء ج٢ ص٦٠٠. الأمدى: المؤلف والمختلف ص١٤٨. الدار قطني: المؤلف والمختلف ج٢ ص٩٨١. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص١٦١. ابن ماكولا: الإكمال ج٣ ص٣٤٠. السمعاني: الأنساب ج٢ ص٨٦. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٦٣ ص٣٥٥. الزركلي: الأعلام ج٨ ص١٢٥.

^٢ الأمدى: المؤلف والمختلف ص١٤٨. الدار قطني: المؤلف والمختلف ج٢ ص٩٨١. ابن ماكولا: الإكمال ج٣ ص٣٤٠. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٦٣ ص٣٥٥. الزركلي: الأعلام ج٨ ص١٢٥.

^٣ ابن قتيبة: الشعر الشعراء ج٢ ص٦٠٠. الزركلي: الأعلام ج٨ ص١٢٥.

^٤ يبدو أن هذه الحادثة كانت قبل تولي سليمان الخلافة، وبالتحديد عام ٦٨٠هـ/٦٩٩م كما سلف أثناء الحديث عن أمراء الحج في ذلك الموسم، ومن هنا فإنه من المحتمل أن وفاة أبو دهب كانت بعد عام ٦٨٠هـ/٦٩٩م، إلا أن الزركلي في كتابه الأعلام روى أن وفاته كانت عام ٦٨٢هـ/٦٨٢م، ويبدو أنه لم يطلع على هذه القصة التي انفرد بها الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني، لذا وجب التنويه لذلك.

"أين أبو دهب الشاعر، عليّ به، فجيء به، فقال سليمان: أنت أبو دهب الشاعر، قال: نعم، قال: فأنت القائل: (من بحر الرمل)

فَتِنَةٌ يَشْعِلُهَا وَرَاذُهَا حَطَبُ النَّارِ قَدَعَهَا تَشْتَعِلُ
فَإِذَا مَا كَانَ أَمْنٌ فَأَيْتَهُمْ وَإِذَا مَا كَانَ خَوْفٌ فَأَعْتَزَلُ^١

قال: نعم، وقال: وأنت القائل: (من بحر البسيط)

يَدْعُونَ مَرَوَانَ كَيْمَا يَسْتَجِيبَ لَهُمْ وَعِنْدَ مَرَوَانَ حَارَ الْقَوْمِ أَوْ رَقَدُوا
قَدْ كَانَ فِي قَوْمِ مُوسَى قَبْلَهُمْ جَسَدٌ عَجَلُ إِذَا خَارَ فِيهِمْ خَوْرَةٌ سَجَدُوا^٢
قال: نعم، وقال: وأنت القائل هذا ثم تطلب ما عندنا، لا والله ولا كرامة"، وبعد ذلك توسله طويلاً حتى عفا عنه^٣، ولم تبين الرواية فيما إذا حاز أبو دهب على العطاء من الخليفة، أم أن الأمر اقتصر على العفو عنه فحسب، ولعل مجرد خلاصه من الموت في حد ذاته أكبر هبة وعطية له.

٥. عبید الله بن قیس الرقیات (ت ٨٥هـ/٧٠٤م):

عبید الله بن قیس بن شریح بن لؤی بن غالب^٤، لقب بالرقیات، وفي سبب ذلك قولین: الأول لأنه كان له عدة جدات كلهن سَمَّين رقية^٥، والثاني لأنه شَبَّ بثلاث نسوة سمین جميعاً رقية^١، وكان یكنی بأبي هاشم^٢. یعد ابن قیس الرقیات من أشهر شعراء الحزب الزبیری بلا منازع، ولم یتخلَّ

^١ الأصفهاني: الأغاني ج٧ ص١٥٠.

^٢ الأصفهاني: الأغاني ج٧ ص١٥١.

^٣ الأصفهاني: المصدر المتقدم ج٧ ص١٥١.

^٤ ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ج٢ ص٦٤٧. الأزدی: الاشتقاق ص١١٤. الدار قطني: المؤلف والمختلف ج٣ ص١٢٨٥. ابن عساکر: تاریخ دمشق ج٣٨ ص٨٥. الزركلي: الأعلام ج٤ ص١٩٦.
^٥ الصفدي: الوافي بالوفیات ج١٩ ص٢٦٣. السيوطي: المزهر ج٢ ص٣٦٩.

عن موقفه هذا حتى انقضت خلافة ابن الزبير بمكة، فطلما وصف بأنه زيري الهوى، منقطع إلى آل الزبير^٢، فمدح مصعب في قصيدة مشهورة منها: (من بحر الخفيف)

إِنَّمَا مُصْعَبُ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ وَلَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ وَلَا لَهُ كِبَرِيَاءُ
يَتَّقِي اللَّهُ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ هَمُّهُ الْإِتِّقَاءُ^٣
كما هجا عبد الملك فقال:
قد رضىنا فمُتْ بِدَائِكَ غَيْظًا لَا تُثْمِتَنَّ غَيْرَكَ الْأَدْوَاءُ^٤

وبعد هذه القصيدة نذر عبد الملك دم ابن قيس^٥، فلما قُتل مصعب رثاه ابن قيس، وذم أهل العراق -لخذلانه- من بكر وتميم قائلاً: (من بحر الطويل)

لَقَدْ أَوْرَثَ الْمَصْرِينَ خَزِيئًا وَذَلَّةً قَتِيلٌ بِدِيرِ الْجَائِلِقِ مُقِيمٌ
فَمَا قَاتَلَتْ فِي اللَّهِ بَكْرٌ بْنُ وَائِلٍ وَلَا صَبَرَتْ عِنْدَ اللَّقَاءِ تَمِيمٌ
فَلَوْ كَانَ قَيْسِيًّا تَعَطَّفَ حَوْلُهُ كَتَائِبُ تَرْدِي تَارَةً وَتَحُومٌ
وَلَكِنَّهُ رَامَ الْقِيَامَ فَلَمْ يَكُنْ بِهَا مُضِرِّي يَوْمَ ذَاكَ كَرِيمٌ^٦

ويبدو أن مقتل مصعب كان بمثابة بداية النهاية لشعر ابن قيس الزيري الهوى، فقد قُتل من كان يعطف على ابن قيس ويعطيه العطاء، وما كاد دم مصعب يجف، حتى جاءت حشود الأمويين معلنة انتصارها على ابن الزبير بمكة وقتله، فساء ذلك ابن قيس، وهو يشاهد المسلمين يقاتل

^١ الجاحظ: الحيوان ج٧ ص٤٦٧. الأصفهاني: الأغاني ج٥ ص٨٠. ضيف: العصر الإسلامي ص٢٩٤.

^٢ السيوطي: المزهر ج٢ ص٣٦٣.

^٣ حسن: تاريخ الإسلام ص٣٣٩. سالم: تاريخ الدولة العربية ص٧٠٠. طهوب: العصر الأموي ص١٩٤.

^٤ ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ج٢ ص٦٤٩. البلاذري: أنساب الأشراف ج٦ ص٣٥١. المبرد: الكامل في

اللغة والأدب ج١ ص٣٣٥. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٤ ص١٤١. ضيف: العصر الإسلامي ص٢٩٦.

^٥ ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ج٢ ص٦٤٩. ضيف: العصر الإسلامي ص٢٩٦.

^٦ البلاذري: أنساب الأشراف ج٦ ص٣٥١.

^٧ ابن بكار: الأخبار الموفقيات ص٢٣٧. أبو حنيفة: الأخبار الطوال ص٤٥٧.

بعضهم بعضاً، وسادت الاضطرابات والفتن بين فئات قريش، فوصف ابن قيس هذا الحال بشعر يفيض بالألم والحسرة والمرارة قائلاً: (من بحر الخفيف)

حَبَّذا العَيْشُ حِينَ قَوْمِي جَمْعٌ لم تُفَرِّقْ أُمُورَهَا الْأَهْوَءُ
قَبْلَ أَنْ تَطْمَعَ الْقَبَائِلُ فِي مُدِّ لِكَ قُرَيْشٍ وَتَشْمَتَ الْأَعْدَاءُ
أُيُّهَا الْمُشْتَهَى فَنَاءَ قُرَيْشٍ بِيَدِ اللَّهِ عُمرُهَا وَالْفَنَاءُ
إِنْ تُودِّعَ مِنَ الْبِلَادِ قُرَيْشٌ لَا يَكُنْ بَعْدَهَا لِحِي بَقَاءُ^١

ولعل حرص ابن قيس على مدح قريش كان أول خطوة في الطريق الأمثل لاستعطاف الأمويين، ولا سيما أن دمه كان مهدوراً، وعطاؤه كان متوقفاً، ولكي يحقق هدفه المنشود بادر ابن قيس باللجوء إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب^٢، ليأخذ له الأمان من عبد الملك بن مروان، بعد أن ظل هائماً على وجهه، محتفياً من بني أمية عاماً بعد مقتل مصعب^٣، ويبدو أن اختيار ابن قيس لعبد الله بن جعفر لم يكن جزافاً، بل كان عن ثقة كاملة بمكانة ابن جعفر لدى الأمويين، وأنهم لا يمكن أن يرفضوا له طلب.

دخل ابن جعفر وطلب لابن قيس الأمان فأمنه عبد الملك^٤، واستأذن ابن جعفر لابن قيس أن ينشده فأذن له، فمدح عبد الملك حيث قال: (من بحر المنسرح)

مَا نَقَمُوا مِنْ أُمِّيَّةٍ إِلَّا أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ أَنْ غَضِبُوا
وَأَنَّهُمْ سَادَةُ الْمُلُوكِ فَلَا تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ
إِنَّ الْأَعَرَ الَّذِي أَبُوهُ أَبُو الْ عَاصِي عَلَيْهِ الْوَقَارُ وَالْحُجُبُ
يَعْتَدِلُ التَّاجَ فَوْقَ مَفْرَقِهِ عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ

^١ العمري: مسالك الأبصار ج ١٠ ص ٦١١. الخلف: مجتمع الحجاز ص ١١٦. ضيف: العصر الإسلامي ص ٢٩٦

^٢ عبد الله بن جعفر — وحسب ما ذكرت الروايات — اتصل للتوسط لابن قيس بأمن البنين زوج عبد الملك بن مروان وأبيها عبد العزيز بن مروان، ويبدو أن الوساطة قد نجحت. انظر: الصفدي: الواقي بالوفيات ج ١٩ ص ٢٦٣. البغدادي: خزائن الأدب ج ٧ ص ٢٨٧. ضيف: العصر الإسلامي ص ٢٩٩.

^٣ الهادي: اتجاهات الشعر ص ٨٣.

^٤ الأصفهاني: الأغاني ج ٥ ص ٨٤. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ١٩٦.

خليفةُ الله في رعيته

جَفَّتْ بِذَاكَ الْأَقْلَامُ وَالْكُتُبُ^١

وروح التكلف في ماء هذا الشعر واضحة، فالشاعر أساء فيه إلى بني أمية أكثر مما أحسن، فقد جعلهم ملوكاً، بل سادة الملوك، والملك بدعة، لا تتفق مع نظام الحكم في الإسلام، كما أن الشاعر أوحى من طرف خفي بأنهم جبابرة لا يُصلح العرب إلا شدة سطوتهم، ثم إنه لما لم يجد ما يؤيد به دعواهم في الخلافة من حق يؤيده الشرع، أو منطق يقربه العقل، ردها إلى القضاء والقدر، كما يفهم في البيت الأخير^٢. ولقد أدرك الخليفة عبد الملك -الممدوح بهذا الشعر- ما في هذا النظم من تكلف، وما يفتقر إليه من صدق الأفعال، فلام الشاعر قائلاً: "تقول لمصعب بن الزبير:

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِّنَ اللَّهِ بَجَلْتُ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ

وتقول لي: يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مِفرِقِهِ عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ"^٣

فقال عبيد: "يا أمير المؤمنين أنا الذي أقول: (من بحر المنسرح)

مَا نَقَمُوا مِنْ أُمِّيَّةٍ إِلَّا أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ أَنْ غَضَبُوا"^٤

فقال عبد الملك: (من بحر الخفيف)

"كَيْفَ نَوْمِي عَلَى الْفِرَاشِ وَلَمَّا تَشْمَلِ الشَّامُ غَارَةً شَعَوَاءُ

تُذْهِلُ الشَّيْخَ عَنْ بَنِيهِ وَتُبْدِي عَنْ حُدَامِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْعَذْرَاءِ"^٥

وقال له عبد الملك: "لقد أمنتك، ولكن لا والله ما تأخذ مع الناس عطاء أبداً"، فاستاء عبيد، فدفع ابن جعفر له العطاء^١، لما يكفيه ما بقي من عمره، وقيل مائة وعشرون ألف درهم^٢، وقيل أربعون ألف^٣، كما أوردت روايات أخرى بأن عبيد مدح عبد الملك بأبيات منها: (من بحر مجزوء الكامل)

^١ البغدادي: خزنة الأدب ج ٧ ص ٢٨٧. الهادي: اتجاهات الشعر ص ٨٣.

^٢ الهادي: اتجاهات الشعر ص ٨٣.

^٣ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٣٨ ص ٩٤. الهادي: اتجاهات الشعر ص ٨٣.

^٤ الأصفهاني: الأغاني ج ٥ ص ٨٦. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٣٨ ص ٩٣.

^٥ ابن حبيب: المنطق ص ٣٧٧. ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٣٨٣. الدار قطني: المؤلف والمختلف ج ٢ ص ٨٩٨. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٩ ص ٢٦٣. البغدادي: خزنة الأدب ج ٧ ص ٢٨٧.

اسْمَعْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
أَنْتَ ابْنُ مُعْتَلَجِ الْبَطَاحِ
لَمَدَحَتِي وَثَنَائِهَا
كُذِّبَتْهَا فَكَدَائِهَا^{٦٥}

وعلى العموم ربما ليس من الإنصاف الحديث بتحامل على عبيد، فالموقف الذي كان فيه لا يُجسد عليه، والمشادة الكلامية بينه وبين عبد الملك كانت تحصيل حاصل إذ أن النتيجة وكما يبدو كانت واضحة في العفو عنه، ومحسومة في تأمينه بلا عطاء. وقد يكون تغيير الموقف لدى غير الشاعر عسيراً لدرجة المستحيل، أما مع الشعراء فالأمر مختلف تماماً، فقابليتهم لتغيير موقفهم سرعان ما تنوجد حسب مصلحتهم.

٢. الشعر الغزلي:

يبدو أن توفر حياة اللهو والمجون لبعض فئات المجتمع في هذه الحقبة، كان لها أثرها الشديد في انبعاث الشعر الغزلي، فهو شعر يتلاءم مع رقة الحس والشعور، كما يتجاوب مع فني الغناء والموسيقا الجديدين، فليس غريباً أن يكون من شعراء مكة أو زائريها شعراء حب وغزل، من أمثال عمر بن أبي ربيعة، وتلميذه العرجي، بالإضافة إلى عبيد الله بن قيس الرقيات، والحارث بن خالد المخزومي، وأبي دهب^٧ السالفي الذكر.

١. النيمري (ت ٩٠هـ/١٠٧م):

-
- ^١ ليس غريباً على ابن جعفر، فقد كان يلقب بقطب السخاء وبحر الجود، انظر: ابن حبان: الثقات ج ٣ ص ٢٠٧.
المزي: تهذيب الكمال ج ٤ ص ٣٦٧. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ٧٦.
^٢ البلاذري: أنساب الأشراف ج ٦ ص ٣٥١. ابن حبيب: المنقذ ص ٣٧٧. الأصفهاني: الأغاني ج ٥ ص ٨٧.
^٣ البغدادي: خزنة الأدب ج ٧ ص ٢٨٨. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٩ ص ٢٦٤.
^٤ كدي: جبل بأسفل مكة، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة كدا، ج ١٥ ص ٢١٦-٢١٧.
^٥ كداء: جبل بأعلى مكة، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة كدا، ج ١٥ ص ٢١٦-٢١٧.
^٦ ابن حبيب: المنقذ ص ٣٧٧.
^٧ الهادي: اتجاهات الشعر ص ٦١.

محمد بن عبد الله بن نمير من ثقيف^١، شاعر غزل، من شعراء العصر الأموي، مولده ومنشؤه ووفاته في الطائف، كان كثير التشبيب بزینب أخت الحجاج، وأرق شعره ما قاله فيها^٢، وتحدده الحجاج فلم يأبه له النميري، فلما بلغ الحجاج من الشأن ما بلغ، طلب النميري، ففر إلى اليمن وأقام بعدن مدة، ثم قصد عبد الملك بن مروان مستجيراً به فأجاره^٣، وعفا عنه الحجاج على ألا يعود إلى ما كان عليه^٤.

٢. عمر بن أبي ربيعة (ت ٩٣هـ/٧١٢م):

عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، أبو الخطاب^٥، أرق شعراء عصره^٦، كان يقال أن العرب كانت تفضل قريشاً في كل شيء إلا الشعر^٧، فلما ظهر في قريش عمر بن أبي ربيعة أقرت لها العرب بالشعر أيضاً^٨، ولم يكن في قريش أشهر منه^٩، ولعل الكلام عن شعر عمر بن أبي ربيعة وشهرته يعود ربما بالدرجة الأولى لشعر الغزل واللهو والمجون بشكل أساسي، فلطالما قيل: "من أراد رقة الغزل فعليه بشعر عمر بن أبي ربيعة"^{١٠}.

^١ الأصفهاني: الأغاني ج٦ ص٢٠١. ابن حمدون: التذكرة الحمدونية ج٦ ص١٧٧.

^٢ الأصفهاني: الأغاني ج٦ ص٢٠١. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢ ص٤٠.

^٣ الصفدي: الوافي بالوفيات ج٣ ص٢٤١. الزركلي: الأعلام ج٦ ص٢٢٠.

^٤ الأصفهاني: الأغاني ج٦ ص٢٠٦. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٤ ص٥٤٨. الزركلي: الأعلام ج٦ ص٢٢٠.

^٥ الجاحظ: الحيوان ج٧ ص٤٧٠. ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج٢ ص٥٣٩. ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص٣١٣. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣ ص٤٣٦. السيوطي: المزهرة ج٢ ص٣٦٣. البغدادى: خزانة الأدب ج٢ ص٣٢.

^٦ الجاحظ: الحيوان ج٧ ص٤٧٠.

^٧ لعل المراد بالدرجة الأولى هو رسالة النبوة على رسول الله محمد ﷺ ومعجزته الكبرى المتمثلة بالقرآن الكريم.

^٨ الأصفهاني: الأغاني ج٣ ص٣١٠. ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص٣١٣.

^٩ الزركلي: الأعلام ج٥ ص٥٢.

^{١٠} البغدادى: خزانة الأدب ج٢ ص٣٣. وكان ثمة شبه كبير بينه وبين غزل امرئ القيس. انظر: ابن الجوزي:

المنتظم ج٦ ص٣١٣. ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، القاهرة، دار المعارف، د. ت، ص٢٥١.

ولد في الليلة التي توفي فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسمي باسمه^١, وكان يفد على عبد الملك ابن مروان, فيكرمه ويقربه^٢, وذات مرة رحب به قائلاً: "مرحباً بفاسق قريش", مما أغضب عمر, فاسترضاه عبد الملك بتلبية حوائجه^٣, كان مضرب عمر (مسكنه) في مكة في منى, حيث كان يقصده الناس.^٤

روي أنه كان يتعرض لنساء الحجاج ويشيب بهن, فلما قدمت فاطمة بنت عبد الملك مكة, جعل عمر بن أبي ربيعة يدور حولها, ويقول فيها الشعر ولا يذكرها باسمها فرقاً وخوفاً من عبد الملك, ومن الحجاج بن يوسف, لأنه كان كتب إليه يتوعده إن ذكرها أو تعرض باسمها, ويبدو أنه ذكرها بصيغة الغائب, وكافأت فاطمة من جاءها بالأبيات^٥. ويبدو مما سلف أن عمر بن أبي ربيعة لطالما ذكر أسماء اللواتي أعجب بهن وبحسنهن, فهو رجل شاعر رهيف القلب, حساس, لا يملك السيطرة على لسانه, وإن تعذر الأمر بالتصريح, لا يعدم الوسيلة في الاتجاه إلى التلميح, تجنباً للمشاكل وخوفاً على حياته.

ومن أخباره مع الوليد بن عبد الملك, أن الوليد اختار عمر دون سواه ليصعبه -وليكون رفيق طريقه- في رحلته إلى الطائف, لعلم عمر بأمورها وأحوالها, ويمكن إضافة أسباب أخرى, منها رغبة الوليد بسماع قصص عمر, والسماع لبعض شعره الغزلي خلال الطريق, ولا سيما وقد أتي عمر البلاغة في البيان, والحلاوة في اللسان. وبالمقابل, كان لسان عمر وغزله السبب وراء نفيه إلى جزيرة دهلك باليمن, على يد عمر بن عبد العزيز, عندما كان خليفة, وقيل والياً على مكة والمدينة, ثم غزا عمر بن أبي ربيعة في البحر, فاحتترقت السفينة به وبمن معه فمات غرقاً.^٦

^١ البغدادي: خزانة الأدب ج ٢ ص ٣٣. الزركلي: الأعلام ج ٥ ص ٥٢.

^٢ الزركلي: الأعلام ج ٥ ص ٥٢.

^٣ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ٢ ص ٥٤٣. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٤٥ ص ٩١.

^٤ الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ١٩٦. ضيف: العصر الإسلامي ص ٣٤٩.

^٥ الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ٢٠١. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٣١٤.

^٦ الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ١٢١.

^٧ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ٢ ص ٥٤٣. ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٣١٦. البغدادي: خزانة الأدب ج ٢ ص ٣٣.

٣. العُرجي (ت ١٢٠هـ/ ٧٣٨م):

بفتح العين وسكون الراء، وفي آخرها الجيم^١، وهذه النسبة إلى العُرج، وهي قرية جامعة من نواحي الطائف^٢، حيث كان يقابل هناك المغنين، وشاعران هناك كلّفا بالغزل هما النميري ويزيد ابن ضَبَّة^٣ -السالفِي الذِكر-، أما اسمه فهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي القرشي، أبو عمر^٤، شاعر غزل فارس شجاع مقدام، نحنا نحو عمر بن أبي ربيعة، وتشبه به فأجاد، وكان شغوفاً باللّهُو والصيد، ووصف بأنه كان من أشعر بني أمية^٥، كما كان يرد مواسم الحج مع أصحابه ليلتقي أحاسن الناس هناك، وقول الشعر فيهم، ولعل أشهر ما قال: (من بحر السريع)

عُوجِي عَلَيْنَا رَبَّةَ الْهُودَجِ
إِنِّي أُتَيْحْتُ لِي يَمَائِيَّةُ
إِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلِي تَحْجُجِي
إِحْدَى بَنِي الْحَارِثِ مِنْ مَذْحِجِ
لَا نَلْتَقِي إِلَّا عَلَى مِنْهَجٍ^٦
نَلْبَثُ حَوْلًا كَامِلًا كُلَّهُ

وبما أنه كان يسير على خطى عمر بن أبي ربيعة، فإنه شبب بالنساء، ولعل ذلك الأمر كان وراء سجنه وموته، حيث أنه وذات مرة جرّه تشبيهه بالنساء إلى حتفه، حيث يروى أن محمد بن

^١ السمعاني: الأنساب ج ٤ ص ١٧٧. ابن منظور: لسان العرب، مادة عرج، ج ٢ ص ٣٢٠.

^٢ ابن الكلبي: جمهرة النسب ص ٤٣. الأصفهاني: الأغاني ج ٣ ص ٣٧١. السمعاني: الأنساب ج ٤ ص ١٧٧. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٥٣. سمي العرج بتعريض السيول به. انظر: الحميري: الروض المعطار ص ٤٠٩.

^٣ ضيف: العصر الإسلامي ص ١٤٨.

^٤ ابن الكلبي: جمهرة النسب ص ٤٣. ابن سلام: (أبو عبيد القاسم بن سلام) النسب، تحقيق: مريم محمد خير الدرع، تقديم: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٩م، ط ١، ص ١٩٩. ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ٢ ص ٩٠٤. الأزدي: الاشتقاق ص ٧٨. السمعاني: الأنساب ج ٤ ص ١٧٧. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٥٣.

^٥ الجاحظ: الحيوان ج ٧ ص ٤٦٩. الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ٣٧١. السمعاني: الأنساب ج ٤ ص ١٧٧. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٣١ ص ٢٢٤. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٧ ص ٢٠٩.

^٦ الفاكهي: أخبار مكة ج ٢ ص ٣٨٤. الدار قطني: المؤلف والمختلف ج ٤ ص ١٧٤٩. السمعاني: الأنساب ج ١ ص ١١٤. البغدادي: خزانة الأدب ج ٥ ص ٣٣٤. أبو النصر: الأيام الأخيرة ص ٣٥٥.

هشام المخزومي حبسه لأنه كان يشب بأمه جيداء، وهي من بني الحارث بن كعب، ولم يكن ذلك لمحبه إياها، بل ليفضح ولدها المذكور، حيث هجا العرجي محمد بن هشام المخزومي، خال هشام ابن عبد الملك بعد أن كلفه هشام بولاية مكة، وكتب له بالحج بالناس فقال: (من بحر الوافر)

كأنَّ العامَ ليس بعامٍ حَجَّ
إلى جيداء قد بَعَثُوا رسولاً
تَغَيَّرَ المواسمُ والشُّكُولُ
لِيخْبَرَهَا فلا صُحِبَ الرَّسُولُ^١

ومنها قوله: (من بحر الطويل)

ألا قُلْ لمن أَمْسَى بمَكَّةَ قاطناً
دَعُوا الحِجَّ لا تستهْلِكُوا نفقاتِكُمْ
ومن جاء من عمقٍ ونقبِ المشلِّ
فما حجُّ هذا العامِ بالمُتَقَبِّلِ
يظلُّ يرأِّي بالصيامِ نهاره
ويلبسُ في الظلِّماءِ سَمَطِي قُرْنُقَلِ^٢
فلم يزل محمد بن هشام يطلب عليه العلل حتى وجده، فحبسه، وبقي تسع سنين، ثم مات فيه، بعد أن ضربه بالسياط^٣، وكان ينظم في سجنه الأبيات ولعل أشهرها: (من بحر الوافر)

أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا ليومَ كَرِيهَةٍ وسَدَادٍ تُغَرُّ

وثمة رواية أخرى تحدثت عن أن سبب سجنه اتهامه بإهراق دم مولى لعبد الله بن عمر^٤، وعلى أية حال، وكيفما كانت النهاية، فقد روي أنه كانت للعرجي أياد بيضاء، حيث كان من الفرسان المعدودين مع مسلمة بن عبد الملك بأرض الروم في خلافة سليمان^٥، وكان له معه بلاء حسن ونفقة كثيرة، حتى قيل إنه باع أموالاً عظيمة كانت له، وأطعم ثمنها في سبيل الله حتى نفذ ذلك كله، وكان

^١ الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ٣٩٢.

^٢ الفاكهي: أخبار مكة ج ٣ ص ١٨٣-١٨٤. الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ٣٩٢.

^٣ الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ٣٧١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٩٥. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤٠١. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٧ ص ٢١٠.

^٤ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ج ٢ ص ٥٦٠. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٣١ ص ٢٢٤. ابن الجوزي: المنتظم ج ١٠ ص ١٢٣. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤٠١. الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٢٦٨.

^٥ الذهبي: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٢٦٨. الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ١٠٩.

^٦ ابن عساكر: تاريخ دمشق ج ٣١ ص ٢٢٣.

قد اتخذ غلامين فإذا كان الليل نصب قدره, وقام الغلامين يوقدان فإذا نام واحد قام الآخر, فلا يزالا كذلك حتى يصبحا, وكان يقول: "لعل طارقاً يطرق".^١
ومضى العرجي إلى بارئه له ما له وعليه ما عليه, تاركاً أخباراً تكاد تكون متناقضة في لهوه ومجونه وشعره من جهة, وجهاده وكرمه وإنفاقه في سبيل الله من جهة أخرى.

• خاتمة البحث:

عند تناول عصر من أحفل عصور التاريخ وأكثرها زخماً بالأحداث كالعصر الأموي, ودراسة هذا العصر بشكل أكاديمي ولمكان من أقدس بقاع العالم, يتبين أن الإسلام دين المحبة والتسامح, وهو يصلح لكل زمان ومكان, وعند ترك مبادئه وتعاليمه فإن المرء يعيش بحالة اضطراب, وإذا ما أرادت هذه الأمة الخلاص مما تعيشه اليوم, فعليها قراءة التاريخ لاستخلاص العبر, فالإسلام بحاجة إلى جميع أفراد متضامنين متحابين للوقوف بوجه الأعداء.

لقد أدرك الخلفاء الأوائل ذلك فعاشت الدولة الإسلامية قرابة اثنتي عشرة سنة بعد وفاة رسول الله ﷺ وتغلبت على أعظم قوتين آنذاك بيزنطة وفارس, وعندما عصفت بها رياح الفتن بدأت تضعف لتعود تارة تنهض في العصر الأموي, وتارة تضعف حسب الحاكم وقوته وعدله.

وقد شهدت مكة في عهد معاوية نهضة عمرانية فريدة, وانعكس الوضع السياسي على جميع الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية, وبعد وفاته كادت أن تعصف من جديد الفتن لولا تدارك الوضع, وقد حرص الخلفاء الأمويين على اختيار الولاة من بني أمية وقريش, لاعتقادهم بأنهم أحق

^١ الأصفهاني: الأغاني ج ١ ص ٣٧٢. الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٧ ص ٢١٠.

الناس في إدارتها، أو العرب المواليين للأمويين^١، فكان مجمل من حكم مكة كان عددهم نحواً من واحد وعشرين والياً، دام حكمهم إلى نهاية العهد الأموي^٢، منهم من استمر في الولاية لأمد طويل، ومنهم من كان حكمه قصيراً حسب قوة الخليفة أو ضعفه.

وقد عمد كل خليفة أموي عند استلامه السلطة - وبشكل عام - إلى عدم تغيير ولاية مكة مباشرة، بل تركهم لفترة ريثما يستتب الأمر له فيقوم بالتغيير الذي يراه مناسباً. أضف إلى ذلك أن بعض الخلفاء الأمويين شغل منصب الوالي على مكة كعمر بن عبد العزيز فاطلع على أحوال الحجاز، وثبت صلاته مع عدد من رجالاته، مما كان له أثر في توجيه الإدارة^٣.

وقد كان لبعض ولاية مكة صلاحيات واسعة، اضطرت بعضهم إلى سلوك مسلك القسوة، ويمكن أن تُفسر تلك القوة المفرطة، بانصراف أهل مكة عن الأمويين بعد أن قامت بين ظهرائهم دولة ابن الزبير لما يقارب العقد من الزمن، وأشبعوا بأفكار تلك الدولة، مما زاد حنق الأمويين عليهم، فقتل سياساتهم، وعظم بطشهم.

ولاية مكة اسم يتكرر أحياناً، ويخفت أحياناً لصالح ولاية المدينة، ففي بعض الأحيان تتبع ولاية مكة للمدينة، ويُسمى والي المدينة عامله أو نائبه على مكة، وأحياناً يعين الخليفة والييين مستقلين لكل من مكة والمدينة، كما حدث في عهد الوليد بن عبد الملك، عندما عزل عمر بن عبد العزيز من منصبه والياً للحرمين.

شهدت الطائف -ولكن لفترة قصيرة- استقلالاً إدارياً حتى عن مكة نفسها؛ كونها مدينة كبرى لها كيائها ومكانتها المرموقة^٤، وأحياناً كانت تمتد ولاية مكة لتشمل المدينة والطائف لوال واحد، وفي أحياناً أخرى كانت تستقل كل مدينة بواليتها.

أما اجتماعياً فقد تبين للبحث أن المجتمع المكي كان من أكثر المجتمعات ندرة في حقب التاريخ، ففيه خليط إسلامي نادر من جميع الشعوب والقبائل والفئات، فعندما يزور المرء مكة،

^١ الشريف: دور الحجاز ص ٤٦١.

^٢ السباعي: تاريخ مكة ص ١٠٦.

^٣ العلي: الحجاز ص ١٠.

^٤ القشامي: تاريخ الطائف ص ٢٦. العلي: الحجاز ص ٢٨١.

بإمكانه أن يقابل في صعيد واحد الغني والفقير، الجاهل والعالم، بل وحتى أصحاب اللهو والمجون والغناء، إلى جانب العباد والزهاد، بل ولقد شهدت ولاية مكة المكرمة في هذه الحقبة تركيباً اجتماعياً متعددًا، متطور عما قبله، ومختلف عما بعده، ولعل سببه الغليان المستمر، والتنافس بين الطبقات، ولا سيما بين العرب والموالي، مما أدى إلى إقصاء عدد منها، وبروز طبقات أخرى كالموالي في العصور اللاحقة كالعباسي، حيث بلغوا شأواً بعيداً في تقلد المناصب، بعد أن أقصوا عنها في العصر الأموي. ولاشك أن قريشاً والقبائل الأخرى كثقيف، قد حافظت على امتيازاتها في تركيبة هذا المجتمع.

كما برزت في مكة أيضاً فئة أثارت الجدل، ألا وهي أصحاب اللهو والمجون والغناء، والتي يبدو أنها فاجأت الجميع بوجودها المتميز داخل أقدس مدينة إسلامية على وجه الأرض، ولتسويغ هذا التواجد ذهب كل طرف لابتداع سبب يسوغ فيه هذا التواجد، إلا أنه بالإجمال، لم يخرج الأمر عن جانبين أساسيين متضادين، مكائد سياسية حيكت للدولة الأموية لتشويه صورتها أمام رعاياها من قبل مناوئيه، أي تجني سياسي واضح بامتياز من جانب، وحرص الخلفاء الأمويين على شغل أهل الحجاز بالغناء واللعب واللهو، لإبعادهم كل البعد عن ميادين السياسة والرياسة، ولا سيما بعد أن دوّخهم ابن الزبير قرابة عقد من الزمن في مكة من جانب آخر.

كما أدرك الأمويون ضرورة كسب طبقة أهل الذمة، للاستفادة من علومها وخبراتها المستقاة من ثقافتها وحضارتها، فولوهم أمورهم الصحية، وشؤونهم المالية، ويبدو أن أهل الذمة قابلوا الإحسان بمثله، حيث حرصوا على سلامة وصحة الخلفاء الأمويين، والتي كانوا مؤتمنين عليها.

ومن نتائج البحث أن التكامل الاقتصادي تجلّى وإلى حدٍ كبير بين المراكز البشرية المنتشرة في أنحاء ولاية مكة المكرمة، فقد توفرت فيها الثروات الغنية والخبرات الجيدة ولاسيما الطائف، والتي لم تبخل على مكة بزراعتها وصناعتها وخبرة أبنائها، وبالمقابل ردّت مكة الإحسان بالإحسان، فتعاملت معها وسوّقت لها منتجاتها الزراعية والرعيّة والصناعية، ضمن أسواقها المشهورة والذائعة الصيت، فضربت كلتا المدينتين أروع الأمثلة في العيش الاقتصادي والاجتماعي المشترك، ولتكونا أنموذجاً حياً - لتلك الحقبة بل ولجميع الحقب - في التكامل الاقتصادي بين المدن الإسلامية، وحصدتا معاً ثماره الكثيرة. مما مكّن ولاية مكة من تحقيق نهوض اقتصادي رائد.

وكانت نتائج الوضع الاقتصادي المتدهور على دولة ابن الزبير كارثية، حيث يمكن عدّ ضعف اقتصاده أحد الأسباب الرئيسية لسقوط دولته، فقد أثر فيها الحصار الأموي الاقتصادي، حيث لم يبق عند ابن الزبير من الأموال ما يؤمن بها احتياجات مكة، فلطالما أرسل دائنيه إلى أخيه مصعب بالعراق لاستيفاء حقوقهم، وخير مثال على ذلك قصة دار الأزرق^١ التي اشتراها في مكة ليوسع بها المسجد الحرام، فاشترى نصفها نقداً، وكتب لأصحابها لاستيفاء الباقي من أخيه مصعب بالعراق، إلا أن القدر سبقهم لمصعب فقتل في حربه مع عبد الملك، وعندما عادوا إلى مكة للقاء ابن الزبير كان محصوراً، ليقتل في نهاية الحصار، وسألوا الحجاج فرفض سداد دين ابن الزبير على حد قوله. فلو كانت دولته ذات اقتصاد قوي لحصل كل صاحب حق على حقه في الحال، لكن بخله وشحه مع نظرتة الضيقة للأمور أهلكته رغم شجاعته وتقواه.

ومن نتائج البحث معالجة مشكلة السيول فقد تم الحد من أضرارها عبر الردوم، واستحضار الخبرات المختصة والمواد المناسبة مهما بلغ الثمن، وكان الجهد كذلك منصّباً على شق وتأمين الطرق المناسبة لقداسة مكة المكرمة، إلى جانب تأمين المياه لألوف الحجاج في المواسم، وعلى مدار السنة سواء لأهل مكة أو لزائريها، كما تم إنشاء بعض السدود لتلبية مطالب الري والزراعة، علّهما يؤمنان ولو قسم من حاجة أهل مكة الاقتصادية.

ويمكن للمرء من خلال البحث أن يلحظ كيف استطاعت مكة المكرمة أن تثبت نفسها على الصعيد العلمي والتعليمي الفقهي، فازدهرت فيها حركة التعليم؛ ولا سيما في مدرسة مكة والتي اتخذت من المسجد الحرام مركزاً لها، هذه المدرسة التي أسسها حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنه، والتي تناولت بدروسها معظم المواد، فلم تقتصر نشاطاتها على علوم الدين من تفسير وفقه وسيرة فحسب، بل تعداها إلى علوم اللغة العربية ودروس في التاريخ، بل ونشأت حركة فلسفية من منطق وكيمياء وطب، إلا أنها لم يكن لها شأواً كبيراً ولم تصبح بعد شائعة، كل هذا والحركة الدينية كانت الأكبر والأساسية والأوسع نطاقاً في هذه المدرسة. ولعل مما ساعد ويسر أمور التعليم في مدرسة مكة عدم وجود شروط صارمة للالتحاق بركبها، فترى الشاب إلى جانب الكهل، كما ترى الفقير إلى جانب الغني، أضف إلى ذلك مدى سعة إطلاع فقهاءها وعلمهم الغزير إلى جانب رحابة صدرهم.

^١ القصة بتفاصيلها موجودة في : الأزرقى: أخبار مكة ج ٢ ص ٧٠.

وقد برزت أسماء عديدة في هذا المجال انصهرت جميعاً في بوتقة واحدة لتكوّن نواة مدرسة مكة في التفسير وعلم القرآن والفقه ومناسك الحج والحلال والحرام، فالطابع الديني هو الغالب والسائد في هذه المدرسة.

أضف لذلك أن معظم فقهاء مكة في تلك الحقبة كانوا من الموالي، وهذا الأمر ربما كان قد سبب بعض الامتعاض للدولة الأموية كونها تفتخر بالعرب، وتعتر بهم أشد الاعتزاز، لكن الأمويون سلموا بالأمر الواقع وافتخروا بفقهاء دولتهم عموماً، ومكة خصوصاً، فهل ثمة أسباب كانت وراء ذلك؟ وإن وجدت ما هي؟

ثمة سببين وفق تقديرات البحث وهما: السبب الأول لعله يتخلص في انشغال العرب عموماً بالفتوحات الإسلامية وقيادة الجيوش، كيف لا وهم مادة الإسلام ونواته، وكان لهذا الأمر أثره في بروز الموالي والذي نشأ معظمهم في بيئات لها حضارات وثقافتها، وكونهم أرادوا أن يسهموا — مثلهم مثل غيرهم — في نصرته هذا الدين اندفعوا نحو العلم والتفقه في الدين.

أما السبب الثاني فربما يعود لحرص سادة الموالي من الصحابة والتابعين على تعليم مواليتهم حتى يحملوا عنهم أمانة ما حملوا من العلم، وخير مثال على ذلك عكرمة مولى ابن عباس. أضف إلى ذلك أن ملازمة الموالي لسادتهم في حلّهم وترحالهم جعلهم أعرف الناس بسريرتهم وعلايتهم، فنقلوا ذلك العلم للأمة، بعد أن أصبحوا فقهاءً ومقصداً للسائلين والحائرين. وإلى جانب دور فقهاء مكة المقيمين فيها كانت ثمة دور فعال للفقهاء القاصدين مكة أثناء مواسم الحج والذين أسهموا في إغناء الوضع التعليمي لمكة بشكل واضح

أما على صعيد الشعر فقد كان ميدانه انعكاساً لميدان السياسة، فكانت التحزبات موجودة، وأسفرت عن نتاج جديد من الشعر عرف بالشعر السياسي، والذي تبني وجهة نظر إحدى الطرفين ودافع عنها باستماتة، وبالمقابل لم يخل الخلفاء ولا سيما الأمويين على الشعراء، فأجزلوا لهم العطايا والهبات والألقاب، إلا أنه يجب عدم إغفال قناعة الشاعر، والتي يمكن أن يكون لها دور في تحيزه لحزب دون آخر، وبما أن الأيام دول، فلا بد أن يتراجع الشاعر عن موقفه، لحرصه على تأمين مصدر جديد لرزقه، وهذا ما يحصل في معظم الأحيان، ولا يخلو الأمر من بعض الاستثناءات.

وبالإضافة إلى وظيفة الشعر السياسية والغزلية، فقد كان له وظيفة خدمية وإدارية، حيث سخره البعض لبث الشكوى للخليفة تجاه عمل العمال في ولايتهم، بعد أن طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد.

﴿قائمة المصادر والمراجع العربية والمعرّبة والمراجع الأجنبية﴾

١. المصادر العربية:

• القرآن الكريم.

- ❖ الأبيشي: (شهاب الدين محمد بن أحمد ت ٨٥٢هـ = ١٤٤٨م)
- ١. المستطرف في كل فن مستظرف، القاهرة، شركة القدس، ٢٠٠٦م.
- ❖ ابن أبي الدنيا: (أبو بكر عبد الله بن محمد ت ٢٨١هـ = ٨٩٤م)
- ٢. ذم الملاهي، تحقيق: عمرو عبد المنعم سليم، جدة، مكتبة العلم، ١٤١٦هـ، ط ١.
- ❖ ابن الأثير: (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد ت ٦٣٠هـ = ١٢٣٣م)
- ٣. الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر التدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٩٧م، ط ١، ١٠ أجزاء.
- ❖ الأخطل: (غياث بن غوث ت ٩٠هـ = ٧٠٨م)
- ٤. ديوان الأخطل، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م، ط ٢.
- ❖ الأزدي: (أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ت ٣٢١هـ = ٩٣٣م)
- ٥. الاشتقاق، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ١٩٩١م، ط ١.
- ❖ الأزرق: (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد ت ٢٥٠هـ = ٨٦٥م)
- ٦. أخبار مكة وما جاء بها من الآثار، تحقيق: رشدي ملحس، بيروت، دار الأندلس، ١٩٦٩م، ط ٣، جزأين.
- ❖ الأصبهاني: (أبو نعيم أحمد بن عبد الله ت ٤٣٠هـ = ١٠٣٨م)
- ٧. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ، ط ٤، ١٠ أجزاء.

- ❖ الإصطخري: (أبو اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي ت ٣٤٦هـ = ٩٥٧م)
٨. المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر الحيني، مراجعة: محمد شفيق غربال، القاهرة، دار القلم، ١٩٦١م.
- ❖ الأصفهاني: (أبو الفرج علي بن الحسين ت ٣٥٦هـ = ٩٦٧م)
٩. الأغاني، تحقيق: سمير جابر، بيروت، دار الفكر، د.ت، ط ٢، ٢٤ جزء.
١٠. مقاتل الطالبين، تحقيق: السيد أحمد صقر، بيروت، دار المعرفة، د.ت.
- ❖ ابن أعثم: (أحمد بن محمد ت ٣١٤هـ = ٩٢٦م)
١١. الفتوح، تحقيق: علي شيري، بيروت، دار الأضواء، ١٩٩١م، ط ١، ٩ أجزاء.
- ❖ الآمدي: (أبو القاسم الحسن بن بشر ت ٣٧٠هـ = ٩٨٠م)
١٢. المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم، تحقيق: ف. كرنكو، بيروت، دار الجيل، ١٩٩١م، ط ١.
- ❖ البخاري: (الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي ت ٢٥٦هـ = ٨٧٠م)
١٣. صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت، دار ابن كثير، ١٩٨٧م، ٦ أجزاء.
١٤. الأدب المفرد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ١٩٨٩م، ط ٣.
١٥. الكنى، تحقيق: السيد هاشم الندوي، بيروت، دار الفكر، د.ت.
١٦. التاريخ الصغير، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، بيروت، دار المعرفة، ١٩٨٦م، ط ١، جزأين.
- ❖ ابن بطوطة: (أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت ٧٧٩هـ = ١٣٧٧م)
١٧. رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، ١٤١٧هـ، ٥ أجزاء.
- ❖ البغدادي: (أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي ت ٤٦٣هـ = ١٠٧٠م)
١٨. تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ، ط ١، ٢٤ جزء.
- ❖ البغدادي: (عبد القادر بن عمر ت ١٠٩٣هـ = ١٦٨٢م)
١٩. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٩٧م، ط ٤، ١٣ جزء.
- ❖ ابن بكار: (أبو عبد الله الزبير بن بكار ت ٢٥٦هـ = ٨٧٠م)
٢٠. الأخبار الموفقيات، تحقيق: سامي مكّي العاني، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٧٢م.
- ❖ البكري: (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ت ٤٨٧هـ = ١٠٩٤م)
٢١. المسالك والممالك، تحقيق: ليوفن وفيري، تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٩٢م، جزأين.

- ❖ البلاذري: (أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ = ٨٩٢م)
٢٢. البلدان وفتوحها وأحكامها، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٢م، ط ١.
٢٣. أنساب الأشراف، تحقيق: محمود فردوس العظم، دمشق، دار اليقظة العربية، ١٩٩٩م، ١٥ جزء.
- ❖ البيهقي: (أبو بكر أحمد بن الحسين ت ٤٥٨هـ = ١٠٦٥م)
٢٤. سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة، دار الباز، ١٩٩٠م، ١٠ أجزاء.
- ❖ التميمي: (أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم ت ٣٣٣هـ = ٩٤٤م)
٢٥. المحن، تحقيق: يحيى وهيب الجبوري، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨م، ط ٢.
- ❖ الجاحظ: (أبو عثمان عمرو بن بحر ت ٢٥٥هـ = ٨٦٨م)
٢٦. الحيوان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ، ط ٢، ٧ أجزاء.
- ❖ ابن جبير: (أبو الحسين محمد بن أحمد ت ٦١٤هـ = ١٢١٧م)
٢٧. رحلة ابن جبير، بيروت، دار بيروت، د.ت، ط ١.
- ❖ جرير: (جرير بن عطية بن الخطفي ت ١١٠هـ = ٧٢٨م)
٢٨. ديوان جرير، تحقيق: كرم البستاني، بيروت، دار بيروت، ١٩٨٦م، ص ٥.
- ❖ ابن الجوزي: (أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي ت ٥٩٧هـ = ١٢٠١م)
٢٩. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، بيروت، دار صادر، ١٣٥٨هـ، ط ١، ١٢ جزء.
٣٠. صفة الصفوة، تحقيق: محمود فاخوري ومحمد رواس قلعة جي، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٩م، ط ٢، ٤ أجزاء.
٣١. القصاص والمذكرين، تحقيق: محمد الصباغ، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٨م، ط ٢.
٣٢. مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن، تحقيق: مصطفى الذهبي، القاهرة، دار الحديث، ١٩٩٥م، ط ١.
- ❖ ابن حبان: (أبو حاتم محمد بن أحمد بن حبان ت ٣٥٤هـ = ٩٦٥م)
٣٣. ثقات ابن حبان، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، حيدر أباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٣م، ٩ أجزاء.
٣٤. مشاهير علماء الأمصار، وضع حواشيه وعلق عليه: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م، ط ١.
- ❖ ابن حبيب: (أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية الهاشمي البغدادي ت ٢٤٥هـ = ٨٥٩م)
٣٥. المحرر، تصحيح: إيلزة ليختن شتير، بيروت، منشورات المكتب التجاري، ١٣٦١هـ.
٣٦. المنق في أخبار قریش، تحقيق: خورشيد أحمد فاروق، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٥م، ط ١.
- ❖ ابن حجر: (شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ = ١٤٤٨م)

٣٧. الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٢م، ط ١، ٨ أجزاء.
٣٨. تهذيب التهذيب، تحقيق: مصطفى عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م، ط ١، ١٢ جزء.
٣٩. تقريب التهذيب، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م، ط ٢، جزأين.
٤٠. فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ، ١٣ جزء.

- ❖ ابن حزم: (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ت ٤٥٦هـ = ١٠٦٣م)
٤١. جمهرة أنساب العرب، تحقيق: لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م، ط ١.
- ❖ ابن حمدون: (محمد بن الحسن ت ٥٦٢هـ = ١١٦٦م)
٤٢. التذكرة الحمدونية، بيروت، دار صادر، ١٤١٧هـ، ط ١، ١٠ أجزاء.
- ❖ الحِمَيرِي: (محمد بن عبد المنعم ت ٩٠٠هـ = ١٤٩٤م)
٤٣. الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، مؤسسة ناصر، ١٩٨٠م، ط ٢.
- ❖ الحموي: (أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله ت ٦٢٦هـ = ١٢٢٩م)
٤٤. معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت، ٥ أجزاء.
- ❖ أبو حنيفة: (أحمد بن داود الدينوري ت ٢٨٢هـ = ٨٩٥م)
٤٥. الأخبار الطوال، قدّم له ووثق نصوصه ووضع حواشيه: عصام محمد الحاج علي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م، ط ١.
- ❖ ابن حوقل: (أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي ت ٣٦٧هـ = ٩٧٧م)
٤٦. صورة الأرض، بيروت، دار صادر، ١٩٣٨م.
- ❖ الخزاعي: (أبو الحسن علي بن محمد ت ٧٨٩هـ = ١٣٨٧م)
٤٧. تخريج الدلالات السمعية له ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٥م، ط ١.
- ❖ ابن خلدون: (القاضي عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ = ١٤٠٨م)
٤٨. تاريخ ابن خلدون، المقدمة (المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) تحقيق: خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٨م، ط ٢، ٨ أجزاء.
- ❖ ابن خلكان: (أبو العباس أحمد بن محمد ت ٦٨١هـ = ١٢٨٢م)
٤٩. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د. ت، ٧ أجزاء.
- ❖ الخوارزمي: (أبو بكر محمد بن العباس ت ٣٨٣هـ = ٩٩٣م)

٥٠. الأمثال المولدة، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ١٤٢٤هـ.
- ❖ ابن خياط: (خليفة بن خياط العصفري ت ٢٤٠هـ=٨٥٤م)
٥١. تاريخ خليفة بن خياط (رواية بقي بن مخلد)، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٦٨م.
٥٢. طبقات خليفة بن خياط، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٣م.
- ❖ الدارقطني: (أبو الحسن علي بن عمر ت ٣٨٥هـ=٩٩٥م)
٥٣. سنن الدارقطني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٤م، ط ١، ٥ أجزاء.
٥٤. المؤلف والمختلف، تحقيق: موفق بن عبد الله بن عبد القادر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦م.
- ❖ الذهبي: (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨هـ=١٣٤٧م)
٥٥. تاريخ الإسلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٨م، ط ١.
٥٦. سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢م، ط ٩، ٢٣ جزء.
- ❖ الرازي: (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ت ٦٦٦هـ=١٢٦٧م)
٥٧. مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٥م.
- ❖ ابن رسته: (أبو علي أحمد بن عمر ت ٢٩٠هـ=٩٠٢م)
٥٨. الأعلام النفيسة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨م، ط ١.
- ❖ ابن الرقاق: (عدي بن الرقاق العاملي ت نحو ٩٥هـ=٧١٣م)
٥٩. ديوان عدي بن الرقاق العاملي، تحقيق: حسن محمد نور الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م، ط ١.
- ❖ الزبير: (أبو عبد الله مصعب بن عبد الله ت ٢٣٦هـ=٨٥١م)
٦٠. نسب قريش، تحقيق: ليفي بروفنسال، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٣م، ط ٣.
- ❖ الزمخشري: (أبو القاسم محمود بن عمر ت ٥٣٨هـ=١١٤٣م)
٦١. الجبال والأمكنة والمياه، تحقيق: إبراهيم السامرائي، بغداد، مطبعة السعدون، د. ت.
- ❖ ابن زنجويه: (أحمد حميد بن زنجويه ت ٢٥١هـ=٨٦٥م)
٦٢. الأموال، رواية: حميد بن مخلد، تحقيق: شاهر ذيب فياض، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٨٦م، ط ١، ٣ أجزاء.
- ❖ السخاوي: (أبو الخير شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ=١٤٩٦م)
٦٣. البلدان، تحقيق: حسام بن محمد القطان، السعودية، دار العطاء، ٢٠٠١م، ط ١.
- ❖ ابن سعد: (محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري ت ٢٣٠هـ=٨٤٤م)

٦٤. الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م، ط ١، ٩ أجزاء.
- ❖ ابن سعيد: (علي بن موسى بن محمد ت ٦٨٣هـ = ١٢٨٤م)
٦٥. نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق: نصرت عبد الرحمن، عمان، مكتبة الأقصى، د. ت.
- ❖ ابن سلام: (أبو عبيد القاسم بن سلام ت ٢٢٤هـ = ٨٣٨م)
٦٦. النسب، تحقيق: مريم محمد خير الدرع، تقديم: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٩م، ط ١.
- ❖ ابن سلاّم: (محمد بن سلاّم الجمحي ت ٢٣٢هـ = ٨٤٦م)
٦٧. طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، جدة، دار المدني، د. ت، جزأين.
- ❖ السمعاني: (أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ت ٥٦٢هـ = ١١٦٦م)
٦٨. الأنساب، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، بيروت، دار الجنان، ١٩٨٨م، ط ١، ١٠ أجزاء.
- ❖ السنجاري: (علي بن تاج الدين بن تقي الدين ت ١١٢٥هـ = ١٧١٣م)
٦٩. منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاية الحرم، تحقيق: جميل المصري، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٩٩٨م، ٦ أجزاء.
- ❖ السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ = ١٥٠٥م)
٧٠. تاريخ الخلفاء، بيروت، دار الفكر، د. ت.
٧١. تحذير الخواص من أكاذيب القصص، تحقيق: محمد الصباغ، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٧٤م، ط ٢.
- ❖ الشيرازي: (أبو إسحاق إبراهيم بن علي ت ٤٧٦هـ = ١٠٨٣م)
٧٢. طبقات الفقهاء، هذبه: محمد بن مكرم بن علي بن منظور، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٧٠م، ط ١.
- ❖ الصفدي: (صلاح الدين خليل بن أيبك ت ٧٦٤هـ = ١٣٦٢م)
٧٣. الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث، ٢٠٠٠م، ٢٩ جزء.
- ❖ ابن الضياء: (أبو البقاء محمد بن أحمد ت ٨٥٤هـ = ١٤٥٠م)
٧٤. تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تحقيق: علاء إبراهيم وأيمن نصر، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤، ط ٢.
- ❖ ابن طباطبا: (محمد بن علي ت ٤٤٨هـ = ١٠٥٦م)
٧٥. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت، دار صادر، د. ت.
- ❖ الطبراني: (أبو القاسم سليمان بن محمد ت ٣٦٠هـ = ٩٧٠م)
٧٦. المعجم الكبير، تحقيق: حمدي السلفي، الموصل، مكتبة العلوم والحكمة، ١٩٨٣م، ط ٢، ٢٠ جزء.

- ❖ الطبري: (أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ=٩٢٣م)
 ٧٧. تاريخ الرسل والملوك، تقديم ومراجعة: صدقي جميل العطار، بيروت، دار الفكر، ٢٠٠٢م، ط ٢، ١٣ جزء.
 ٧٨. المنتخب من كتاب ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين، تقديم ومراجعة: صدقي جميل العطار، بيروت، دار الفكر، ٢٠٠٢م، ط ٢.
- ❖ الطحاوي: (أبو جعفر أحمد بن محمد ت ٣٢١هـ=٩٣٣م)
 ٧٩. شرح معاني الآثار، تحقيق: محمد زهري النجار، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٩هـ، ط ١، ٤ أجزاء.
- ❖ ابن ظهيرة: (محمد بن محمد بن أبي بكر ت ٩٨٦هـ=١٥٧٨م)
 ٨٠. الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، تحقيق: علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٣م، ط ١.
- ❖ العاقولي: (محمد بن محمد ت ٧٩٧هـ=١٣٩٤م)
 ٨١. عرف الطيب في أخبار مكة والمدينة، تحقيق: محمد زينهم محمد عرب، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٩م.
- ❖ ابن عبد البر: (أبو عمر يوسف بن عبد الله ت ٤٦٣هـ=١٠٧٠م)
 ٨٢. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد معوض و عادل أحمد عبد الموجود، قدم له: محمد عبد المنعم البري وجمعة طاهر النجار، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥، ط ١.
- ❖ ابن عبد الحق: (صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق ت ٧٣٩هـ=١٣٣٨م)
 ٨٣. مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، بيروت، دار الجيل، ١٤١٢هـ، ط ١، ٣ أجزاء.
- ❖ ابن عبد ربه: (أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ت ٣٢٨هـ=٩٤٠م)
 ٨٤. العقد الفريد، تحقيق: محمد التونجي، بيروت، دار صادر، د.ت، ٧ أجزاء.
- ❖ ابن العربي: (القاضي أبي بكر العربي المالكي ت ٥٤٣هـ=١١٤٨م)
 ٨٥. العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ، حققه وعلق حواشيه: محب الدين الخطيب، خرج أحاديثه وعلق عليه: محمود مهدي الاستانبولي، بيروت، دار الجيل، ٢٠٠٣م.
- ❖ ابن عساكر: (علي بن الحسن بن هبة الله عبد الله الشافعي ت ٥٧١هـ=١١٧٦م)
 ٨٦. تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥م، ٨٠ جزء.
- ❖ العسكري: (أبو هلال الحسن بن عبد الله ت ٣٩٥هـ=١٠٠٤م)
 ٨٧. الأوائل، طنطا، دار البشير، ١٤٠٨هـ، ط ١.
- ❖ العمري: (شهاب الدين أحمد بن يحيى ت ٧٤٩هـ=١٣٤٨م)
 ٨٨. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أبو ظبي، الجمع الثقافي، ١٤٢٣هـ، ط ١، ٢٧ جزء.

- ❖ الفاسي: (أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد ت ٨٣٢هـ = ١٤٢٩م)
٨٩. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق: عمر التدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٥م، ط ٥، جزأين.
٩٠. العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م، ط ٢.
٩١. الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، تحقيق: علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠١م.
٩٢. المقنع في أخبار الملوك وولاة مكة الشرفاء، تحقيق: محمد التونجي، دمشق، دار الملاح، ١٩٨٦م
- ❖ الفاكهي: (أبو عبد الله محمد بن إسحاق ت ٢٧٢هـ = ٨٨٥م)
٩٣. أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: عبد الملك عبد الله دهيش، بيروت، دار خضر، ١٤١٤هـ، ط ٢، ٦ أجزاء.
- ❖ الفراهيدي: (أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد ت ١٧٠هـ = ٧٨٦م)
٩٤. كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، إيران، دار الهجرة، ١٤٠٩هـ، ط ٢، ٨ أجزاء.
- ❖ الفرزدق: (همام بن غالب ت ١١٠هـ = ٧٢٨م)
٩٥. ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه: علي فاعور، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م، ط ١.
- ❖ الفسوي: (أبو يوسف يعقوب بن سفيان ت ٢٧٧هـ = ٨٩٠م)
٩٦. المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم العمري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م، ط ١، ٤ أجزاء.
- ❖ ابن الفقيه: (أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني ت ٣٤٠هـ = ٩٥١م)
٩٧. البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، بيروت، عالم الكتب، ١٩٩٦م، ط ١.
- ❖ ابن فهد: (النجم عمر بن فهد ت ٨٨٥هـ = ١٤٨١م)
٩٨. إتحاف الوري بأخبار أم القرى، تحقيق: فهم شلتوت، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٣م، ط ١، جزأين.
- ❖ ابن قتيبة: (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ت ٢٧٦هـ = ٨٨٩م)
٩٩. الإمامة والسياسة (تاريخ الخلفاء)، تحقيق: علي شيري، قم، منشورات الشريف الرضي، ١٤١٣هـ، ط ١، جزأين.
١٠٠. الشعر والشعراء، القاهرة، دار الحديث، ١٤٢٣هـ، جزأين.
١٠١. المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، القاهرة، دار المعارف، د. ت، ط ٢.
- ❖ ابن قدامة: (أبو محمد عبد الله بن أحمد ت ٦٢٠هـ = ١٢٢٣م)
١٠٢. المغني، دار القاهرة، ١٩٦٨م، ١٠ أجزاء.
١٠٣. التبيين في أنساب القرشيين، تحقيق: محمد نايف الدليمي، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٨م، ط ٢.
- ❖ القزويني: (زكريا بن محمد بن محمود ت ٦٢٨هـ = ١٢٣٠م)

١٠٤. آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، ١٩٦٠م، ص ١١٣.
- ❖ القلقشندي: (أحمد بن علي ت ٨٢١هـ=١٤١٨م)
١٠٥. مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٥م، ط ٢، ٣ أجزاء.
- ❖ ابن قيم الجوزية: (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ت ٧٥١هـ=١٣٥٠م)
١٠٦. زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٤، ١٩٨٦م، ٥ أجزاء.
- ❖ ابن كثير: (أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي ت ٧٧٤هـ=١٣٧٢م)
١٠٧. البداية والنهاية في التاريخ، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٦م، ١٥ جزء.
- ❖ ابن الكلبي: (هشام أبو المنذر بن محمد بن السائب الكلبي ت ٢٠٤هـ=٨١٩م)
١٠٨. جمهرة النسب، رواية السكري عن ابن حبيب، تحقيق: ناجي حسن، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٦م، ط ١.
- ❖ الكندي: (أبو عمر محمد بن يوسف ت ٣٥٠هـ=٩٦١م)
١٠٩. كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق: محمد حسن إسماعيل وأحمد المزدي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م، ط ١.
- ❖ ابن ماجة: (أبو عبد الله محمد بن يزيد ت ٢٧٣هـ=٨٨٦م)
١١٠. سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الفكر، د.ت، جزأين.
- ❖ ابن مأكولا: (علي بن هبة الله ت ٤٧٥هـ=١٠٨٢م)
١١١. الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، بيروت، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ، ط ١، ٥ أجزاء.
- ❖ الماوردي: (أبو الحسن علي بن محمد ت ٤٥٠هـ=١٠٥٨م)
١١٢. الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة، دار الحديث، د.ت.
١١٣. الحاوي الكبير، بيروت، دار الفكر، د.ت.
- ❖ المبرد: (أبو العباس محمد بن يزيد ت ٢٨٥هـ=٨٩٨م)
١١٤. الكامل في الأدب، تحقيق: محمد أحمد الدالي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٧م، ط ٣، ٤ أجزاء.
- ❖ ابن الجاور: (أبو الفتح يوسف بن يعقوب ت ٦٩٠هـ=١٢٩١م)
١١٥. تاريخ المستبصر، تصحيح: أوسكر لوفغرين، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٥١م.
- ❖ المحب الطبري: (أبو العباس أحمد بن عبد الله ت ٦٩٤هـ=١٢٩٤م)

١١٦. القرى لقاصد أم الثرى، تحقيق: مصطفى السقا، القاهرة، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، ١٩٧٠م، ط ٢.
- ❖ المزي: (أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن ت ٧٤٢هـ = ١٣٤١م)
١١٧. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ٣٥ جزء.
- ❖ المسعودي: (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٦هـ = ٩٥٧م)
١١٨. التنبيه والإشراف، بيروت، دار الهلال، ١٩٩٣م.
١١٩. مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: قاسم الرفاعي، بيروت، دار القلم، ١٩٨٩م، ط ١، ٣ أجزاء.
- ❖ مسلم (الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت ٢٦١هـ = ٨٧٥م)
١٢٠. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث، د.ت، ٥ أجزاء.
- ❖ المقدسي: (المطهر بن طاهر ت ٣٥٥هـ = ٩٦٥م)
١٢١. البدء والتاريخ، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت، ٦ أجزاء.
- ❖ المقدسي: (أبو عبد الله محمد بن أحمد ت ٣٨٠هـ = ٩٩٠م)
١٢٢. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٧م.
- ❖ المقرئ: (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ = ١٤٤١م)
١٢٣. شذور العقود في ذكر النقود، تحقيق: السيد محمد بحر العلوم، بيروت، دار الزهراء، ١٩٨٨م، ط ٦.
- ❖ المنجم: (إسحاق بن الحسين ت ٤٥٤هـ = ١٠٦٢م)
١٢٤. آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٨هـ، ط ١.
- ❖ ابن منظور: (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفرقي ت ٧١١هـ = ١٣١١م)
١٢٥. لسان العرب، بيروت، دار صادر، د.ت، ط ١، ١٥ جزء.
- ❖ النسائي: (أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب ت ٣٠٣هـ = ٩١٥م)
١٢٦. سنن النسائي الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان البغدادي وسيد كسروي حسن، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩١م، ط ١، ٦ أجزاء.
- ❖ ابن هشام: (أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ت ٢١٨هـ = ٨٣٣م)
١٢٧. السيرة النبوية، ضبط وتحقيق: محمد علي القطب ومحمد الدالي بلطة، صيدا، المكتبة العصرية، ٢٠٠٢م، ٤ أجزاء.
- ❖ الهمداني: (لسان اليمن أبي محمد الحسن بن أحمد ت بعد ٣٦٠هـ = ٩٧٠م)
١٢٨. صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوخ الحوالي، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٨٣م، ط ٣.

- ❖ الهندي: (علاء الدين علي بن حسام الدين ت ٩٧٥هـ = ١٥٦٧م) ١٢٩. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حياني وصفوة السقا، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م، ط ٥، ١٦ جزء.
- ❖ الواقدي (محمد بن عمر بن واقد ت ٢٠٧هـ = ٨٢٢م) ١٣٠. المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، قم، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤١٨هـ، ط ٢، جزأين.
- ❖ وكيع: (أبو بكر محمد بن خلف ت ٣٠٦هـ = ٩١٨م) ١٣١. أخبار القضاة، تحقيق: عبد العزيز المراغي، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٤٧م، ط ١، ٣ أجزاء.
- ❖ الياضي: (أبو محمد عبد الله بن أسعد ت ٧٦٨هـ = ١٣٦٦م) ١٣٢. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، ط ١، ٤ أجزاء.
- ❖ أبو يعلى: (محمد بن الحسين ت ٤٨٥هـ = ١٠٩٢م) ١٣٣. الأحكام السلطانية، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م، ط ٢.

٢. المراجع العربية والمعرّبة:

- ❖ إبراهيم: (رجب عبد الجواد) ١. المعجم العربي لأسماء الملابس، القاهرة، دار الأفق العربية، ٢٠٠٢م، ط ١.
- ❖ أبو خليل: (شوقي) ٢. أطلس التاريخ الإسلامي، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٥م، ط ١٢.
- ❖ أبو النصر: (عمر)

٣. الأيام الأخيرة للدولة الأموية، بيروت، المكتبة الأهلية، ١٩٦٢م، ط ١.
٤. سيوف أمية في الحرب والإدارة، بيروت، المكتبة الأهلية، ١٩٦٣م.
- ❖ الأدنروي: (أحمد بن محمد)
٥. طبقات المفسرين، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ١٩٩٧م، ط ١.
- ❖ الأفغاني: (سعيد)
٦. أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دمشق المطبعة الهاشمية، ١٩٣٧م.
- ❖ أمين: (أحمد)
٧. فجر الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٧٩م، ط ١١.
- ❖ باسلامة: (حسين)
٨. تاريخ الكعبة المشرفة، تحقيق: يوسف بن علي الثقفي، الإحساء، مركز الترجمة والتأليف والنشر، ١٤٢٧هـ.
- ❖ برّو: (توفيق)
٩. تاريخ العرب القديم، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠١م، ط ٢.
- ❖ البلادي: (عاتق بن غيث)
١٠. معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، مكة المكرمة، دار مكة، ١٩٨٢، ط ١.
١١. هديل الحمام في تأريخ البلد الحرام، مكة المكرمة، دار مكة، ١٩٩٦م.
١٢. معجم قبائل الحجاز، د. م. ن، ١٣٧٨هـ، ٣ أجزاء.
- ❖ بيضون: (إبراهيم)
١٣. من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩١م.
- ❖ الجدي: (عبد القادر بن أحمد)
١٤. السلاح والعدة في تاريخ جدة، تحقيق: مصطفى الحدري، دمشق، دار ابن كثير، ١٩٨٨م، ط ١.
- ❖ الجميح (إبراهيم):
١٥. النشاط العلمي في مكة والمدينة خلال مواسم الحج في العصر الأموي، دار الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٢٧هـ.
- ❖ حتي: (فيليب وآخرون)
١٦. تاريخ العرب، بيروت دار غندور، ١٩٩٠م، ط ٨.
- ❖ الحجوي: (محمد بن الحسن بن العربي)
١٧. الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م، ط ١.

- ❖ حركات: (إبراهيم)
- ١٨. السياسة والمجتمع في العصر الأموي، المغرب، دار الآفاق الجديدة، ١٩٩٠م، ط ١.
- ❖ حسن: (حسن إبراهيم)
- ١٩. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٦م، ط ١٤.
- ❖ حسيني: (مولوي س. أ. ق)
- ٢٠. الإدارة العربية، ترجمة: إبراهيم أحمد العدوي، مراجعة: عبد العزيز عبد الحق، القاهرة، المطبعة النموذجية، ١٩٥٨م.
- ❖ الحضراوي: (أحمد بن محمد)
- ٢١. الجواهر المدة في فضائل جدة، تحقيق: علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٢م، ط ١.
- ❖ حلاق: (حسان)
- ٢٢. مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩٦م، ط ١.
- ❖ حلاق: (محمد صبحي)
- ٢٣. الإيضاحات العصرية للمقاييس والمكايل والأوزان والنقود الشرعية، صنعاء، مكتبة الجيل الجديد، ٢٠٠٧م، ط ١.
- ❖ حميد الله: (محمد)
- ٢٤. مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، بيروت، دار النفائس، ١٤٠٧هـ، ط ٦.
- ❖ الخربوطلي: (علي حسني)
- ٢٥. تاريخ الكعبة، بيروت، دار الجيل، د. ت.
- ❖ الحضري: (محمد)
- ٢٦. محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة الأموية)، القاهرة، المكتبة التجارية، ١٩٦٩م، جزأين.
- ❖ الخلف: (عبد الله)
- ٢٧. مجتمع الحجاز في العصر الأموي بين الآثار الأدبية والمصادر التاريخية، المدينة المنورة، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ٢٠٠١م، ط ١.
- ❖ الدوري (عبد العزيز):
- ٢٨. مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، بيروت، ١٩٦٨م.
- ❖ الذهبي: (محمد السيد حسين)
- ٢٩. التفسير والمفسرون، القاهرة، مكتبة وهبة، د. ت.

- ❖ الرافعي: (مصطفى صادق) ٣٠. تاريخ آداب العرب، القاهرة، دار الكتاب العربي، د. ت، ٣ أجزاء.
- ❖ راوه: (عبد الفتاح بن حسين) ٣١. جداول تاريخ أمراء البلد الحرام، مكة المكرمة، ١٩٩٩م، ط ١.
- ❖ زامبور: (إدوارد فون) ٣٢. معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه: زكي محمد حسن وآخرين، بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨٠م.
- ❖ الزركلي: (خير الدين) ٣٣. الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م، ط ١٥، ٨ أجزاء.
- ❖ زعزوع: (ليلى صالح محمد) ٣٤. مكة المكرمة التفاعل الحضاري في المكان المقدس، بيروت، الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٥م، ط ١.
- ❖ زكار: (سهيل) ٣٥. تاريخ العرب والإسلام منذ ما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٢م.
- ❖ زكار وخربوطلي: (سهيل وشكران) ٣٦. تاريخ الوطن العربي القديم (الجزيرة العربية)، دمشق، جامعة دمشق، ٢٠٠٣م.
- ❖ الزويد: (هدى) ٣٧. التطور التاريخي للأسرة في الحجاز في القرنين الأول والثاني الهجريين، الرياض، دار الملك عبد العزيز، ١٤٢٦هـ.
- ❖ زيدان: (جرجي) ٣٨. تاريخ التمدن الإسلامي، مراجعة: حسين مؤنس، دار الهلال، د. ت، ط ٢.
- ❖ سالم: (عبد العزيز) ٣٩. تاريخ الدولة العربية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٦م.
- ❖ السباعي: (أحمد) ٤٠. تاريخ مكة المكرمة، مكة المكرمة، نادي مكة الثقافي، ١٩٩٤م.
- ❖ سرور: (محمد جمال الدين) ٤١. الدولة العربية الإسلامية، القاهرة، دار الفكر العربي، ٢٠٠٠م.
- ❖ شراب: (محمد بن محمد حسن)

٤٢. المعالم الأثرية في السنة والسير، بيروت، الدار الشامية، ١٤١١هـ، ط ١.
- ❖ الشريف: (أحمد إبراهيم)
٤٣. مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٧م، ط ٢.
٤٤. دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٨م، ط ١.
- ❖ شعبان: (محمد عبد الحي)
٤٥. صدر الإسلام والدولة الأموية، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م.
- ❖ شيخاني: (سمير)
٤٦. أشهر المغنيين عند العرب، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٢م.
- ❖ شيخو: (رزق الله بن يوسف)
٤٧. شعراء النصرانية، بيروت، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، ١٨٩٠م.
- ❖ صفوت: (أحمد زكي)
٤٨. جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، بيروت، المكتبة العلمية، د.ت، ٣ أجزاء.
- ❖ الصلاحي: (علي محمد محمد)
٤٩. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج، عمان، دار البيارق، ١٩٩٨، ط ١.
- ❖ الصبيحي: (محمد إبراهيم)
٥٠. الحكم والإدارة عند العرب، القاهرة، مكتبة الوعي العربي، ١٩٦٧م.
- ❖ ضيف: (شوقي)
٥١. تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، القاهرة، دار المعارف، ٢٠٠٢م، ط ٢٠.
- ❖ طهوب: (صلاح)
٥٢. العصر الأموي، عمان، دار أسامة، ٢٠٠٤م، ط ١.
- ❖ عاقل: (نبه)
٥٣. خلافة بني أمية، سلسلة تاريخ العرب والإسلام، دمشق، ١٩٧٢م.
- ❖ عبد الجبار وخفاجي: (عبد الله ومحمد)
٥٤. قصة الأدب في الحجاز، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، د.ت.
- ❖ عبد الحكيم: (منصور)
٥٥. بلاد الحجاز معقل الإيمان في آخر الزمان والوعد الحق، دمشق، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٦م، ط ١.

- ❖ عبد الغني: (عارف)
٥٦. تاريخ أمراء مكة, دمشق, دار البشائر, ١٩٩٢م, ط ١.
- ❖ عبد اللطيف: (عبد الشافي)
٥٧. السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي, القاهرة, دار السلام, ١٤٢٨هـ, ط ١.
٥٨. مكة المكرمة في الجاهلية وبداية الاسلام, القاهرة, دار الفكر العربي, د.ت.
- ❖ عبد الله: (عبد الرحمن بن صالح)
٥٩. تاريخ التعليم في مكة المكرمة, عمان, دار البشير, ٢٠٠١م, ط ٣.
- ❖ عبد الوهاب: (لطف)
٦٠. العرب في العصور القديمة, الإسكندرية, دار المعرفة الجامعية, د.ت.
- ❖ العبيدي: (عبد الجبار)
٦١. الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية, الرياض, دار الرفاعي, ١٩٨٢م, ط ١.
- ❖ عثمان والجميبي: (سعد بن حسين وعبد المنعم إبراهيم)
٦٢. الاعتداءات على الحرمين الشريفين عبر التاريخ, د. م. ن, ١٩٩٢م, ط ١.
- ❖ العش: (يوسف)
٦٣. الدولة الأموية, دمشق, دار الفكر, ٢٠٠٨م, ط ١٧.
- ❖ عطوان: (حسين)
٦٤. الفقهاء والخلافة في العصر الأموي, بيروت, دار الجيل, ١٩٩١م, ط ١.
- ❖ العظم: (أسيمة)
٦٥. المجتمع في العصر الأموي, بيروت, دار العلم للملايين, ١٩٩٦م, ط ١.
- ❖ علي: (جواد)
٦٦. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام, بيروت, دار العلم للملايين, ١٩٧٠م, ط ١, ١٠ أجزاء.
- ❖ العلي: (صالح)
٦٧. الحجاز في صدر الإسلام, بيروت, مؤسسة الرسالة, ١٩٩٠م, ط ١.
- ❖ العمري: (أكرم)
٦٨. عصر الخلافة الراشدة, الرياض, مكتبة العبيكان, د.ت.
- ❖ عيسى: (رياض)

٦٩. الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية، تقديم: سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٢م، ط ١.
- ❖ غلوش: (أحمد)
٧٠. السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٣م.
- ❖ غوري: (جيرالد دو غوري)
٧١. حكام مكة، ترجمة: محمد شهاب، مراجعة: محمد سويد، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠م، ط ١.
- ❖ فاخوري: (حنا)
٧٢. تاريخ الأدب العربي، بيروت، المكتبة البولسية، د.ت، ط ٨.
- ❖ فروخ: (عمر)
٧٣. العرب في حضارتهم وثقافتهم، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨١م، ط ٢.
- ❖ فيصل: (شكري)
٧٤. المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٥٢م.
- ❖ الفيومي: (محمد إبراهيم)
٧٥. تاريخ الفكر الديني الجاهلي، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٤م، ط ٤.
- ❖ قاري (لطف الله):
٧٦. نشأة العلوم الطبيعية عند المسلمين في العصر الأموي، الرياض، دار الرفاعي، ١٩٨٦م، ط ١.
- ❖ القناني: (مناحي ضاوي)
٧٧. تاريخ الطائف قديماً وحديثاً، الطائف، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ١٤٠٧هـ، ط ٢.
- ❖ قلعجي وقنبي: (محمد وحامد)
٧٨. معجم لغة الفقهاء، بيروت، دار النفائس، ١٩٨٨م، ط ٢.
- ❖ القيسي: (ناهض)
٧٩. موسوعة النقود العربية والإسلامية، عمان، دار أسامة، ٢٠٠١م، ط ١.
- ❖ الكتاني: (محمد عبد الحي بن عبد الكبير)
٨٠. التراتيب الإدارية، تحقيق: عبد الله الخالدي، بيروت، دار الأرقم، د.ت، ط ٢، جزأين.
- ❖ كحالة: (عمر رضا)
٨١. معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م، ط ٥، ٥ أجزاء.
- ❖ كرمي: (أحمد عجاج)

- ❖ ٨٢. الإدارة في عصر الرسول ﷺ، القاهرة، دار السلام، ١٤٢٧م، ط ١.
- ❖ مؤنس: (حسين)
- ❖ ٨٣. تاريخ قريش، بيروت، دار المناهل، ٢٠٠٢م، ط ١.
- ❖ محمد بن والفراء: (محمد و طه)
- ❖ ٨٤. المدخل إلى علم الجغرافية والبيئة، الرياض، دار المريخ، د. ت، ط ٤.
- ❖ معطي: (علي)
- ❖ ٨٥. تاريخ النقود العربية والإسلامية، بيروت، دار المنهل اللبناني، ٢٠٠٨م، ط ١.
- ❖ المقداد: (محمود)
- ❖ ٨٦. الموالي ونظام الولاء بين الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٨م، ط ١.
- ❖ المنجد: (صلاح الدين)
- ❖ ٨٧. معجم بني أمية، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠م، ط ١.
- ❖ موتسكي (هرلد):
- ❖ ٨٨. بدايات الفقه الإسلامي وتطوره في مكة، تعريب: خير الدين عبد الهادي، مراجعة: جورج تامر، بيروت، دار البشائر، ٢٠١٠م، ط ١.
- ❖ الندوي: (أبو الحسن علي بن عبد الحفي)
- ❖ ٨٩. السيرة النبوية، دمشق، دار ابن كثير، ١٤٢٠هـ، ط ١٢.
- ❖ النفوري: (فهل)
- ❖ ٩٠. الأزياء العربية الإسلامية في العهد الأموي من خلال المراجع الأدبية والتاريخية والأثرية، جامعة دمشق، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٩٩-١٠٠، ٢٠٠٧م.
- ❖ الهادي: (صلاح الدين)
- ❖ ٩١. اتجاهات الشعر في العصر الأموي، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٦م، ط ١.
- ❖ الهاشمي: (عبد المنعم)
- ❖ ٩٢. فقهاء مكة، دمشق، دار ابن كثير، ١٩٩٣م، ط ١.
- ❖ هورخرونيه: (ك. سنوك)
- ❖ ٩٣. صفحات من تاريخ مكة المكرمة، تعريب: علي عودة الشيوخ، تعليق: محمد السرياني ومعراج ميرزا، مراجعة: محمد إبراهيم علي، الرياض، دار الملك عبد العزيز، ١٩٩٩م، جزأين.
- ❖ وات: (مونتجومري)

٩٤. محمد في مكة، تعريب: شعبان بركات، صيدا، المكتبة العصرية، د.ت.

❖ الوكيل: (محمد السيد)

❖ جدول المسافات والموازن الواردة في البحث.

٩٥. الأمويون بين الشرق والغرب، دمشق، دار القلم، ١٩٩٥م، ط١، جزأين.

٣. المراجع الأجنبية:

- ❖ Smith: Arabic Literature.
- ❖ Nomachi (Ali kazuoshi): Mecca the Blessed Medina the Radiant the Holiest cities of Islam, Aperture Founding, Second Edition.
- ❖ Lammens, H: La Cité Arabe de Taif à La Veille del Hegire, Byrouth, 1922.

• ملاحق البحث

المصطلح	ما يعادل	المصدر أو المرجع	ملاحظات
الميل:	١٨٤٨ متر	قلعجي وقنيبي: معجم لغة الفقهاء ص ٣٤٣. حلاق: الإيضاحات العصرية ص ٧١.	
الفرسخ:	٥٥٤٤ متر	ابن الفقيه: البلدان ص ٦٠. ابن حوقل: صورة الأرض ج ٢ ص ٥٢٦. حلاق: الإيضاحات العصرية ص ٦٤.	مجموع درجات الأرض ٣٦٠ درجة، والدرجة ٢٥ فرسخ.
المرحلة:	٤٤,٣٥٢ كم	اليافعي: مرآة الجنان ج ٢ ص ٢٤٣.	و تعادل ٢٤ ميل
قدم:	٣٠,٤٨ سم	محمد بن والفراء: (محمد و طه) المدخل إلى علم الجغرافية والبيئة، الرياض، دار المريخ، د. ت، ط ٤، ص ٤٩٣.	القائمة تساوي ٦ أقدام، كل وتعادل ١٨٢ سم.
حبة الشعير: المتوسطة	٠,٠٦٢٠ غرام.	قلعجي وقنيبي: معجم لغة الفقهاء ص ١٧٤. حلاق: الإيضاحات العصرية ص ١٨٩. معطي: تاريخ النقود العربية والإسلامية ص ٤١-٤٢.	ولها عدة أنواع وقياسات.
حبة الشعير: الذهبي:	٠,٠٥٩ غرام		
ذراع اليد:	٤٨ سم.	حلاق: الإيضاحات العصرية ص ٥٧. باسلامه: تاريخ الكعبة المشرفة ص ٢٢٥.	ولها عدة أنواع وقياسات.

		٥٦ سم.	ذراع الحديد:
	حلاق: الإيضاحات العصرية ص ١٣١.	٢,١٧٥ كغ.	الصاع:
جمعها مكاتل, وتعاذل ١٥ صاع.	ابن منظور: لسان العرب, مادة كتل, ج ١١ ص ٥٨٣. قلعجي وقنيبي: معجم لغة الفقهاء ص ٤٥٦.	٣٢,٦٢٥ كغ.	المكتل:
	حلاق: الإيضاحات العصرية ص ١١٦.	٥٤٤ غرام.	المد:
دوانيق جمع دانق.	ابن منظور: لسان العرب, مادة دنق, ج ١٠ ص ١٠٥. حلاق: الإيضاحات العصرية ص ١٩١.	٠,٤٠٨٢ غرام.	دانق:
مع العلم أن الأوقية أربعون درهماً.	حلاق: الإيضاحات العصرية ص ١٨٥.	٢,٣٢٥ غرام.	الدرهم الفضي:
	حلاق: الإيضاحات العصرية ص ١٨٥.	٩٣ غرام.	الأوقية:
مثاقيل جمع مثقال.	حلاق: الإيضاحات العصرية ص ٢٠٦. معطي: تاريخ النقود العربية والإسلامية ص ٤١.	٣,٤٩٩٢ غرام, وقيل ٤,٢٥ غرام	المثقال = الدينار الذهبي:

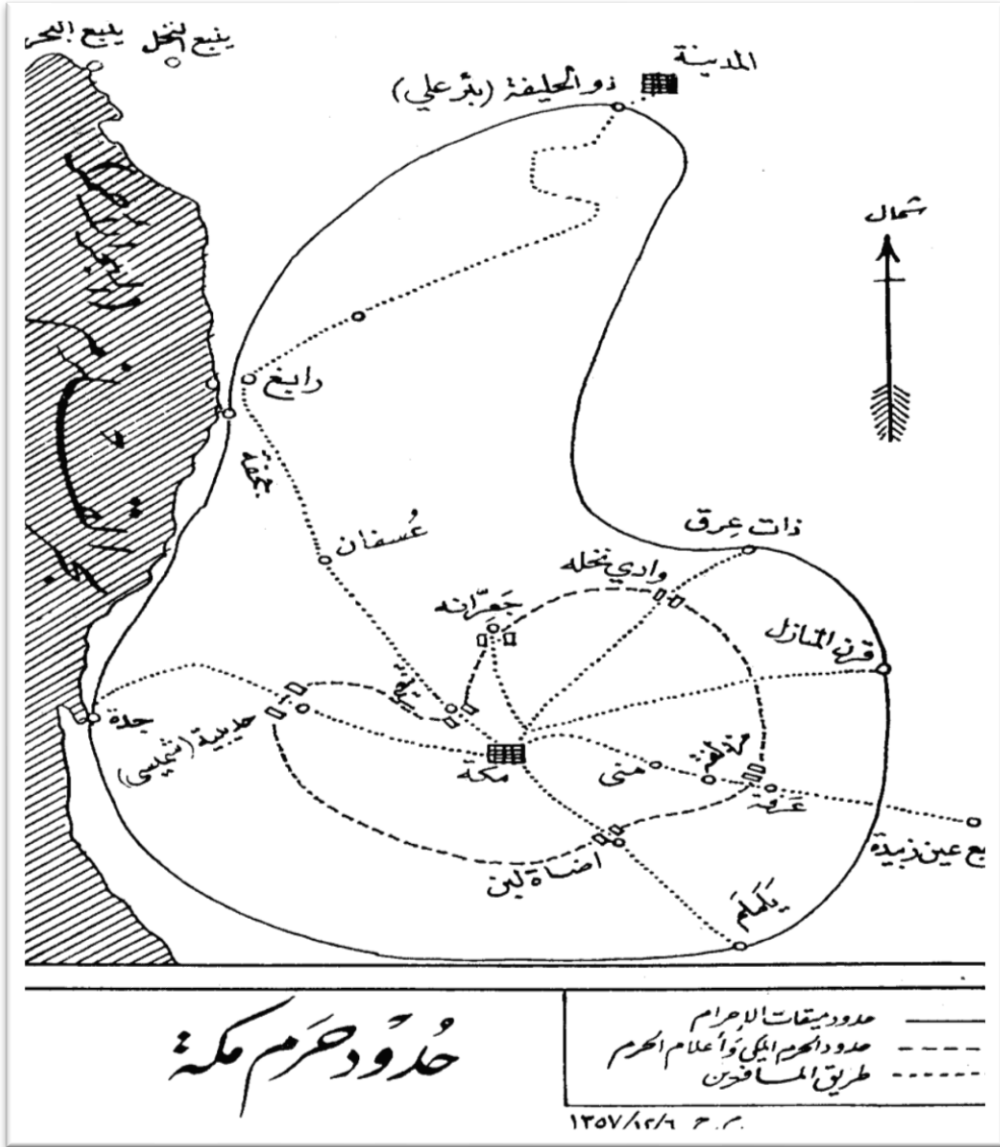
❖ مكة مركز الولاية

١ أبو خليل: (شوقي) أطلس التاريخ الإسلامي, دمشق, دار الفكر, ٢٠٠٥م, ط ١٢, ص ٣٩.



❖ مصور حدود حرم مكة موضحاً عليه المشاعر المقدسة

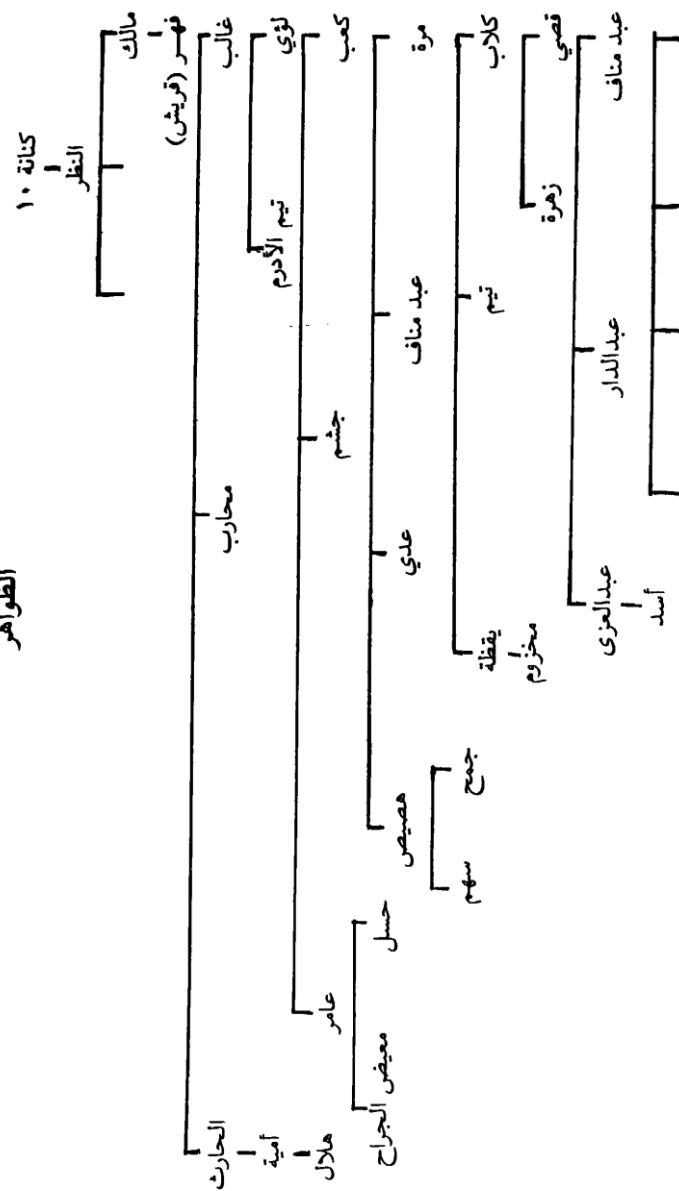
(منى ومزدلفة وعرفة)^١



❖ بطون قريش الظواهر^١

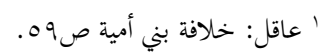
^١ حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص ٨٩.

الظواهر

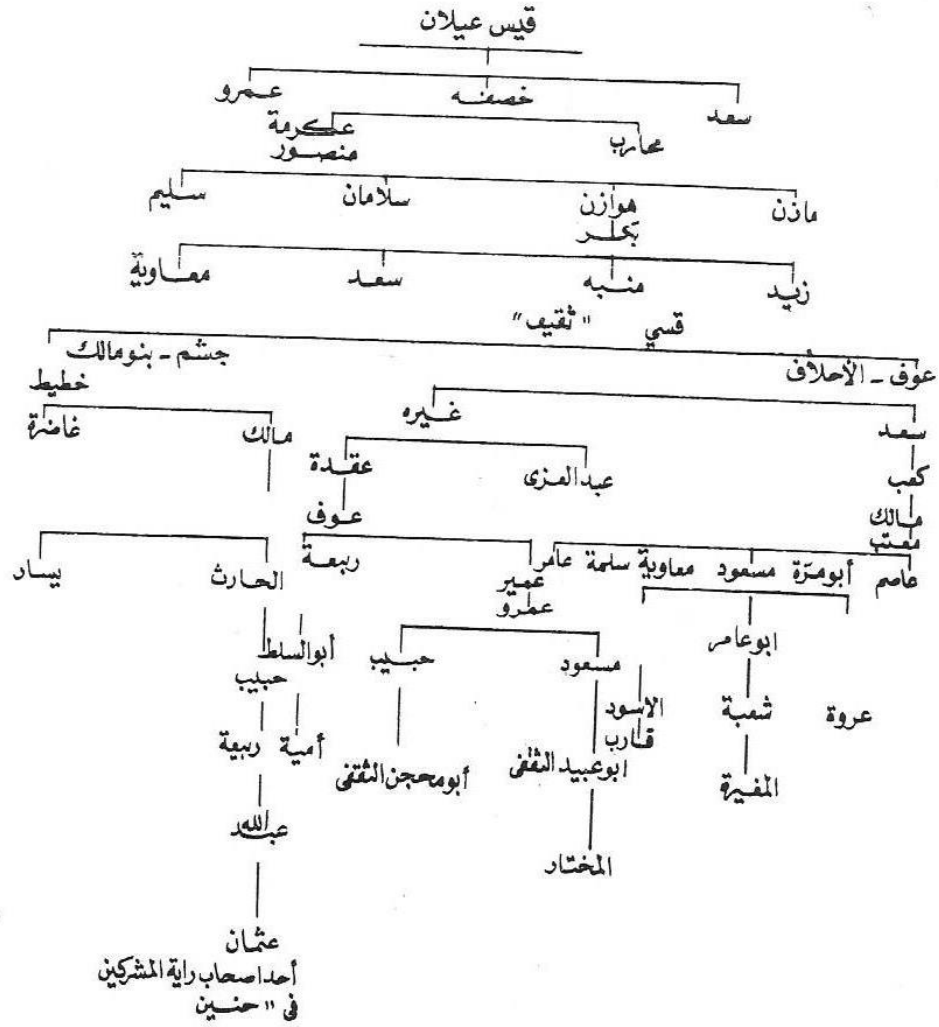


١ العلي: الحجاز ص ٥٦٣.

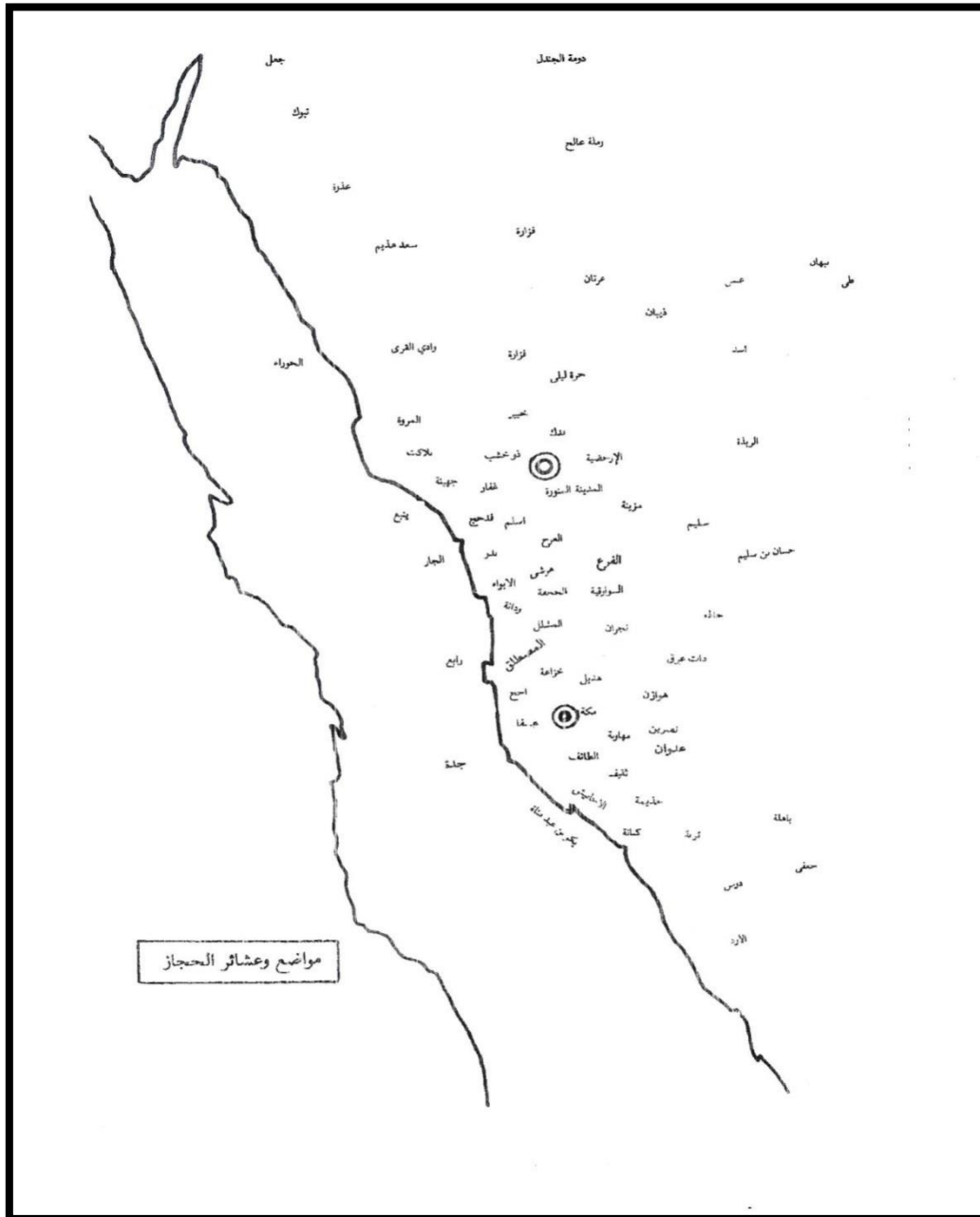
شجرة نسب الأسرة الأموية



❖ نسب ثقيف^١



^١ العبيدي: الطائف ص ٣٦.

❖ مواضع عشائر وقبائل الحجاز^١

١ العلي: الحجاز ص ١٩٠.

○ التوسع العمراني للمسجد الحرام حتى نهاية العصر الأموي

❖ التوسعة زمن قريش (٤٠٤م)^١



❖ توسعة المسجد الحرام في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٧هـ/٦٣٨م)^٢



¹Nomachi : Mecca P. 33 .

²Nomachi : Ibid, P. 33 .

❖ توسعة المسجد الحرام في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه (٢٦هـ/٦٤٦م)^١



❖ التوسعة في عهد عبد الله بن الزبير (٦٥هـ/٦٨٤م)^٢



¹Nomachi : Mecca P. 33 .

²Nomachi : Ibid, P. 33 .

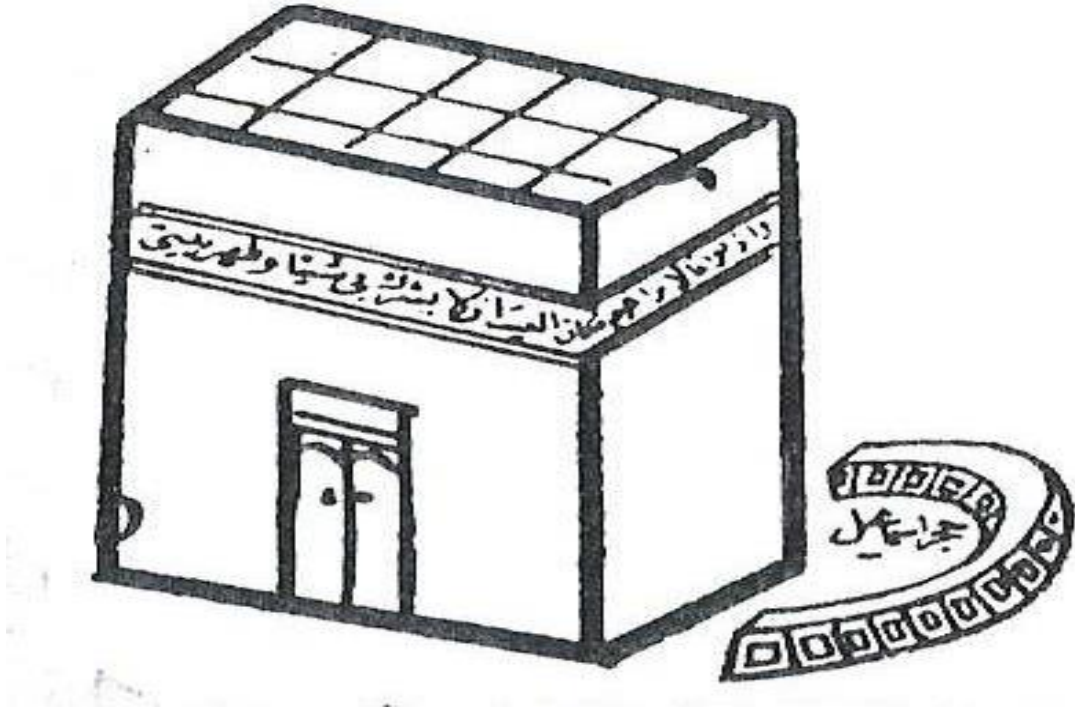
❖ التوسعة في عهد الوليد بن عبد الملك (٩١هـ/٧١٩م)^١



¹Nomachi : Mecca P. 33 .

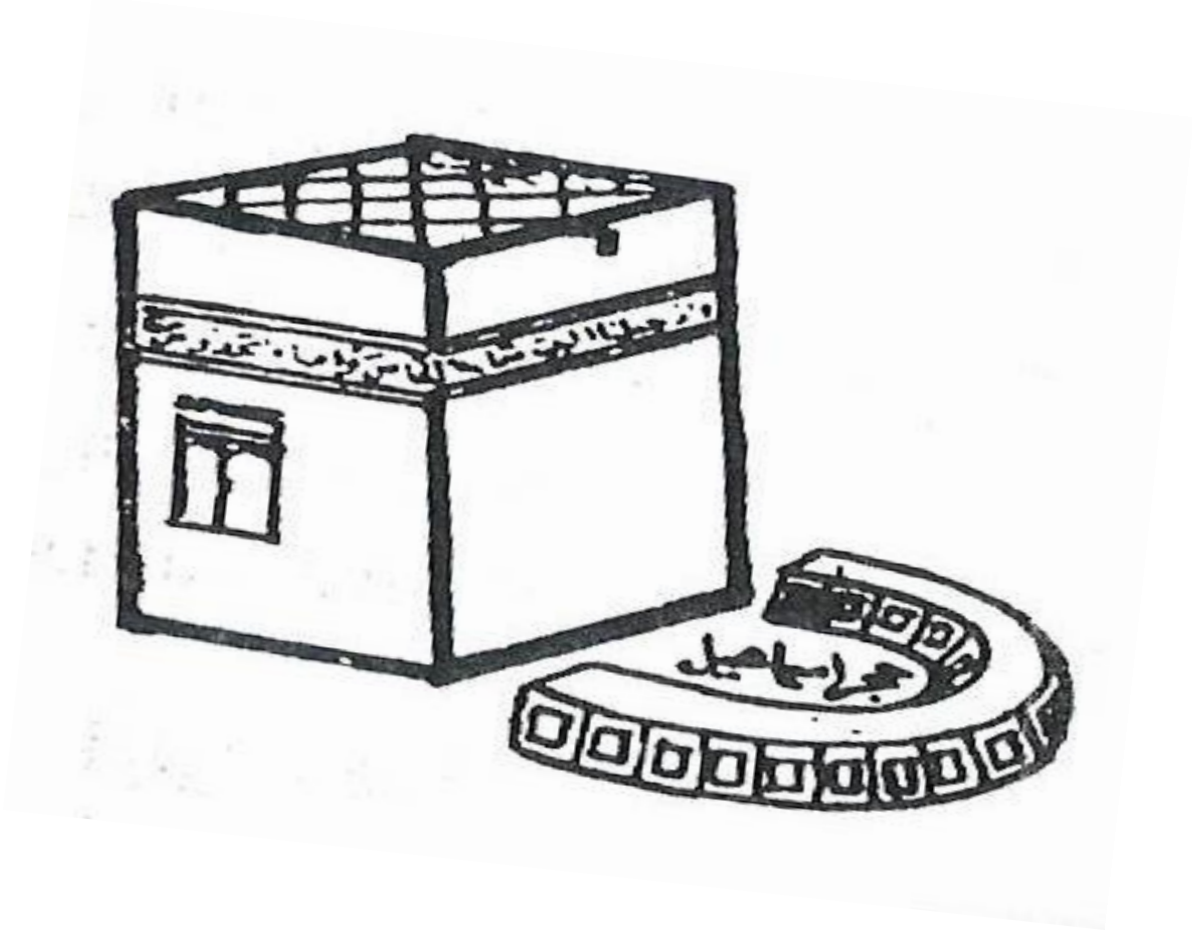
○ التطور العمراني لبناء الكعبة خلال الحقبة الأموية

❖ الكعبة كما بناها عبد الله بن الزبير^١



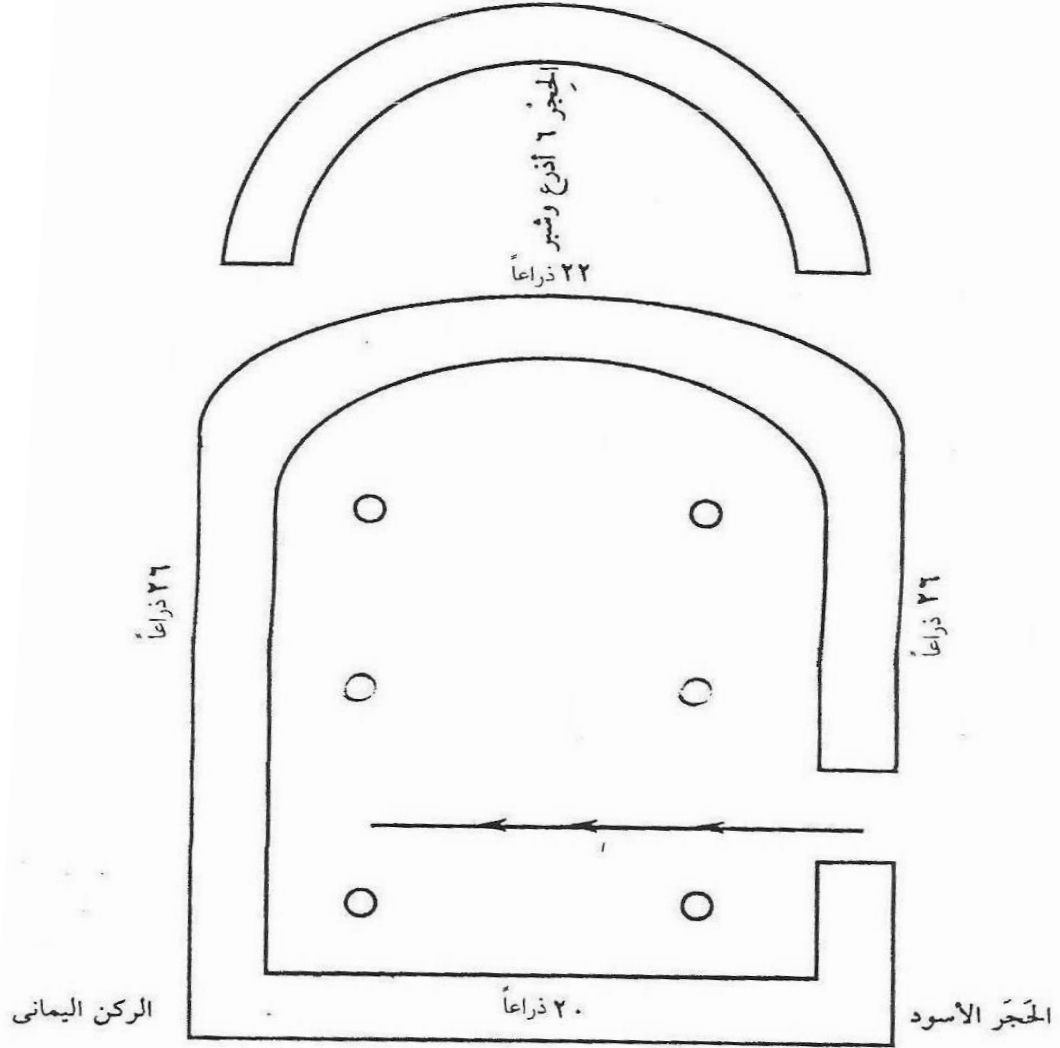
^١ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٨.

❖ الكعبة كما بناها الحجاج بن يوسف الثقفي^١



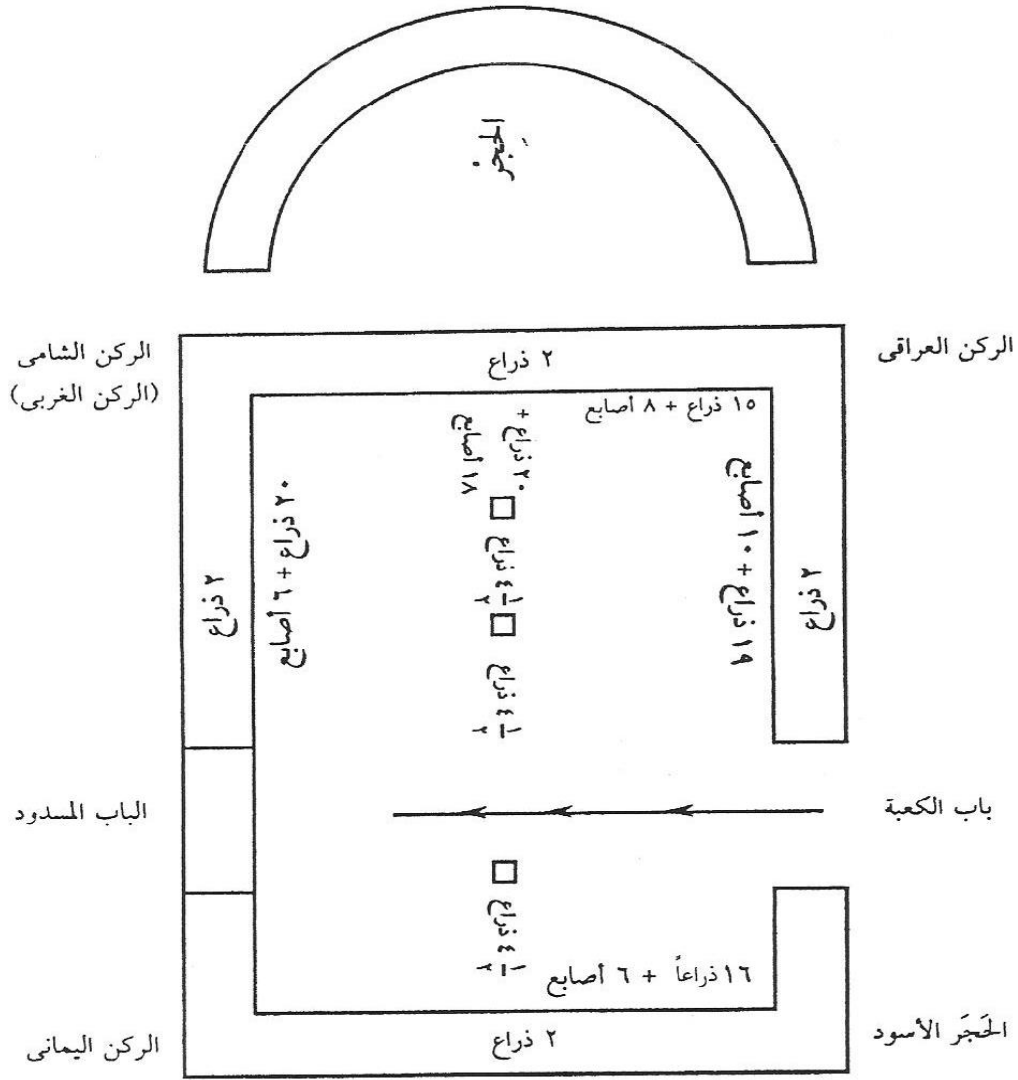
^١ السباعي: تاريخ مكة ص ١٢٩.

❖ مخطط بناء قريش للكعبة المشرفة^١



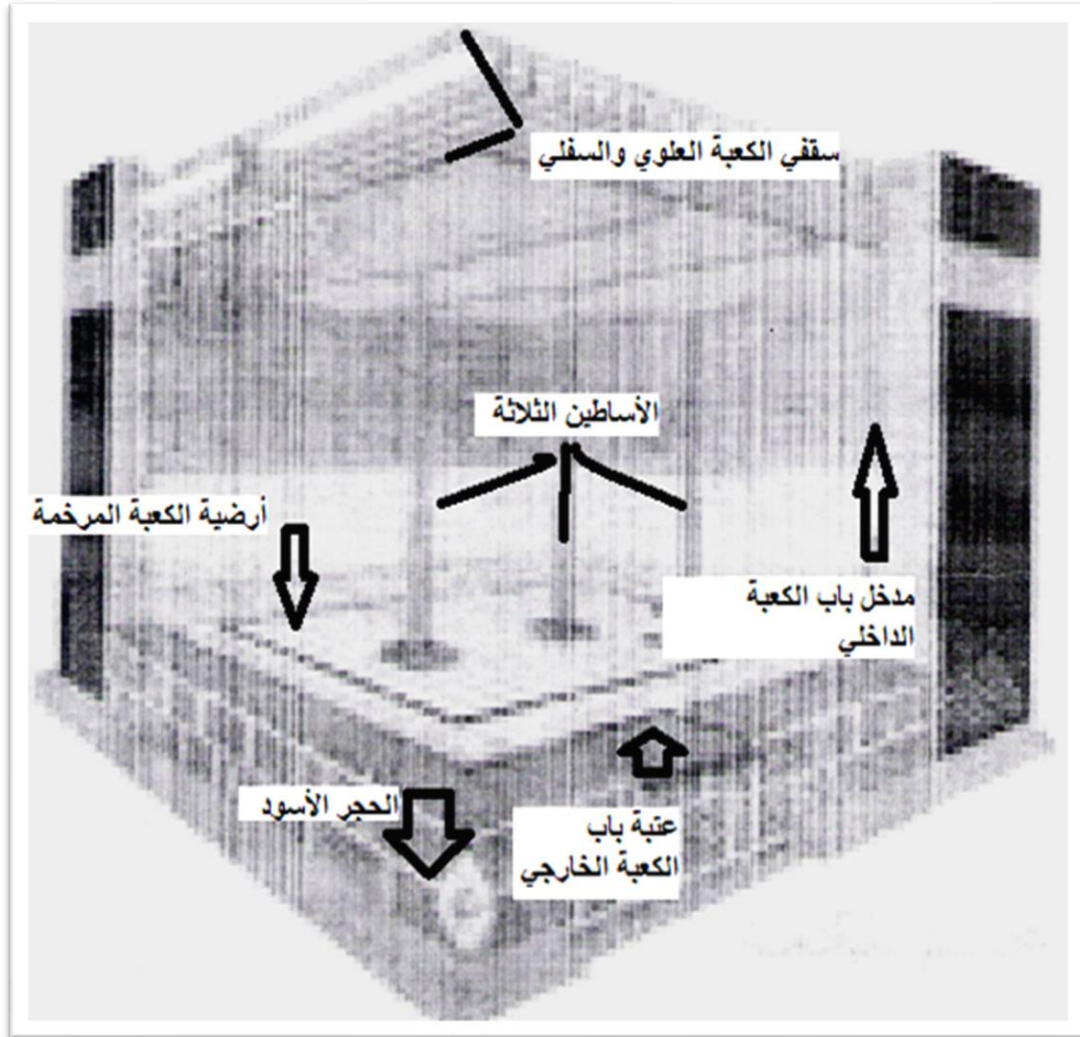
^١عبد الحكيم: (منصور) بلاد الحجاز معقل الإيمان في آخر الزمان والوعد الحق، دمشق، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٦م، ط ١، ص ١١٨.

❖ مخطط بناء الحجاج للكعبة^١



^١ عبد الحكيم: بلاد الحجاز ص ١٢٠.

❖ مقطع عمودي للكعبة يوضح أقسامها



﴿ Abstract ﴾

This study had dealt with the state of Mecca in all of its political, administrative, social, economic, religious, constructional and cultural situations during the time from the beginning of Al-Marwani period in the Umayyad age, and until the falling of the Umayyad Caliphate.

The reason of this study came from the belief that the history is not only studying the political past ,but also studying the economic, social, religious and cultural past, it is briefly the past of everything.

The search had been divided to eight parts. In the beginning it talked about the geography of the state of Mecca and what was around it, as an important entry of the search because it is very necessary to know well the natural environment of any nation in order to understand the history of it in a certain period, since the environment is considered the essential brick in shaping this nation, and it has a strong influence on people's mood, activities, bodies, and it leads their performances.

Then the search talked about the situations of the state of Mecca ,in general, from the time of the Prophet Mohammad (PBUH) and the Rashid Caliphs, to the Umayyad period with its Sufiani period. After that the search entered to the essence of the study which is talking about the administrative situation in the state of Mecca during Al-Marwani period.

And this was divided actually into two essential parts; the first one talked about how the rule moved from Al-

Sufiani period to Al-Marwani one. And the search devoted few pages to define the caliphs of Al-Marwani period, because the search had no alternative to mention them so, it talked about them with a rapid glance in order to benefit the search. While the second part included the most important point which is the talking about the state of Abdu Allah Bin Al-Zubeir in Mecca who stole the rule from the Umayyads for around ten years.

So the search started here by speaking about Ibn Al-Zubeir, then it moved to talk about Ibn Al-Zubeir's attitude from voting to Yazeid Bin Moawya, and what was after that of the first Umayyad siege and the death of Yazeid, and then Ibn Al-Zubeir's announcement himself as a caliph, after he had gotten rid from his competitor, Al-Hussein Bin Ali, after the later had gone to Iraq and was killed there.

But during the siege there were many influential and fatal attitudes and moments in the life of Abdu Allah Bin Al-Zubeir, for example, his attitude towards Al-Khawarij, Al-Mukhtar Bin Ubaid Al-Thaqafi and Mohammad Bin Al-Hanafya. Then the second part finished with talking about the second Umayyad siege which brought the destruction to Ibn Al-Zubeir and to his new state.

The search talked also about the administrative situation in the state of Mecca, so it talked about the ruler of Mecca during the period of each caliph alone, starting with the rulers of Mecca during Ibn Al-Zubeir's time which was considered as a part of the history of Al-Marwani period, because his

state was timed with Al-Marwani period and lasted with it until the falling of his state. It was noticed for the search that the state of Mecca speeding and contracting according to the caliph or the period.

So, once Mecca was followed by Al-Taif and Jeddah, and another Mecca and Al-Taif followed to the power of Al-Medina's ruler, who was content with specifying a delicate of him in Mecca or Al-Taif. Then the speech finished here by talking about the rulers during Mohammad Bin Marwan's period. After that the search moved to a very important issue, which is the bases that the Umayyad Caliphs depended on in selecting the rulers, and it talked about a fragment of the duties of those rules that the search will boost talking about them later in the constructional situation.

After that the search talked about the social situation in the state of Mecca, so it first started with the effective factors in this situation, generally and in Mecca especially.

Then it studies the components of the society in Mecca, and divided it, first the Arabic tribes, second the loyalists, slaves and odalisques, third the Dhimmis and forth people of amusement and singing.

When the search talked about the Arabic tribes, it divided them into tribes that settled in cities and towns, especially in Mecca and Al-Taif, and tribes that lived at deserts and moved among them; their name was migrant bedoine, but there was an integral relationship between the two on all fields, especially, on the economic one. And it was

noticed that Quraish roused in Mecca and Thuqeif in Al-Taif. But the search was brief in talking about them so, it mentioned some information that benefited the search in this situation.

Generally, the Arabic tribes represented the free rank that did not subject to anyone except to their president or their Sheikh. While the loyalists, slaves, odalisques, and what were like them represented the menial rank that were subject and captive to the nobles and the rich who sold and bought them like any goods. But this rank has an essential role which was their corroboration to Ibn Al-Zubeir in his claim against the Umayyads, but he did not appreciate that, and feuded them after their helping him in the first siege and he was very stingy with them, because he thought that he would not need them later. This could be affected in the falling of his state in the second siege.

In addition to this rank the search mentioned the Dhimmis rank which converged in Al-Taif essentially, and the search also mentioned the people of amusement and singing who lived in Mecca and Al-Taif. Then the search talked about the reasons that helped those ranks to spread, especially, in Mecca. Then it finished the speech here by talking about the customs and traditions that were common in Mecca, and the reasons of the migration to Mecca and out of it.

Then the search specified apart to talk about the economic situation into the state of Mecca so, it first started

by speaking about the agriculture in the state of Mecca which was strange in such that place, but Al-Taif was the intended here. Al-Taif continued its success in the economic field in all its types, and it tried to achieve such this success in the commerce, but it failed because of the great commercial power of Mecca so, Al-Taif had no choice except moving from competing Mecca to follow it completely.

In addition to the locality of Mecca and Al-Hajj seasons which helped in the success of Mecca, There were other reasons that helped too, such as the existence of Jidda's port; a marine frontage of Mecca, where the goods were entered from the sea to Mecca, and also the existence of many markets in Mecca such as Souk Okaz, the most important one, Souk Al-Mejena, Souk Ze Al-Majaz and Souk Hubasha which was the last market had disappeared in the Umayyad period.

The search talked, shortly, about the emergence of the Islamic Arabic coinage (Al-Sekka), chronologically, from the period of The Prophet Mohammad (PBUH), and the Rashid Caliphs, until the end of the Umayyad period. The search also discussed an important question which is; did the Islamic coinage that made in Mecca follow to Ibn Al-Zubeir or to the Umayyads?

Then the search mentioned a number of financial resources that Mecca depended on, besides the agriculture, economic and commercial recourses, such as; alms, the booties, the gifts and hiring or selling the houses in Mecca,

but this had caused several questions and attitudes among the juries, and the search had mentioned them briefly.

After that, the search talked about the religious situation in Mecca so, it started with speaking about the religious organization of Umayyads and their efforts in bringing suitable men to imamate the prayer, collecting alms and leading people in Al-Hajj seasons. So the search expatiated in talking about the princes of Al-Hajj seasons in Mecca from the starting of Al-Marwani period until the end of the Umayyad period. In addition the search have mentioned the bases and conditions that the Umayyad Caliphs depended on specification this person or that as a prince of Al-Hajj seasons for a year.

The search was specified to speak about the constructional situation in the state of Mecca, and the efforts of Ibn Al-Zubeir and the Rashid Caliphs in the expansion of The Grand Mosque, and it talked about the matter of destruction Al-Ka'aba and rebuilding it during the period of Ibn Al-Zubeir and what accompanied that of attitudes and sayings. The search mentioned chronologically the efforts in expansion the Grand Mosque from the period of Ibn Al-Zubeir, passing with Abdu Al-Malik Bin Marwan and finally, Al-Walled Bin Abdu Al-Malik.

Then the search specified apart of it to talk about the performances and procedures that the Umayyad made to avoid the washing away floods in Mecca, and their constructional efforts in drawing water for drinking and for

irrigation, and also building dams especially in Al-Taif by Al-Hajjaj Bin Yusuf Al-Thaqafi. And the search pointed to the scientific, educational, instructional, cultural and literal situations in the state of Mecca.

In the scientific and educational fields the search mentioned the school of Mecca that graduated many juries, and the search mentioned a study about number of them in Mecca, who had an influence on the scientific situation and who enriched it, such as; Ibn Abbas, Ata'a Bin Rabah, and many others. In addition, there were Al-Hajj seasons that influenced on advancing this situation through exposure to the juries who had come to Al-Hajj from different countries. And the search talked about the influence of the mention councils, the preaching councils, and also the story tellers councils in advancing the scientific and educational situations in Mecca at this period.

Then the search had talked about the political poetry and its poets from the two conflicting parties; the poets of the political Umayyad party and the poets of the political Al-Zubeiry party that disappeared quickly after the killing of Ibn Al-Zubeir and the falling of his state, so, its poets had no means but to apologize and return to the Umayyad cuddle. And there was a stop with the amorous poetry and its poets in Mecca during this period.

Finally there was a suitable conclusion which contained the most important consequences that the search had reached to them, in general.

Damascus University

College of Arts and Humanities

Department of History



The State of Mecca During Al-Marwani Period

﴿ 64-132 A. H.\ 684-749 A. D. ﴾

A thesis for Ph.D. in Islamic History

Supervision:

Dr. SHukran KHarbotli

Preparation:

Bilal Hussein Alhaj Ali

Damascus

1435 A.H. –2014 A.D.